سلسلة تاريخ الرومان

١



-تاريخ ايطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى

محمد محفل

مكتبة الخير

تاريخ الرومان

تاريخ ايطالية وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى

الطبعة الاولى

محمد محفل
مدرس تاريخ اليونان والرومان
(كلية الآداب - دمشق)

١٩٧٤

مكتبة الخير

المقـــدمة

يحار المرء في أمره عندما يلقي نظرة خاطفة على مصوّر ايطالية القديمة وعلى مواقع القوى المتصارعة في الحوض الغربي للمتوسط في القرنين السادس والخامس (ق٠م٠) ٠٠٠ فكيف تمكنت مدينة متواضعة لم يرد ذكرها في مؤلفات أشهر كاتبين في عصرهما ، اشتهرا باهتمامهما بالأمور السياسية ، ونعني بهما أفلاطون وأرسطو ؟!٠٠٠٠ نعم كيف تمكنت مدينة — لم يرد اسمها بعد أربعة قرون من « تأسيسها الأسطوري » — من مدّ سيطرتها على شبه الجزيرة الايطالية بعد أن كانت خاضعة لسيطرة الاتروسكيين في الشمال والوسط ولنفوذ الاغريقيين والقرطاجيين — الذين كانت لهم الغلبة — في الجنوب والجزر وباقي مناطق الحوض الغربي للمتوسط !٠٠ نعم كيف تمكنت تلك المدينة من ارغام الاتروسكيين على الجلاء عن اللاتيوم بعد طردهم من ربوعها ثم ملاحقتهم في عقر دارهم باخضاعها المدن الاتروسكية الحصينة وسيطرتها عليها الواحدة تلو الأخرى ٠

تعني كلمة *urbs* في اللاتينية مدينة ٠٠٠ أية مدينة ، ولكن فيما بعد لن تعني *Urbs* بمفردها سوى « المدينة » ، سيدة المدن ، لن تعني سوى ٠٠ روما ٠٠٠

وسيجلجل اسم روما في مختلف أرجاء البحر الابيض المتوسط كالصاعقة بعد دحرها الجيوش الجرّارة وبعد انتصاراتها المتتالية على الفيالق المقدونية والقرطاجية والسلوقية وغيرها ٠ وعندما سيُذكر البحر الابيض المتوسط فيما بعد ، سيذكره الرومان باسم *Mare Nostrum* أي « بحرنا » وسيرد ذكره لدى المؤرخين العرب باسم « بحر الروم » ٠

وفي الواقع لن ينقضي قرن واحد على تدمير مدينة قرطاجة (١٤٦ ق٠م٠)، ألدّ أعداء روما وأشدها خطراً عليها ، إلا وتكون مختلف المناطق المطلّة على البحر الابيض المتوسط قد خضعت للسيطرة الرومانية ٠

يقول الفيلسوف J. J. Rousseau : « ظلّت روما خلال خمسمائة سنة معجزة مستمرة ، لن يحلم العالم بتكرارها ثانية بعد الآن • » • عندما أطلق « روسّو » شعاره هذا ، لم تكن التنقيبات الأثرية قد أعادت الى الوجود مخلّفات حضارات ايطالية القديمة كحضارات « التيرامارنا » و « الڤيلانوڤا »، كما انه لم تكن واضحة للعيان منجزات « الحضارة الاتروسكية » ودورها الكبير والحاسم في تمدين وعمران ايطالية الشمالية والوسطى وروما على رأسها •

وفي جنوب شبه الجزيرة الايطالية ، وفي تلك المنطقة التي ستعرف فيما بعد باسم « اليونان الكبرى » *Magna Graecia* أو كما يقول اليونانيون عنها *Graecia exotica* « اليونان البعيدة » ، في ذلك الجزء من ايطالية سيؤسس الاغريقيون عشرات المدن اعتباراً من القرن الثامن (ق•م•) ومن تلك المراكز ايضاً ستنتقل الحضارة الى اللاتيوم وروما وباقي بقاع ايطالية •

وسيظهر الى جانب هؤلاء جميعاً القرطاجيون ـ ألد أعداء روما ـ في الجزر الايطالية وفي البر الايطالي فيما بعد مع هانيبعل ، على رأس جيشه الذي هدّد روما في عقر دارها ••• ولقد لعب القرطاجيون أيضاً دورهم في تمدين ايطالية ، وخاصة في نطاق الزراعة •

إن جميع هؤلاء قد لعبوا دوراً سياسياً هاماً على مسرح شبه الجزيرة الايطالية وساهموا مساهمة نشيطة في شتى المجالات الحضارية ، قبل أن تدحرهم « سيدة اللاتيوم » وتوحّد ايطالية تحت زعامتها ولصالحها بعد أن كاد الأمر يسير على قدم النجاح مع الاتروسكيين ••• نعم ! جميع هؤلاء قد أسهموا بنصيبهم في تكوين « معجزة روما » •

ان الانتصارات الساحقة الصاعقة للفيالق الرومانية ثم أبّهة الأباطرة وزهو روما الامبراطورية ، إن كل ذلك قد أذهل بعض الأقدمين والمحدثين وأبهرهم ، فتباشروا « بالمعجزة » و « برسالة الشعب السيد » للعالم والأمم •

لقد أذهلتهم هذه المدينة التي بدأت من لا شيء وانتهت الى كل شيء••• لقد أدهشتهم روما التي شيدها « رومولوس » فوق تل واحد ولكن سرعان ما ضاقت بأطرافها سبعة تلال كاملة ••• فانتشرت ونشرت سلطانها على أرجاء عديدة من أوروبة وآسية وافريقية ••• وها هو Vergilius شاعر الامبراطور أوغسطوس وأمير شعراء عصره ينادي بملء فيه : « ••• أما

أنت يا روما ! فليكن عملك حكم الشعوب وليكن فنك أن تنشري السلام وتبقي على المغلوب وتقهري بالسيف كل معاند مغرور » ٠

لقد تلفظ Vergilius بهذه الكلمات المصيرية بخيلاء وتشامخ بعد أن كانت معركة *Actium* (٣١ ق٠م) قد قررت مصير الامبراطورية الرومانية وحسمت الموقف لصالح « أوكتاويوس » ضد أنطونيوس وكليوباترة ٠

انتحر انطونيـوس ولحقت بـه كليوباتـرة وأمر أوكتاويوس بقتل « بطليموس السادس عشر » ابن كليوباترة من يوليوس قيصر ؛ وبموتـه انتهى حكم السلالة اللاجية ـ البطلمية وأصبحت مصـر (٣٠ ق٠م) بعـد سورية (٦٤ ق٠م) ولاية من ولايات الامبراطورية العالمية،وفي عام (٢٧ق٠م) أغدق مجلس الشيوخ على المنتصر لقب *Augustus* أي « الجليل ، المعظم » لقب سيحمله الأباطرة فيما بعد ، ولكن « أوكتاويوس » سيشتهر به اكثر من غيره لأنه أول من حمل هـذا اللقب الذي ستضاف اليـه صفـة الالهي ليصبح اسمه *Divus Augustus* ٠

وكان « أوغسطوس » أول امبراطور يتبوأ عرش تلك الامبراطوريـة التي تكونت من النواة التي « أسسها رومولوس » عـلى تل Palatium فنمت بالحروب الكثيرة والفتوحات العديدة ٠٠ امبراطورية تاريخها مملوء بصيحات الحرب وطعنات الرماح ووطيس القتال وصرامـة العراك وقسوة الجنود وبشاعتهم أحياناً ٠٠٠ كل ذلك مقروناً تارة بروعة المواقف وشجاعة القلوب وطوراً بجسارة الأرواح وايمانها وصبرها في سبيل الهدف وتحقيق الغاية ٠٠

قتل « يوليوس قيصر » في مجلس الشيوخ وماتت الجمهورية بعـد أن ظلت مدينة روما ـ خلال قرن كامل ـ مسرحاً لأعنف المنازعات الدموية بين مختلف الكتل والأحـزاب ٠٠٠ افتتح الصـراع الأخوان « غراكوس » بمحاولتهما الاصلاحية التي أفضت الى مصرعهما ٠٠٠ ثم لمع اسم Marius بعد اخضاعه القـائد الافريقي Jugurtha وقضائه ولو الى حين على الخطر الجرماني ٠٠ وتألق نجم Sulla بعد افتتاحه ثانية بلاد اليونان وابعـاده شبح الملك الآسيوي « ميثريداتس » ، قبل ان يلطخ يديه بدماء معارضيه من فئة الفرسان ٠ نعم ! ماتت الجمهورية الرومانية رغم وقوف فاتح سورية القائـد « پومپيوس » الى جانب مجلس الشـيوخ ضد يوليوس قيصر ٠٠٠ وانتهى الصراع من جديد بمقتل الأول في مصر واغتيال الثاني داخل مجلس الشيوخ في روما ٠

ماتت الجمهورية ••• وابتدأ حكم تلك الامبراطورية التي يقول عنها Bossuet : « ••• بانها ابتعلت في ثناياها كل ما تقدمها من امبراطوريات وعنها انبعثت الممالك التي نشاهدها اليوم ••• » وبدأ تاريخ روما كما يقول أيضاً المؤرخ الفرنسي Michelet « يقترن بتاريخ العالم » •

هكذا بدأ « عهد الامبراطورية الأولى » الذي شاهد حكم ثلاث سلالات طوال القرنين الأول والثاني•وأطلق البعض على تلك الفترة اسم•••«السلام الروماني » ••• قد نسلّم بهذه التسمية إذا أخذنا بعين الاعتبار الاستقرار النسبي داخل العالم الروماني والسكون المتوقف على حدود الامبراطورية • ولكن « السلام الروماني » الذي تغنّى به البعض لم يكن « برداً وسلاماً » لمختلف مقاطعات الامبراطورية ولجميع طبقات المجتمع ، انه السلام الذي أمّنه « النظام الجديد » للطبقة الارستقراطية الرومانية، من شيوخ وفرسان، في سبيل استثمار الشعوب المغلوبة على أمرها ؛ انه السلام الذي جعل من الموسرين الرومانيين اكثر ثراء ولكنه افضى غالبا بالطبقات الشعبية في ايطاليه والمقاطعات الى البؤس والشقاء •

نقول في ايطالية والمقاطعات ، لان الوضع في روما – كما سنرى – كان مختلفا • نحن لانزعم بانه لم توجد في روما بعض الفئـات الكادحـة التـي اكتسبت قوتها بعرق الجبين : ولكن يجب أن لا يفوتنا ما كانت عليه فئات واسعة من الطبقتين الوسطى والكادحة من بطالة وطفيلية•وهكذا وكما يقول مؤلفا « روما وامبراطوريتها » : « فان المواطن الطفيلي ، سواء دان بغذائه للاغنيـاء الذين يجمعون أو يستعيدون ثرواتهم عـلى حساب الولايات ، أم للخزانة العامة التي تموّلها الغنائم والغرامات ، يعيش عيّل العالم الذي فتحته روما أو لاتزال مستمرة في فتحه : ان المجتمع الروماني تحوّل الى نقابة نهّـابين »(١) •

Panem et Circenses أي « الخبز والملاهي » كلمتان أوجز بهما الشاعر الهجاء Juvenalis (٦٥ – ١٢٨ ميلادي) الوضع الذي هيمن على عاصمة الامبراطورية واستبدّ بها •

تنازل « الشعب السيد » في روما للنظام الامبراطوري الجديـد عن جميع سلطاته الفعلية وتخلّى عنها ••• طوعاً واختياراً ••• مقابل ما يقدمه له الامبراطور وحاشيته من هبات مالية وخبز وما يقيمونه من أعياد صاخبة

---

(١) روما وامبراطوريتها ، تاليف اندريه ايمار وجانين ابوايه ، نقله الى العربية ، يوسف أسعد داغر وفريد م• داغر ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٩٢ •

تتخللها حفلات المصارعة الدموية وسباق المركبات في حلبات المصـــارعة والطراد ٠٠٠ كل ذلك عـلى حساب شعوب المقاطعات التي تسلّط عليها الفاتحون ٠

السلام الروماني ٠٠٠ لمن ؟! أللشعوب المغلوبـة على أمرها أم للطبقة الارستقراطية الرومانية وممثليها في المقاطعات ؟ لقد فضح كيكرو ـ عن غير قصد ـ تجاوزات ومفاسد الحكام الرومانيين في الأقاليم عندما هاجم عدوه في السياسة Verres ، حاكم صقلية ٠ نقول بان الخطيب المفوّه قـد فضح حاكم صقلية ـ عرضاً ودون تعمدّ ـ لأننا كما نراه وبعد سنة واحدة فقط من هجومه على حاكم صقلية ، ينبري للدفاع عن صديقه Fonteius حاكم بلاد الغال ، المتهم أيضاً بسلب ونهب الرعايا الغاليين ، الخاضعين لسلطانه ٠

لم يكن Fonteius , Verres إلا « نموذجين » لما كان سائداً في الأوساط الحاكمة الرومانيـــة ، بعـد الفتوحات الكبرى ، وفي الفترة الامبراطورية وخاصة في القرن الأول (ق٠م) ٠

حسب المرء ان يطالع مؤلفات بعض الكتاب اللاتينيين في القرنين الأول (ق٠م) والأول (ميلادي) ليكوّن فكرة عن « السلام الروماني » ويقرّ بأن نهب الأقاليم المفتتحة لم ينحصر في الفترة الجمهورية بل استمر مع استتباب النظام الامبراطوري ٠

نحن لا نحاول التشهير بروما وبسلطانها على شعوب البحر الأبيض المتوسط؛ كما اننا لانزعم بأن «كل شيء» في الامبراطورية كان سلبياً وسيئاً٠

نحن بعداء كل البعد عن التعصب ـ بمختلف أشكاله والوانه ـ في التاريخ ؛ ولسنا « مولعون » ـ لا بقليل ولا بكثير ـ بالنظريات العرقيـة والعنصرية وبتفسيراتها ٠

هذا هو موقفنا وتلك هي نحلتنا ولذلك نرانا مكرهين احياناً على رفض آراء بعض المؤرخين الغربيين أمثال G. Ferrero, Altheim, J. Carcopino J. Bouché - Leclercq, Scullard وغـيرهـم ، أولئـــك الـذين بذلـوا مـا في وسعهم للدفـاع عن السياســة التوسعية لرومـا ، كما ان بعضهم لم يأل جهداً في التستر على مفاسد النظام الامبراطوري وتبرير جور وطغيـان بعض الحكام في الولايات وتبرئة الشعب السيد الذي « أعدته العناية الالهية» لانقاذ العالم من الفوضى ، هذا الشعب الذي قضى (١٢٠) يوماً على التوالي من عـام (١٠٩ ميـلادي) على مقـاعـد مـدرج رومـا الكبير *Colosseum*

وهو يشاهد (١٨٠٠٠) مصارع يقتلون في حفلات المصارعة الدموية التي رعاها الامبراطور تريانوس بعد عودته المظفرة من داكية (رومانية اليوم) ٠

لا ! نحن لاندّعي بأن تاريخ روما كان مثالب بكليته ٠٠٠ ولقد لعب النظام الروماني دوره أيضاً في رحاب الحضارة الانسانية ٠ وساهم شرقنا العربي مساهمة ملموسة في مختلف مجالاته ٠

لا ! لا يحزّ في صدورنا تدمير قرطاجة وتدمر ولا ذكرى زاما وزنوبية٠٠ عندما نعلم بان بعض ابناء امتنا كسبتيموس سـويروس الليبي والاكابال الحمصي وفيليب العربي الحوراني قد احتلوا عرش القياصرة في روما ٠

لقد خصصنا الجزء الاول من تاريخنا لايطالية القديمـة وروما حتى الفتوحات الكبرى ، كما أسهبنا في بحثنا عن الاتروسكيين خلافاً لما جرت عليه العادة ولما هو متبع لدى البعض ٠٠٠ إذ نعتقـد بانه لا يمكن فهـم الفتـرة الجمهورية بدون دراسة شاملة للحضارة الاتروسكية ٠

أما بالنسبة لأسماء المدن والاعلام اليونانية واللاتينية فلقد وردت لدينا كما كانت تلفظ في القديم لديهم ٠

يتضمن كتابنا هذا سلسلة من المحاضرات ألقيت في كلية الآداب ، خلال عدة سنوات ، على طلاب التاريخ والآثار ٠

للبحث أهميته ٠ ولا ندري مقـدار توفيقنا في معالجة بعض نقاطـه وخاصة ما يمت بعلاقة لتاريخنا القومي٠٠٠ العلم اجتهاد وليس بعقيدة٠٠٠ وهذا ما حققناه واكتسبناه من دراستنا حتى الآن ٠

نأمل ان يلقى بحثنا القبول،راجين ان نتممه في أجزاء اخرى في السنوات القادمة ٠ ولكل انسان ما سعى اليه ٠

دمشق كانون الأول ١٩٧١

المؤلف

المدخـــل

مصادر التاريخ الروماني وكتابته

المدخل

مصادر التاريخ الروماني وكتابته

١) ـ مصادر التاريخ القديم لايطالية وروما حتى القرن الثالث (ق٠م):

تعترضنا أثناء دراستنا للتنظيم الاجتماعي والسياسي لايطالية وروما في الفترات البدائية صعوبات جمة ، ناجمة عن النقص الفادح في المصادر ٠ فمما يجب ملاحظته منذ البدء ، انه لم يدركنا من عهد الايطاليين القدماء ، أي أثر مماثل لملاحم هوميروس الرائعة ، الحافلة بمختلف الصور والتقاليد والعادات الشعبية ، التي ساعدتنا على فهم المجتمع اليوناني البدائي ، ولو بشكل جزئي ٠

فلقد فقدت الحوليات الرومانية القديمة ، التي أثبت وجودها السالف، العالم الالماني (نيبور ١٧٧٦/١٨٣١ Niebuhr, B. G.)اننا نعلم فقط ان الرومان باشروا بتسجيلها اعتبارا من القرن الخامس (ق٠م) على شكل لوائح تسرد الاحداث التي تقع في الايام التي يعقد فيها الحكام والجمعيات المختلفة مجالسها ، كما تسجل عليها قرارات مجلس الشيوخ ٠ وكان يطلق على كل لائحة اسم القنصل المنتخب سنويا ٠ وكان يشرف على تنظيم تلك اللوائح الكاهن الأعظم (Pontiefex Maximus) ٠

وفي سنة (٣٢٠ ق٠م) ، عهد مجلس الشيوخ الى الكـاهن الأعظم

بتنظيم اللوائح الرسميـــة التي كانت تعرض في البيت الملكي (Basilica) حيث كان بامكان أي شخص أن يطالع محتوياتها • ومنذ ذلك التاريخ ظهرت سنويا لوائح الكهان (Album) التي كانت تحفظ بعد الفراغ من كتابتها ، في خزانة المحفوظات •

وحـوالي سنـة (١٣٠ ق•م) نشـــر الكاهن الاعظم ، سكايفولا P. Mucius Scaevola تلك اللوائح المحفوظة،في مجموعة مؤلفة من ثمانين كتابا أطلق عليها اسم«الحوليات الكبرى»ولقد أصبحت الحوليات المذكورة أعلاه، والتي لم يصلنا منها أي شيء بشكل مباشر ، أصبحت تشكل مع الاساطير والتقاليد والعادات المصادر الاساسية للمؤرخين الرومانيين الاوائل•ولكن مع كل أسف ، فقدت ايضا مؤلفات اولئك المؤرخين الاقدمين ، ولنذكر أشهرهم ، عضو مجلس الشيوخ فابيوس بكتور Fabius Pictor (٢٥٤ ؟ ـ ٢٠٠ ؟) ولقد كتب باليونانية أول تاريخ روماني بشكل مسلسل ولقد عـاصر هـذا المؤرخ الحرب البونية الثانية • أما المراقب كاتـو Cato (٢٣٤/١٤٩ ق•م) فهو الذي كتب للمرة الاولى باللغة اللاتينية مؤلفا تاريخيا أطلق عليه اسم « الاصول » • ولم يصلنا من ذلك المؤلف الا أجزاء بسيطة • عالج الكاتب في مؤلفه ، العصور التاريخية الاولى لشعوب ومدن ايطالية واعتمد في بحثه على الروايات والوثائق المحلية وكذلك على النقوش القديمة واستفاد كاتو من مؤلفات المؤرخين اليونانيين عن ايطـالية ، تلك المؤلفات التي لم تصلنـا ايضـا •

ولم يصلنا من مؤلفات مؤرخي القرنين الثاني والاول (ق•م) سوى نبـذ تتعلق بالفترات القديمـة ولقد ضاعت أيضا مجموعـة وارّو Varro (١١٦ ـ ٢٧ ق•م) المؤلفة من أربعين جزءا • ولقد اشتهر هذا الكاتب بمعلوماته وبمعارفه الموسوعية وكذلك بأمانته في النقل •

ومن حسن الحظ ، انعكست أصداء بعض المؤلفات الضائعة في كتابات

مؤرخين عاشوا في عصر أوغسطوس • وعلينا أن نعترف بأن هؤلاء المؤلفين لم يعادلوا متقدميهم اذ انهم غالبا ما اكتفوا بسرد الحوادث دون أدنى نقد أو تمحيص ومن أشهرهم: ديودوروس الصقلي،وديونسيوس الهاليكارناسي وهما يونانيون عاشا في روما • ثم المؤرخ اللاتيني تيطس ليفيوس (٥٩ ق•م/١٩ ميلادي) •

عاصر (ديودوروس الصقلي) يوليوس قيصر وأوغسطوس • ولقد كتب باليونانية تاريخاً شاملا أطلق عليه اسم « المكتبة التاريخية » ، ولقد ضاعت بعض أجزاء المؤلف • تعرّض ديودوروس في كتاباته الى مصر وما بين النهرين والهند واليونان ومن ثم انتقل الى تاريخ روما منذ أقدم العصور• ونتأكد من الدراسات النقدية التاريخية واللغوية المقارنة بأن المؤلف قد اكتفى أحيانا بسرد مقاطع كاملة من مؤلفات من سبقه من المؤخين • فمثلا بالنسبة لتأريخ الفترات البدائية لروما ، اعتمد ديودوروس بدون شك ، على مختارات من كتابات المؤرخ المذكور أعلاه (فابيوس بيكتور) •

أما بالنسبة لديونسيوس الهاليكارناسي[1] (؟ ـ مات سنة ٨ ق•م) فلقد جاء الى روما سنة (٢٩ ق•م) واستقر فيها ، حيث كتب باليونانية مؤلفا عن تاريخ روما منذ نشأتها وحتى منتصف القرن الثالث (ق•م) ولقد وصلنا القسم الاعظم من مؤلفه • اشتهر هذا الكاتب باسلوبه الخطابي • ومما يجدر ذكره انه كان استاذا لعلم البيان • اعتمد ديونيسيوس في كتاباته على كثير من سبقه من المؤرخين ، نذكر من أشهرهم فابيوس بيكتور ووارّو ، المذكورين أعلاه •

وأخيرا نأتي الى المؤرخ اللاتيني الشهير تيطس ليويوس Titus Livius (٥٩ ق•م ـ ١٧ م) • كتب تيطس تاريخا عن روما منذ تأسيسها وحتى

---

(١) هاليكارناس : مدينة تقع في آسية الصغرى في منطقة قارية القديمة على بحر ايجه واسمها التركي الحالي هو (بودروم) •وكانت موطن المؤرخين اليونانيين هرودوتوس وديونيسيوس المذكور •

السنوات الاخيرة لعهد أوغسطوس • ويمكن اعتبار هذا المؤلف من أفضل الوثائق لدراسة التاريخ الروماني في الفترة الجمهورية • ورغم ان المؤلف لم يصلنا بنصه الاصلي أحيانا ، اذ جاء مختصرا في بعض أجزائه ، فيجب أن نعترف بأن تيطس ليويوس كزميله ديونسيوس ليس مؤرخا بالمعنى الكامل • فكثيرا ما يبتعد عن نهج المؤرخ الرصين ، اذ نراه يزخرف غالبا كتاباته بخطب وعظات على لسان شخصيات تاريخية وفي أغلب الاحيان ، تكون هذه الاقوال مختلقة ولا أساس لها من الصحة •ولقد نعذره عندما ندرك مقصده ؛ لقد هاله ما شاهده من احداث : لقد أمضى صباه في روما وهي مسرح لاحداث دموية بين مختلف الاحزاب ، ولم يكن قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، عندما اغتيل يوليوس قيصر • وكما قال في المدخل الى تاريخه : « ••••• ان مهمتي هي ان أخلد في أذهان البشر ، أمجاد أفضل شعب على أرضنا هذه •••• ولذلك أحاول أن أتتبع الخطوات الخفية لانحطاط الاخلاق ••• مما أدى بنا الى هذه الازمات ، حيث أصبح الدواء أقل احتمالا من الداء ذاته •••• »[1] • ولذلك يجب أن نكون حذرين عند قراءتنا لهذا الكتاب • ولقد اكتفى غالبا بتدوين ما سمعه أو ما عثر عليه في مؤلفات متقدمية دون تمحيص أو نقد • ولقد اعتمد خاصة على مؤلفات سالفيه من مؤرخي الحوليات كوالريوس انتياس Valerius Antias وماكر L. Macer وتوبرو Tubero •

هذا هو أمرنا ، فيما يخص النصوص المكتوبة التي هي بحوزة العلم الحديث لدراسة الفترة التاريخية القديمة لايطالية وروما • ولذلك اعتقد بعض العلماء • بعد نقد متطرف لتلك المصادر ، بأنه من غير الممكن ان نكتب تاريخا اكيدا لروما الا اعتبارا من القرن الثالث (ق•م) • ولكن من حسن

(١) تاريخ روما ، المدخل ٣ ـ ٩

الحظ،ان الاكتشافات التي تمّت منذ خمسين سنة تقريبا في ميادين مختلفة من العلوم المساعدة للتاريخ كعلم الآثار Arche'ologie وعلم اللغات Linguistique وعلم التاريخ المقارن ، وعلم اصل الشعوب Ethnologie ان كل تلك الاكتشافات قد أعطتنا أسسا معقولة وفتحت لنا آفاقا جديدة لدراسة رصينة لاقدم فترة تاريخية لروما وايطالية .

٢) ـ مصادر تاريخ الجمهورية الرومانية منذ القرن الثالث (ق٠م) وحتى القرن الاول (ق٠م) ومصادر تاريخ الامبراطورية :

تتوفر لمؤرخ تلك الفترات ، ظروف أكثر ملائمة بالنسبة لما رأيناه سابقا ٠ فالمصادر العديدة عن الجمهورية بمراحلها المختلفة وعن نشوء الامبراطورية وازدهارها ، هي أفضل بكثير مما تقدم ٠ فاعتبارا من القرن الثالث (ق٠م) ، بدأت تتوطد صلات وثيقة بين روما وبلاد اليونان ٠ ولقد سبق المؤرخون اليونانيون زملاءهم الرومانيين أشواطا بعيدة بكتاباتهم التاريخية ٠ ويمكننا القول ، ان كتابة التاريخ لدى الكتّاب اللاتينيين قد تطورت وتقدمت بتأثير من المدرسة اليونانية ٠ ولقد أدركتنا مؤلفات عديدة تعود الى تلك الفترة ٠ اضافة الى ذلك ، تزداد يوما بعد يوم ، المكتشفات الاثرية ، العائدة لتلك الفترات وذلك في مختلف المجالات : أبنية ، قبور ، أدوات منزلية ، ٠٠٠ الخ ٠

أخذ اليونانيون يهتمون جديا بروما منذ بدء الحروب معها ، تلك الحروب التي جعلت من بلاد اليونان مناطق خاضعة كليا لروما ٠ ولنذكر على سبيل المثال المؤرخ اليوناني بولوبيوس Polubios (٢٠٥ ـ ١٢٥ ق٠م) جاء الى روما واستقرّ فيها بعد ان لعب دورا سياسيا هاما في « العصبة الآخية » وذلك بعد قضاء روما على تلك العصبة ٠ وفي روما حيث عاش كرهينة ، كتب مؤلفه « التاريخ العام » المكون من أربعين جزءاً ٠ ولقد كان الهدف الاساسي من مؤلفه ، حسب تعبيره : « هو توضيح السلوك الحاذق واستقصاء الوسائل التي مكّنت روما من أن تخضع لنيرها العديد من البلدان»

ولقد اعتمد بولوبيوس في كتاباته على مصادر يونانية ورومانية مهمة • ولقد اختار خاصة من المؤرخين وكمرشد له ، الكاتب اليوناني ثوكوديدس واللاتيني فابيوس بكتور • ولقد استلهم اثناء سرده للحوادث ، مواطنه ، المؤرخ ثوكوديدس بحذره وبفكره النقدي •

صور بولوبيوس لوحات تاريخية شبه كاملة لمختلف مناطق البحر الابيض المتوسط خلال الفترة الممتدة بين ٢٦٤ الى ١٤٦ (ق • م) وأبرز خاصة في لوحاته فتوحات روما في القرنين الثالث والثاني (ق • م) • ولقد وصف اثناء سرده للاحداث ، التنظيم السياسي لروما كما تكلم عن جيشها وأورد عددا من الوثائق الدولية ذات الاهمية الفائقة : (كالمعاهدة الاولى المعقودة بين روما وقرطاجة) • رغم ان هذا المؤرخ بحكمه على الاحداث ، كان متأثرا بشكل عام برأى النبلاء الرومانيين الذين خالطهم ، اذ عاش في ظل سيبيون الافريقي ، يمكننا ان نعتبر مؤلفه ، عظيم الاهمية • ومن المؤسف حقاً ، ان لايدركنا من مؤلفه بنصه الاصلي ، الا الاجزاء الخمسة الاولى أما الباقي فلم يصلنا منه سوى نبذ متفرقة •

وتحت تأثير الطرق والتقاليد اليونانية لكتابة التاريخ ، تطوّر تدوين المؤلفات التاريخية اللاتينية ، فاتخذت الكتابات صفة أقرب الى الموضوعية • وأول مؤرخ لاتيني تعمّد تقليد ثوكوديدس وبولوبيوس هو سالوستيوس C. Sallustius (٨٦ - ٣٥ ق•م) • كان من الانصار الحميمين ليوليوس قيصر • عيّن حاكمة لمنطقة نوميدية[1] ، حيث كدس نتيجة لاختلاساته الحكومية ثروة طائلة • وعاش حياة صخب قبل ان ينزوي ويعتزل الحياة العامة بعد مقتل يوليوس قيصر • ولقد اتخذ هدفا من كتاباته ، حسب أقواله ذاتها : « وصف أعمال الشعب الروماني ، حيث تبدو جديرة بالتخليد » •

---

(١) نوميدية ***Numidia*** اسم قديم أطلق في الماضي على المنطقة الواقعة بين دولة قرطاجة وموريتانية • وتقابل اليوم تقريبا الجزائر • ولقد احتلت روما قسما من المناطق الساحلية ولكنها في الواقع كانت تتدخل في جميع الشؤون وفي مختلف اجزاء البلاد كما سنرى ذلك فيما بعد •

لقد بدأ برواية أشهر احداث عصره ، « كمؤامرة كاتلينا » « والحرب ضد يوكورتا » ولقد وصف بايجاز في هذين المؤلفين الذين كتبهما بين (٤٣ ق٠م - ٤١ ق٠م) ، انحلال الطبقة الارستقراطية الحاكمة • أما في مؤلفه «التاريخ» المكوّن من خمسة أجزاء ، فلقد تكلم خاصة عن أشهر فترة للحركة الديمقراطية ، ونعني بذلك السنوات التي اعقبت موت سولا Sulla اعتبارا من (٧٨ ق٠م) • ولكن من سوء الحظ ، لم تصلنا من مؤلفه هذا سوى نبذ معدودة • والصفة المميزة لهذا المؤرخ ، هي أبراز العوامل النفسية واعطاؤها الدور الاساسي في تفسير الاحداث •

وراح الكتاب الرومانيون يقلّدون متقدميهم اليونانيين بتدوين سير مشاهير رجال عصرهم كما ان البعض الآخر ترك لنا سيرا شخصية من خلال مؤلفاتهم او من خلال المراسلات المتبادلة مع اصدقائهم • وكان لتلك المراسلات غالبا علاقة بالاوضاع العامة ، وهنا تكمن أهميتها • ومن أشهر ما كتب في هذا المضمار مراسلات كيكرو[1] مع أصدقائه اتيكوس وبروتوس وكذلك مع معارفه كالزعيمين بومبيوس Pompeius ويوليوس قيصر Julius Caesar • وتعتبر مراسلات كيكرو من أهم المصادر التي بحوزتنا لدراسة احداث الفترة الواقعة بين سنة (٦٠ ق٠م وسنة ٤٠ ق٠م) • ونستفيد كذلك من خطبه لدراسة تلك السنوات • ومما يجدر ذكره أن كيكرو لم يكن كاتبا وخطيبا فحسب بل اشترك كما سنرى في الحياة السياسية ، ولعب دورا مهما في الصراع بين بومبيوس ويوليوس قيصر ، مما ادى به في النهاية الى مصرعه •

ويجب ان لاننسى في هذا المضمار ، تعليقات يوليوس قيصر في مؤلفيه « حرب بلاد الغال » DE BELLO GALLICO والحرب الاهلية DE BELLO CIVILI وسنرى فيما بعد ، بأن قيصر قاد حملة للسيطرة على بلاد الغال • ومن خلال قراءتنا لمؤلفه الاول نحصل على معلومات هامة بالنسبة للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لشعوب غالية في تلك الفترة ، كما اننا نقرأ بين السطور ما كان يحاك من مؤامرات في روما ضد

---

(١) كيكرو : تلفظها كما كانت تلفظ لدى اللاتين القدماء ، ونعني بها « شيشرون » •

يوليوس قيصر ، مما دفع به في النهاية الى الاعتماد على الجيش الذي حارب تحت أمرته في غالية لقلب نظام مجلس الشيوخ والقضاء على بومبيــوس • وهنا ننتقل الى مؤلفه الثاني ونعني بــه « الحرب الاهليــة » • يجب علينــا قراءة المؤلفين بحذر وبفكر نقدي ، اذ أن قيصر يدافع عن وجهــة نظــره السياسية من خلال كتاباته ، ولم يتمكن قيصر من انجاز «الحرب الاهلية» ، اذ كما نعلم،اغتيل سنة(٤٤ ق•م) • ولقد أنهى هذا المؤلف، القائد هرتيوس مع عدد من أنصار يوليوس قيصر •

أما « السير » التي دونها المؤرخ كورنيلوس نيبوس [١] فـانهـا ذات فائدة محدودة ، لسطحية الكاتب في تفسيره للأحداث •

ونتيجة للنشاط الفكري الغزير الذي اتسمت به الحقبات الخيرة من العصر الجمهوري ، أصبحت تلك الفترة اكثر وضوحا من غيرها ، رغم انه لم يصلنا الا النذر اليسَيَر من مؤلفات تلك الحقبة • والجدير بالذكر ، ان الحرية الفكرية التي توفرت لكتاب القرن الاول (ق•م) تتناقض كليا مع الطابع المميِّز لاغلب مؤلفات العصر الامبراطوري وخاصة في أيامه الاولى ، ولذلك نرى بعض المؤرخين يمتنعون عن الكتابة او يحرمون منهــا • فلم يتمكن الكاتب آسنيوس بوليو Asinius Pollio من نشر مؤلفه ، أما مؤلفات الكاتبين لابينوس Labienus وكرمنطيوس كردوس Crementius Cordus فلقد أحرقت في عهد الامبراطور تيبريوس ،وذلك بأمر من مجلس الشيوخ، ووفق مشيئة الامبراطور • ومما يجب توضيحه ، بأن كرمنطيوس كردوس كان قد تعـّرض بشكل غير مباشر للنظام الامبراطوري ، عندما نشر كتابــات مشحونة بالعداء لاصول النظام الملكي في روما •

وعدا عن مؤلفات المؤرخين تيطس ليويوس ديونيسيوس الهاليكارناسي، التي دُوِّنت في عهد الامبراطور اوغسطوس،فلم يدركنا من عهد الاباطرة الاول، خلال الخمسين سنة السنة الاولى من القرن الاول ميلادي ، سوى مؤلف

(١) Cornelius Nepos كاتب معاصر لقيصر (٩٩ ق•م ؟ ــ ٢٤ ق•م ؟) •

واحد ، ونعني به « التاريخ الروماني لفلئوس باتركولوس Velleius Paterculus والمؤلف هو بجزئين • ويسرد لنا الجزء الثاني الوقائع التي شاهدها المؤلف بصفته ضابط في فترة الامبراطور تيبريوس وذلك حتى سنة(٣٠ ق•م)ويمجد الكاتب مفاخر تيبريوس العسكرية ويمدح فضائله الشخصية مما يتنافى مع ما كان شائعا عن صفات هذا الامبراطور في أوساط مجلس الشيوخ •

ولم تزدهر كتابة التاريخ نسبيا من جديد الا في عهد سلالتي الفلافيين والانطونيين ، عندما توطد النظام الامبراطوري،مما سمح للاباطرة ان يكونوا أشد اطمئنانا واكثر تسامحا تجاه الرأي العام • ومن أشهر المؤرخين الذين عاصروا السلالة الفلافية المؤرخ اليهودي يوسيفيوس (٣٧ م — ١٠٠ م) ، الذي تشيع لروما بعد ان هدم الامبراطور تيطس مدينة اورشليم[١] • ولقد اعتبر نفسه من أتباع الامبراطور دوميتيانوس Domitianus واتخذ لنفسه لقب فلافيوس ، اذ أن دوميتيانوس ينتسب الى السلالة الفلافية • كتب يوسيفيوس عدة مؤلفات باللغة اليونانية ، من أهمها : « تاريخ حرب اليهود ضد الرومان » المكوّن من سبعة أجزاء ، و «الآثار اليهودية»•وكتب كذلك « سيرته » الشخصية • ونستفيد خاصة من مؤلفات يوسيفيوس لدراسة عهود نيرون ووسپاسيانوس وابنه تيطس •

ولنتكلم الآن عن كورنيليوس تاكيتوس Cornelius Tacitus (٥٥ م — ١٢٠ م) ، ولقد اعتبره البعض كأعظم مؤرخ روماني • كتب تاكيتوس مؤلفين ضخمين : « الحوليات » و « التواريخ » ويتألف كل منهما من ستة عشر جزءاً • ويمكن اعتبارهما كمصادر اساسية لدراسة التاريخ الروماني خلال القرن الاول (ميلادي) ، ولقد سطرهما الكاتب في عهد الامبراطور تريانوس بين ١٠٥ وسنة ١١٧ • وألف تاكيتوس ايضا ابحاثا في مواضيع معينة من أهمها « حياة اغريكولا AGRICOLA » وهو القائد

(١) أورشليم أو القدس : لم يطلق العبرانيون اسم أورشليم على المدينة المقدسة — كما هو شائع وكما يعتقد البعض • ولكن التسمية تعود الى الفترة الكنعانية والى ثمانية قرون قبل دخول العبرانيين اليها •

الذي فتح بريطانية وكانت تربطه بالكاتب وشائج القربى ، اذ ان تاكيتوس تزوج ابنة « اغريكولا » • ويعتبر هذا المؤلف كأهم مصدر لدراسة احوال سكان بريطانية في القديم • أما مؤلفه « طبائع الجرمان » GERMANIA فهو أساس لدراسة نمط حياة القبائل الجرمانية في العالم القديم •

ينتمي تاكيتوس الى فئة الفرسان ولقد تبوأ أعلى المناصب في الدولة • فلقد انتخب قنصلا سنة ٩٧ وحاكما لمقاطعة آسية سنة ١١٣ • لقد كان الناطق بلسان حال المعارضة للنظام الامبراطوري في مجلس الشيوخ ، ولذلك اعتبره البعض كآخر ممثل للفكر الارستقراطي الروماني القديم • وفي الواقع ، لقد صوّر لنا في « الحوليات » الاباطرة الاول كوحوش مفترسة ، ولقد انتقد بشدة جو الدناءة والذلة والتملق الذي ساد في عهد بعض الاباطرة نتيجة لارهابهم اعضاء مجلس الشيوخ ، مما أدى الى تدهور في الاخلاق عند أعضاء المجلس • ولقد قارن اخلاق الشيوخ في عهده برصانة ووقار شيوخ العهد الجمهوري ، الذين كانوا يعتبرون بحق حكام روما ؛ ولكن يجب أن لا ننسى ، بأن هذا المؤرخ ، بمهاجمته للاباطرة ، كان منطلقا من مواقع طبقية معينة ومحدودة مما أدى به أحيانا الى تشويه الحقائق ، رغم انه اعتزم كما يقول ، ان يسطر أحداث الماضي « بدون غضب وبدون تحيز » sine ira et studio • ويجب أن نعترف لتاكيتوس بروعة تصويره • فلقد ترك لنا لوحات خالدة توضح لنا أخلاق الرومان ، وتظهر لنا حياة البلاط الامبراطوري المفرطة بالبذخ والمليئة بالانحلال • كما انه تكلم عن سطوة فئة الفرسان وعن العشارين وعن جشع رجال الاعمال المرتبطين بهم • ويتطرق بعدئذ الى الظروف الصعبة التي يقاسيها الجنود المهملين على الحدود في المناطق النائية ثم يذكر لنا ردود فعلهم وثوراتهم ، ويصف لنا أحيانا الطبقات الشعبية في روما مفصّلا لنا شروط حياتهم ، إن كان في الشارع أو في المسرح أو في الملعب • ولا يغيب عن باله وصف حريق روما الهائل سنة (٦٤ ميلادي) • الخ •••••

من كل ماتقدم، يبدو لنا تاكيتوس كأكبر كاتب في العالم القديم أهم بتصوير

ووصف عادات وأخلاق وطبائع البشر وفي الواقع، لا نجد له نظيرا في العصور القديمة • ومع هذا المؤرخ نلاقي ذات الصعوبة التي ذكرناها بالنسبة لمتقدميه، أي أن مؤلفاته لم تصلنا بكاملها ، ويمكننا القول ، ان نصف انتاجه تقريبا قد فقد •

ولقد عاصر تاكيتوس مؤرخان كبيران ، هما اليوناني بلوتارخوس والروماني سوتونيوس Suetonius • ولد بلوتارخوس (٤٦م ؟ – ١٢٥ م) في مدينة خيرونة في اليونان • ولقد ذاع صيته نتيجة لاهتمامه بالعلوم الدينية وعلم الاخلاق أكثر من أهتمامه بالتاريخ • ومع ذلك ، فاننا نعثر في كتاباته المختلفة التي تناولت شتى المواضيع على وثائق تاريخية عديدة اعتمد عليها في مؤلفاته ولهذا السبب يمكن اعتبار كتاباته مهمة بالنسبة لنا • فمثلا في مؤلفه الشهير « السير المقارنة » ، حيث يسرد لنا حياة الرجال العظام في العالمين اليوناني والروماني ، يعتمد الكاتب في تأريخه على مصادر عديدة لم تصلنا بشكل مباشر •

أما بالنسبة لروما ، فلقد اعطانا صورا حية عن عديد من الشخصيات الرومانية نذكر منها : فلامينيوس ، الأخوين غراكوس ، ماريوس ، سولا ، يوليوس قيصر ، كيكرو بروتوس الخ ••• أما بالنسبة لسيره عن الأباطرة، فلم يصلنا منها الا ما يتعلق بحياة غالبا Galba وأوتو Otho .

أما المؤرخ سوتونيوس (٧٠م – ١٢٠م) فكان بخلاف تاكيتوس من المقربين الى البلاط الامبراطوري • فلقد ترعرع في محيط مكون من موظفين مدنيين وعسكريين • وكان جده قد احتل منزلة عالية في البلاط • أما والده فكان من كبار موظفي الجيش • اما هو ، فلقد عهد اليه بمركز مهم في الديوان الامبراطوري وتمكن بحكم مهامه من الاطلاع على الوثائق السرية للبلاط • ولقد كتب ، معتمدا على تلك المعطيات مؤلفه « سير القياصرة الاثنى عشر » ، مستهلا بيوليوس قيصر ومتمما بالامبراطور دوميتيانوس • لاشك بأن مؤلفه هذا ، يعتبر فريدا من نوعه وذلك لمعرفة أسرار البلاط

الامبراطوري في القرن الاول • اهتم سوتونيوس خاصة بالتفاصيل المتعلقة بأخلاق الاباطرة وأهمل الناحية السياسية من الموضوع ، مما جعل مؤلفه سطحي المحتوى • دافع سوتونيوس بحرارة عن النظام الامبراطوري ، على نقيض معاصرة تاكيتوس ولذلك كما قلنا أعلاه ، نعتمد على كتاباته لنقارنها بروايات تاكيتوس ونصحح ولو جزئيا نقاط الانحياز فيها •

ونأتي الآن الى مؤرخ يوناني من الاسكندرية ، عاش في النصف الاول من القرن الثاني (ميلادي) ونعني به ابيانوس Appianos • ويمكن ان نعتبر أراءه كانعكاس لوجهات نظر رجال الاعمال والاوساط المثقفة في المقاطعات • شغل هذا المؤرخ مراكز ادارية هامة وتدرج في المناصب الى أن توصل الى منصب حاكم ولاية امبراطورية • وكان أيضا من أنصار النظام الامبراطوري • دوّن ابيانوس مؤلفا ضخما في أربع وعشرين جزءاً ونعني به « التاريخ الروماني » ولقد خاطب فيه خاصة سكان المقاطعات • أوجز المؤلف في كتاباته ، تاريخ السلطة الرومانية منذ العصر الملكي حتى أيام الامبراطور تريانوس • أما طريقة تدوينه للاحداث فهي أكثر تعقيدا مما ألفناه لدى غيره من المؤرخين ، ففي الاجزاء الثلاثة الاولى ، نراه يتحدث عن نشوء روما وسيطرتها على ايطالية • ثم ينتقل الى الكلام عن فتح روما للمقاطعات وضمها لامبراطوريتها ، ولقد خصّص لكل مقاطعة جزءاً على حدة : فجزء لصقلية وجزء آخر لليبية وآخر لمقدونية وهكذا ••• ولقد خصّص بعض الاجزاء للاحداث التي تمُتّ بصلة لعلاقات روما بالمقاطعات •

فالجزء السابع يسرد لنا وقائع وأحداث الحرب ضد هانيبعل والجزء الثاني عشر ضد ميتريداتس ويمكن ان نعتبر الاجزاء الخمسة التي تروي لنا حوادث الحروب الاهلية منذ محاولة اصلاح الاخوين غراكوس حتى فترة الحكم الثلاثي الثاني كأهم قسم من المؤلف •

لقد حاول المؤرخ ابيانوس ان يعالج تاريخ روما وامبراطوريتها • وهذا أمر معقد ومتشعب لذلك جاء بحثه غالبا ناقصا وأحيانا سطحيا ومغلوطا : اذ

غالبا ما نجد لديه اخطاء في الاسماء والتواريخ وفي التسلسل الزمني للاحداث • ولكن رغم ذلك فهذا لا يمنعنا من اعتبار القسم الذي يتناول فيه الحرب الاهلية ، كبحث بالغ الاهمية : اذ ان المؤرخ قد اعتمد في كتاباته على مؤلفات عديدة لكتّاب معاصرين له أو متقدمين عليه ، ولقد فُقِدت هذه المؤلفات ومن ثم ، يمكننا القول أن ابيانوس كان الباحث الوحيد تقريبا مما ذكرناه حتى الآن الذي أدرك ماهية الحروب الاهلية ، ونعني بذلك الصراع حول الملكية العقارية • يقول كارل ماركس في رسالة له الى انجلز : « يحاول ابيانوس في كتاباته عن الحروب الاهلية ، ان يؤكد على الدافع المادي العميق لتلك الحروب »[1] •

ومن المؤرخين الذين كتبوا باللغة اليونانية عن تاريخ روما ديون كاسيوس Dion Cassios (١٥٥ ـ ٢٣٥)• كان عضوا في مجلس الشيوخ ثم انتخب قنصلا قبل أن يصبح حاكما لمنطقة افريقية ، ثم ممثلا للامبراطور في دلماتية • لقد بدأ تاريخه باسطورة Aeneas وتابعه حتى أيام الاباطرة السيفريين • يتألف تاريخه من ثمانين جزءاً ولم يصلنا منها بنصها الاصلي والكامل الا الاجزاء التي تتناول الاحداث الواقعة بين(٦٨ق•م و ٤٥ميلادي) وعددها هو أربع وعشرون أما الباقي فلم نعثر الا على نبذ منها أو على خلاصات لها • حاول ديون كاسيوس ان يحتذي حذو ثوكوديدس وبولوبيوس ولكنه لم يوفق ، واسباب اخفاقه هي في الواقع عديدة : فمن ناحية ، كان الجو الفكري السائد في عصره مفعما بالتفكير الغيبي ولم يكن للمؤرخ تلك الشخصية القوية التي تمكنه من التغلب على الرأي العام المقبول آنذاك • ولذلك نراه يحدثنا عن أعاجيب ونبؤات دون ان يحاول الربط بين السبب والنتيجة • ولقد علّل كل ظاهرة بارادة خفية واستشف في كل أمر اصبع القدر •

تحتل الحروب وحوادث البلاط مكان الصدارة في كتاباته ، ولا يظهر

---

(١) *Marx An Engels, 21 Februar 1861 Marx und Engles FR., Briefwechsel, III Band, 1861 - 1867, Moskau, 1937, S. 19.*

لديه دور الجماهير الشعبية الا عند كلامه عن الفتن ، فصوّر لنا عندئذ تلك الطاقات البشرية كقوى مظلمة بهيمية ومن الواجب قمعها • ورغم انتماء المؤرخ الى فئة مجلس الشيوخ ، فلقد انحاز الى النظام الامبراطوري• ولكن رغم جميع المساوىء المذكورة يساعدنا تاريخه مساعدة لا تقدر اثناء دراستنا للفترات الاخيرة من العهد الجمهوري وكذلك لتقييم القرنين الاول والثاني من حكم الاباطرة •

أما المؤرخ اميانوس ماركلينوس A. Marcellinos (٣٣٠ – ٤٠٠) فلقد كان على نقيض من ديون كاسيوس • وفي الواقع فهو آخر مؤرخ روماني رصين ، ذو تفكير عميق وحاد ، رغم انه عاش في فترة بلغت فيها الثقافة درجة بالغة من الانحطاط • ولد المؤرخ في انطاكية وكان يوناني المنشأ • امتهن الحياة العسكرية واشترك في عدة حملات الى جانب الامبراطور يوليانوس ، واطلع هكذا على أمور عديدة أثناء تنقلاته • وكان قد بلغ الستين من عمره عندما بدأ بتدوين مؤلفه « التاريخ » من واحد وثلاثين جزءاً ولقد بدأ بتدوين الاحداث حيث كان قد توقف متقدمه المؤرخ تاكيتوس • رغم ان لغته الاصلية كانت اليونانية فلقد دوّن كتاباته باللاتينية • ولذلك ، نشعر عند قراءتنا لمؤلفه كأنه يقوم بترجمة افكاره من اليونانية الى لغة اجنبية ، مما يجعل اسلوبه غامضا وأحيانا مرتبكا • ولكن هذا لا يمنعه من التمتع بمزية أساسية كانت نادرة في عصره ، ونعني بذلك فكرا نقدياً ، اضافة الى تفوقه في تصوير الوقائع والاحداث المختلفة : فمن مشاهد حربية يساهم في معاركها الى حديثه عن حياة وطبائع شعوب عديدة خالطها بحكم عمله • ولقد أجاد الاستفادة من المصادر التاريخية فألّف من موادها لوحات نابضة بالحياة والحركة •

حاول اميانوس ماركلينوس ان يظل حياديا وأمينا للحقيقة ، ونشعر ذلك عندما نراه يقول : « ان المؤرخ الذي يطمس عن قصد الوقائع ليس

بأقل مغالطة من الذي يختلق ما لم يكن [١] ولا تقتصر مهمة التاريخ بالنسبة اليه على تعداد الوقائع ، بل يجب كما يقول العمل على جمعها وربطها بالاحداث الكبرى • وبتعبير آخر حاول هذا المؤرخ ان يهتدي الى تفسير منطقي للتاريخ •

أما ما تبقى من الكتابات التاريخية التي دُوِّنت في العهد الامبراطوري، فليست ذات قيمة أو ذات شأن • ولكننا نضطر احيانا الرجوع اليها لعدم وجود غيرها من المصادر ، ولنذكر بعضا منها : « تاريخ الاباطرة الرومانيين حتى ٢٣٨ ، للمؤرخ اليوناني هروديانوس Hrodianos الذي عاش في روما (١٧٠ ـ ٢٤١ م) • هذا المؤلف هو من المصادر النادرة التي بحوزتنا لدراسة فترة الاباطرة السيوريين • وكذلك « مختصر التاريخ الروماني » لأوتروبيوس Eutropios وهو في عشرة أجزاء • دُوِّن هذا المؤلَف بلغة واضحة ومقتضبة ، ولكنه هزيل المحتوي ، وفي ذات الفترة تقريبا ، اشترك ستة مؤرخين في تدوين « جامع سير »أباطرة القرنين الثاني والثالث *Scriptores Historiae Augustae* على غرار مؤلف سوتنيوس « سير الاباطرة الاثني عشر » • ولكننا لانعرف جامع السير هذا الا من خلال نسخة تعود الى نهاية القرن الرابع ، مع كثير من الاضافات ومع بعض المقاطع المحرفة • ولذلك يجب ان نطالع هذا المصدر بحذر ولا نعتمد عليه الا بعد نقد شامل • نقول هذا ، اذ ان « جامع السير » هو مصدرنا الوحيد لبعض فترات القرن الثالث ميلادي ، أي اننا مرغمون على الاعتماد عليه لا سيما ان القرن الثالث يظل شديد الغموض في بعض جوانبه ، ولدينا أيضا « الجامع المختصر للاباطرة حتى قسطنطين » دُوِّن هذا المؤلف حوالي سنة ٣٦٠ ولقد نسب تأليفه الى أحد موظفي البلاط الامبراطوري ونعني بذلك اوريليوس ويكتور Aurelius Victor .

وأثناء دراستنا للعصر الامبراطوري ، يجب ان لا ننسى مؤلفات الكتاب

---

(1) *Historia*, XXIX, 1,5.

المسيحيين • فلقد كتب الاسقف أوسيبيوس القيصري[1] Eusebios (٢٦٥ – ٣٣٩) ولأول مرة تاريخاً دينيا أطلق عليه اسم « التاريخ الكنسي العام » ، معتمدا في ذلك ليس فقط على مختلف الروايات المسيحية وعلى مؤلفات كتاب الكنيسة ولكن ايضا على وثائق الدولة • لقد كان مطلعا على اسرار مختلف الدواوين ، وذلك بفضل علاقات الود التي كانت تربطه بالامبراطور قسطنطين • وترك لنا هذا العالم « سيرة الامبراطور قسطنطين » ويمكننا الاعتماد على « التاريخ الكنسي العام » لتدقيق معلوماتنا بالنسبة لاحداث ووقائع القرن الثالث • ولقد كتب الاسقف « أوغسطينوس » في الفترة ذاتها مؤلفه الشهير « مدينة الله » •ولد« أوغسطينوس »في نوميدية[2] من أب وثني وأم مسيحية (٣٥٤ – ٤٣٠) • وبعد حياة صخب وتفكير مضطرب اعتنق سنة ٣٨٦ المذهب الرسمي للكنيسة ، بعد أن اتبع مذهبا منشقا • ولقد أصبح أسقفا سنة ٣٩١ وتولى أسقفية Hippo Regius قرب عنّابة في الجزائر اليوم وعاش فيها حتى مماته[3]•ولقد استغرق تأليفه ل « مدينة الله » عشرين عاما تقريبا • يردّ أوغسطينوس في مؤلفه على الوثنيين الذين كانوا يحمّلون المسيحيين مسؤولية المصائب الملمّة بالامبراطورية نتيجة للغارات المتكررة للبربر الجرمان عليها • يقول اوغسطينوس « ان المصائب تنزل بنا لانكم (أي الوثنيين) ما زلتم تعبدون الاوثان » • وهكذا نرى بأن شرحه للامور لا يستند الى واقع علمي •

وبمقدار تراجع الكتابة التاريخية نتيجة لانحطاط الحضارة في العالم الروماني القديم تتزايد أهمية الوثائق التي تقدمها لنا العلوم المساعدة للتاريخ وذلك لدراسة عصر الامبراطورية في عهدها الأخير • أما أهم هذه العلوم ، فهي : علم الآثار ، علم الكتابات ، وعلم النقود •

أما بالنسبة لعلم الآثار ، فما زال أمامنا عدد هائل من الصروح والاوابد

---

(١) نسبة الى مدينة قيصرية في فلسطين •

(٢) بالنسبة لنوميدية ، انظر اعلاه ص ٨ •

(٣) اطلق عليها في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر اسم بون

القديمة العائدة لمختلف العصور التاريخية شاهدا حيا على النواحي المختلفة لجميع مظاهر الحياة في روما وامبراطوريتها.ومن هذه الآثار ، ما هو ظاهر على سطح الارض والباقي تعيده الى الحياة والوجود يوما بعد يوم الحفريات العديدة الجارية في مختلف انحاء البحر الابيض المتوسط وفي كل بقعة شملتها سلطة روما • وتضم هذه الآثار المعابد والمسارح وأقواس النصر والقبور والمساكن والاسلحة والاواني المنزلية الخ ••• أضف الى ذلك ، عددا من المدن عادت الى الوجود بشكلها السالف بعد ان اختفت فجأة نتيجة للكوارث الطبيعية (كالبراكين والزلازل) • لقد ظهرت تلك المدن ،موضحة لنا مختلف جوانب الحياة في العالم الروماني • ولنذكر على سبيل المثال مدينتي بومبيي (Pompeii) وهركولاكوم (Herculanum) في ايطاليــة ومدينتي أفامية على العاصي ودورا أوروبوس (Doura-Europs) «الصالحية على الفرات » • وجرش Gerasa وبصرى الخ •••

ولا تقل أهمية الكتابات القديمة عن الآثار • وأكثرها قدما يعود الى الفترة الملكية : كالكتابة المنقوشة « على الحجر الاسود » الذي عثر عليه في الفوروم القديم الخ •••

ولكن من سوء الحظ ان عدد هذه الكتابات محدود ولكن اعتبارا من القرن الثالث (ق•م) تظهر الكتابات على القبور وكذلك الكتابات المتعلقة بالمراسيم والقوانين • ولقد أخذ عددها يتزايد ، اعتبارا من القرن الاول (ق•م) ، ويمكن اعتبارها وثائق هامة لدراسة مختلف أوجه الحياةالادارية والاجتماعية والاقتصادية وحتى بعض جوانب الحياة اليومية لمختلف الفئات الاجتماعية •

وتعتبر بعضها وثائق ذات أهمية قصوى ، كالكتابة المنقوشة على لوحة عثر عليها في أنقرة والمعروفة بـ « مآثر الالهي أوغسطوس » •وكذلك الكتابة المحفورة على لوحة عثر عليها في مدينة ليون في فرنسة والمعروفة « بلوحة ليون » والكتابة هي عبارة عن نص الخطاب الموجهمن الامبراطور كلوديوس

(٤١ ـ ٥٤) لأهالي مدينة ليون في فرنسة والمعروفة « بلوحة ليون » والكتابة هي عبارة عن نص الخطاب الموجه من الامبراطور كلوديوس (٤١ ـ ٥٤) لأهالي مدينة ليون ، ولقد تطرق الامبراطور في ذلك الخطاب الى مفهوم « حق التمتع بالرعوية الرومانية » • ولنذكر كذلك الكتابات المتضمنة مرسوم الامبراطور (ديوكلتيانوس Diocletianus) (٢٨٤-٣٠٥) والمتعلقة بتحديد الاسعار الخ •••• عدا عن عدد لا يحصى من الكتابات التي لها صلة مباشرة بمختلف جوانب الحياة في شتى أصقاع الامبراطورية : من عسكرية ودينية واقتصادية الخ •••• ولقد رتبت مختلف هذه الكتابات في « جامع الكتابات اللاتينية » المكون من ستة عشر جزءاً ضخما • ولقد ظهر أول جزء سنة ١٨٩٣ وما زالت تصدر حتى يومنا هذا ملحقات للجامع • ويضم كل جزء تقريبا كتابات مقاطعة من مقاطعات العالم الروماني القديم • ولا بد لكل مؤرخ ، من الاعتماد على « جامع الكتابات اللاتينية » *Corpus inscriptionum latinarum* اثناء ابحاثه المتعلقة بالفترات التاريخية الرومانية وخاصة الجمهورية منها والامبراطورية •

ولا بد هنا من الاشارة الى الكتابات التي سطرت على أوراق البردى • ولقد اكتشف بعضها مؤخرا في مصر • ولقد استحوذنا منها على معلومات دقيقة لها صلات عديدة بمختلف مظاهر حياة العالم الروماني • فلقد عثرنا مثلا في تلك المخطوطات على نص مرسوم الامبراطور كراكلا (سنة ٢١٢) الذي منح بموجبه حق الرعوية الرومانية لجميع سكان المقاطعات ولقد عثرنا كذلك على وثائق مختلفة تمت الى الادارة المالية لمصر في العهد الروماني ، عدا عن كتابات تتعلق بالعقود وبصفقات تجارية الخ •••• حتى اننا عثرنا على كتابات ليست الا وظائف طلاب ••••

والأمل كبير بأن يُعثر في المستقبل على بعض المؤلفات التاريخية المفقودة اذ انه قد عُثر مؤخرا على كتابات تعرض بشكل جيد بعض اجزاء « التاريخ الروماني » لتيطس ليفيوس •

أما بالنسبة لعلم النقود ، فيمكن اعتباره اليوم من أهم العلوم المساعدة للتاريخ وخاصة بالنسبة للفترات التاريخية القديمة • ان قطع النقود ، بما تقدمه لنا من رسوم للاباطرة والقناصل والحكام الخ ••• وما شيدوه من صروح وما تبنّوه من شعارات سياسية واجتماعية الخ•••• ، نعتبر كل ذلك اليوم من أهم المصادر بالنسبة للباحث ، شريطـــة أن يحسن الاستفادة من الاشياء التي تبدو بسيطة في الظاهر وتكون في الواقع ذات دلالة عظيمة • ولا يمكن للباحث ان يتوصل الى ذلك ، الا اذا توفرت لديه معرفة الخواص المميزة للفترة التاريخية المعنية بالامر • فلنأخذ مثلا على ذلك الامبراطور غالبا Galba : بعد انتحار نيرون أمر بأن تُطبع على النقود التي سكت في عهده ، صورته ولقبه على الطرف الاول ، أما على ظهر القطعة النقدية ، فلقد نقش الشعار التالي « حرية الشعب الروماني » • فهل يعني ذلك سوى ان غالبا حاول استرضاء بعض الفئات التي قاست الأمرّين أيام نيرون ، وخاصة في الفترات الاخير من حكمه •

اضافة الى ذلك ، فعيار قطع النقـــود وجودتها وعدم التلاعب بالمعدن الثمين المسكوكة منه أو بالعكس ، يعطينـا فكرة عن الاوضـاع والتقلبات الاقتصادية والمالية لفترة تاريخية معينة ••• الخ •

وهكذا ، كلما ازداد افتقارنا الى المصادر التاريخية الكتابيـة ، ازداد اهتمامنا بالعلوم المساعدة للتاريخ ، من علوم : الاثار والكتابات والنقود واصل الشعوب الخ ••••

وينطبق هذا على مختلف فترات التاريخ الروماني من ملكية وجمهورية وامبراطورية •

٣ ـ لمحة عامة عن تأريخ تاريخ روما :

راح الباحثون يهتمون بالتاريخ الروماني منذ عصر النهضة • ولقـد

انكب « الانسانيون »[1] بحرارة على البحث عن تنظيم الدولة والمجتمع في الفترات الرومانية القديمة ، واهتموا في التنقيب عن مصادر « الحقوق الرومانية » .

أما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ومع توطد « الحكم المطلق » في أوروبة توجهت أنظار الباحثين خاصة نحو التاريخ السياسي للامبراطورية الرومانية . فالى تلك الحقبة الزمنية يعود تدوين مؤلفين شهيرين : الاول هو « تاريخ الاباطرة الامراء الذين حكموا خلال القرون الستة الاولى من تاريخ الكنيسة » والمؤلف هو للاب الفرنسي تليمون Tillemont ويتكون من ستة اجزاء ظهرت بين سنة ١٦٩٠ وسنة ١٧٣٩ . أما المؤلف الثاني ، فهو للعالم الانكليزي جيبون Gibbon ونعني به « انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية » ومكون من أجزاء سبعة ظهرت بين عامي ١٧٧٦ و ١٧٨٨ .

ورغم ان المؤرخين المذكورين قد انتهجا نهجا جديدا في تدوين وقائع التاريخ الروماني فان المؤلفين ليسا في الواقع سوى منتخبات من روايات المؤرخين القدماء ، لقد أقبل تيلمون وجيبون بسذاجة غريبة على نقل تلك الروايات دون أدنى محاولة نقدية .

وراحت تظهر منذ القرن الثامن عشر ، في مجال الدراسات الرومانية وجهات نظر جديدة متأثرة بالصراع الشديد الذي كانت تقوده البورجوازية الصناعية ضد النظام الملكي القديم ومن رواد هذا التيار ، العالم الايطالي ڤيكو Vico الذي حاول أن يبرهن في مؤلفه على نظريته المعروفة « نظرية المراحل » وحاول تطبيقها على التاريخ الروماني . ولقد فسّر ڤيكو

---

(١) **الانسانية** : حركة ثقافية (أدبية وعلمية وفلسفية وفنية) اخذت جذورها في ايطالية اعتبارا من القرن الثالث عشر وامتدت تدريجيا الى مختلف المناطق الاوروبية . ويمثل الانسانيون تيارا مناهضا لما كان سائدا في أوروبة في القرون الوسطى . ومما هو ملاحظ نشوء التيار في ايطالية وفرنسة الجنوبية وذلك نتيجة للعلاقات التي كانت قائمة بين المنطقتين والاندلس وصنقلية ومن أبرز سمات « الحركة الانسانية » عودتها الى الاصول التاريخية الاغريقية والرومانية في جميع المظاهر الاجتماعية .

Johan Baptista Vico (١٦٦٩ - ١٧٤٤) تاريخ المجتمعات البشرية اعتمادا على النظرية الحتمية Determinisme •

ولم يقبل الرأي الذي كان سائدا في عصره ، ذلك الرأي الذي حصر مهمة « علم لتاريخ » بوصف سطحي لمختلف الاحداث التاريخية كحكم الملوك والمعارك الحربية ، الخ ••• ولقد أكد بأن تسلسل الافكار يعكس تسلسلاً للشروط الموضوعية • ولقد قال ڤيكو بأن حياة المجتمعات ليست الا صورة نموذجية عن حياة الافراد ، أي : طفولة ، فشباب ، فكهولة • ولقد ميّز هذا العالم بالنسبة لتاريخ كل شعب ثلاثة أطوار :

١ ـ الطور الالهي :

ويقابل طفولة الانسانية ، تتشكل الدولة في تلك المرحلة أما البشر ، فما يزالون تقريبا في حالة شبه بدائية •

٢ ـ الطور البطولي :

ويقابل شباب الانسانية • ولقد تكامل تشكيل الدولة في هذا الطور ويقول فيكو ، بأن تلك الفترة شاهدت ازدهار النظام الجمهوري - الارستقراطي في بلاد اليونان وفي روما •

٣ ـ الطور البشري :

ويقابل كهولة الانسانية وفي هذا الطور ، تتوطد الديمقراطية والعدالة السياسية وتزدهر العلوم •

وتتحول الكهولة الى شيخوخة فانحطاط فسقوط ، وهكذا تنتهي دورة لتبدأ دورة جديدة ، وهكذا دواليك • ويجب علينا ان لا ننسى هنا ، نظرية ابن خلدون في التاريخ وعلم الاجتماع •

لا شك بأن نظرية ڤيكو التاريخية كانت فتحا بالنسبة لعهده ، ولكننا تعلم اليوم بأن سير الامور لا يجري تماما وفق تصور هذا العالم ولكن رغم

ذلك يجب ان نعترف بأن ڤيكو قد نادى بافكار عدة كانت صحيحة وجريئة بالنسبة لعصره • فمثلا كان أول من شكك بأصول القصائد الهوميرية ، ورأى في تلك الملاحم نتاج عدة مؤلفين حتى انه اعتبر بعض اجزاء من الألياذة والأوديسة من نتاج الادب الشعبي • ومن الآراء الجريئة التي نادى بها وكانت جديدة بالنسبة لمعاصريه رأيه في بواعث الفكر الديني • ولقد رأى في الخوف سببا اساسيا لتدين القدماء ولاعتقادهم بالاساطير •

ولقد عرض ڤيكو آراءه في مؤلفه الشهير الذي صدر سنة ١٧٢٥ ونعني به : « مبادىء علم جديد ذي صلة بالطبيعة المشتركة لمختلف الامم » • وبالنسبة للرومان يقول ڤيكو بانهم مروا بالمراحل الثلاث ، ويستنتج ڤيكو من كل هذا بأن الروايات الرومانية حتى القرن الثالث (ق•م) ما هي الا أساطير •

ونشر الفرنسي بوفور Beaufort سنة ١٧٣٨ مؤلفا تحت عنوان « بحث في عدم اليقين بالنسبة للقرون الاولى من تاريخ روما » • ولقد حاول « بوفور » ان يبرهن من خلال مؤلفه ، بأن التاريخ القديم لروما ليس الا نسجا من تصورات الكتاب المتأخرين الذين حاولوا استرضاء الطبقة النبيلة الرومانية باضفائهم هالة من المجد والفخار على تاريخ روما في فتراتها الاولى •

ولقد اسهم هذا التيار الجديد باغناء علم التاريخ بمنهج علمي أكثر موضوعية • ومن أوائل الذين طوروا هذا المنهج وطبقوه على الفترات القديمة لتاريخ روما وحاولوا دحض المفاهيم السطحية التي كانت سائدة بالنسبة للتاريخ الروماني ، جيورج نيبوهر Georg Niebuhr (١٧٧٦/١٨٣١) • كان نيبوهر رجل دولة لامع ولقد عاصر فترة الاصلاحات في بروسيا ، وحاضر في جامعتي برلين وبون • وتشكل محاضراته في «التاريخ الروماني» ، التي جمعت في ثلاثة اجزاء ، الاسس الجديدة لدراسة التاريخ القديم لروما • حاول المؤلف ان يوضح المصادر الاولى للروايات الرومانية • ولقد رأى اثارا لذلك في التقاليد والملاحم وفي الحوليات الاولى • ولقد اعطى

نيبوهر افضل مثال على جديته اثناء دراسته الشاملة للاساطير الرومانية • واظهر كيف انه من الممكن استخلاص بعض الحقائق منها اذا احسن تفسيرها • ونيبوهر هو أول من لاحظ وجود التنظيم القبلي لدى الرومان في فجر تاريخهم •

وفي سنة ١٨٥٦ ، ظهر أول « تاريخ روماني » لتيودور مومسن ، وكان مكوناً من ثلاثة اجزاء • وترجم هذا المؤلف الذي احدث ضجة في عصره بالنسبة للدراسات الرومانية ، الى مختلف اللغات الاوربية • كان تيودور مومسن Theodor Mommsen عالما شهيرا ، ولقد ألف ما ينوف عن (١٥٠٠) دراسة رومانية • ولنذكر من أشهر مؤلفاته « الحقوق الرومانية العامة » و « الدراسات الرومانية » ، وكذلك مساهمته النشيطة في تصنيف « جامع الكتابات اللاتينية » المذكور اعلاه[١] •

ولقد كان عرضه لمختلف احداث التاريخ الروماني متأثرا بالمثل العليا للبرجوازية الصاعدة • فلقد مدح دور روما في توحيد ايطالية ، كما أنه مجّد سيطرتها على مختلف شعوب البحر الابيض المتوسط ، تلك الشعوب التي كانت قد تدنّت ، في نظر مومسن الى درجة من الانحطاط والانهيار ، مما جعلها غير قادرة على التطور بمفردها وتترأى في أقوال مومسن هذه ، مطامح الطبقة الاقطاعية البروسية في السيطرة على مختلف المقاطعات الالمانية •

ولقد مدح مومسن الدور الذي لعبه يوليوس قيصر ولقد علق عليه بما يلي : « لقد دلّل قيصر على كونه رجل دولة فذ ، وذلك منذ نشأته الاولى • ولقد كان يحقق دائما ما يهدف اليه • » ولنستشف هنا مقصد مومسن ، وخاصة اذا أدركنا الدور الذي لعبه بسمارك في قيادة العسكرية البروسية التي مثلت دورا أساسيا في انشاء الاتحاد الالماني •

ويمكننا سرد امثلة عديدة تعكس تأثر مومسن بأيديولوجية البرجوازية

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٠ •

الالمانية الصاعدة وتفسيره أحداث التاريخ الروماني وفقا لذلك • وهكذا من المآخذ التي تسجل على مومسن في مؤلفاته ، محاولاته العديدة لتطبيق المفاهيم الاخلاقية والسياسية التي كانت سائدة في عصره على أحداث ووقائع التاريخ الروماني • كما ان الوقائع والعلاقات الاقتصادية لم تسترع انتباهه الا نادرا• أما دور العبيد ، فلم يؤخذ بعين الاعتبار في مؤلفه « التاريخ الروماني » ولقد صوّر انتفاضات العبيد وكأنها تمردات لا قيمة لها : فسبارتكوس بالنسبة اليه ليس سوى « زعيم عصابة من المجرمين » •

ونتيجة لجميع الاسباب المذكورة ، لم يحتفظ تاريخ مومسن بقيمة تُذكر اليوم ، الا اشتماله على المعلومات التاريخية • أما الخطوط العامة والتفسيرات التاريخية فأصبحت عديمة الجدوى بشكل عام •

وكرس بعض علماء القرن التاسع عشر ابحاثهم في التاريخ الروماني لقضايا محددة وتفاصيل جزئية • فمثلا البروفسور كريوكوف Krioukov الاستاذ في جامعة موسكو (توفي سنة ١٨٤٥) درس القضايا المتعلقة باوضاع طبقة العوام في روما في الفترة الجمهورية • ونشر كودريا فتسف Koudriavtsev سنة ١٨٥٦ مؤلفا احدث ضجة في ايامه ونعني به « النساء الرومانيات ، مشاهد تاريخية استنادا الى روايات المؤرخ تاكيتوس » أما اشفسكي Echevski فهو أول من تناول بالبحث قضايا المقاطعات الخاضعة للسلطة الرومانية وفضح قساوة الاستغلال التي خضعت له •

ولقدكان لظهور مؤلفاتماركس كارل Marx K. وانجلز فريدريش Engels Friedrich وخاصة « رأس المال » لماركس « وأصول العائلة والملكية الخاصة والدولة » لانجلز آثار حاسمة في توجيه الدراساتالتاريخية لمختلف العصور • وفي الواقع ، فكما انّ داروين Darwin اكتشف«قانون التطور » بالنسبة للعالم العضوي ، اكتشف « ماركس قانونَ تطور المجتمعات البشرية » •

ان الظاهرة البسيطة التي كانت تحتجب حتى ايام ماركس وراء

العلاقات الايديولوجية ونعني بها كون اهتمام البشر منصباً في باديء الامر على تأمين مأكلهم ومشربهم ومسكنهم وملبسهم الـخ ••• وذلك قبـل ان تفرغوا للاهتمام بالامور السياسية والفنية والادبية والدينيـة الخ ••• ان اكتشاف هذه الظاهرة (وهي ان الانسان قد عاش قبل ان يتفلسف) ليعتبر فتحا في نطاق علم التاريخ • يقول ماركس : « ان تأمين اولى الـوسـائـل المعاشية وبالتالي ان المعطيات الموضوعية لكل مرحلـة من مراحل التطـور الاقتصادي لمجتمع ما أو لعصر معين ، تشكلان في الواقع الاسس التي تنعكس عنها مؤسسات الدولة وكذلك التصورات الفنية والمفاهيم الحقوقيـة وحتى الافكار الدينية لتلك الفتـرة •• ويجب ان نشرح ونفسر هكـذا جميـع الاحداث والوقائع التاريخية وليس بالعكس ، كما كان يحدث فيما مضى (١) وبتعبير آخر ، فليس ادراك الناس هو الذي يحدد نمط معيشتهم بل بعكس ذلك ، فان نمط معيشتهم الاجتماعيـة هي التي تحـدد وعيهم وادراكهم • وعندما تبلغ القوى المنتجة للمجتمع درجة معينة من تطورها ، تـدخـل في تناقض مع علاقات الانتاج القائمة ، أي مع علاقات الملكيـة ــ وليست هـذه سوى التعبير الحقوقي ــ لتلك ــ التي كانت الى ذلك الحين متحركة ضمنها وبعد ان كانت علاقات الانتاج متناغمة مع القوى المنتجـة انقلبت الى قيـود لهذه القوى فاتحة المجال للثورات الاجتماعية • إن تغيير الاساس الاقتصادي يزعزع كل البناء الفوقي SUPERSUCTRUCTURE على صور مختلفـة من السرعة او البطء • وعند دراسة هذه الانقلابات ينبغي دائما التمييز بين الانقلاب المادي لشروط الانتاج الاقتصادية ــ هذا الانقلاب الذي يشـاهـد بالضبط الخاص بعلوم الطبيعة ــ وبين المظاهر الحقوقية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية أو بكلمة مختصرة كيف ينعكس هذا الانقلاب مع جميع ما يجره من صراع في مختلف المجالات في أذهان البشر وكيف يفسرونه•

وسنرى عند بحثنا لنشوء النظام الامبراطوري وعندما نتعرض للازمات

---

(1) *Engles Fr., Rede an Grabe von Karl Marx, Marx K. und Engels Fr., Ausgewählte Schriften, Band II, Moskau, 1950, S. 156.*

التي سبقت ظهوره ورافقته ومن ثم اعقبته ، سنرى كم كان ماركس محقا عندما قال : « كما انه لا يمكن الحكم على فرد وفقا للفكرة المكونة لديه عن نفسه ، كذلك لا يمكن الحكم على عهد انقلابي ، وفقا لوعيه هذه الظاهرة بل ينبغي تفسير هذا الوعي بتناقضات الحياة المادية ، وبالنزاع الذي تتعارض فيه قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الانتاج .

بعد ان اوضح كل من كارل ماركس وفريدريش انجلز مبدعا « المادية التاريخية » أهمية العوامل الاقتصادية في تفسير الاحداث التاريخية، راح بعض المؤرخين يحاولون تفسير مختلف المظاهر الاقتصادية للتاريخ الروماني . فمثلا نشر المؤرخ الالماني Weber Max مؤلفا عن الحياة الزراعية في روما .

ورغم ان Weber حاول ايضاح بعض جوانب الحياة الزراعية لروما وامبراطوريتها فانه لم يتمكن من اظهار الجوانب العميقة للريف الروماني . وخاصة ماله علاقة باستثمار الرقيق في الزراعة ، كما انه لم يفهم جيدا ، على ما نعتقد ، العوامل الجذرية في تحطيم طبقة الفلاحين الصغار ، مما ادّى تدريجيا الى انفجار ازمات رهيبة بين صفوف هذه الطبقة .

اما تيودور مومسن ، فبعد ان شعر بسطحية تفسيراته في الاجزاء الثلاثة الاولى من « التاريخ الروماني » اصدر ملحقا لمؤلفه مكونا من جزئين (الرابع والخامس) ، ونراه خاصة في الجزء الخامس ينهج نهجا جديدا ، اذ راح يصف بدقة مختلف مظاهر الحياة الاقتصادية في جميع المقاطعات الرومانية وأثر ذلك في سير الاحداث السياسية .

وفي سنة ١٩٠٦ ، نشر المؤرخ الايطالي Salvioli, G. مؤلفا بعنوان : « الرأسمالية في العالم القديم » حاول فيه تطبيق المفاهيم الاقتصادية للقرن التاسع عشر على الاقتصاد الروماني في العالم القديم .

واصدر مؤرخ ايطالي آخر Guiglielmo Ferrero مؤلفا ضخما عنوانه (عظمة وانحطاط روما) وذلك بين عامي (١٩٠١ — ١٩٠٧)تعرّض الكاتب في مؤلفه هذا الى مختلف المظاهر الاقتصادية والاجتماعية لروما في القرنين الثاني والاول (ق • م) •

ان جميع هؤلاء المؤرخين الذين نهجوا نهج تيودور مومسن ،في اضفاء المفاهيم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لعصرهم على التاريخ الروماني ، ان جميع هؤلاء كانوا ميالين للتقليل من دور الرقيق في المجتمع الروماني • ويمكن اعتبار Meyer, Ed. معبرا عن وجهة نظر هؤلاء المؤرخين في مؤلفه « الرقيق في العصور القديمة » • لقد ظن هؤلاء الكتاب بان تقدير عدد الرقيق في العالم القديم قد بولغ فيه واستنتجوا من ذلك عدم وجود اختلاف اساسي في المجتمع الروماني بين العمل الرقّي (العبدي) وبين العمل الحرّ المأجور • وهكذا توصل بعض الباحثين الى نتائج مغايرة لتحليلات كارل ماركس بالنسبة للخطوط العامة الموجهة للحياة الاقتصاديةوالاجتماعية في المجتمع الروماني • ولكن ، يجب ان نوضح ، بان جميع المكتشفات الاثرية ومختلف الدراسات التاريخية قد اكّدت ، كما سنرى ، صحة وجهة نظر كارل ماركس ، وذلك بالنسبة لاهمية دور الرقيق في المجتمع الروماني •

ولقد نشر العالم كرفس Grevse, I. استاذ التاريخ القديم في جامعة بطرسبرج (لينيغراد اليوم) سنة ١٨٩٩ مؤلفا شهيرا تحت عنوان « ابحاث في تاريخ تطور الملكية العقارية في روما » • ولقد تعرّض فيه لنشوء نظام الملكيات الكبرى (Latifundia) فأوضح شروط تطورها واستثمارها •

واصدر مودستوف Modestov استاذ التاريخ الروماني في جامعة بطر سبرج بين عامي (١٩٠٢ — ١٩٠٤) « المدخل الى تاريخ روما » وهو في جزئين • ويمكن اعتبار مودستوف من المؤرخين الاوائل الذين ابرزوا ضرورة الاعتماد على نتائج ابحاث مختلف العلوم المساعدة للتاريخ (علم

الآثار ، علم الكتابات ، علم النقود ، التاريخ المقارن للديانات البدائية الخ •••) ، وذلك اثناء دراسته للفترات الاولى الغامضة من تاريخ روما ، ونشر مودستوف كذلك « تاريخ الادب الروماني » ولقد تناول فيه التيارات الادبية في روما والامبراطورية وتأثرها بمختلف المظاهر الاجتماعية والسياسية •

اما ڤيبر .Vipper, R استاذ التاريخ في جامعة موسكو ، فلقد قدّم مساهمة ملحوظة في توضيح تاريخ الاباطرة الرومان وذلك في مؤلفه : « دراسات في تاريخ الامبراطورية الرومانية » • الذي صدر سنة ١٩٠٨ولقد ترك لنا في كتاباته لوحة جلّية عن التحولات الاقتصادية كما انه تعرّض للصراع الطبقي العنيف في القرن الاول (ق • م) في روما ، ذلك الصراع الذي افضى بالجمهورية الى الهلاك وادى الى نشوء النظام الامبراطوري •

لا يمكننا بالطبع ، تعداد جميع المؤرخين والتعرض لمؤلفاتهم المختلفة ، ولكننا نكتفي ، كما هو الحال ، بذكر ممثلي اهم التيارات مع اعطاء بعض الامثلة عن اهم كتاباتهم •

ومن اشهر العلماء الذين تعرضوا لنظام الرقيق وتناولوا بالايضاح مظاهره المختلفة ، المؤرخ الفرنسي Wallon في مؤلفه الشهير « تاريخ الرقيق في العصور القديمة » وخاصة الجزئين الثاني والثالث ، ورغم ان صدور الجزء الاخير يعود الى سنة ١٨٧٩ ، فيجب القول بان المؤلف ما زال محتفظا باهمية نسبية حتى يومنا هذا •

ولنذكر كذلك مؤلف .Westermann, W « الرقيق » ولقد صدر بالالمانية في الملحق الثاني للجزء السادس من « الموسوعة التطبيقية لدراسة العصور القديمة الكلاسيكية » :

Pauly, A. F. *Pauly's Realencyclopädie der classichen Altertums wissenschaft,* neue Bearbeitung, begonnen von G. Wissowa. Reihe 1-2. Suppl. Bd. I-VII. Stuttgart, 1894-1959.

اما المؤرخ الانكليزي Finley, M. فلقد اصدر سنة ١٩٦٠ مؤلفا عن الرقيق في العصور القديمة ونعني به :

Slavery In Classical Antiquity, Views and Controversies, Cambridge, 1960.

اما الاستاذ Michouline, A فلقد نشر سنة ١٩٣٥ بحثا مهما عن « انتفاضة سبارتاكوس » • ولاول مرة تدرس فيها الحركة الجبارة للعبيد في العصور القديمة بشكل مفصّل •

وتعرّض البروفسور ميخائيل روستوفتسف الاستاذ في جامعة بطرسبرج سابقا والذي هاجر الى الولايات المتحدة في مؤلفه الضخم الذي صدر باللغة الانكليزية وترجم الى عدة لغات أوروبية ، تعرّض الى الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الفترة الامبراطورية :

Rostovtzeff Michael: *The Social and Economic History of the Roman Empire*, Oxford, 1926.

رغم الميزات العديدة لمؤلف روستوفتسف ، فيجب ان نقول بان ابحاث هذا المؤرخ بالنسبة للعالم الروماني قد كانت مغرضة بل انه شوه بعض الحقائق التاريخية دون قصد أحيانا ، وخاصة ما له علاقة بالحركات والانتفاضات الشعبية التي اجتاحت الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث ولم يفهم جيدا هذه الحركات ولم يجد فيها سوى « قوى مظلمة لتحطيم الثقافة » • قد يكون هذا العالم محقا جزئيا بالنسبة للحركات التي عمّت مختلف اجزاء الامبراطورية في القرن الثالث ، ولكنه وقع على ما نعتقد في الخطأ ، عندما حاول تعميم وجهة نظره هذه على مختلف العصور التاريخية • اذ انه يقول : « بان كل صراع بين الطبقات يؤدي في نهاية الامر الى تحطيم المجتمع ككل » • كان روستوفتسف منطلقا في وجهة نظره هذه من مواقفه من الثورة البلشفية وصراعها ضد النظام القيصري • ولقد اثبتت الايام والتاريخ خطأ وجهة نظره بالنسبة للصراع الطبقي •

ومما هو ملاحظ بشكل ملموس ان الدراسات الرومانية قد تأثرت في

فترة ما بين الحربين (١٩١٨ – ١٩٣٩) بالنظم السائدة في بعض البلدان وخاصة في المانية الهتلرية وايطالية الفاشية •

فنجد مثلا بعض المؤرخين في البلدين المذكورين وفي غيرهما من بلاد الغرب يمجدون اعمال « روما الامبراطورية » ويبررون استثمارها الشرس للمقاطعات زاعمين بان « السلام الروماني » PAX ROMANA قد جلب الخير العميم لجميع سكان الامبراطورية • ونذكر من بين هؤلاء الكتاب ، على سبيل المثال لا الحصر : الايطالي Pais والفرنسي Carcopino والالماني Altheim بل ان بعضهم صوّر الشعب اللاتيني ، كعنصر متفوق ارسلته العناية الالهية لانقاذ شعوب حوض البحر الابيض المتوسط المنحطة سياسيا والمنهارة اخلاقيا ؟!••

ان جميع الوثائق التي بحوزة علم التاريخ اليوم لتدحض آراء اولئك الذين شوهوا الحقائق التاريخية وزوروا الوثائق احيانا ارضاء لسادتهم ممثلي الطبقات الاحتكارية في ايطالية الفاشية والمانية النازية وفي بلدان غربية اخرى • ان « السلام الروماني » PAX ROMANA المزعوم لم يكن في الواقع – وكما سنرى فيما بعد – الا سلام الموت بالنسبة للمقاطعات •

ان أمرا كهذا يدفعنا لان نكون حذرين لدى قراءتنا بعض المؤلفات التي ظهرت منذ خمسين سنة وحتى يومنا هذا • ولكن هذا لايعني ابدا بانه يترتب علينا اهمال مؤلفات كهذه بل بالعكس تماما ، علينا ان نتعرّف عليها وندرسها بشكل علمي مسلطين عليها تفكيرا نقديا ، مستندين في كل ذلك الى الوثائق التاريخية ومعطيات مختلف العلوم المساعدة للتاريخ •

لنذكر باختصار أهم ما ظهر من دراسات شاملة متعلقة بالعالم الروماني منذ خمسين سنة وحتى يومنا هذا :

مجموعة كامبريدج للتاريخ القديم •

The Cambridge Ancient History

خُصّصت اجـزاء ستة لروما وامبراطوريتهـا ونعني بذلك الجـزء السابع ، الثامن ، التاسع ، العاشر ، الحادي عشر والثاني عشر • ولقد ظهرت هذه الاجزاء بين عـامي ١٩٢٨ ـ ١٩٣٩ • ويعاد طبعها اليـوم مـع بعض الاضافات والتعديلات •

٢) ـ الموسومة الالمانية للدراسات التاريخية القديمةونعني بها «موسوعة Pauly Wissowa » [1] • صدرت اجزاؤها في Stuttgart اعتبـارا من عام ١٨٩٤ ولقد تم طبعها عام ١٩٥٩ • ويضاف الى الموسـوعة سنويا بعض الملاحق •

٣) ـ مؤلف له اهمية خاصة في الغرب ولقد اثار صـدوره ضجـة في الاوساط العلمية ومازال يثير النقاش الحاد • ونعني به « نهاية العالم القديم» للمؤرخ الالماني Altheim, F. صدر الكتاب في فرانكفورت سنة ١٩٥٣ وترجم الى عدة لغات اوربية •

نقول ان لهذا الكتاب اهمية خاصة لأنه يمثل تيارا في الدراسات التاريخية المتعلقة بروما وامبراطوريتها •

يرجع Altheim تفسخ النظام الروماني وانهيار الامبراطورية الى عوامل خارجية ، ويقول في صـدد ذلك : ان ظهـور القوى البربرية (من جرمانية وغيرها) المكونة خاصة من الفرسان المزودين بالسلاح الثقيل كان حاسما في القضاء على الامبراطورية الرومانية اذ لم يعد بمقدور فيالق المشاة الرومانية الصمود امام تلك القوى •••• وكما يقول هذا الكاتب وبالحرف « الازمة الخارجية وحدها هي التي ولدّت الازمة الداخلية » •

فماذا يعني هذا القول ؟ نحن بدورنا نعتقد بان Altheim قد اهمل عن قصد أو عن غيره الاسباب الدفينة التي كانت حاسمة في تفكك « نظـام الامبراطورية الرومانية » • أما هذه الاسباب العميقة ، فنحن نراها خاصة في عوامل داخلية نحاول تلخيصها كالآتي :

---

(١) راجع صفحة ٢١ •

آ ـ الصراع الطبقي الحاد بين طبقة العبيد وباقي طبقات المجتمع الروماني في الغرب عامة وفي ايطالية خاصة • اما بالنسبة للقسم الشرقي من الامبراطورية ، فلقد كان هذا الصراع اقل عنفا اذ ان عدد الارقاء في المقاطعات الشرقية كان اقل بكثير مما هو عليه في القسم الغربي من الامبراطورية •

ب ـ تقهقر ايطالية في المجال الاقتصادي وهذا اعتبارا من القرن الاول (ق•م) • ولقد بدت هذه الظاهرة نتيجة لاسباب عديدة سنتعرض اليها فيما بعد •

جـ ـ تفسخ المجتمع الايطالي نتيجة لانهياره الاقتصادي • ولقد كان لزوال الطبقة الفلاحية الوسطى والصغيرة دور كبير في كل ذلك • ولقد ضعف الجيش الروماني بتقلص عدد الفلاحين الايطاليين • اذ كما سنرى ، كانت طبقة الفلاحين في ايطالية بمثابة العمود الفقري للفيالق الرومانية • ونتج عن هذا التفسخ الاجتماعي انهيار أخلاقي نلاحظ اصداءه في المظاهر اليومية لمختلف الطبقات في ايطالية عامة وفي روما خاصة •

د ـ نتيجة لتضعضع دور ايطالية في المجال الاقتصادي ، راح تيار لا مركزي يظهر في مختلف المقاطعات الخاضعة لروما وذلك اعتباراً من القرن الاول (ميلادي) •

ولقد برز هذا التيار على اشده في المقاطعات الشرقية ، اي المقاطعات ذات التاريخ الحضاري الموغل في القدم • بل ان بعض تجار هذه المقاطعات قد انتزعوا المبادرة من الأيطاليين انفسهم في روما ذاتها ويكفينا ان نذكر هنا دور التجار السوريين الذين مدوا نفوذهم الى القسم الغربي للامبراطورية بل تجاوزوه ووصلوا الى اوربة الشمالية •

وهكذا : لقد مهدت اللامركزية الاقتصادية الى تفكك سياسي في الامبراطورية•طبعا ان الامر لم يتمخلال سنين معدودة بل استغرق تفاعل

هذه العوامل المختلفة عشرات بل مئات السنين . ولقد تمّ تفاعل هذهالعوامل مع بعضها البعض بشكل جدلي . على كل لنا عودة الى هذه النقطة ولكن يمكننا القول منذ الان بان تحليلا يحاول استقصاء الاسباب الدفينة لظاهرة معقدة كانهيار الامبراطورية الرومانية لهو اقرب الى الحقيقة التاريخية من تحليل سطحي وحيد الجانب .

وهكذا ، وبعد ان عرضنا بعض العوامل الداخلية التي ادّتالىالانهيار النهائي للامبراطورية ، نعتقد بانه من الممكن القول : بان نظرية Altheim بالنسبة لانهيار الامبراطورية الرومانية يجب ان تقلب رأسا على عقب ، اي ان الاسباب العميقــة للتفسخ تكمن داخل المجتمــع الروماني ، ولم تصبح الازمة الخارجية خطرة الا عندما غدا المجتمع الروماني غير قادر على الرد على هجمات البربر . وبتعبير آخر لولا وجود ازمة داخلية عميقة الجذور وبعيدة المدى تمزق اوصال العــالم الروماني لما تمكنت جحافل البربر من تهــديد كيان الامبراطورية . وهكذا : الازمة الداخليــة هي التي سمحت بظهور ازمة خارجية متمثلة بضغوط القبائل البربرية على حدود وخطوط دفاعالعالم الروماني وليس بالعكس .

وهكذا جعل Altheim من النتيجة سببا . لقد كان من الممكن ان يقبل تفسيره على أساس زلّة عارضة أو اجتهاد له مبرراته.ولكنعندما نربط بين وجهة نظر Altheim هذه وتفسيره للتاريخ ندرك بيت القصيد في كل ما يرمي اليه هذا المؤرخ ، ونعني بذلك نكرانه او على الاقل تقليلــه لــدور الصراع الطبقي .

لقد ركّز هذا الكاتب الالماني انظاره على الحدود ، ناسيــا او متناسيــا ما كان يجري من صراعات طبقية ووطنية عنيفة داخل العالم الروماني[1] .
ومن المؤرخين الغربيين الذين شغلت احداث السياسة الخارجية لروما

---

(١) من أجل رأي مغاير لما ورد لدى Altheim انظر :
J. Gagé, *Les Classes Sociales dand l'Empire Romain*, Payot, Paris, 1964, p. p. 415 - 449.

حيزاً كبيراً من تفكيرهم ، هو المؤرخ الانكليزي Scullard الاستاذ في جامعة لندن . ففي مؤلفه « تاريخ العالم الروماني » الذي نشر في لندن عام ١٩٥١ ، حاول ان يبرر السياسة الخارجية لروما منذ القرن الثالث ق.م. بالرغم من ان مؤلف « تاريخ العالم الروماني » يصبغ سياسة روما الخارجية بالصبغة الامبريالية ، فانه يستدرك قائلا : « بان هذه الامبريالية لم تكن الا دفاعية » . وهكذا ، فان كل توسع روماني مرده عند Scullard الى رغبة سيدة ايطالية ، في الدفاع عن كيانها .

ولكننا سنرى من استعراضنا لمجريات الاحداث (تدمير قرطاجة ، التدخل في شؤون بلاد اليونان قبل اخضاعها ، احتلال الشرق الخ ...) بان زعم المؤرخ الانكليزي لا يستند الى تحليل علمي رصين ، بل انه يتستر احيانا على بعض الامور ليبيض صفحة روما .

لا ندري اذا كان Scullard بدفاعه عن « الامبريالية الدفاعية لروما » ، بل باطنابه على دور روما التمديني في المقاطعات ، نقول لا ندري ، هل يرمي من وراء كل ذلك الى تبرير سياسة انكلترا الاستعمارية منذ القرن السابع عشر .

من الملاحظ ، ان الدراسات المتعلقة بالديانات والعقائد ومختلف التيارات الصوفية في العالم الروماني ، كانت محط انظار عديد من المؤرخين منذ مطلع قرننا هذا . وبشكل عام ، قدم العلماء المعاصرون المختصون بتاريخ روما عددا وافرا من الدراسات القيمة التي تعالج نقاطعا معينة لمختلف جوانب الحياة الرومانية : اللغة ، الفلسفة ، السياسة ، الفن . الخ ... ولكن يجب ان نقول بان اغلب هذه الدراسات تحتاج الى النظرة المنهجية الشاملة . ولا ندري حقا . ما هي الاسباب التي تحول بين البعض وبين كتابة تاريخ شامل لروما كما فعل بعض كتاب القرن الماضي .

ان هذه الظاهرة تصح خاصة بالنسبة لمؤرخي العالم الغربي . اذ ان الوضع في العالم الاشتراكي بدأ يختلف نسبيا عما هو عليه في الغرب .

اننا لم نذكر من المراجع الا ما هو في متنـاول ايدي طلابنـا ، اذ ان المؤلفات والدراسات الرومانية تعد اليوم بالمئات بل بالالاف • وسنحاول جهد الامكان ، اثناء بحثنا ، ان نتطرق لبعضها ، مثبتين في اخر كل فصل بعض المراجع الاساسية •

رأينا ان نسوق هـذه الملاحظات السريعة قبـل ان ندخل في صلب الموضوع •



القسم الأول

ايطالية العتيقة وحضاراتها

الفصل الأول

شبه الجزيرة وخواصها الجغرافية

١ ـ تكوينها

تمتد القارة الاوروبية في وسط البحر الأبيض المتوسط على شكل لسان مكونة شبه الجزيرة الايطالية • ولقد شبهت ايطاليا بشكلها الغريب ،بسوقاء (جزمة) تتهيأ لقذف كرة ليست الا جزيرة صقلية • وتجتاز شبه الجزيرة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي سلسلة (جبال الابنين) مقسمةاياها الى قسمين شبه متساويين • ويحيط بايطالية من جهاتها الثلاث : البحر الادرياتيكي[١] مشكلا في أقصاه الشمالي خليج البندقية ؛ والبحر التيراني[٢] الذي يحيط به من الجنوب الى الشمال الغربي جزر : صقلية وساردينية وكورسيكة محولة اياه الى شبه بحيرة ثم البحر الايوني[٣] الذي يمتد بين ايطالية في قسمها الجنوبي الشرقي والبانية وبلاد اليونان • وتكاد تفصل ايطالية في الشمال عن القارة الأوروبية سلسلة جبال الالب ، التي تحيط بها

(١) كلمة « ادرياتيك » تنسب الى مدينة Adria في منطقة البندقية • ولقد كانت مطلة على الخليج ، أما اليوم ، فان طمي نهر البو على مر العصور قد أبعدها الى داخل البر •

(٢) نسبة الى البطل الاسطوري Tyrrhenos • ولقد نسب اليه دور كبير في تأسيس (تيرينيه) وهو الاسم الذي أطلق على أترورية القديمة وترجع الاسطورة أصل البطل الى ليدية . في آسية الصغرى •

(٣) البحر الايوني : بمعنى البحر اليوناني ، اذ أن هذا البحر كان يحيط بشواطيء اليونان الكبرى • ولفظة أيوني مشتقة من ايون Ion احد الابطال الخرافيين الذين انحدر منهم الشعب اليوناني •

ممتدة من (سان ريمو San Remo) ، على المتوسط حتى (تريستة المطلة على الادرياتيك) ، مشكلة منحدرات شبه قائمة على طول (٧٠٠ كم) متاخمة لفرنسة وسويسرة والنمسة • ولولا وجود بعض الوديان التي أمنت الاتصال في القديم بين ايطالية الشمالية وجيرانها الشماليين ، لكانت شبه الجزيرة منعزلة حقا من ناحية البر عن القارة الأوروبية • ولقد كتب في هذا الخصوص الجغرافي سترابون قائلا : « يشكل البحر مع جبال الألب سورا منيعا لحماية ايطالية من الغزوات » ومما لاشك فيه ، أن البحر الذي رد عن الشواطىء الايطالية في القديم عديدا من الغزوات نقول أن هذا البحر نفسه لم يعق الايطاليين القدماء من الاتصال بالعالم الخارجي • اذ كما سنرى ـ وخاصة اعتبارا من القرن الثالث ق•م ـ سيتطور بناء السفن وستنمو طرق المواصلات البحرية لتلعب دورا كبيرا وأحيانا حاسما (الحروب البونية) في الحياة العسكرية والاقتصادية للعالم الروماني •

٢ ـ المناخ والشروط المادية :

ان كون شبه الجزيرة بحرية من ناحية وشبه منعزلة عن القارة الأوروبية من ناحية أخرى يجعلها شبيهة في بعض صفاتها الجغرافية ببلاد اليونان القارية • وثمة صفة أخرى تجمع بين ايطالية وموطن صولون وفيدياس وبيريكليس ونعني بذلك مناخها اللطيف • فعدا عن بعض الأيام القارسة شتاء والشديدة الحرارة صيفا ، تتراوح الدرجة الوسطى للحرارة في شهر كانون الثاني بين (+ ٦ في روما) و (+ ١١ في صقلية) مما يسمح للماشية أن ترعى في العراء طوال أيام السنة •

أما نسبة هطول الامطار وتوزيعها السنوي ، فتكاد تكون كافية لزراعة مختلف أنواع الحبوب والاشجار المثمرة • أما بالنسبة لتوزيع المياه على مناطقها ، فمن الملاحظ أن الشمال والسفوح الغربية لجبال الابنين لها الحظ الأوفر من ذلك • ولو ألقينا نظرة خاطفة على خارطة ايطالية ، لادركنا بعض الاسباب التي حدت بالتجمعات البشرية منذ القديم ، لاستيطان سهل البو

والشواطيء المطلة على المتوسط قبل غيرها من بقاع شبه الجزيرة • أما بالنسبة لصقلية ، فيكاد الأمر ينطبق عليها ، عدا عن بعض المدن التي أسست في نقاط معينة ، لموقعها الاستراتيجي (مسينة مثلا) ، أو لموقعها البحري الممتاز وخصوبة تربتها (سيراكوزة) • أما بالنسبة للسفوح الشرقية لجبال الابنين ، فمراعيها تصلح خاصة لتربية المواشي • ولقد لعبت تربية المواشي دورا أساسيا في اقتصاديات ايطالية وذلك منذ فجر التاريخ • ويظن بأن اسم ايطالية قد اشتق من Viteliu أي (بلا العجول) ، وهو الاسم الذي أطلقه اغريقيو اليونان الكبرى على برويتوم ، المنطقة الجنوبية الغربية Bruttium، الشهيرة بغاباتها ومراعيها الجبلية •

واحتلت تربية الماشية ، قبل زراعة الحبوب ، المركز الأول في الاقتصاد الروماني والايطالي • ولقد أتخذت قطعان الماشية في البدء ، كأساس لتقدير ثراء القبيلة والعائلة وكلمة ***Pecunia*** اللاتينية التي ترجمت معنى (النقد) اعتبارا من القرن الخامس (ق•م) • قد دلّت في البدء على الثروة الصادرة عن الماشية • ونشتق الكلمة بدورها من ***(Pecus, oris)*** قطيع الماشية و ***(Pecus - udis)*** رأس الماشية •

أما أن تكون تربية المواشي قد جاءت في المرتبة الأولى قبل الزراعة عند الايطاليين القدماء ، فهذا ليس بالأمر الغريب • فنحن نجد أصداء لتلك الظاهرة لدى كثير من الشعوب القديمة • بل أن مظاهر الثراء والغنى والمجد قد ارتبطت أول ما ارتبطت بملكية الماشية • فلقد عبّر التدمريون مثلا عن القوة والثروة بكلمة تقارب لفظا بل لنقل مشتقة من اسم الماشية الأكثر رواجا عند سكان سورية القدماء • فكلمتا عز وعنز تعنيان شيئا واحدا تقريبا[1] • ونجد صدى لذلك ، في لغة تؤام للآرامية ، ونعني بذلك لغتنا العربية •

---

(١) يتأكد اكثر فاكثر بان سكان تدمر بأغلبيتهم كانوا من القبائل العربية الذين استعملوا لهجة من اللهجات الآرامية الى جانب اللغتين اليونانية واللاتينية أحيانا • انظر بشأن لفظتي عز وعنز معجم **Gesinius W.** :
Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, **Oxford, 1962, p.p. 738,777.**

ويفسر بعض المؤرخين عديدا من الروايات الاساطيرية عن منشأ روما في فتراتها الأولى بدوافع لها صلة وثقى بتربية المواشي وانتجاع الكلأ • فمثلا الاستيلاء على مدينة آلبـا (Alba) ليس في الواقع الا تصميم كبـار ملاكي المواشي في روما على الحصول على مناطق رعي لماشيتهم صيفا • ويجب أن نوضح بأن الريف الروماني يكون قد جف في الصيف بينمـا منـاطق آلبـا الجبلية تظل خضراء • ويمكننا أن نقول اليوم بدون أي تردد ، بان الصراع العنيف الذي نشب في القرون الأولى للعهـد الجمهوري بين طبقة النبـلاء *Patres* وطبقة العوام *Plebs* لـم يـكن الا صراعـا على الأرض بـين كبار ملاكي قطعان الماشية وفلاحين صغار يحرثون الأرض •

يذكر بعض كتاب العصر الجمهوري ، تزلفا للنبلاء وتقربا منهم ، بأن رومولوس (الملك لخرافي) قد قسّم المنطقة الرومانية الى فئات ثلاث :

آ ـ الأرض العائدة للملك *Ager Regius* وكانت تعتبر ملكية مقدسة •

ب ـ قسم وزع على النبلاء وكان بمثابة ملكية خاصة ، ليقوموا بزراعته ، *Ager Privatus* .

ج ـ أما القسم الاخير ، فكان يشكل ملكية مشاعة بين جميع العائلات النبيلة وغير قابل للتوزيع وكان مخصصا لرعي الماشية *Ager Publicus*

وهكذا تظهر لنا أهمية تربية المواشي في ايطالية وروما منذ بداياتهـا الأولى • ولقد اعتنى سكان شبه الجزيرة بمختلف أنواع الماشية : كالخرفان والمعز والخيول والحمير والخنـازير كمـا أنهم ربّوا البقر ، ولكن هـذه الفصيلة من المواشي كانت محدودة العدد ، وخاصة في اللاتيوم •ولقد شربوا حليب البقر في بادىء الامر ولم يعرف عنهم بأنهم استهلكوا لحمه ولقـد حمت بعض القوانين الصارمة البقر وكان الموت جزاء من يجرؤ على قتل بقـرة •

ونجد صدى لأهمية تربية المواشي ومنزلة بعض الحيوانات في ممارسة شعائر وطقوس دينية معينة • فمثلا تطهير منطقة ما أو تحريم شيء *Lustratio*

يتم بالطواف ثلاث مرات حول ما يُراد تطهيره أو جعله محرما • والطواف يتم وفق تقاليد محددة ويتولاه كاهن يجرّ وراءه خنزيرا *Sus* وشاة *Ovis* وثورا *Taurus* وبعد أن تتم عملية الطواف ، تذبح الحيوانات ويراق دمها بقرب ما يراد تكريسه مقدما أو محرما • ونطلق على هذه العملية اسم *Suovetaurile* والاسم مركب من مفردات ثلاث ترمز الى الحيوانات التي تم تضحيتها •

ومقارنة خاطفة بين آلهة الرعي الرومانية ـ الايطالية في القرون الأولى لتاريخ شبه الجزيرة وبين الالهة الزراعية التي انتشرت عباداتها لدى شعوب الشرق الأولى، اعتبارا من الالف الرابع ق•م أي بعد استقرار تلك الشعوب وبدء ممارستها للزراعة ، لخير دليل على ما كان لتربية المواشي من دور أساسي في حياة ايطالية حتى مطلع الالف الاول ق•م وتشكل الزراعة ، لدى أغلب الشعوب المرحلة الانقلابية التي تلت الرعي •

وفي الواقع ، ماذا تعني الزراعة ؟ أليست سوى استقرار البدوي وارتباطه ومن ثم البدء ببناء القرى ؟ ألا يعني كل ذلك أن هذا الانسان قد ارتقى درجة في السلم الحضاري • ان انتقال المجتمعات البشرية من الرعي الى الزراعة ليس الا « ترجمة » لقفزة نوعية حققها البشر في مجال الانتاج، ولم يكن بامكان قفزة كهذه أن تتم دون أن يسبقها تراكم حضاري لتجارب عديدة شملت وسائل الانتاج من ناحية والفاعليات البشرية من ناحية أخرى • بالنسبة لايطالية ، لسنا واثقين من الفترة التي تم فيها نهائيا الانقلاب الزراعي أو الانتاجي للطعام *The Food Producing Revolution* كما يعبّر عنه العالم الانكليزي غوردن تشايلد •

يعتقد البعض بأن هذا الانقلاب قد تم بالنسبة لكثير من البقاع الاوربية وخاصة الجنوبية الغربية منها في غضون الالف الخامس ق•م ، أي جاء متأخرا بثلاث آلاف سنة عما كان عليه في الشرق الادنى ووادي النيل • ولكن مما لا شك فيه ، أن التعرف على الزراعة وممارستها بشكل منظم وعلى

نطاق واسع لم يتحقق في أوربة الغربية الا في فترات متأخرة جدا •

أما بالنسبة لايطالية وخاصة في مناطقها الشمالية والوسطى ، فلقد كان للاتروسيكين فضل كبير في ادخال أساليب زراعية ناجعة • ومما لا شك فيه ، أنه في اليوم الذي يتوصل فيه العلماء المختصون الى حل رموز الكتابة الاتروسكية بشكل مرض ، سيكون بمقدورنا حينئذ أن نحدد الدور الفعلي الذي لعبه الاتروسيكيون في تحضير الشعوب الايطالية •

ولقد أعتنى الايطاليون وسكان اللاتيوم ، وخاصة منذ الفترة الاتروسكية ، بزراعة بعض أنواع الحبوب (القمح – الشعير) والخضار (العدس ، الفول ، الملفوف ، الكراث ، البصل ، الخ ••••) أما الكرمة ، فيظهر بأنها كانت قديمة في ايطالية وكذلك بعض أنواع الثمار (التفاح خاصة) ولقد أدخل اليونانيون والكنعانيون فيما بعد الزيتون والرمان وكذلك النخل في بعض المناطق الجنوبية •

وكما أن اهتمام الطبقة النبيلة قد كان منصبا على تربية المواشي ، فلقد كانت زراعة الارض نصيب طبقة العوام • ولو أردنا تعريف الايطالي بشكل عام واللاتيني بشكل خاص ، في العهدين الملكي والجمهوري ، لقلنا بأنه كان فلاحا ، مرتبطا بأرضه يعيش حياة بسيطة ، جامعا بين الصفات الايجابيه والسلبية لجميع الريفيين أي أنه كان عنيدا عمليا ، معتقدا بالخرافات التي تؤثر وفقا لاعتقاده ، على مجرى حياته اليومية ، مدافعا عن مصالحه بضراوة، متجولا بسهولة غريبة الى جندي جلد يتحمل مختلف الصعاب • ولم يكن الروماني بطبيعته فنانا أو مولعا بالفن ، والفن في نظره ليس الا ترفا لا معنى له في حياته •

وكذلك لم ينزع الى الدراسات النظرية المجردة • وكما سنرى ، ترجم هذا الروماني نبوغه في هذا المجال في التشريع والقانون والادارةوحكم الآخرين • ولنذكر هنا قول الشاعر اللاتيني ورجيليوس Vergilius الذي عاصر فترة الامبراطور أوغسطوس « ان غيرنا يسكبون المعادن في

قوالب بديعة تكاد تنبض منها الحياة وينحتون المرمر حتى يكاد ينطق ويتحرك • وكذلك فانهم يستطيعون معرفة حركات الكواكب في السماء أما أنت ياروما فليكن عملك حكم الشعوب وليكن فنك أن تنشري السلام وتبقي على المغلوب وتقهري بالسيف كل معاند ، مغرور » •

٣ ــ اليونان ــ روما ــ الشرق :

يتبين مما أوردناه ، أن هنالك نقاطا جوهرية يتناقض فيها الايطالي مع ما رأيناه في « الرجل العادي » اليوناني • فما عدا سكان اسبارطة ، لم يكن اليونانيون وخاصة سكان السواحل مرتبطين بالارض كالايطاليين • ومنذ القرن التاسع (ق•م) نراهم كما قال افلاطون : « ينتشرون على شواطىء الابيض المتوسط ، كما تنتشر الضفادع على ضفاف الغدير • »

ولم يتمكن الروماني ، حتى في أوج سيطرة روما ، في القرنين الأول والثاني (ميلادي) من مجاراة اليوناني في ميدان التجارة العالمية •

وكذلك في ميدان القتال ، فما عدا فترة الحروب الميدية ، حيث اضطر خلالها اليونانيون الى حمل السلاح في وجه الغزاة الفرس ، لم يعرف عن اليوناني بأنه كان محاربا فتح بلدان الغير بحد السيف • وأغلب المستعمرات التي أسسها اليونانيون ، كانت لغايات تجارية أو لتأمين طرق المواصلات البحرية • أما بالنسبة لاسبارطة فبالرغم من اشتهارها بجيشها وبتنظيمه ، فلقد كان هذا الجيش مكرسا لحماية نظامها الارستقراطي • وحتى أثناء الحروب الميدية ، واجتياح الفرس لبلاد اليونان ، تردد الاسبارطيون كثيرا قبل ارسال جنودهم خارج شبه جزيرة البلوبونيز لصد الهجمات الفارسية •

وكذلك في النطاق السياسي ، لم يتمكن اليونانيون وحتى في تلك الفترات الحرجة من تاريخهم القومي ، من توحيد صفوفهم الا بصعوبة فائقة ، وفقط لفترة قصيرة • ولن يظهر على مسرح الاحداث في بلاد اليونان نظير لروما يتمكن من توحيد شبه الجزيرة تحت زعامته وسيتم في غضون

القرن الرابع (ق•م) ، توحيد بلاد اليونان ، ولكن من الخارج وعلى شكل اخضاع ، وذلك على يد شعب أعتبر طويلا غير يوناني ، ونعني بذلك المقدونيين بزعامة فيليب الثاني وابنه الاسكندر الكبير • وفي الواقع ، ظل اليونانيون ولفترات طويلة يعتبرون مقدونية وتراقية مناطق (بربرية) أي غريبة عنهم •

وفي الواقع ، ساد عند اليونانيين في عصرهم الكلاسيكي نظام (المدينة-الدولة) ولقد عرفت بلاد ما بين النهرين ومصر هذا النوع من الحكم في بداياتها الأولى • ولكن فيما بعد ، رأينا أسرا تتمكن من توحيد هذه المناطق وتحكمها حكما مركزيا • مما لا شك فيه ، ان التكوين الجغرافي ثم ضرورة تنظيم أمور الري قد لعبا دورا حاسما في هذا المجال•والملاحظ أن الزراعة احتلت في تلك المناطق مكان الصدارة في الحياة الاقتصادية وستتكرر نفس الظاهرة وبعد آلاف السنين في ايطالية ، حيث ستحتل الزراعة دورا مرموقا في الحياة الاقتصادية لشبه الجزيرة اعتبارا من العهد الجمهوري ، وهنا أيضا تبرز روما وتتمكن بعد خوض معارك دامية من توحيد ايطالية تحت زعامتها• سنحاول في محاضراتنا القادمة أن نتطرق الى مختلف العوامل التي مهدت لسيدة اللايتوم أن تسيطر على مختلف المناطق الايطالية •

وبودنا ، قبل أن ننتقل الى نقاط أخرى أن نجري مقارنة خاطفة بين بعض المظاهر الاقتصادية والسياسية لبلاد اليونان اعتبارا من القرن الثامن (ق•م) وبين أوضاع سورية في الفترتين الكنعانية[1] والارامية •[2]

---

(١) لم يكن هنالك شعب كنعاني وشعب آخر فينيقي • ان اسم « فينيقي » قد أطلقه الكتاب اليونانيون على الكنعانيين • وأول من اشتق لفظ « فينيقي » كناية « بالكنعانيين » المؤرخ الجغرافي اليوناني هيكاتيوس (القرن السادس ق•م) • وأغلب الظن أن لفظة « فينيقي » مشتقة من الصفة اليونانية فوينكس Phoinix بمعنى « الاحمر الارجواني » ولقد اشتهر ، كما نعلم، الفينيقيون باستخراج الارجوان من الاصداف البحرية• وتعثر على لفظة فينيقي قبل قبل هيكاتيوس في الملاحم المنسوبة لهوميروس • أما سكان سورية في الفترة الكنعانية ، فلقد أطلقوا على المنطقة اسم بلاد كنعان بمعنى بلاد التجار واسم كنعان قديم جدا ولقد ورد في اللوحة رقم ١٥٠ من لوحات تل العمارنة (القرن الرابع عشر) ق•م على شكل « كنعني » بمعنى تاجر •

فكما أنه كان للتجارة دور كبير في الحياة الاقتصادية للمدن الكنعانية ــ الفينيقية ومن ثم الارامية ، نرى بأن الظاهرة نفسها تتكرر في اكثر المدن اليونانية .

أما بالنسبة لنظام الدولة ، فكما يقول الدكتور جورج حداد « من مميزات الحكم في دول سورية أنها لم تقم امبراطوريات ذات صبغة عسكرية مثل آشور وبابل ومصر ، فالفينيقيون كان توسعهم تجاريا ومستعمراتهم لم

ولم تقتصر بلاد كنعان ــ كما يعتقد البعض على القسم الجنوبي لسورية ــ فلسطين . ويقول العالم الاثري كلود شايفر (وهو الذي اشتهر بحفرياته في رأس شمرة) فيمحاضرة ألقيت في معهد فرنسة (College de France) ونشرت في حوليات المعهد : Annuaire Du College De France 1959 : « بالاستناد الى لوحات تل العمارنة والى

وثائق رأس الشمرة المكتشفة حديثا والى المكتشفات الأثرية التي نشرت أخيرا عن حفريات طرسوس في قيليقية واريحا ... ثبت لنا أن بلاد الكنعانيين بين شواطيء المتوسط الشرقية وصحراء سورية اتسعت في الجنوب ، من فلسطين الجنوبية الى أوغاريت (رأس الشمرة) وفي الشمال استعمر الكنعانيون سهول دانونا الخصبة « أدنة » واستثمروها منذ النصف الأول للألف الثاني ق.م. وكانوا يؤسسون على السواحل نقاط ارتكاز لتجارتهم . وقد بلغ من قوة واستمرار الكنعانيين في هذه الارجاء أن ملك صور (١٤٠٠ ــ ١٣٥٠) في رسالة منه الى الفرعون المقيم حينئذ في تل العمارنة ذكر دانونا (أدنة) ضمن بلاد كنعان ... الخ . »

(٢) كان للاراميين عدة دويلات وممالك . ولم يتمكن الاراميون من توحيدها وجعلها خاضعة لسلطة مركزية . ومن أشهر ممالكهم :

آ ــ في مناطق مابين النهرين : (مملكة بيت عديني) (القرن الحادي عشر .م) ، مملكة (بيت بخيتاني) على الخابور وعاصمتها « تل حلف » .

ب ــ في سورية ابتداء من الالف الاول :

ــ مجموعة الكتلة الشمالية : حلب ، أرپاد ، شمال وعاصمتها (زنجرلي) ؛

ــ مجموعة الكتلة الوسطى : ومن أشهرها دولة حماة .

ــ مجموعة الكتلة الجنوبية : آرام دمشق ، آرام صوبا (في منطقة حوران) ، آرام معكا (في منطقة الجولان) آرام بيت رحوب (على ضفاف الليطاني) .

لم يشتهر الاراميون في نطاق الحكم والسياسة ولكن ذاع صيتهم نتيجة لدورهم الثقافي والتجاري . فكما أن الكنعانيين اوجدوا الكتابة الابجدية واحتكروا تجارة المتوسط لقرون عديدة ، نشر الاراميون الكتابة مع لغتهم شرقا ، كما أنهم سيطروا على تجارة الشرق الادنى ومدوا نفوذهم حتى الهند .

ويجب أن لا ننسى بأن اللغة الارامية قد أصبحت لغة رسمية الى جانب الفارسية في الفترة الاخمينية وهم الذين علموا الهنود ــ الاوروبيون الكتابة . ومن هنا نرى دورهم الثقافي الكبير .

تخضع لحكومة مركزية معينة وانما كانت مستقلة والاراميون توسعوا تجاريا في البر وثقافيا بدون أن يصحب توسعهم سلطة سياسية مركزية • »

لا مجال لدينا الآن للتطرق الى الاسباب العميقة التي حالت دون قيام حكم مركزي في كل من سورية وبلاد اليونان بعكس مامر معنا بالنسبة لبلاد الرافدين ومصر من جهة وروما فيما بعد من جهة أخرى • ونقتصر في محاضراتنا هذه ، المخصصة للتاريخ الروماني ، على ايراد بعض المفارقات وذكر بعض الملاحظات • يقول في هذا الصدد الشيخ نسيب وهبه الخازن في بحثه عن الكنعانيين •• ، « لم يكن موطنهم صالحا لتأسيس امبراطورية وهو الممتد كالشريط على طول ساحل بحر البلاد التي هي الآن فلسطين ولبنان وسورية تفصله من جهة البر جبال شامخة كما تجزؤه في الداخل أودية سحيقة الغور وقمم عاصية تحول دون وحدة سكانه وتخلق فيه مدنا مستقلة •••• لم تقم الحروب الدامية بين المدن الكنعانية ـ الفينيقية ، كما قامت بين المدن التي تكونت منها الامبراطوريات بعد أن انتصرت احدى تلك المدن على سواها كما حدث في أثينة واسبارطة وروما بعدهما • وقد علل ذلك كثيرون من العلماء الاثريين بالقول أن اغراء الآفاق الواسعة خفف عند الفينيقيين[١] الاهتمام بالخصام المحلي الداخلي[٢] • »

لاشك بأنه كان للاسباب التي أوردها الشيخ الخازن بعض الأثر في حياة الكنعانيين ، ولكننا نضيف بدورنا انه لابد من دراسة أكثر شمولا تتناول مختلف نواحي المجتمع الكنعاني :

(الطبقات الاجتماعية المختلفة وعلاقاتها مع بعضها البعض ، دور صغار الحرفيين والعبيد في الانتاج ، ملكية وسائل الانتاج ، نصيب الزراعة في الاقتصاد ، التجارة الداخلية والخارجية وأثر كل ذلك على أجهزة الحكم والادارة ، الخ ••••) •

---

(١) انظر بالنسبة لاسم « الفينيقيين » ملاحظاتنا السابقة أعلاه •

(٢) من الساميين الى العرب ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٤١ •

ونقطة أخرى تتلاقى فيها كل من سورية وبلاد اليونان ، ونعني بهـا الدور الثقافي الكبير لكل من المنطقتين في رحاب الحضارة الانسانية • ومن الملاحظ أن الكنعانيين فالاراميين ومن ثم اليونان قد لعبوا دور الوسطـاء بين الامبراطوريات الكبرى والحضارات العالمية • اذ يجب أن لاننسى بأن الممر السوري ـ الفلسطيني كان الجسر الواصل بين بلاد الرافدين ووادي النيل كما أن الاغريق الذين استوطنوا شواطىء آسية الصغرى وايطالية الجنوبية قد تمثلوا في البدء الحضارات الشرقية واغنوها فيما بعد لينقلوها بدورهم الى ايطالية اعتبارا من القرن السادس ق • م

٤ ـ نقاط تباين بين جغرافية ايطالية وجغرافية بلاداليونانالقارية:

لقد ذكرنا من الناحية الطبيعية ، بعض نقاط تماثل بين ايطالية وبـلاد اليونان القارية (البحر ، فالجبال التي تعزل المنطقتين عن القارة الاوروبية ، ثم لطافة المناخ التي لعبت دورا هاما في تحديد شكل البناء واللباس ـ كمـا سنرى ـ وكذلك أثرت على طراز الحياة اليومية لليونانيين والرومانيين ،وهم الذين كانوا يقضون القسم الأكبر من يومهم خارج دورهم ، الخ ••••)•

ولكن الى جانب نقاط التماثل هذه ، تبرز لنا في التركيب الطبيعي لكل من المنطقتين نقاط تباين ، نورد أهمها :

آ) كون مساحة ايطالية (٣٠٠ ألف كم ٢) مساوية خمس مرات تقريبا لمساحة بلاد اليونان • ويقترن هذا الامتداد في الرقعة بازدياد نسبي في عدد السكان • ومن هنا تبدو لنا ضخامة أحداث التاريخ الرومـاني وجسامة أبعاده ، بخلاف ما ألفناه بالنسبة للتاريخ اليوناني •

ب) رغم كون شبه الجزيرة الايطالية جبلية كبلاد اليونان ، فان منحدرات (جبال الأبنين) هي أقل شدة ووعورة ووديانها أسهل منـالا ممـا ألفناه في السلاسل الجبلية التي تخترق شبه الجزيرة اليونانيـة من تراقية ومقدونية حتى البيلوبونيز وكريد • ونتيجة لذلك ، لاتقسم

المنحدرات والوديان ايطالية الى مقاطعات مستقلة ومنعزلة عن بعضها البعض كما هو الحال في اليونان القارية •

وكذلك الانهار الايطالية ، فرغم أن بعضها لايصلح للملاحة في مجراه الاسفل ، فلقد ساعدت على الاتصال بين داخل البلاد والساحل وكذلك بين المناطق الوسطى والشمالية • وهذا ما لم نألفه في بلاد اليونان •

ومن أشهر الانهار الايطالية :

١ ـ نهر البو ، [١] الذي يسقي السهل الشمالي ويصب في الادرياتيك بعد تشكيله شبه دلتا عند مصبه • طوله (٦٧٠ كم) وهو أطول وأهم نهر في ايطالية •

٢ ـ نهر الارنو ، [٢] يروي مدينة فلورنسة [٣] وبيزة [٤] ثم يصب في المتوسط طوله (٢٥٠) كم •

٣ ـ نهر التيبر ، [٥] يروي مدينة روما ويصب في البحر التيريني بالقرب من مرفأ Ostia • طوله (٤٠٣ كم) •

٤ ـ نهر الفولتورنو ، يروي مدينة (كابوة) قبل أن يصب في البحر التيراني • طوله (١٦٧ كم) •

أما السواحل الايطالية فهي شبه مستقيمة ولقد كانت في القديم أقل صلاحية للملاحة البحرية من شواطىء اليونان الغنية بالخلجان العميقة • وأكثر المرافىء الطبيعية القابلة للملاحة والصالحة لرسو السفن تقع في القسم الجنوبي من ايطالية وفي الجزر •

---

(١) أطلق عليه اللاتين اسم *Padus* و *Eridanus*

(٢) اسمه الحالي هو *Arno* وعرف عند القدماء باسم *Arnus*

(٣) اسمها الايطالي اليوم هو Firenze أما عند القدماء فهو Florentia

(٤) Pisa تلفظ اليوم كما عرفت عند اللاتين •

(٥) يطلق عليه الايطاليون اليوم اسم Tevere ولفظه اللاتيني القديم هو *Tiberis* وأحيانا *Thybris*

(٦) *Volturno* واسمه القديم *Vulturnus* •

جـ ـ كانت الأرض الايطالية خصبة وصالحة للزراعة وبذلك تبدو لنا على نقيض بلاد اليونان القارية ذات التربة الصخرية الجدبة• ومنذ القديم تغنّى الكتاب اللاتينيون بخصب أرض بلادهم • واشتهر بغنى التربة خاصة حوض نهر البو وكذلك سهول اترورية واللاتيوم وكامبانية • وكما ذكرنا ، سيكون للارض ولمشاكلهـا دور حـاسم على مجرى الاحداث الداخلية وكذلك في توجيه السياسة العامـة لرومـا خـلال قرون عديدة •

د ـ بعكس بلاد اليونان ، التي أطلّت على وسط البحر الابيض المتوسط في حوضه الشرقي ، مما نتج عنه ، تأثر اليونانيين ومنـذ وقت مبكر بالحضارات الشرقية العريقة ، نرى أن ايطالية بموقعها ، قد جاورت بقاعا ظلت شبه بدائية حتى القرن الثالث (ق • م) ، أي بدءالفتوحات الرومانية • وسيكون لكل ذلك أثر بارز في مستقبل العلاقاتالرومانية الشرقية والرومانية ـ الغربية ، وذلك في مختلف المجالات : الثقافية والسياسية والاجتماعية • مما لاشك فيه أن الكنعـانيين واليـونـانيين والقرطاجيين قد احتلوا بعض المناطق الايطالية وخاصة الجزر والقسم الجنوبي من ايطالية وكذلك أقاموا لهم العديد من نقاط الارتكاز على شواطىء بعض البلدان الاوروبية (اسبانية ـ فرنسة) • ولكن يجب أن لايغيب عن بالنا بأن همّ أولئك جميعا كان محصورا بالتجارة مع هذه الشعوب •

وهنا يجب أن نوضح بأن دور الشعب الاتروسكي كان مغايرا ، اذ أن الاتروسكيين هم الذين لعبوا دورا كبيرا في تحضير الشعب الروماني نفسـه •

كما المحنا في المدخل ، [١] نرانا مجبرين أثناء محاولتنـا السابقـة في سبيل توضيح بعض الجوانب الغامضة لتاريخ ايطالية في فترتها البدائيـة ،

---

(١) راجع ـ ص ١٢ •

نقول نرانا مضطرين الى الاقتصار على بعض النتائج التي توصل اليهـا علم الآثار خاصة ومن ثم بعض العلوم المساعدة للتاريخ (١) وبوجه خاص ما لـه علاقة بالفترات العائدة للعصر الحجري المتأخر وعصور المعادن • (٢)

---

(١) من أهم العلوم المساعدة للتاريخ نذكر ما يلي :

١ ـ علم الآثار	1 — Archéologie
٢ ـ علم المستحاثات	2 — Paléonthologie
٣ ـ علم طبائع الانسان	3 — Anthropologie
٤ ـ علم أصل الشعوب	4 — Ethnologie
٥ ـ علم الانساب	5 — Généalogie
٦ ـ علم المناخ القديم	6 — Paléoclimatologie
٧ ـ علم قراءة الكتابات القديمة	7 — Paléographie
٨ ـ دراسة أسماء الاسلام	8 — Onomastique
٩ ـ علم المسكوكات القديمة	9 — Numismatique
١٠ـ علم الكتابات القديمة	10 — Epigraphie

(٢) من الامور الشائكة التي كانت تعترض سبيل علم الآثار وعلم المستحاثات هي تحديد تاريخ ما تعثر عليه اثناء الحفريات أو تحديد العصور التاريخية المتعاقبة مع توضيح أهم ميزاتها • ولم تكن صحة الاستنتاجات في البدء الا نسبية • ولكن القفزة التي حققتها الجيولوجية (علم الهلك) وخاصة بعد الخطوات المدهشة التي قطعتها أبحاث الكيمياء الذرية ، قد مكنت العلماء من الوصول الى نتائج شبه مطلقة • ونذكر فيما يلي وباختصار بعض الطرق المتبعة اليوم لتحديد وتأريخ مختلف العصور وكذلك لمعرفة الوسط الجغرافي لمنطقة ما في فترة تاريخية معينة •

آ ـ **تحليل الملقح (غبار الطلع)** : ـ يتفسخ غبار الطلع بعد سقوطه على التربة وقد يحفظ بعضه اذا تهيأت له شروط معينة وعند ذلك يتحجر مع الزمن ويكشف المجهار اليوم عن الفصيلة التي ينتمي اليها اللقح المتحجر لمنطقة ما وبالتالي يحدد لنا أنواع نباتات تلك المنطقة في فترة تاريخية معينة ونتيجة لكل ما تقدم ، تتحدد بيئة المنطقة المعنية بالأمر وكذلك تاريخها •

ب ـ **تعدد دوائر مقاطع الشجر** : ـ عندما يعثر على أشجار مستحاثة تحدد عدد السنين بعدد دوائر المقاطع ، وكل دائرة تساوي سنة • هذه الطريقة قديمة ومحدودة الاستعمال ، ولكن رغم ذلك ، قد تكون مفيدة في بعض الحالات •

د ـ **التاريخ اعتماداً على (الفحم١٤)** (C^{14}) :
« الفحم١٤ » هو عنصر متشابه الخواص مع الفحم (الفحم١٢) (C^{12}) • وكما نعلم يطلق اسم متشابهات الخواص على عناصر كيموية مماثلة لا تختلف الا بحجم ذراتها • وما دام الكائن حيا تظل نسبة (الفحم١٤) الى (الفحم١٢) ثابتة و (الفحم١٤) هو مادة مشعة بعكس (الفحم١٢) • ويتم هذا الثبات نتيجـة لتفاعل كيموي مع الجو المحيطي • ولكن عندما تتوقف حياة كائن عضوي ما ، يضطرب هذا التناسب بين (الفحم١٤)

ونود قبل كل شيء ، أن نسوق بعض الملاحظات الناجمة عن الميزات العامة لتاريخ شبه الجزيرة حتى بداية العهد الجمهوري .

مما لا ريب فيه أن سلسلة جبال الالب قد عزلت تقريبا ايطالية عن القارة الاوروبية . ولكن كما ألمحنا اليه أعلاه[1] ، سمحت بعض الوديان التي تخترق جبال الالب ، لبعض الموجات البشرية أن تنتقل الى ايطالية من أوروبا وبالعكس . هذا من جهة . ومن جهة أخرى لم تشكل الشواطىء الايطالية السهلة المنال وفي أي وقت من الاوقات ، حاجزا منيعا يصد الكتل البشرية المتدفقة من البحر على ايطالية .

ولكن يجب أن لا يُفْهَم من قولنا هذا أن جميع ما سنورده عن تاريخ تلك الفترة لا قيمة له من الناحية العلمية . من الامور المسلم بها في مجال البحث العلمي ، ان كثيرا من الحقائق ليست الا نسبية الصحة لفترة ما . وهذا الامر ينطبق على تاريخ ايطالية في الفترات البدائية بدرجة عالية . ومعلوماتنا اليوم بالنسبة لتلك الفترة الغامضة من تاريخ شبه الجزيرة هي أفضل بكثير مما كانت عليه في نهاية القرن الماضي .

ولا شك أن هذا الغموض قد نشأ نتيجة لاسباب عديدة ، من أهمها : صعوبة دراسة تلك الفترة الموغلة في القدم دراسة علمية وذلك لفقدان الوثائق الكتابية ، وفي الوقت ذاته لم تكن ابحاث العلوم المساعدة للتاريخ

و (الفحم^{12}) نتيجة لانقطاع التفاعل المحيطي . وبالتالي تبدأ كمية (الفحم^{14}) بالتناقص من العضو الميت وبحساب كمية (الفحم^{14}) المتبقية في جسم أثرى ما يمكن بشكل تقريبي تحديد تأريخ توقف حياة الكائن العضوي .

لهذه الطريقة محاذيرها ، فأولا لا يمكن تطبيقها على بقايا عضوية يتجوز عمرها (٢٥) ألف سنة . اذ يكون (الفحم^{14}) قد زال نهائيا نتيجة لاشعاعه ، من الكائن العضوي . و (٢٥) ألف سنة تبدو ضئيلة اذا ما قورنت بعمر الارض (٤ مليارات سنة وتصف المليار من السنين) . وبعمر العصر الحجري القديم (٦٠٠ ألف سنة تقريبا) . ثانيا : تندثر البقايا العضوية نتيجة للتحليل الكيموي ولذلك لا تطبق هذه الطريقة بشكل عام، الا عندما يكون لدينا عدة نماذج عن البقايا العضرية .

وهنالك طرق أخرى لدراسة عمر المستحاثات والصخور نذكر من أهمها طريقة الإعتماد على (الاورانيوم ٢٣٨) وكذلك (الارجون ـ بوتاسيوم) وغيرها .

(١) انظر أعلاه ص ٣٨ و ٣٩ .

قد تكاملت • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى انصب اهتمام المختصين في البدء على التاريخ الروماني خاصة مهملين تاريخ شبه الجزيرة الايطالية العتيق •

أما اليوم • فلقد بدأ الأمر يختلف نسبيا اذ كما ذكرنا في المدخل ، أخذت أبحاث مختلف العلوم المساعدة للتاريخ (علم الآثار، علم المستحاثات، علم أصل الشعوب ، الخ ••) تلقي ضوءا جديدا على تاريخ شبه الجزيرة في مختلف العصور الحجرية والمعدنية • كما انه بدا جليا أنه ليس بمقدورنا أن نفهم جوانب عديدة من تاريخ روما نفسها في العهدين الملكي والجمهوري مالم تتضح لنا ، ولو جزئيا بعض المشاكل التابعة من تاريخ ايطالية العتيقة وخاصة بالنسبة للالف الثاني ومطلع الألف الأول (ق•م) • ومن هنا اهتمام الباحثين اليوم ببعض جوانب تلك الفترات القديمة من تاريخ شبه الجزيرة الايطالية •

★ ★ ★

الفصل الثاني

١ ـ الحضارات الايطالية البدائية في عصور « ما قبل التاريخ » :

رغم أن حضارات العصور البدائية قد خلفت وراءها رسوما ملحوظة في بقاع مختلفة من ايطالية كالمدافن المحفورة في الصخر والقبور والمعابد (الميجاليتية)[1] في مالطة وجنوبي ايطالية وكذلك الابراج (السيكلوبية)[2] *Nouraghes, Talayots* في سردينية وصقلية ، نقول رغم تلك الرسوم

---

(١) المجاليتية : تعني « ذات الحجارة الكبيرة » وكلمة *Megalithe* مكونة من الكلمتين اليونانيتين Megas كبير و Lithos حجر • والحجار الميجاليتية هي على ثلاثة أشكال :

آ ـ *Dolmen* : مشتقة من الكلمة الكلتية Tolmen وتعني طاولة حجرية• وهي عبارة عن حجر ضخم موضوع على حجار منتصبة • ومن المؤكد اليوم أن تلك المجموعة من الحجار ، وهي على شكل طاولة حجرية ، كانـ عبارة عن قبر • ولقد وجد عدد كبير منها في غربي فرنسة وكذلك في الشرق الادنى (فلسطين) خاصة •

ب ـ *Menhir* :

حجر كبير غير منحوت على شكل مسله او نصب وهو مغروس في الأرض • من المؤكد أن لها صفة دينية ولكن الآراء ما زالت متضاربة بشأن ذلك • فمنهم من قال أن هذا الحجر عبارة عن قبر والبعض الآخر اعتقد بأن لها صفة العبادة • عثر على عدد كبير منها في انكلتره وايرلنده وغربي فرنسة وكذلك على طول الشاطىء الغربي لاوروبة كما أنه وجد بعض منها في افريقية وآسية • وهي مشتقة من الكلتية : Men حجر و Hir طويل•

ج ـ *Cromlech* :

مشتقة من اللغة القديمة لبلاد *Galles, Wales* في انكلتره و Crom تعني الشكل المنحني و Lech حجر • وهي عبارة عن دائرة من الحجار المغروسة في الارض على شكل مسلات وتتوسطها مسلة كبيرة غير منحوتة • وعثر على عدد كبير منها في انكلتره وفي غربي فرنسة •

وتعود مختلف هذه الحجار والانصاب الى العصر الحجري الحديث والعصر الحجري النحاسي •

(٢) (رضيم ومرضوم) • ويتكون البناء السيكلوبي بشكل عام من حجار ضخمة مرصوفة بلا ملاط ولا رباط • ولقد لجأ الميكنيون الى هذا النوع من الحجار الضخمة لبناء حصونهم واسوار مدنهم واستعملت الكلمة منذ فترة (هوميروس) وكان يطلق اسم *(Cyclopes)* على عمالقة خرافيين ذوي عين واحدة في وسط الجبين •

التي كانت محط أنظار الرحالة وهواة الآثار ، أهمل الباحثون ، وحتى مطلع القرن العشرين ، دراسة آثار تلك الفترات ، مكرسين جل اهتمامهم لروما ولتاريخها •

وفي الواقع ظلت الابحاث أو بالاحرى التنقيبات في هذا المجال متروكة وحتى أواخر القرن الماضي لممارسة الهواة ولنشاط بعض الباحثين الذين عملوا بشكل منعزل عن بعضهم البعض •

وفي النصف الأول من القرن العشرين وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، بدأت الابحاث تنتظم وتتخذ طابعها جعلها أكثر قربا الى المنهج العلمي • وبدأنا اليوم ، وبفضل هذه الدراسات نميّز الخطوط العامة لحضارات ايطالية البدائية • نقول « الخطوط العامة » لانه في الواقع ما زال الغموض يكتنف العديد من معالم تلك الحضارات •

أما المكتشفات الاثرية التي حققها الدكتور L. Bernabo Brea خلال السنوات الاخيرة في صقلية وفي أرخبيل (Lipari) [١] وكذلك باقي الابحاث الدقيقة التي أجريت ، ان تلك المكتشفات والابحاث قد تكشفت عن نتائج مهمة بالنسبة لفترة العصر الحجري الحديث لحوض المتوسط الغربي بشكل عام ولايطالية بشكل خاص •

لانود أن نتوسع الآن في تلك النقطة بالذات وسنكتفي باعطاء لمحات عن العصور الحجرية المختلفة •

تنقسم هذه العصور الى فترات مختلفة نذكرها كما يلي :

آ) العصر الحجري القديم *Paléolithique* [٢] ويتجزأ بدوره الى أدوار رئيسية ثلاثة : قديم ووسيط وحديث •

---

(١) Lipari : أرخبيل بركاني يقع الى الشمال من صقلية • أطلق عليه في الماضي اسم (الجزر الايولية)

(٢) *Paléolithique* : الكلمة مكونة من مفردتين يونانيتين Palaios قديم و Lithos حجر) •

١) ـ أما القديم : فيمتد من (٦٠٠) ألف الى (٢٢٠) ألف سنة [١]
والانسان الذي عاش في تلك الفترة هو ما يطلق عليه اسم انسان هيدلبرغ *Heidelberg* [٢] وجاوا وبكين • ورغم صفاته الجسمانية التي ميزتـه عن القرد ، كانت تصرفاته ومشاعره وادراكاته تجعله أقرب الى الحيوان منـه الى الانسان • وآثار هذا الدور شبه مفقودة في ايطالية •

٢) ـ ويمتد الدور الوسيط من (٢٢٠) ألف الى (٧٥) ألف سنة • ويمثله انسـان *Neandertal* [٣] والحضارة الموسترية [٤] ولقـد عثر على آثار ذات صفات مشتركة عائدة لذلك الدور في أوروبة الغربية وخاصة في فرنسة وايطالية ويوغسلافية • وكذلك في منطقة القفقاس وفي سيبريـة • بالنسبة لافريقية ، عثر حتى الآن على بقايا انسان ذلك الدور في روديسيـة وفي مناطق مختلفة من افريقية الشمالية • وأما في مناطقنا فمن أشهر مراكز ذلك الدور : وادي المغارة في (الكرمل) وانطلياس (لبنان) • والصفـات

---

(١) أرجع الحبر الانكليكاني Usher الذي ولد في دوبلن عاصمة جمهورية ايرلنـده اليـوم سنة ١٥٨٠ وتوفي سنة ١٦٥٦) في مؤلفة « التقويم المقدس » عمر الارض الى عام (٤٠٠٤) ق•م وفي سنة ١٧٧٨ ، قال العالم الفرنسي Buffon في مؤلفه « التاريخ الطبيعي » أنعمر أرضنا لايقل عن (٦٠) ألف سنة •

أما في القرن التاسع عشر ، بدأ العلماء يقدرون عمر أرضنا بملايين السنين أما اليوم ، فيعتقد بأن عمرها لايقل عن (٤) مليارات سنة ونصف المليار من السنين • ولقد حصـل العلماء على هذا الرقم استنادا الى تقدير نسبة (الاورانيوم ٢٣٨ U238) في الصخور وكما نعلم أن هذا المعدن مشع ونتيجة لاشعاعه ، يتفكك تدريجيا ويتحول الى رصاص • وبحساب الرصاص الحاصل وهو ثابت الى الاورانيوم الفاضل ، تمكن العلماء من تقـدير عمر تشكل الصخور •

(٢) تقع في جنوب غربي المانية على نهر *Neckar* من روافد الراين • ولقد عثر في قرية مجاورة لهيدلبرغ على مستحاثات بشرية وحيوانية تعود الى نصف مليون سنة •

(٣) مغارة تقع قرب مدينة Dusseldorf شمال غربي المانية •

(٤) بالنسبة الى Lemoustier جنوب غربي فرنسة •

الجسمانية لانسان ، ذلك الدور هي انتقالية بين القرد والانسـان المـدرك العـاقل [1] •

والرأي السائد اليوم انه كان يمشي منحني القامة الى الأمام • وبينما كان الانسان الذي سبقه يكتفي باستعمال ماتقع عليه يداه من أغصان الشجر وعظام الحيوانات ، راح ينحت الحجر وبـدأ يستعمل الظـران (الحجر المنحوت) •

٣ ـ **أما الدور الحديث** فيمتد من) ٧٥ (ألف حتى (١٢) الف سنة ويتمثل بانسان كرومانيون *Cro-Magnon* [2] • ولقد ظهر الانسان العاقل المدرك *Homo Sapiens* في منتصف هذا الدور تقريبا • وعوضا من من أن يتخذ انسان ذلك الدور الأوجار ، كملاجيء له ، متقيا الحيوانات الكاسرة والتقلبات الماخية ، بدأ يسكن المغاور والكهوف[3] • ولقد ساعد هذا الأمر على جعل قامته أكثر انتصابا من ذي قبل وتطورت بعض اعضائه وخاصة

---

(١) ان بامكان أي قرد أن يستعمل ما تقع عليه يداه من أدوات جاهزة في الطبيعة كالحجارة وأغصان الشجر ولكن لم يتمكن أي قرد من صنع اية أداة ولو كانت جد بدائية • لقـد بدأ « الكائن البشري » يرتقع الى مصاف « انسان » بالعمل • ان صانع الادوات الاكثر بدائية يستحق لقب « انسان » • وان النشاط الدائب « للكائن البشري » في سبيل صنع ادواته البدائية كان العامل الاساسي في تطوير شكل أعضائه • وهكذا بالعمل تغير شكل الايدي خاصة •

ولذلك كما يقول أحد المفكرين : « ان اليد ليست فقط اداة العمل ولكنها ايضـا حصيلة العمـل » •

(٢) *Cro-Magnon*: تقع هذه المنطقة في جنوب غربي فرنسة ولقد عثر فيها على بقايا انسانية عائدة لتلك الفترة حيث وجدت خمسة هياكل بشرية • ولقد تم فيما بعد اكتشاف نماذج عديدة في بقاع أوروبية مختلفة • أما في ايطالية فلقد عثر في **(Grimaldi)** على الريفيرا (الساحل الشمالي المطل على المتوسط) بين ١٨٧٢ ـ ١٨٧٥ على نماذج عائدة لذلك الدور• ورغم أن الهياكل البشرية المكتشفة قد نمت عن بعض صفات الانسان الزنجي (مما حدا بالبعض ان يعتقد أن أصل هذا الانسان يعود الى افريقية) يرجح اليوم بأن هذه النماذج ترتبط بانسان ***Cro-Magnon*** والرأي الغالب اليوم بأن هذا الانسان قد جاء الى أوروبة من آسية • ويطلق على حضارة تلك الفترة اسم (الحضارة الاورينياسية نسبة الى منطقة Aurignac في جنوب غربي فرنسة • اما شكله فكان طويل القامة ، مستطيل الرأس ، دقيق التقاطيع •

(٣) الى تلك الفترة يعود (فن الكهوف) • ولقد عثر على آثار عديدة لذلك الفن (من رسوم ونحت الخ •••) في مناطق مختلفة من أوروبة وافريقية وآسية •

الاقدام والايدي فأصبحت قريبة بشكلها من أعضاء الانسان التاريخي • ولقد لوحظ أن الانسان « المدرك العاقل » استقر أول ما استقر في المناطق التي تجردت من الغابات قبل غيرها (كمصر أو مابين النهرين) وأصبح قادرا على الكلام وتطورت لديه القدرة على المحاكمة وراحت بوادر التفكير المنطقي تظهر لديه وازداد استعماله للنار[1] وأصبحت ادواته الحجرية أكثر دقة •

ان السؤال الذي ما زال مطروحا حتى يومنا هذا وبشكل ملح هو الآتي : كيف ظهر أول كائن بشري وأين تم ذلك ؟ نجد أنفسنا أمام موقفين لا ثالث لهما : فأما أن نعتنق الرأي القائل بأن الانسان قد ظهر كما هو عليه اليوم وذلك منذ أقدم العصور واما أن نقبل التفسير العلمي محاولين جهد الامكان الرجوع الى البدايات الأولى لتكوّن الجنس البشري معتمدين على كل ما تقدمه لنا مختلف العلوم المساعدة للتاريخ[2] •

اذا اتخذنا ظهور الكائن البشري المختلف عن باقي الحيوانات المحيطة به كنقطة انطلاق لتاريخ الانسانية ، فلا يجب أن يفهم من قولنا ان الكائن قد كان انسانا اجتماعيا ــ عاقلا ــ مدركا •

يستند الباحثون اليوم على ما يقدمه لنا علم المستحاثات *Paléonthologie* وعلم طبائع الانسان *Anthropologie* ليؤكدوا الرأي القائل بأن الانسان ينحدر بطريقة ما من فصيلة حيوانية لها صلة بالقرود • لقد تخطى العلم الرأي الذي كان سائدا فيما مضى والزاعم ان الانسان وجد على أرضنا هذه كما ادركناه في العصور التاريخية • ان ما يدور البحث حوله

---

(١) لقد اكتشف الانسان النار منذ (٥٠٠) ألف سنة تقريبا ولكنه لم يستعملها بشكل تدريجي الا اعتبارا من (٢٠٠) ألف سنة • ولقد لجأ في البدء الى النار الطبيعية قبل ان يهتدي الى مختلف الطرق للحصول على النار وفق ارادته •

(٢) انظر أعلاه ص ٥١ •

الآن هو معرفة فصيلة القرود أو الشبيهة بالقرود التي ينتمي اليها الكائن البشري في بداياته الأولى وبتأثير أية شروط محيطية تطور شكله واين تم ذلك ؟ اننا لا نريد التفصيل عن اصل الانسان[1] • المهم في الأمر ، هو أن معظم النظريات المتعلقة بأصل الانسان تقرّ اليوم بان الكائن البشري البدائي قد كان أقرب الى الحيوان منه الى الانسان التاريخي ، كما ادركناه • ولقد مرّ بمراحل عديدة قبل انّ تتضح لنا ملامحه ، كانسان « مدرك عاقل » • وكما المحنا اليها اعلاه[2] ، بحوزة علم التاريخ اليوم وسائل عديدة لتحديد كل مرحلة من مراحل عمر أرضنا هـذه وتاريخ الكائن البشـري وكذلك لتوضيح الخواص المميزة لكل عصر من العصور التاريخية •

ان المكتشفات التي تمّت حتى يومنا هذا ، ترجح الرأي القائل بأن الانسان (المدرك العاقل) قد ظهر أول ما ظهر في مناطق جنوب شرقي آسية وفي الشرق الادنى وفي نقاط مختلفة من بلاد القفقاس وافريقية[3] ولقد اختلف العلماء في تفسير العامل الأساسي الذي لعب دورا فاصلا في تطوير شكل الانسان : فمنهم من قال بأن اندثار الغابات قد أجبر (الكائن البشري البدائي) الذي كـان يشبه القـرد ، على العيش على سـطح الأرض بعـد أن كان يقضي جلّ أوقاته متسلقا الاشجار •

---

(١) يمكن تلخيص النظريات المتعلقة بتلك النقطة بما يلي :

آ ـ الفئة الاولى تربط الكائن بفصيلة من فصائل القرود المعروفة اليوم • ويستند المدافعون عن تلك النظرية على بعض الصفات المشتركة بين (الكائن البشري الأول) والقرود •

ب ـ الفئة الثانية تربط هذا الكائن بفصيلة من المخلوقات وجدت قبل ظهور القرود ولكنها تقترب كثيرا من القرود •

(٢) انظر ص ٥١ و ٥٢ •

(٣) لقد قلنا أعلاه(ص ٥٧)بأن الانسان قد استقر أول ما استقر في مصر وبلاد ما بين النهرين• هذا بالنسبة لبلادنا • ويجب ان نفرق بين ظهور الانسان (المدرك العاقل) وبين استقراره النهائي في بعض المناطق والبدء ببناء الحضارات البدائية • ويجب ان نوضح بأنه في الوقت الذي كانت تتطور فيه الحضارة المصرية والحضارة الرافدية ، كانت بقاع أخرى من المعمورة مسرحا للظاهرة نفسها •

وهكذا عندما كان يقضي لياليه على أغصان الشجر ، ظل شكله أقرب الى القرد ، ولكن عندما اضطر الى النزول على سطح الأرض واللجوء الى المغاوز والكهوف ، انتصبت قامته تدريجيا وتعدلت نسبة اعضائه . قد يكون لتلك النظرية نصيب من الصحة ولكن يجب ان لا يغيب عن بالنا بانها تهمل العامل الأساسي في تطور الانسان ونعني بذلك العمل[1] . وفي الواقع ، بمقدار ازدياد ممارسة الانسان بهدف صنع ادواته ، اكتسبت اعضاؤه مهارة متزايدة وبالتالي تغيّر شكلها[2] . لقد كان (الكائن البشري) يحبو في البدء كباقي الحيوانات ولقد كانت النسبة بين اعضائه العليـــا (الأذرع) والسفلى (الحوامل) مفقودة . لقد كانت الاذرع أكثر طولا من الارجل (الحوامل) . ومما لا شك فيه بأن ذلك قد نتج عن طريقة دبيبه على سطح الأرض أو عن تسلقه الأشجار . ولكن عندما راح يستعمل يديه صـــانعا أدواته ، انتصبت قامته شيئا فشيئا الى ان اكتسبت شكلها النهائي . يظهر لنا فحص العظام المستحاثة (للكائن البشري البدائي) تطور شكل الاعضـــاء (الأذرع ، الحوامل) قبل غيرها من باقي اجزاء الجسم . فمثلا شـــكل الجمجمة قد ظل ولمدة طويلة قريبـــا من جمجمة القرد . فمـــاذا يعني ذلك ؟! ..

اذا كان (الكائن البشري) قد التقط في البدء الشـــظايا الحجرية واستعملها كأدوات يؤمن بواسطتها حاجياته أو كأدوات يدافع بها عن نفسه ، فانه لم يتوقف عند ذلك ، بل راح يحطم تلك الشظايا ويصقلها ، أي أنه بدأ يصلح الطبيعة ويقوّمها ولقد لعبت يداه دورا أساسيا في ذلك . وهكذا تأثرت اعضاؤه نتيجة لما تقدم وراح شكلها يتطور بمقدار ازدياد نشاطه . في البدء كانت ممارسة (الكائن البشري البدائي) يدوية أكثر منها فكرية . اما الارتباط بين ممارسته العملية والفكرية فلقد كانت سطحية وبسيطة ، ولذلك فان دماغه لم يتأثر كثيرا نتيجة لممارساته المختلفة .

---

(١) انظر ص ٥٦ .
(٢) انظر ص ٥٦ .

ثم ان استخدامه للنار في طهي مأكله قد لعب دورا حاسما بتغيير شكل فكّيه ، اضافة الى تطوير مختلف اعضاء جهازه الهضمي • ويعتبر استعمال النار ، وبحق منعطفا حاسما في تاريخ الانسان • فعدا عن طهي المأكل ، ساعدته هذه (القدرة السحرية) على اتقاء البرد وكانت وسيلته للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات الكاسرة • لم يكن (الكائن البشري البدائي) أشد الحيوانات قوة ولكنه أصبح تدريجيا أكثرها مهارة وأمضاها ذكاء • وهكذا ، وبعد أن أصبحت اليد اداته الأساسية ، راح يحاول السيطرة على بعض المظاهر الطبيعية • ويمكننا القول بأن استعمال الانسان للنار قد مكنّه وللمرة الأولى من السيطرة على قدرة طبيعية وبذلك يكون قد افترق نهائيا عن الجنس الحيواني.

ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية يطلق على تلك الفترة من تاريخ الانسان اسم (القطيع البدائي) ونعني بذلك « نظام » المشاعية البدائية • وتشمل تلك الفترة بدايات ظهور الجنس البشري فتطوره اجتماعيا واقتصاديا وفكريا حتى تأسيس أولى الدول أو بالاحرى أولى المجتمعات المنقسمة طبقيا• ان محاولة دراسة تلك الفترة ، بجميع مظاهرها ، مهما بدت شاقة ، لهي شرط أساسي لفهم الكثير من سمات المجتمعات التي اعقبتها • يجب أن لا يغيب عن بالنا ، بأن تلك الفترة تمتد زمنيا على مئات الألوف من السنين ، بينما تاريخ الحضارات البدائية التي توصلت اليها المكتشفات الأثرية حتى يومنا هذا، لاتتعدى دوري «العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث»•

لاشك بان المجتمعات التي ظلّت على حالة جدّ بدائية حتى يومنا هذا، والتي تمّت دراستها بشكل جدّي اعتبارا من القرن التاسع عشر[1] ، ليست

---

(١) عدا عن الملاحظات العابرة المتعلقة بالشعوب البدائية والتي وردتنا لدى بعض كتاب اليونان واللاتين كالمؤرخ الجغرافي هيرودوتوس (٤٨٠ ــ ٤٢٥ ق•م) والجغرافي سترابون الذي توفي عام ٢٥ ميلادي والمؤرخ تاكيتوس الذي عاش في القرن الأول ميلادي ومن ثم لدى بعض المؤرخين العرب كالطبري والمسعودي وابي الفداء وابن خلدون ، جرت محاولات جزئية وسطحية للدراسات التاريخية المقارنة اعتبارا من عصر الاكتشافات الجغرافية • ولكن في الواقع لم تبدأ الدراسات الشاملة للمجتمعات البدائية الا اعتبارا من القرن التاسع عشر وذلك بعد تطور بعض العلوم المساعدة للتاريخ •

مطابقة تماما بمظاهرها المختلفة لما كانت عليه « تجمعات القطعان البشرية » الأولى • فعدا عن خضوعها لقانون التطور العام ، تأثر بعضها ولو بشكل جزئي وسطحي وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، بانماط عيش أكثر تطورا، تسود اليوم لدى جيرانها • وهنا تبرز لنا أهمية علم الآثار بما يقدمه لنا من دلائل مادية متنوعة ، ادوات انتاجية ومنزلية ، اسلحة ، بقايا سكنية الخ ••• تلك الدلائل التي تلقي ضوءا ولو خافتا على نمط عيش اولئك البدائيين وتعطينا فكرة لها نصيب من الصحة عن حياة اجدادنا في ماضيهم السحيق•

منذ بداية القرن التاسع عشر ، قسم العلماء بقايا المكتشفات الاثرية الى عصور مختلفة،العصر الحجري بادواره الرئيسية الثلاثة ثم عصر البرونز فعصر الحديد • اعتمد العلماء هذا التصنيف في البدء استنادا الى المادة التي كانت تصنع منها الأدوات ، وما زال قسم كبير من المؤرخين يعتمد هذا التصنيف ، رغم ان بعضهم لاحظ منذ البدء ، انه بالرغم من مزايا هذا التصنيف فلا يجوز اعتماده فقط ، اذ قد يقودنا الى تفسير وحيد الجانب للتاريخ وذلك بفصله تطور الوسائل التقنية للانتاج عن مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية • ولقد اقترح العالم الامريكي مورغان L. H. Morgan [1] في مؤلفه « المجتمع البدائي » تصنيفا قد يكون اكثر شمولا من التصنيف السابق، اذ أنه لم يقتصر على دراسة الوسائل التقنية لفترة ما ، ولكنه حاول دراسة جميع المظاهر المادية لتلك الفترة • ولقد قسم (مورغان) تطور المجتمعات البدائية الى مرحلتين : مرحلة التوحش ثم المرحلة الهمجية • الأولى تنتهي باختراع القوس والنشاب بينما الثانية تبدأ باختراع الخزف[2] وشاهدت نشوء

---

(١) عالم امريكي يحث بعلم الآثار وباصل الشعوب وبخصائصها • بدأ بدراسة حياة سكان امريكا الشمالية (الهنود ـ الحمر) وحاول في مؤلفه الذي نشره في نيويورك عام ١٨٢٨ تصنيف المجتمعات البدائية وتفسير بعض مظاهرها •

(٢) اشتهر العالم فلندرز بترى Filnders Petrie (١٨٥٣ ـ ١٩٤٢) باعتماد الخزف لتحديد بعض الفترات التاريخية القديمة • وهو عالم اثري شهير ساهم باضفاء الصفة العلمية على الابحاث الاثرية • عمل خاصة في مصر وله فضل عظيم في الكشف عن تاريخ وادي النيل وخاصة ماله علاقة بفترات ما قبل السلالات • تمكن بعد سلسلة من

وتطور الزراعة وتربيـة المواشي • ثم قسـم كلا من هاتين المرحلتين الى فترات ثلاث : قديمة ومتوسطة وحديثة • رغم ان تصنيف مورغان لم يعد وافيا اليوم بعد ان تجاوزته نتائج ابحاث مختلف العلوم المساعدة للتاريخ ، فلقد لعب دورا كبيرا في توضيح كثير من المظاهر التي ظلت غامضة لفترات طويلة •

انا لو اتبعنا فقط طريقة العالم الدانمركي تومسن[1] ، الذي اقتصر في تقسيماته لعالم ما قبل التاريخ على المادة المستعملة في صنع الادوات ، لأدى بنا ذلك الى تفسير وحيد الجانب لكثير من مظاهر المجتمعات البدائية •

لقد اكتفت كائنات القطعان البشرية البدائية في غذائها على ما تجده في الطبيعة من ثمار وجذور نباتات ، اضافة الى ما تلتقطـه من حشرات وما تتمكن عليه من حيوانات صـغيرة الحجم • اما من ناحية علاقـة (الكائن البدائي) باقرانه ، فلقد عاش في البدء شبه منعزل تسيطر عليه « فرديتـه البهيمية » ، ولكنه سرعان ما هاجم الحيوانات الضخمة وخاصة بعد ان تمكّن من صنع بعض الادوات البدائية وبما ان وسائله كانت جدّ بسيطة تعاون مع اقرانه لمقاومة كل ما يعترض سبيله في الطبيعة ، أي انه بدأ يعيش حيـاة « شبه جماعية » • وشيئا فشيئا اتخذ من المغاور والكهوف ملاجىء له • ولقد عثر علماء الآثار في معظم المراكز العائدة لتلك الفترات على بعض الأدوات البدائية وعلى عظام مختلف انواع الحيوانات التي عاشت في تلك الفترات وانقرض أكثرها • لقد كانت ظروف حياة الانسان البدائي جد شاقة ، فعدا

المشاهدات والدراسات المتعلقة بالعصر الحجري الحديث والعصر الحجري ـ البرونزي من تصنيف أنواع الخزف الى ثمانين نوعا ورقمها من (١) الى (٨٠) والارقام هذه تمثل مايسميه بتواريخ التسلسل وهكذا استند هذا العالم على شكل الخزف : اللون ، المادة ، الرسوم لتحديد مختلف الفترات الزمنية • ولقد لعبت دراساته هذه دورا هاما في تحديد الفترات القديمة لمصر • وطبقت طريقته بعدئذ على مناطق أخرى •

(١) تومسن : عالم أثري دانمركي • وهو الذي أدخل منذ بداية القرن التاسع عشر فكرة تقسيم عالم ماقبل التاريخ الى عصور حجرية مختلفة • ولقد تبنى علماء الآثار والمؤرخون طريقته الى ان جاء (مورغان) واقترح كما قلنا طريقة جديدة • ونطلق على تلك العصور اسم « العصور الحجرية » والبعض يقول « عصور الظرّان » •

عن مقاومته اليومية للحيوانات الضخمة التي كانت تعترض سبيله كان عليه ان يتحمل التقلبات المناخية والطبيعية المفاجئة • لم يحدث كل ما ذكرناه باختصار وبشكل سهل ومبسّط • فكم من مرة طرأت تغيرات مناخيــة جذرية : جموديات زوال الغابات ، فيضانات الخ ••• لقد كان عليه أن يتكيف مع كل تقلب جديد •

لم يتمكن انسان ذلك الدور من الثبات والانتصار ، رغم بدائية وسائله الا لأنه امتاز عن باقي الحيوانات بأمرين هامين :

١ ـ امكانية تعديل بعض الشروط الطبيعية المحيطة به ولو بشكل بسيط جدا وذلك عندما راح يصنع بعض الأدوات •

٢ ـ التحامه مع غيره من أقرانه وعمله معهم بشكل جماعي •

كما ذكرنا اعلاه ، لم يحدث كل ذلك بدون صعوبات جمّة • لقد مرّ (الكائن البشري) اثناء ارتقائه الى مصاف « الانسان » بطرق عديدة ملتوية ومتعرجة • ولم يكن الخط البياني لارتقائه صاعدا دائما • لا نعتقد بان نشوء حياة « شبه جماعية » لأناس العصور الحجرية الموغلة في القدم قد تمّ بسهولة • لقد غلبت على الانسان في البدء « فرديته البهيمية » التي ورثها عن أصوله الأولى • أن الطقوس الهمجية وعادة أكل البشر بعضهم لبعض ليست في الواقع الا تعبيرا واستطالة لبعض الميول والغرائز الحيوانية لدى الانسان البدائي • ان علم النفس بفروعه المختلفة لقادر ان يثبت لنا وجود تلك الغرائز والميول في حاضر الانسان وفي ماضيه السحيق • لقـد كان الانسان حينئذ عائشا شبه منعزل ، ولكن عندما اعترضت سبيله مختلف الصعوبات المحيطة به اقترب من اقرانه والتأم معهم ، وتدريجيا وبمقـدار تطور وسائل الانتاج ورسوخ التنظيم الاجتماعي للمجموعـات البشريـة البدائية ، تراجعت الناحية الحيوانية لديه وحلّت محلها شيئا فشيئا مشاعر الانسان الاجتماعي •

ومنذ البدء عكست التنظيمات الاجتماعية الظروف الموضوعية المحيطة

بالانسان • نحن لا ندّعي بأن ما نقدمه هو صورة حية لنضال اجدادنا البدائيين • ولكننا نعتقد بأننا عندما نتبع هذه الطريقة في التحليل، نكون اكثر قربا والتصاقا بواقع الأمر من ان نقرّر فرضيات لاعلاقة لها بما تقدمه لنا مختلف العلوم المساعدة للتاريخ • لقد نشأت وتطورت مختلف المؤسسات الاجتماعية بشكل جدلي عاكسة مختلف المظاهر الحضارية التي انبثقت بدورها عن شروط مادية محيطة بحياة الانسان البدائي • وبمقدار نمو وسائل الانتاج وازدياد سيطرة الانسان على الطبيعة تأثرت حياته في مظاهرها المختلفة •عندما كان الانسان مكتفيا بما يلتقطه من غذاء في الطبيعة،انحصرت علاقاته مع اقرانه على بعض الأمور ولم يكن له مسكن ثابت وغلبت عليه فرديته البهيمية ، ولكنه عندما بدأ يصنع بعض الادوات وهذا أمر يتطلب تعاونا مع غيره توطدت علاقاته مع « القطيع البشري » وراح يسكن ويأهل المغاور والكهوف القريبة من المراكز التي تتوفر فيها المواد الأولية الضرورية لصنع ادواته والمجاورة لمناطق الصيد ولقد اضاف في تلك المرحلة وبشكل اكثر انتظاما الصيد البري الى ما كان يلتقطه في الطبيعة من ثمار ونباتات • ولقد ازداد استعماله للنار اكثر فاكثر:اولا ليضيء بها المغاور ومن ثم لينضج بها طعامه وليدافع بواسطتها عن نفسه ضد الوحوش الكاسرة •

يمكننا تتبع آثار انسان ذلك الدور بما خلف وراءه من مواقد هامة امام المغاور والكهوف في بقاع عديدة من اوروبة وآسية وافريقية • اما بالنسبة لايطالية ، فلقد عثر على مراكز عديدة عائدة لذلك الدور خاصة في جنوب ايطالية وفي صقلية •

كيف كان يفكر هذا الكائن البدائي ؟!

لقد اعتقد البعض بان البشر منذ بدء وجودهم فكروا بالارواح والالهة • ولكن اليس من الافضل ان ندرس هذه النقطة بالذات بصورة اكثر التصاقا بالواقع • لقد عاش الانسان قبل ان يتفلسف • وفي الحقيقة ،

ان شدة الصراع من اجل البقاء ، مع كل ما يتهدد ساكن الكهوف والمغاور[1] في كل لحظة من لحظات حياته ، كل ذلك يجعل علينا من الصعب الاعتقاد بان الكائن البدائي « في فتراته الأولى » ، قد حاول بذل أي جهد لتفسير العالم المحيط به • لقد كان جل تفكيره وهمه مرتبطين بكيفية مقاومة الصعوبات والاخطار التي كانت تتهدد بقاءه ، اضافة الى ان نمو دماغه لم يكن كافيا لدرجة تسمح له بمناقشة تصورات مجردة كالالهة وغيرها •

قد تكون الاحلام بأشباحها وأطيافها قد اقلقته مولدة لديه بدايات أوهام • ولكن لم يثبت حتى الآن ، بان انسان تلك الفترة قد فزع من الاموات أو نسب اليها قدرة خارقة • ان دراستنا لفن تلك الفترة « ونعني بذلك « فن المغاور والكهوف » لدليل قاطع على أن انسان تلك الفترة قد ربط دائما وبشكل مباشر بين نشاطاته العملية اليومية المنبثقة عن مستوى معين لوسائل الانتاج وبين مختلف المظاهر الاجتماعية • لقد كان انسان تلك الفترة اسيرا والى درجة كبيرة لكل ما يحيط به في الطبيعة • ولقد حاول التغلب على الصعوبات المتنوعة والجمة بما بحوزته من وسائل بدائية • لقد كانت اليد اداته الاساسية وبها يصنع كل شيء حينما كان دور الافكار بسيطا ومحدودا• لقد حاول البعض تفسير المظاهر الفنية لتلك الفترة بمفهوم « الفن للفن » حتى ان فريقا ربط بين الفن الحجري في فتراته الاولى والدين • يقول الدكتور عفيف بهنسي : « وقد لاحظ الانسان الذي كان يعيش على لحوم الوعل الصفات اللونية للاتربة وخاصة المغرة Osci • وأحب الالوان الحية ولعله كان يلوّن جسمه بها كما يفعل المتوحشون اليوم • ولا شك انه تقدم بعد ذلك بعض التقدم ، فعندما كان يعيش في مغاوره تسعة اشهر كل عام محميا من البرد القارس ، كان يتسلى ببعض الرسوم على جدران الكهوف والمغاور أو على سقوفها ، ويلونها احيانا أو ينقشها بيد واثقة بشكل خارق » •[2]

---

(١) تمتد فترة (انسان المغاور والكهوف) وهي الفترة التي نحن بصددها ، أي الدور الحديث من العصر الحجري القديم من (٧٥) الف سنة حتى (١٢) الف سنة أي حتى بداية العصر الحجري المتوسط وتشتمل احيانا فترة من ذلك العصر •

(٢) تاريخ الفن في العالم ، مطبعة الشركة العربية ، دمشق ١٩٦٦ ص ١٦ •

ويقول في مكان آخر : « على أن دراسة الدين تجعلنا في الواقع متصلّين بدراسة بداية الفن ، فلقد ولد الفن مع الدين وبقيا مرتبطين خلال قرون طويلة ، وما زالت علاقتهما وطيدة عند بعض الفنانين المعاصرين » •[1]

اننا نذكر ما ورد على سبيل المثال لا على سبيل الحصر • لقد لوحظ حقا ولع الانسان الباليوليتي[2] بالالوان الحية • لقد عكس ذلك الانسان الوان الطبيعة المحيطة به ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، كان لاستعماله بعض الالوان مغزى خاص • اننا نتسأل حقا عن السبب الذي جعل من اللون الاحمر لونا مفضلا لدى هؤلاء البدائيين في فترة ما • كان الباليوليتي يأكل اللحم خاصة ، واللون الاحمر يرمز الى الدم ، دم الفريسة والدم يمثـل بالنسبة لهؤلاء البدائيين القوى لدى الحيوان الضخم الذي كان يقتل العديد من هؤلاء البدائيين قبل ان يتمكنوا من القضاء عليه • افزعت تلك الحيوانات الضارية الانسان البدائي • ولقد كانت وسائله ضدها جـد بدائية • ولقـد رمز الدم الاحمر كما قلنا الى القوى القاهرة ولقد اعتاذ به لاعتقاده بقدرته الخارقة • ولكي يظهر هذا البدائي بمظهر الكائن القوي ويرهب خصومه من بشر وحيوانات طلى جسمه ووجهه بالمغرة Ocre الحمراء كبديل عن الدم الاحمر •

على جدران المغاور والكهوف التي لجأ اليها ، رسم اشكال الحيوانات التي كان يقتنصها ، والى جانب الجاموس الوحشي وغـيره من الحيوانات التي كان يصطادها ، رسم اكف بشرية كرمز لقدرة يده الخارقة • كانت اليد اداته الاساسية وبها يصنع كل شيء كما ان دور الافكار كان ضئيـلا وكل شيء يتم بقدرة اليد • لا شك ، بأن الرسم الحائطي قد تطور على جدران المغاور والكهوف ولكنه ظلّ مع ذلك واقعيـا • من الصعب علينـا الاعتقاد بأن ذلك الانسان قد بذل قصاري جهده ، ناقشا أو راسـما على الحجر ، بأدوات جد بسيطة ، صور مختلف الحيوانات ، بهدف التمتع

---

(١) نفس المرجع ص ٢٣ •

(٢) الباليوليتي : العصر الحجري القديم •

برؤيتها فقط • لم ينتج هذا البدائي تلك البدائع الفنية ، لالان ذلك كان مفيدا له — حسب تفكيره — ، فعندما كان ينقش أو يرسم صورة وحش على الحائط ، ويحيط الشكل بأكف بشرية ، فلانه اعتقد ، انه بعمله هذا يسيطر على الوحش الحقيقي ولو بطريقة سحرية • لا شك بان بوادر التفكير الغيبي قد بدأت تراود تفكيره نتيجة لضعف وسائله المادية وبالتالي لعدم سيطرته على مختلف المظاهر الطبيعية المحيطة • لقد ربط بين السبب والنتيجة بشكل خاطىء لقد حاول احيانا تعويض كل ما تقدم تارة بالشجاعة وبتضافر الجهود الجماعية وتارة أخرى بالخدعة والسحر • فعبادة الطواطم وتقديم الضحايا لها ثم احاطة الوحوش المصورة على جدران المغاور والكهوف بأكف بشرية ، ان كل ذلك ليس الا بعض مظاهر الخدعة والسحر التي لجأ اليها هذا البدائي ، لينال بواسطتها مالم يتمكن من تحقيقه في الواقع • نعتقد ، انه من الافضل لنا ، ان ننطلق من زاوية كهذه، اثناء شرحنا ومحاولة فهمنا للفن والسحر لدى هؤلاء البدائيين • هنالك سؤال ما زال مطروحا وبشكل ملح : لماذا اتخذ انسان تلك الفترة ، الوحوش بل تلك الفصائل من الوحوش التي تصلح له كفرائس نماذج رئيسية له اثناء نحته وتصويره • ان الجاموس البري بكتلته الضخمة والوعل الرشيق كانا خصوما له • كان عليه ان يتعقب تلك الحيوانات وان يقضي عليها اذ انها كانت تشكل مصادر قوته ولكن في الوقت نفسه ، كانت تلك الحيوانات تستثير اعجابه وحماسته •

نجد اليوم آثارا لحضارة « انسان الكهوف »[1] في بقاع عديدة من آسية وافريقية الشمالية واوروبة • اما بالنسبة لايطالية فكما ذكرنا اعلاه ، عثر حتى الآن على مراكز عائدة لذلك الدور في ايطالية الجنوبية ، وصقلية• ومنذ عام ١٩٠٤ تم اكتشاف كهف Romanelli الواقع قرب Castro - Marino في منطقة Pouilles [2] • واضافة الى بعض

(١) انظر ص ٥٧ •

(٢) منطقة تقع في ايطالية الجنوبية وأطلق عليها في العهد الروماني اسم ***Apulia*** من أشهر مدنها Foggia, Brindisi, Tarente, Bari •

الاشكال الحيوانية ، يوجد على الجدران بعض الصور النباتية واشكالا هندسية • ويعتقد العالم (Breuil) بأن جميع هذه الرسوم تعود الى الفترة الاورغناسية القديمة[1] • وفي عام (١٩٥١) كشف النقاب في كهف في جزيرة Levanzo احدى جزر ارخبيل *Egades* [2] عن مجموعة اشكال باليوليتية رائعة ، تمثل حمار الوحش والوعل والحصان اضافة الى ثور يتعقب بقرة • وفي العام التالي أي (١٩٥٢) عثرت السيدة Bonio Marconi على الشاطيء ، غربي مدينة بالرمو Palermo وفي اسفل جبل Monte Pellegrino على مغارة صغيرة احتوت جدرانها على رسوم تعود الى الفترة المجدلية • ولقد ازدهرت الحضارة المجدلية في المناخ القاسي في آخر فترة الجموديات[3] • اضافة الى الاشكال الحيوانية (الوعل ، الحصان ، حمار الوحش) المألوفة في الا الكهوف الباليوبيتية ، عثر الى جانب الحيوانات على أشكال بشرية •

وبعد فترة وجيزة وجد المنقبون في المنطقة ذاتهـا ، أو بالاحرى في السفح الجنوبي الغربي لجبل Monte Pellegrino قرب Niscemi على كهف تظهر على جدرانه اشكال حيوانية (الوعل ، الثور) •

لا شك بأن المستقبل سيكشف لنا عن مراكز أخرى عائدة لذلك الدور مع العلم انه تم حتى يومنا هذا الكشف عن مائه وعشرين (١٢٠) مركزا عائدة للدور الحديث من العصر الحجري القديم • (٧٥ الف حتى ١٢ الف) •

يعطينا فن الكهوف صورة جلية عن حضارة بلغت رغم بدائيتها درجة

---

(١) انظر ص ٥٦ •

(٢) ارخبيل *Egades* أو *Egates* • مجموعة جزر واقعة غربي صقلية • اشتهرت بموقعه بحرية بين الرومان والقرطاجين عام (٢٤١ ق•م) •

(٣) نسبة الى مركز *La Madeleine* في منطقة (الدوردون) جنوب غربي فرنسة • لقد اعقبت الحضارة المجدلية الحضارة الاورغناسية في أوروبة الغربية • وأظهرت لنا الادوات التي تم اكتشافها في المراكز العائدة لتلك الفترة بان البشر قد مارسوا خاصة الصيد البحري والصيد البري واقتنصوا خاصة الوعل •

عالية من التطور • كانت مشاعر اناس ذلك العصر غالبا بسيطة وبدائية • ولكنها مع ذلك لم تكن بحال من الاحوال مجردة من الغريزة والعاطفة • لقد عبّرت عواطف الانسان الباليوليتي عن مظاهر غريزية عمياء ، وسنرى بأنها مع الانسان النيوليتي[1] ستشذب لتصبح اكثر رقة وانسانية • لقد كان الانسان الباليوليتي اسيرا والى حد كبير لكل ما يحيط به في الطبيعة ، أما الانسان النيوليتي فسيتحكم شيئا فشيئا ببعض المظاهر الطبيعية دون ان يفهم ، مع ذلك ، كنهها جيدا •

ان الدور الذي كانت تقوم به المرأة داخل البيت وخارجه قد اعطاها أهمية خاصة ، فهي التي كانت تسهر على الادوات البسيطة التي كانت تشكل ملكا مشاعا لجميع افراد القبيلة • والمرأة بخصبها هي التي كانت تؤمن زيادة عدد أفراد القبيلة ويجب ا نلاننسى بأن القبيلة بكثرة عدد أفرادها أو بقلته قد اعتبرت قوية أو ضعيفة • لقد كان للمرأة في مجتمع المشاعية البدائية مركز ممتاز • ولم يكن الطفل ينسب الى ابيه بل الى امه • أي أن نظام الامومة هو الذي كان سائدا لدى الجماعات الباليوليتية واجلالا لخصب المرأة وتقديسا للدور الذي كانت تؤديه نحت هؤلاء الاقوام التماثيل العاجية والخشبية وهي تمثل المرأة أو بعض اجزاء من جسمها •

ب ـ العصر الحجري المتوسط : (*Mésolithigue*)[2]

عندما توقفت الكوارث الجليدية مع آخر انهيار اسكندنافي وبدأ الجليد بالتراجع ، انهمرت الامطار بغزارة مشكلة السيول ومسببة الطوفانات الجديدة فهلك عدد كبير من البشر وفر الباقون الى مناطق يابسة كانت

---

(١) النيوليتي : العصر الحجري الحديث •

(٢) الكلمة مكونة بدورها من مفردتين يونانيتين : (Mesos وسيط Lithos حجر) • ويمتد العصر الحجري المتوسط من (١٢ الف سنة) حتى (٥ آلاف سنة في الشرق) و (٤ آلاف سنة في الغرب) •

المياه قد انحسرت عنها أو تجمعوا في بقاع لم تكن قد أُصيبَت بالغزو الجليدي[1] .

وهكذا اتجهت بعض القبائل شمالا متعقبة خطى الوعل والبعض الآخر

(١) الادوار الجمودية : أطلق هذا الاسم على فترات عديدة من تاريخ المصورة تعود الى مئات الالوف من السنين ، حيث كان قسما كبيرا من الارض مغمورا بالجليد ويميز العلماء أربع فترات جمودية وكلها تقع في دور البليستوسين *Pleistocene* وتتركب الكلمة من Pleistos كثير و Kainos جديد) . ولقد اشتقت اسماء تلك الفترات من بعض المراكز الالبية ونعني بها :

١ ــ عصر *Gunz* (٦٠٠ الف) ٢ ــ عصر *Mindel* (٤٥٠ الف) ٣ ــ عصر *Riss* (٢٠٠ الف) ٤ ــ عصر *Wurm* (٨٠ الف) .

ويتجزأ كل عصر بدوره الى عدة فترات *A. B. C.* . هذا بالنسبة لاوروبة وآسية وافريقية ، اما فيما يتعلق بامريكية ، فلقد اشتقت اسماء العصور الجمودية من اسماء بعض الولايات حيث عثر على آثار لها بشكل ظاهر ، وهي :

Illinois, Kansas, Nebraska, Wisconsin.

ويعتقد بعض العلماء بان عصرنا هذا الذي نعيش فيه، ونعني به الهولوسين (مشتق من اليونانية Holos كل و Kainos جديد) يشكل دورا انتقاليا تمر الارض بعده بدور جمودي انتقالي جديد وتصبح عندئذ اجزاء كبيرة من القارتين الامريكية والاوروبية مغمورة بالجليد وغير قابلة للسكن .

وينتمي الدوران البليستوسين والهولوسين الى الادوار الرباعية *Quartenaire* التي تغطي بدورها فترة مليون سنة تقريبا . ولنلاحظ بان فترة المليون سنة تعتبر قصيرة جدا اذا ما قيست بعمر الارض (انظر ص ٥٢) . شمل دور البليستوسين الجزء الاكبر من الازمنة الرباعية وانتشرت خلاله الجموديات الكبرى ، كما ان الانهار القارية تمكنت أثناءه من انهاء حفر وديانها . اما عالم الحيوان فلقد احتوى على نماذج ضخمة الحجم انقرضت بانتهاء هذا الدور ولقد كان انسان ذلك العصر على حالة بدائية ولقد نحت الحجر على شكل شظايا حادة الاطراف ولقد أطلقنا على هذا الدور من الناحية التاريخية اسم « الباليوليتي » (انظر ص ٥٥) والمستحاثات البشرية التي تم العثور عليها تعود لى منتصف هذا الدور وهي مستحاثات انسان (نياندرتال) . وفي آخر هذا الدور ــ حسرت الجموديات الكبرى وتعرف هذه الفترة كما ذكرنا بعصر الوعل وعصر الكهوف . (انظر ص ٥٧ وما يتبع) . وتتميز بصناعات حجرية وبمشاهد فنية رائعة تدل على نمو عقل الانسان وعلى ازدياد مهارته وفيه ظهر الانسان العاقل المدرك .

أما بالنسبة لدور الهولوسين فلقد كان اقصر مدة من البليستوسين واثناءه حسرت الجموديات نهائيا وتمركزت الانهار في مجاريها الحالية وانقرضت الحيوانات الضخمة انقراضا تاما وانتشرت الحيوانات الحالية واستكملت البشرية تقدمها ، ونطلق على هذه الفترة وهي التي نعيشها اسم « الازمنة التالية للجموديات » وتشتمل على العصرين الحجريين المتوسط والحديث وكذلك على دور المعادن . ويبدأ عصر الهولوسين اعتبارا من الالف العاشر أي أنه يغطي العصرين الحجريين المتوسط والحديث .

اضطر للنزوح عن مناطق كانت خصبة في الماضي ولكنها راحت تتحـــول تدريجيا الى صحاري • ونتيجة لذوبان الجليد وفدت على اوروبة هاربة من « سيبريه » جماعات بشرية كبيرة العدد • لقد كانت حضارة القادمين الجدد أقل تطورا من حضارة المجتمعات التي اجتاحوها ولذلك أعاقوا تطورها مؤقتا بالرغم من انهم اغنوها بالاحتياطي البشري •

لقد توقّف فن الكهوف وبعد الحضارة الباليوليتية التي اندثرت معالمها تدريجيا ، بدأ ازدهار حضارة جديدة في حدود الالف العاشر •

لقد امتاز الغزاة الجدد بالاستقرار النسبي • وهكذا راح الانسان يدجّن الحيوانات ويربي الماشية واستقر ، سعيا وراء المراعي ، حيث العشب والماء • وهكذا ابطأت تحركاته قطعان الماشية ولم يعد الصيد كالماضي حاجة ملحة ، كما ان استقراره قد سمح له بتطوير ادواته الحجرية والخشبية • ولكن رغم هذا التطور والتقدم النسبيين ، ظل الانسان خـاضعـا لرحمـة الطبيعة التي كانت تحدد نمط عيشه• اذ عند نفاد المراعي كان عليه ان يرحل من جديد • وهكذا كان القطيع هو الذي يحدد نمط الحياة الاجتماعية ولم يكن بامكان هؤلاء الرحل ، الذين اعتمـدوا بمعاشهم على حيواناتهم ، ان يستقروا نهائيا الا اذا كانت الارض خصبة وعندئذ يبدأ النزاع في سبيـل السيطرة على مناطق الرعي وكذلك على منابع المياه ولن يتحضر الانسان الا بعد استقراره وستكون الزراعة الشرط الاول لنشوء حياة حضرية • وفي البدء ، لم تكن الزراعة الا تقليدا للطبيعة • لم يعد الانسان يكتفي بما يجده في الطبيعة بل كان عليه ان يستنبت الارض • وهكذا بدأ يزرع الحبوب ويغرس الاشجار ، أما بالنسبة لايطالية ، فآثار هذا الدور قد اكتشفت حتى الآن ، خاصة في صقلية وجنوب شبه الجزيرة وكذلك في منطقة ليغوريـة *Liguria* .

جـ ـ العصر الحجري الحديث : (Nésolithigue) [١]

وهكذا سكنت كل قبيلة منطقة معينة واعتبرتها ملكا لها ولافرادها •

(١) تركب الكلمة من الفردتين اليونانيتين (Neos حديث و Lithos حجر) • ويبدأ في الشرق في حدود الالف الخامس ، اما في الغرب فيتأخر حتى الالف الرابع •

ووضع كل ذلك مع ماله علاقة بحياة الجماعة تحت رعاية طوطم واحد[٢] •
وكان الطوطم في أكثر الاحيان حيوانا ، مع اننا وجدنا بعض القبائل قد
اتخذت حشرة أو نباتا طواطم لها بل نجد احيانا بعض الجماعات قد نصبت
ابطالا اساطيريين طواطم لها•ولقد اعتبر الطوطم[١] كجد لجميع افراد القبيلة
وتسري روحه في جميع أفرادها ومن هنا اعتبر جميع أفراد القبيلة أقرباء
نتيجة لارتباطهم بطوطم مشترك • ولقد قدسوا الطوطم لدرجة كبيرة حتى
أن مجرد فكرة قتله أو أكله ولو في المنام ، قد اعتبر امرا مستهجنا يقتضي
القيام ببعض الطقوس التطهيرية • وفي كثير من الاحيان ، انعكست آثار
هذه القرابة المشتركة بالطوطم على العلاقات الاجتماعية • فمثلا فسر كثير
من العلماء الزواج الخارجي Exogamie[٢] بتلك القرابة المفترضة •
ولقد نظروا الى الطوطم الذي يحمي أفراد القبيلة كمصدر لمختلف مظاهر
الحياة ولذلك كان على ساحر القبيلة ان يحاول استدرار طاقاته اللامحدودة
بالرقص والغناء وبطقوس أخرى •

اضافة الى الصراع من اجل العيش بدأت تظهر لدى الانسان النيوليتي
بوادر الخوف من المجهول وخاصة من الاموات • وكما ان الانسان الباليوليتي
قد حاول التغلب على خصومه (الحيوانات والظواهر الطبيعية المؤذية
كالعواصف والطوفانات الخ ••••) بالسحر والشعوذه ، راح النيوليتي ،
اتقاء لشر الاموات ، يطور طقوس عبادتها ولقد اتسمت الحضارة النيوليتية
بتطوير شكل القبور ، والى تلك الفترة تعود أغلب القبور والانصاب الحجرية
الضخمة من دولمن *Dolmen* ومنهير *Menhir* وكروملك *Cromlech*[٣] •

لقد استقر الانسان النيوليتي ولو بصورة نسبية وبدأت تتعايش حضارات
متعددة مختلفة كما وكيفا • نقول حضارات لأن بعض المعالم الحضارية بدأت

---

(١) لفظة اخذت من لغة « الهنود الحمر » في امريكة الشمالية •
(٢) يقتضي الزواج الخارجي ، عند القبائل التي تمارسه ، ان لا يتخذ الرجل امرأة له من قبيلته بل عليه ان يقترن بامرأة من قبيلة اخرى ، لا تشترك مع قبيلته بعبادة طوطم واحد •
(٣) انظر ص ٥٤ •

تظهر لدى مختلف القبائل • عندما حلّت ازمنة العصر الحجري الحديث في ايطالية ، بدأ سكانها يصقلون الحجر ويجلونه • فتحسنت ادواتهم وتنوعت • ولقد عثر في المراكز النيوليتية الايطالية على مختلف انواع الادوات كالفؤوس والمخارز والمناشير والمطارق وسنانير الصيد الخ ••• وكذلك على قطع متنوعة من الاسلحة الحادة كالرماح والسكاكين والخناجر والفؤوس الخ •••

اما اكتشاف آثار ذلك العصر فلقد تم حتى الآن في وادي نهر البو[١] وصقلية وابولية وليغورية[٢] واتروريه[٣] واومبرية[٤] وبيكنوم[٥] وكذلك في جزيرة سردينية •

ان مشكلة العرق البشري الذي سكن شبه الجزيرة في العصر النيوليتي مازالت غامضة • فمنهم من قال بانه وفدت على ايطالية جماعات بشرية قادمة من افريقية في غضون الالف الخامس ولقد ربط اصحاب هذه النظرية ، النازحين الجدد بالعرق المتوسطي الذي شكل حسب رأيهم العنصر الاساسي لسكان ايطالية النيوليتية • ويضيف هؤلاء بان الادوات والاسلحة المتنوعة التي تم اكتشافها حتى الآن تعود بدقتها الى مهارة هؤلاء الوافدين الجدد •

ولكن كما قلنا ، مازال الأمر غامضا ، ويحتاج الى براهين ودلائل وافية • ان هذه النظرية غير ثابته علميا حتى الآن وكما نعلم تتلخص الخطوط العريضة لهذه النظرية كالآتي : اتت من افريقية الشرقية اقوام سكنت مصر ثم انقسمت الى قسمين ذهب الأول الى سورية وآسية الصغرى والثاني الى جزر البحر المتوسط والى اشباه جزره قبل ان تحل في اوروبة • اما رؤوس تلك الجماعات البشرية فلقد كانت مستطيلة ***Dolichocéphales*** [٦]

---

(١) انظر ص ٤٩ •

(٢) ***Liguria*** : منطقة تقع شمالي ايطالية محاذية لخليج جنوه •

(٣) ***Etruria*** : اسمها الحالي توسكانا Toscana • موطن الاتروسكيين ، تنحصر هذه المنطقة بين البحر التيريني ونهر التيبر وسلسلة جبال الابنين ونهر الارنو •

(٤) ***Ombria*** : منطقة في ايطالية الوسطى يرويها نهر التيبر •

(٥) ***Picenum*** : تقع في ايطالية الوسطى محاذية للبحر الادرياتيكي • من اشهر مدنها Asculum, Ancona .

(٦) من اليونانية : Dolikhos طويل و Kephale رأس

وهنا تكمن نقطة الضعف ، اذ ان الجماجم التي عثر عليها ، حتى الآن ، في مختلف المراكز النيوليتيــة الايطاليــة وان كان بعضها مستطيل الرأس فان البعض الآخر مستديره Branchicéphales [(١)] .

ونرى احيانا نموذجا ثالثا هو مزيج بين النموذجين المستطيل والمستدير .

وهكذا لم يساعدنا علم الانتروبولوجية حتى الآن . في حسم الموضوع، ونعتقد بان علم اللغات المقارن قد قدم لنا معلومات اكثر وضوحا ، واذا اضفنا اليها الدلائل الاثرية التي ذكرناها أعــلاه لتجرأنا عــلى القول بان التاريخ العرقي لايطالية النيوليتية مرتبط بتاريخ اوروبة العام ارتباط الجزء بالكل والفرع بالاصل . لقــد سكنت شمال اوروبــة وحوض البلطيك والبــلاد الاسكندينافية قبل الالف الثالث مجموعة من القبائل ذات الماضي الغامض ، ولقد شكلت هذه القبائل ما سيطلق عليه فيما بعد « العالم الهندي الاوروبي » وهو ما نسميه اليوم بالعالم الاوروبي . ولقد اضطرت هذه القبائل تحت تأثير عوامل مختلفة (تكاثر السكان ، ضغط بشري جديــد ، انقلابات مناخيــة) نقول اضطرت هذه القبائل الى الهجرة جنــوبا ؛ فحلت في مختلف البــلدان الأوروبية ومنها ايطالية وامتزجت بالســكان الاصليين وفرضت عليهم لغــة اصطلح على تسميتها بالهندية الاوروبية[(٢)] وهي جدة لغات عديدة . وعرفت

---

(١) من اليونانية : Brachus قصير و Kephale رأس

(٢) تضم مجموعة اللغات الهندية الاوروبية او الآرية ثماني كتل لغوية :

آ ـ الكتلة الهندية ـ الايرانية وتشتمل على السنسكريتية واللهجات الهندية الحديثة وكذلك على الفارسية القديمة والحديثة والزندية والكردية .

ب ـ الكتلة الارمنية بفروعها المختلفة .

جـ ـ الكتلة اليونانية (الايونية ، الآتيكية ، الدورية ، اليونانية الحديثة) .

د ـ الكتلة الالبانية .

هـ ـ الكتلة الايطالية (الاوسكية ، الاومبرية ، اللاتينية الخ ...) .

و ـ الكتلة الكلتية . (اللغة الغالية ، اللغة الايبرية ، الانكليزية القديمة) .

ز ـ الكتلة الجرمانية (الايسلندية ، الدانمركية ، النرويجية ، الانكلو ـ ساكسونية ، الانكليزية الحديثة ، الالمانية القديمة والحديثة .

ح ـ الكتلة البلطيكية ـ السلافية (اللتوانية ، الروسية ، البولونية ، التشيكية ، الصربية، الكرواتية ، البلغارية الخ ...) .

ايضا باسم « اللغات الآرية » • وكما انه لا توجد شعوب سامية بل لغات عرفت بهذا الاسم فيجب ان نفرق هنا ايضا بين العرق واللغة • فلقد كانت الشعوب الهندية ـ الاوروبية من عروق مختلفة ولكنها تكلمت في فترة ما لهجات متقاربة •

وتتراكم يوما بعد يوم آثار حضارة الآريين القدماء وخاصة اعتبارا من العصر الحجري الحديث والعصر الحجري ـ المعدني • (اعتبارا من الالف الثالث خاصة) • ولقد استعملوا المعادن بكثرة •

وتجري الآن حفريات في مختلف انحاء اوروبة وخاصة في الاتحاد السوفياتي للكشف عن مراكز حضارية آرية • ويعتقد بعض العلماء بان اصل جميع « الشعوب الآرية » يعود الى منطقة باكتريانة *Bactriane* الواقعة اليوم في تركستان السوفياتية خاصة ، اذ ان جزءا ضئيلا من المنطقة يقع في الاراضي الفارسية • وانتشرت تلك المجموعات البشرية من منطقة (باكتريانة) على موجات متعاقبة نحو الهند ونحو فارس وانتقلت فيما بعد الى اوروبة في غضون الالف الرابع • وترتبط هذه القبائل البدوية بالعرق الابيض ولقد مارست الرعي خاصة وكان الحصان حيوانها المفضل واختلطت هذه القبائل ، حيثما حلت ، بالسكان الاصليين ، بعد ان سيطرت بالقوة عليهم ولذلك نتج عن تلك الاختلاطات البشرية المتعددة اجناس جديدة • وبما ان عددها لم يكن كافيا بالنسبة لسكان البلاد القدماء ، لم تتمكن « الجماعات الآرية » من اضفاء سماتها العرقية على مختلف السكان الاصليين • ولقد تأثرت حضارات ولغات الغالبين والمغلوبين بتلك الظاهرة وهذا ما يفسر لنا ظهور مجموعات بشرية متباينة نسبيا اذا ما قورنت ببعض الجماعات الآرية التي حافظت نوعا ما على نقاوتها نتيجة لانعزالها في بعض المناطق •

اضافة الى المعطيات الاثرية واللغوية ، لدينا صناعة الخزف التي تربط سكان ايطالية النيوليتية بمجموعات بشرية انتقلت من الشرق الى الغرب واستقرت في آسية الغربية وفي شبه جزيرة البلقان • وهكذا نرى بان هذه

النظرية تجعل من آسية الوسطى مصدرا للموجات البشرية التي اجتاحت اوروبة ومن ضمنها ايطالية في العصر الحجري الحديث .

ولقد ارتقى الانسان النيوليتي درجة في السلم الحضاري واغتنت حياته وفتحت امامه آفاق جديدة . فبعد أن هجر الكهوف وأضاف الرعي الى الصيد نراه الآن يحاول الاستقرار بعد ان اهتدى الى الزراعة وكشف عن اسرار التربة . فراح يبذر القمح ويجفف المستنقعات ويزرع اراضيها . لا ندري حقا كيف اكتشف الانسان النيوليتي اهمية البذور وانقلب من لاقط الى زارع . ربما حصل ذلك صدفة حين سقطت بعض البذور على التربة فشاهد الانسان وقلّد عندئذ الطبيعة . عندما تم الانقلاب الزراعي[1] وانعكس ذلك في تحسين نوعية غذاء البشر ، تعلم الانسان فضيلة التموين وأصبح يفكر بغده فابتكر طرقا ووسائل لحفظ وتخزين الحبوب والثمار ومشتقاتها (زيت ، نبيذ) فتمّ حينئذ صنع الخزف . اذ يمكننا القول بأن ظهور الخزف قد أعقب فترة الانقلاب الزراعي وقبل ظهور الخزف،استعمل النيوليتي السلال المطلية من الداخل بالطين . وربما أتت فكرة الرسم على الخزف من التقاطعات على سطح السلال ثم ظهرت الرسوم باشكال هندسية ونباتية فحيوانية . أما كيف تم صُنع أول خزف ، فربما تولّدت فكرة صنعه من وجود الطين قرب النار فشوي واتضحت فائدته وكذلك من آثار الاقدام على الرمل ، تلك الآثار التي احتفظت بالماء بعد جفافها .

وفي ايطالية النيوليتية كما في باقي مناطق العالم القديم ، صنع الانسان خزفه باليد وشواه على نار مكشوفة قبل أن يهتدي الى دولاب الخزاف والى الفرن المغلق . ويتأكد لنا من القطع الخزفية التي تمّ اكتشافها في مختلف انحاء ايطالية النيوليتية ، بأن المراكز الجنوبية كانت، كما رأينا بالنسبة للعصر الباليوليتي ، أكثر نشاطا من القسم الشمالي من شبه الجزيرة . ولقد صُنع الخزف في تلك الفترة خاصة من صلصال اسود أو أسمر .

---

(١) انظر ص ٤٢ وما يتبع .

والكلام عن دولاب الخزاف يقودنا الى الكلام عن اختراع الدولاب[1] ومنذ القديم استعمل الانسان الدولاب على شكلين : افقيا ونعني به دولاب الخزاف وشاقوليا الدولاب الاعتيادي لجر المركبات •

ولقد عُثر في المراكز النيولتية على ابر من العظم ويظهر بان الانسان قد بدأ يخيط ملابسه وهكذا راحت تغطي جسمه بعض الالبسة المنسوجة من الصوف والكتان وبعض الالياف النباتية وترك النيوليتي تدريجيا جلود الحيوانات وبدأ الانسان التاريخي يلوح لنا في الافق خاصة بعد ان انتظمت حياته الاجتماعية وبدأ ببناء الاكواخ المغطاة بالتراب المصلب المدكوك• وتجمعت تلك الاكواخ لتشكل القرى البدائية ولقد ربطت هذه الاكواخ بعضها ببعض بواسطة الطرق الضيقة البسيطة ، ويمكننا القول بأن « الانسان الاجتماعي » قد ولد فعلا منذ تلك الفترة •

وراحت مختلف القرى والقبائل تطّور فيما بينها علاقاتها الاقتصادية مما أدّى الى ازدياد في الانتاج نتيجة لتطّور القوى المنتجة فنتج عن كل ذلك تحول جذري في علاقات الانتاج • لقد كان هدف الانتاج في البدء الاستهلاك المحلي ولكن السلعة دخلت تدريجيا اطار التبادل ونشأت بعض العلاقات التجارية بين القرى والقبائل المختلفة •

عندما تمّ تبادل السلع المنتجة التي كانت مكرسة في البدء للاستهلاك

---

(١) لقد ادى اختراع الدولاب الى تطور حاسم في طرق المواصلات البرية ، اذ انه حول الزلاقة المجرورة على الارض الى مركبة واستعمال الدولاب في العالم القديم يعود الى العصر النيوليتي بينما لم يستعمل في امريكة الا اعتبارا من القرن السادس عشر مع استيطان الاوروبيين لتلك القارة •

ولا شك بان رؤية الحجارة المتدحرجة قد ساعدت على ابتكار فكرة الدولاب ويعتقد بان الانسان البدائي قد لجأ الى اغصان الشجر المستديرة ، قبل صنع الدولاب ، لجر الشحنات الثقيلة •

ويعتقد اليوم بان الدولاب كان معروفا في الرافدين منذ الالف الرابع • وانتقل استعماله تدريجيا من الشرق الى الغرب • بالنسبة لمصر فرغم تقدمها في مجالات مختلفة فان المصريين لم يبتكروا صنع الدولاب ، ولم يعرفوه الا بعد دخول الهكسوس الى الدلتا حوالي (١٦٥٠ ق٠م) •

المحلي فقط ، أصبح من الضروري ان يزداد حجم الانتاج ليؤمن حاجات التبادل .

نتيجة لكل ما تقدم بدأ نظام المشاعية البدائية بالتفسخ مولدا المجتمع الطبقي .وأول اثر نشاهده كانعكاس لهذا التبدل في العلاقات الاجتماعية نقول ان أول اثر نشاهده هو ظهور القبور الفردية أو المدافن العائلية . ان القبور الجماعية قد عاصرت فترة « المشاعية البدائية » . بينما القبور الفردية بدأت تظهر مع تفسخ هذا النظام ومع ظهور « العائلة الابوية » والعائلة بشكل عام .

ولكن كيف تم هذا التبدل في العلاقات البشرية .

في البدء كان المنتصرون يقتلون الاسرى من المغلوبين ولكن كما ذكرنا بدأت تظهر بعض الحرف ونشأ تبادل السلع بين مختلف القبائل والقرى . ولقد لوحظ بأن اليد العاملة للقادمين الجدد (الاسرى) تساهم في زيادة الانتاج ولذلك تركوا على قيد الحياة ولكن كعبيد يعملون لصالح اسيادهم الجدد . وهكذا فالنزعة الانسانية الجديدة (عدم قتل الاسرى) لم تظهر عند المنتصرين الا نتيجة للحاجة وهكذا عكست الاخلاق أوضاعا اجتماعية جديدة ناجمة عن علاقات انتاجية جديدة .

ومع ظهور الرقيق،وجهت ضربة قاضية الى نظام الامومة MATRIARCAT لا شك بأن دور المرأة الانتاجي قد بدأ بالتقهقر منذ أن انتقل الانسان من حياة الصيد الى حياة الرعي فالزراعة . عندما كان الانسان يعيش على ما يقتنصه من فرائس وما يلتقطه في الطبيعة كان دور المرأة الاقتصادي كبيرا . اذ ان المرأة هي التي ساعدت الرجل في التقاط الثمار والنباتات اضافة الى انها كانت حارسة البيت اثناء غياب الرجل .

ولم يكن الصيد مضمون النتائج ولذلك كان على المرأة ان تؤمن احيانا غذاء الجماعة بما تلتقطه في الطبيعة .

وفي العصر الحجري الباليوليتي المتأخر (عصر الكهوف) كانت ملكية وسائل الانتاج ملكا مشاعا لجميع أفراد القبيلة • وكما لاحظنا كانت وسائل الانتاج جدّ بدائية مما اضطر البشر ان يعملوا سوية لتأمين معاشهم وخاصة لدى محاولاتهم اقتناص الحيوانات (الثور ، الوعل الخ ••) أو عند اضطرارهم للدفاع عن انفسهم ضد البهائم الكاسرة • وهؤلاء البشر الذين كانوا يعملون بشكل جماعي عاشوا حياتهم بشكل جماعي ، أي أن التزاوج كان يتم بين مجموعات من النساء مع مجموعات من الرجال • وفي هذه الحالة كان الولد ينسب الى المرأة لا الى الرجل •

ولكن عندما انتقل الانسان الى الرعي فالزراعة حدث تطور في العلاقات الانتاجية ،وبتعبير آخر ظهرت بداية التخصص في العمل واعقب الزراعة كما ترى ظهور الحرف ونشوء تبادل السلع • وضمن هذه الشروط الجديدة تقهقر دور المرأة الاقتصادي وخاصة بعد ظهور الرقيق الذي وجه ضربة قاضية اليها • فمن جهة حل عمل العبيد (الذكور) محلها في نطاق الانتاج ومن جهة اخرى رأينا الرجل يأخذ من الاماء ما شاء ، على شرط ان يكون قويا ومالكا اكثر من غيره • ومن هنا نشأ التفاوت الاجتماعي بين مختلف الطبقات وظهر مفهوم الارث وبدأت الحرب بين مختلف القرى والقبائل تلعب دورا كبيرا في نطاق الانتاج • اذ انها كانت تؤمن اليد العاملة عدا عن الغنائم التي كانت تسلب من العدو المغلوب على أمره •

وهكذا تراجع نظام الأمومة مع نشوء المجتمع الطبقي وولادة مختلف الفئات الاجتماعية وكان لظهور الرقيق دور حاسم في ذلك • ان عمل العبد قد قلّل من اهمية دوز المرأة في حياة الجماعة ولذلك فالعبد بعمله قد ساعد على قهر المرأة • لاشك بان كل ماذكرناه بخطوطه العريضة ، لم يحدث بشكل بسيط •

ازدادت سلطة مالك القطعان بازدياد ثروته ونشأ مفهوم الارث • اذ ان السيد (الزعيم) يريد ان يتعرف على ابنه ليترك له سلطته واملاكه وهكذا

لم يعد الابن ينتسب الى امه بل الى ابيه • لقد انكسرت المرأة وانتهى دورها ولم تعد هي التي تعطي اسمها لابنها • لقد تضاءلت مكانتها ان كان في ميدان الانتاج او فيما يخص العلاقات الاجتماعية • لقد بدأ نظام « المشاعية البدائية » بالتفسخ لصالح رؤساء الاسر • ولقد حدث ذلك كما رأينا تحت تأثير عاملين اساسيين يشكلان جانبين متبادلي الارتباط بعملية واحدة : لقد كانت السلعة فيما مضى تنتج في سبيل الاستهلاك المحلي فقط ، اما فيما بعد فلقد دخلت ميدان التبادل التجاري ولقد ساهم هذا التطور في وجود طبقة العبيد المعدّة للانتاج السلعي •

ودخول العبد كقوة منتجة في حياة الاسر قد ساعد كما رأينا على قهر المرأة وساهم مساهمة كبيرة في تفكك النظام القديم • فبدأ نظام « المشاعية البدائية » لوسائل الانتاج بالتراجع فالزوال وظهرت اللامساواة مكرسة المجتمع الطبقي الجديد القائم على استثمار طبقة لطبقات اخرى، وقبائل لقبائل اخرى ، ولقد تقدّم الانتاج خطوة الى الامام ورافق ذلك خطوة الى الوراء في علاقات الانسان باخيه الانسان•لقد زالت المساواة بين افراد القبيلة وكذلك بين المرأة والرجل • لقد بدأت « ديمقراطية المشاعية البدائية » (حين كان دور الفرد يتناسب مع صفاته ومع ما يقدمه للمجموع) بالزوال ، مفسحة المجال للسلطة القائمة على الثروة •

لاشك بان ارتفاع عدد السكان مع ازدياد الطلب على الحاجيات وعدم تطور وسائل الانتاج بشكل كاف ، كل ذلك قد ساعد على نشوء نظام الرقيق الذي ادى بدوره الى تركيز المجتمع الطبقي • اننا لا نحكم على ذلك من الوجهة الاخلاقية ، اذ ان « نظام العبودية » لولا ضرورته لما تبنته مختلف المجتمعات القديمة • لقد مرّت بتلك المؤسسة معظم الشعوب القديمة ،عندما حاولت مضاعفة الانتاج رغم كون وسائلها التقنية بدائية وضعيفة المردود •

راح الاسياد الجدد يفرضون العمل المنتج على العبيد وكذلك على اتباعهم الضعفاء والمحدودي الثروة • وانفرد السادة بالسلطة والحكم • اذ ان العمل

قد انقسم الى يدوي وفكري:الأول للعبيد والفقراء والثاني للسادة والموسرين.

وسينعكس هذا التنظيم الاجتماعي الجديد في الاساطير والاخلاق والدين الخ ... ونكتفي الآن بما قاله (ارسطو) رغم كونه من اكبر مثقفي العصر القديم : « لقد جعلت الطبيعة التركيب الجسدي للاحرار مختلفا عن التركيب الجسدي للعبيد ، فاجساد العبيد قوية صالحة لاداء الاعمال المادية اليدوية ، اما الناس الاحرار فمستقيمو العود وغير قادرين على اداء أي من هذه الأعمال ، ولكنهم صالحون للعمل السياسي وللابحاث النظرية المجردة».

الفصل الثالث

حضارات العصور المعدنية

في وقت ازدهرت فيه المراكز الحضارية الكبرى في الشرق ، وفي فترة تجلت فيها منجزات الحضارة الفرعونية (الملكية القديمة) بسطوع وذلك بتوحيدها وادي النيل وبتنظيمها امور الري وبنائها الاهرامات الكبرى وكذلك في عصر ظهرت خلاله المدن السومرية ــ الاكادية بكل بهائها في بلادالرافدين وفي عهد كان خلاله العموريون والكنعانيون قد استوطنوا مختلف انحاء سورية ــ فلسطين وعملوا على تطوير حضارة رائعة ، نعم في تلك الحقبة التاريخية للعهد المينوسي القديم (٣٠٠٠ ــ ٢١٠٠) والتي سطعت خلالها الحضارة الكريدية بكل روعتها وكذلك في فترة تاريخية كان اثناءها الشرق الاقصى مسرحا لحضارات بينة وجلية كحضارات :

هارابا ***Harappa*** وموهنجو ــ دارو *Mohendjo - Daro* (١)

---

(١) يعتبر اكتشاف حضارة (وادي السند أو وادي الهندوس) من اعظم الاحداث التي عرفها علم الآثار في مطلع القرن العشرين .

في الواقع سكنت الهند شعوب عديدة منذ العصر الحجري . وأقدم حضارة هندية رفع النقاب عنها حتى الان وترجع الى نحو (٢٥٠٠ ق.م) ــ أي قبل وصول الموجات الآرية الى الهند هي حضارة (هارابا ***Harappa***) في البنجاب (وموهنجو ــ دارو في السند . كانت تقع (هارابا) قديما على ضفاف نهر (رافي ***Ravi***) احد انهر البنجاب الخمسة وذلك في مقاطعة (مونتجومري) في الباكستان الغربية . واول من لفت الانظار الى تلال هارابا Charles Masson و Alexander Bornes وذلك بعد ان لاحظا وجودها في طريقهما الى افغنستان عام ١٨٢٠ . ولكن في الواقع لم تدرك اهمية تلك التلال وما تحتويه من معالم حضارية الا اعتبارا من عام ١٩٢٢ عندما بدأت الحفريات فيها وكذلك في تلال موهنجو دارو .

وتقع آثار موهنجو ــ دارو على ضفاف نهر (الهندوس) في منطقة (لارجانة) في مقاطعة السند (الباكستان الغربية) وذلك على بعد (٦٥٠ كم) جنوبي هارابا ولقد اوضحت الحفريات التي بدأت عام ١٩٢٢ على يد علماء آثار هنود وبريطانيين بأن مركز (موهنجو-دارو) يضاهي مركز هارابا ان لم يفقه بسعته ولقد وصف (جون مارشال J. Marshall) احدالعلماء الذين اشرفوا على حفريات موهنجو ــ دارو هذه المدينة بقوله : « انها مبنية بالآجر ولها شوارع عريضة واقنية لتصريف المياه وكان سكانها يصنعون الخزف المدهون

في الهند وحضـارة (هونان Honan)[1] في الصين ، في ذلك العصـر

والادوات البرونزية والتماثيل الحجرية الصغيرة ، ولقد عثر كذلك في قبورها او مساكنها على قلائد من الذهب والفضة والاصنام المزدانة بصور الحيوانات • وقد وجدت على الاختام كتابة لم تفسر حتى الان » وربما كان لهؤلاء السكان علاقة بالسومريين في بلاد الرافدين • على انه لايعلم بالضبط من اين اتوا وربما اخضعتهم قبائل هبطت من المناطق الجبلية •

اما بالنسبة (لهارابا) فلقد عثر Mortimer Wheeler عام ١٩٤٦ في التل المرقم (AB) على آثار حصون لقلعة ترتفع (١٥) مترا عن سطح الارض • وتحتل القلعة مساحة قدرت ابعادها بـ (٤٠٠) مترا طولا و (٢٠٠) مترا عرضا • والى شرق القلعة المحصنة ، يقع التل ذو الرقم (٦) ولقد اثبتت الحفريات بان المنطقة السكنية تقع في تلك المنطقة من المدينة وكانت تقع شمالي القلعة « الاحياء العمالية » حيث اكتشفت المطاحن الخ•• اما المقابر فكانت الى جنوب القلعة •

وجميع ما عثر عليه في هارابا (ادوات ، حلي ، اسوار ، حصون ، الخ ••) يظهر شبها واضحا مع مكتشفات موهنجو ـ دارو •

وكما قلنا، يعتقد البعض بأن هذه الحضارة قد تأثرت بشكل مباشر أو غير مباشر بحضارة بلاد الرافدين • ويقول Mortimer Wheeler بان مؤسسي حضارة وادي الهندوس قد انتقوا من البحر الى الوادي وأسسوا المراكز الحضارية المذكورة • وعلى كل فمن المرجح **اليوم بان مؤسسي هذه الحضارة الرفيعة قد وصلوا الى وادي الهندوس حاملين معهم أسس حضارتهم** • ولكن مازال النقاش جاريا سجالا بالنسبة لتلك النقطة بالذات وخاصة ان المراكز الحضارية لوادي الهندوس لم تنقب كلها •

واعتبارا من (١٧٥٠) بدأت موجات القبائل الآرية تغير على المراكز الحضارية لوادي **الهندوس ولم يمض قرنا الا وكانت تلك الحضارة اللامعة قد تقهقرت نتيجة للغزوات الآرية•**

وهكذا زالت معالم « حضارة وادي الهندوس » في حدود (١٥٥٠ ق•م) بعد ان ازدهرت خلال الف سنة تقريبا • ولكن في الواقع لم تندثر آثار تلك الحضارة نهائيا ، اذ يظهر اليوم من الدراسـة المقارنـة بان « حضارة وادي الهندوس » قد تركت آثارا جليـة في الحضارات الهندية التي اعقبتها » •

(١) **بدأت الحياة في الصين منذ اقدم العصور الحجرية ووجدت فيها بقايا انسان قديم يرجع** الى نحو اربعمائة الف (٤٠٠ الف سنة) • وهذه البقايا اكتشفت على بعد اربعين (٤٠) **ميـلا من بكـين في عـام ١٩٢٧ • ويعـرف هـذا الانسان باسم انسـان بكـين** *Sinantropus Pekinensis* • ولقد عثر في الصين على مراكز نيوليتية عديدة وخاصة في وادي النهر الاصفر Houang - Ho .

وفي عام ١٩٢١ اكتشف العالم الاثري اندرسون Anderson مواقع أثرية في غربي هونان في وادي النهر الاصفر ومن اهمها موقع ***Yang - Chao - Tsouen*** **، حيث وجدت أواني من الفخار رمادية اللون لها ثلاثة قواعد •**

ولايزال الصينيون يصنعون حتى اليوم مثل هذا الخزف • ولقد عثر على مركز حضاري آخر في حوض النهر الأزرق ***Yang Tseu - Kiang*** ولقد عثر على اوان من الفخار الاسود **في مراكز واقعة في المنطقة الساحلية الشمالية • ولقد ازدهرت حضارة تلك المراكز في الفترة** الواقعة بين الالف الثالث والثاني ق•م•

التاريخي بالذات ، كانت أوروبة عامة متأخرة عشرة قرون تقريبا عن الركب الحضاري العالمي • ولقد فسر بعضهم بطء التطور الحضاري الاوروبي بالنسبة الى باقي المراكز الحضارية المذكورة بتأخر انسحاب الجموديات وكذلك بمناخها القاري وبانتشار الغابات بكثرة وهذا أمر لم نألفه في شواطئ البحر الابيض المتوسط وفي وادي النيل وكذلك في بلاد الرافدين •

وعلى كل ، قبل مطلع الالف الثاني (ق•م) كانت مجموعة من القبائل الآرية تجوب السهوب الأوروبية المتدة بين نهري الدانوب والراين متنقلة على احصنتها مع قطعانها المكونة خاصة من البقر • وراحت هذه الكتل البشرية البدوية تستقر تدريجيا في بريطانية وجرمانية وغالية وايبرية وايطالية مكونة شبه امبراطورية كبرى في أوروبة الوسطى والغربية •وتحت تأثير هذا الضغط البشري الجديد ، هاجر قسم من شعوب أوروبة النيوليتية واستقروا على شواطئ البحر الابيض المتوسط • اما من بقي من السكان الاصليين فامتزج بهم الاريون الجدد وفرضوا عليهم لغتهم التي تطورت فيما بعد ، في مختلف البلدان الاوروبية مولدة اللغات الهندية ـ الأوروبية[1] •

ولقد شكلت ايطالية ، ما عدا قسمها الجنوبي جزءا من هذه الامبراطورية الواسعة •

ولدى بحثنا عن تاريخ اليونان[2] رأينا بأن هجرة القبائل الهندية ـ الاوروبية قد ولدت اوضاعا مضطربة في آسية الصغرى وشواطئ بحر ايجة وها نحن نرى آثار تلك الهجرات البشرية على اوضاع اوروبة الغربية والوسطى •

لدى كلامنا عن الكتابات المينوسية[3] قلنا بانه قد تم العثور على نماذج قريبة منها (المجموعة الاولى *Linear Script A*) في مناطق واقعة خارج جزيرة كريد ومن جملة المناطق المذكورة ورد اسم ارخبيل (ليباري

---

(١) انظر ص ٧٥ •

(٢) راجع : تاريخ اليونان ، الدكتور كامل عياد ، الجزء الاول ، ص ٤٣ •

(٣) نفس المرجع ص ٦٠ •

Lipari) [١] • الواقع الى الشمال من جزيرة صقلية • ولقد تم العثـور ايضا كما ذكرنا على بعض الاواني الخزفية ذات الطابع الكريدي • وتؤكد لنا اليوم شواهد متنوعة ، بانه كان لايطالية الجنوبية منذ اوائل الالف الثاني (ق•م) بعض العلاقات مع حضارات بحر ايجـة وخاصـة مع الحضـارة الكريدية •

وقبل ان نعطي بعض اللمحات الخاطفة لمختلف العصور المعدنية ، نود ان نوضح بانه مازالت هنالك بعض النقاط الغامضة لتلك الفترة من تاريـخ شبه الجزيرة وخاصة ماله علاقة بالعصر الحجري ـ النحاسي وبدايات عصر البرونز •

أ ـ العصر الحجـري المتأخر *Enéolithique* (٢) والعصر الحجـري النحاسي *Chalcolithique* (٣) (٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠) :

نطلق عادة على اواخر العصر الحجري الحديث اسم العصر الحجري المتأخر او العصر الحجري ـ النحاسي • ويبدأ هذا العصر بالنسبة لاوروبة في منتصف الألف الثالث (ق•م) وبشكل عام ، ليس للعصور المعدنية تاريخ مطلق بالنسبة لمختلف الحضارات لانها كما نلاحظ بدأت في أوقات مختلفة باختلاف المناطق [٤] •

ونطلق عادة اسم العصر الحجري الحديث المتأخر او «العصر الحجري النحاسي » عـلى الفترة التـي بدأ فيهـا الانسان يستعمل المعـدن الى جانب الحجارة • وكان النحاس من اول المعادن التي استعملها الانسان • ولقـد استعمل هذا المعدن في البدء مطروقا قبل ان يلجأ الى صهره وصبّه • اما

---

(١) انظر اعلاه ص ٥٤ •

(٢) الاكثر حداثة •

(٣) الكلمة مركبة من مفردتين يونانيتين (**Khalkos** نحاس و **Lithos** حجر) •

(٤) فمثلا بالنسبة للشرق الأدني وجدت أدوات نحاسية عائدة لفترات تتراوح بين منتصف الالف الخامس ونهاية الالف الرابع وادركت الحضارة الكريدية عصر النحاس قبل اوروبة الغربية• والامر ذاته ينطبق على معدني البرونز والحديد • على كل ، كما نوهنا اعلاه ، لانعتمد من ناحيتنا على تصنيف تومسن فقط (انظر ص ٥٠ وما يتبع) بل نحاول جهـد امكاننا ان ندرس مختلف المظاهر الحضارية لمجتمع ما ، في فترة تاريخية معينة •

كيف تعلم الانسان صناعة معدن النحاس او بالاحرى كيف اهتدى الى طريقة صهره ، فهذا امر مازال غامضا • وكل ما يمكننا قوله ، بان الامر قد يكون تمّ صدفة • أي ان استعمال النار في بقعة تحتوي تربتها على الفلز النحاسي ، وبالتالي انصهار هذا المعدن بشكل تلقائي ومن ثم ارتباط ظهور المعدن السائل بوجود النار ، قد يكون شيء من هذا القبيل قد تمّ فلفت انظار البشر الى الظاهرة ، ومن ثم كرّر الانسان العملية وفق ارادته وبشكل واع •

اما كيف تعرف الايطاليون على معدن النحاس وكيف شاع استعماله في شبه الجزيرة فهذا امر مرتبط ـ فيما نعتقد بهجرات الشعوب الهندية ـ الاوروبية(١) وبعلاقات ايطالية الجنوبية مع حضارات العالم الايجي والساحل الكنعاني • ونجد انفسنا تجاه ظاهرة شيوع النحاس في ايطالية ، امام فرضيات عديدة : فاما ان يكون استعمال المعدن قد اكتشف في ايطالية او ان تكون طريقة صنعه قد انتقلت الى شبه الجزيرة نتيجة لهجرة شعب آخر او لترشح بعض العناصر البشرية التي عرفت استخراج هذا المعدن واستعملته•

من الملاحظ قبل كل شيء ، ان مناطق ايطالية الشمالية والجنوبية لومباردية ، اترورية ، اومبرية ، صقلية)(٢) قد ادركت العصر الحجري ـ النحاسي قبل مناطق ايطالية الوسطى • اضافة لذلك سبقت شعوب الشرق كما رأينا(٣) وكذلك حضارات بحر ايجه مختلف مناطق اوروبة الغربية في المضمار الحضاري (الخزف ، استعمال المعادن ، الكتابة ، الخ •••) • ومن المؤكد اليوم ، بان الحضارة بمظاهرها المختلفة قد انتقلت ، اعتبارا من الالف الثالث (ق•م) من الشرق الى الغرب• وهنا ، لابدّ لنا من ان نلمّح الى فرضية طرحها منذ عشرين سنة تقريبا(٤) العالم الاثري الفرنسي كلود شايفر (وهو المشهور بحفرياته في رأس شمرة) • يفترض العالم المذكور بان الاقوام التي دعاها بـ « حملة الاطواق » والتي كانت تسكن الساحل الكنعاني حيث

---

(١) انظر ص ٧٥ •

(٢) انظر ص ٧٤ •

(٣) انظر ص ٨٣ وما يتبع •

(٤) راجع : مجلة الحوليات الاثرية السورية ، القسم الاجنبي ، دمشق ، ١٩٥١ • ص ٥٠ •

استخرجت المعادن من مناطقه ومن المناطق المجاورة له[١] قد هاجرت بعد ان نضب قسم كبير من المعادن ، الى اوروبة الوسطى والغربية وعلّمت سكانها صناعة التعدين • وكان ذلك في اوائل الالف الثاني (ق•م) •

على كل ، يتأكد اليوم بان صناعة النحاس قد خطت خطوات جبارة بعد تسرب الموجات الهندية الاوروبية الى ايطالية •

ويعود قسم من القبور والمعابد الميجاليتية الى العصر الحجري ـ النحاسي وقد اظهرت الحفريات الاثرية التي تمّت في المراكز العائدة لذلك العصر ، بان سكان شبه الجزيرة قد بدأوا يعتنون اكثر من ذي قبل بتربية مختلف انواع المواشي (العنز ، الخرفان ، الخنازير) والعصر الحجري النحاسي كان عصرا قصيرا وانتقاليا بل ان بعض مناطق ايطالية الوسطى قد قفزت مباشرة من العصر الكالكوليتيكي[٢] الى العصر البرونزي•

ب ـ العصور البرونزية :

عندما يمزج النحاس بالقصدير يخرج من هذا المزيج معدن جديد صلب ونعني به البرونز[٣] ولقد تأخر ظهور البرونز في أوروبة الغربية حتى مطلع الالف الثاني ، بينما وُجِد ذلك المعدن في بلاد الشرق وفي مناطق بحر ايجة بين مطلع الالف الثالث ونهايته •

وثمة نقطة يجب ان تكون واضحة في اذهاننا ونعني بها عدم زوال الادوات الحجرية والعظمية بمجرد ظهور معدن البرونز ـ وهذه الظاهرة هي صحيحة بالنسبة لايطالية ولباقي المناطق الغربية والشرقية ـ • في الواقع، ظل استعمال المعادن (النحاس ومن ثم البرونز) محصورا جدا في البدء

---

(١) من المعروف بان جزيرة قبرص قد اشتهرت في القديم بغناها بمعدن النحاس حتى انها اشتقت اسمها من هذا اسم المعدن (Cuprum) في اللاتينية ويعني النحاس الاحمر • ومن المناطق الشهيرة في القديم بالنحاس ، ايران •

(٢) انظر ص ٨٦ •

(٣) للحصول على البرونز ، يمزج عادة ثمانية أجزاء من النحاس مع جزء واحد من القصدير •

وقاصراً على صنع بعض ادوات الزينة الى ان اهتدى الانسان الى خواص تلك المعادن ، فصار يستخدمها في صنع ادواته واسلحته •

ويتميّز عصر البرونز عامة ببروز ظاهرتين جديدتين :

أ ـ تطور المبادلات التجارية الداخلية والخارجية •

ب ـ نمو الحرف وظهور التخصص في بعض فروعها وخاصة الحدادة واستخراج المعادن •

بدأ الحدادون والمعدنون يكرسون جل نشاطهم لاتقان صنعتهم معتمدين في معاشهم على مبادلة محصول انتاجهم بما يلزمهم من سلع وحاجيات • ويتطلب استخراج المعدن من الفلز ومن ثم تذويبه وصبّه ، ان كل ذلك يتطلب خبرات خاصة ، ومن هنا ، بدأت تتشكل « النقابات الحرفية »[1] هادفة الى تطوير الخبرات المهنية والى حفظ سر المهنة •

وبينما كان اقتصاد المجتمع النيوليتي اقتصادا مغلقا ، بدأ الوضع يتغيّر مع ظهور المنتجات المعدنية ودخولها نطاق المبادلات التجارية ، ان كان على النطاق الداخلي او الخارجي • وقد ارتبط ازدهار بعض الحضارات ،بتطور صناعة هذا المعدن ، حيث ازداد عدد الادوات البرونزية (اسلحة ، ادوات زينة الخ •••) وتم تبادلها داخليا وخارجيا[2] •

ولقد اتفق معظم الباحثين اليوم على تقسيم عصر البرونز في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط الى أدوار ثلاثة : قديم وسيط وحديث • ويفضل البعض دراسة (عصر البرونز المتوسطي الغربي) كوحدة متكاملة • وعندما نقول الحوض الغربي للمتوسط نعني بذلك : ايطاليا والجزر الايطالية ، مالطة ، اسبانية وجزر البالیار **Les Baléares** ثم الساحل الفرنسي المطل على المتوسط • اما من ناحيتنا ، فسنحاول ان نوضّح خاصة ماله علاقة بشبه الجزيرة الايطالية دون ان نهمل كلية باقي المناطق • وفي

(١) نطلق لفظة نقابات على تلك التجمعات الحرفية تجاوزاً ، تلك التجمعات التي لم تكن في الواقع الا تنظيمات حرفية بدائية •

(٢) الحضارة الكريدية مثلا في مطلع الألف الثاني •

الواقع ، ان تاريخ ايطالية في تلك الفترة ، لعلى صلات وثيقة بتاريخ باقي مناطق المتوسط الغربي • ولكن يجب ان لايفهم من قولنا هـذا بان منـاطق المتوسط الغربي كانت منعزلة عن المراكز الحضارية الواقعة في الحوض الشرقي للمتوسط • كلا ، جل ما اردنا قوله ، انه نتيجة لعديد من الحفريات الاثرية التي تمّت في اوروبة الغربية خلال الخمسين سنة الاخيرة وبالتالي بفضل مختلف المكتشفات الاثرية التي تمكن العلماء من اجرائها ، بدأ يتضح لنا بان عديدا من مناطق أوروبة الغربية قد شملتها عناصر حضارية متشابهه وخاصة في الالف الثاني (ق•م)• اما الشوط الحضاري الكبير الذي قطعت مناطق الحوض الغربي للمتوسط فلقد تجلى بدلائل عديدة :

آ ـ تطور سريع للعمارة •

ب ـ اتقان صنع معدن البرونز وتقدّم صناعة الخزف •

جـ ـ تطور الزراعة ونمو الحرف •

د ـ التغلب على بعض الصعوبات التي كانت تعيق سبل الملاحة البحرية وبالتالي ازدياد العلاقات الحضارية بين الحوضين الغربي والشرقي للمتوسط •

ورغم ان هذه المظاهر الحضارية قد ظهرت في مختلف مناطق الحوض الغربي للمتوسط على درجات متفاوته،نلجأ اليوم الى تقسيم تاريخ تلك الفترة (العصر البرونزي) الى ادوار ثلاثة : قديم ، وسط ، حديث •

(١) عصر البرونز القديم : (١٨٠٠ ـ ١٤٠٠ ق•م)

القت المكتشفات الاثرية التي تمّت في Remedello في وادي نهر البو في ايطالية الشمالية ، ضوءاً ساطعاً على حضارة العصر البرونزي القديم • ولقد عُثر بالقرب من القرية الاثرية ، على مدفنين يضمان (١٢٠) قبرا • اما القبور ، فهي عبارة عن حفر في الارض ولقد وُضع في كل منها ميت في وضع جنيني (القرفصاء) ، ويمسك الميت في يمناه خنجرا برونزيا ،

واحيانا حجريا • أي ان الادوات والاسلحة الحجريـة كانت مستعملة الى جانب الادوات والاسلحة البرونزية •

ولقد اكتشفت مدافن مشابهة في Fontanella جنوبي Remedello وكذلك في Panasella بالقــرب من Volongo) والملاحظ ان خنــاجر كريدية الطراز تمتزج بنماذج من الخناجر تمّ العثور عليهـا في أوروبـة الوسطى •

اما القطع الخزفية التي اكتشفت في تلك المواقع الاثرية فهي من نموذج La Polada وتتميز بمسكاتها المتعددة الاشكال والمتوضعة على عرى الأواني• ويظهر بان المساكن « البالافيتية »[1] الشكل بدأت تتراجع مفسحة المجال للقرى « التيرامارنية »[2] •

---

(١) Palafitta : كلمة ايطالية تعني صف من الركائز الخشبية • كثيرا ما اقام الانسان النيوليتي مساكن بحيرية في مناطق عديدة من اوروبة الغربية • فلقد عثر مثلا على شواطىء البحيرات وفي داخلها (في ايطالية الشمالية ، سويسرة ، فرنسة ، المانية ، بولونية وغيرها من مناطق أوروبة الوسطى) على نماذج مختلفة من هذه المساكن ومع ان العصرين النيوليتي والكالكوليتي يعتبران كفترتي ازدهار لهذا النوع من البناء ، فاننا نجد آثارا للمساكن البحيرية في العصر البرونزي •

ولقد اتخذت الاوتاد الخشبية كأساس لتلك المساكن • ولقد كان يفصل بين وتد وآخر مسافة (٥٠) خمسين سنتيمترا تقريبا • اما ارتفاع الاوتاد فيتراوح من ثلاثة امتار الى ستة امتار • وتحمل الاوتاد مصطبة مكونة من عوارض مرصوفة جنبا الى جنب ومشدودة الى بعضها البعض بربط من خيزران أو أغصان • اما هيكل البناء ، فكان مكونا ايضا من جذول خشبية • واتصلت هذه المساكن ببعضها البعض او مع المجموعات السكنية عـلى الشاطىء بجسر خشبي متحرك وعند رفعه تصبح القرية البحيرية بمعزل تام عن اليابسة وعن جميع المخاطر • واحيانا ، أستعيض عن الجسور الخشبية بجذوع شجر محفورة بشكل بدائي على شكل قوارب •

وكانت تحمي غالبا هذه التجمعات السكنية اسوار خشبية مكونة من اوتاد خشبية ولقد أطلق اسم « المستوطنات البالافيتية » على هذا الطراز من المساكن •

(٢) Terra marna او Terramare : اصل الكلمة مشتق من التسمية التي اطلقها فلاحو منطقـــة Emilia (مقاطعــــة في ايطاليـــة الشـــماليـــة ، من أشـــهر مدنهـــا Parma ، Modena Placentia ويروى المنطقة نهر البو •) على اكوام من التـــربة الصلصالية ، السوداء اللون • ولقد اكتشفت آثار لها بكثرة في اودية سهل البو الشرقي وفي مقاطعة Emilia • ولقد كان يُظن ، وحتى فترات متأخرة ، بان المساكن التيرامارنية قد شيدت على غرار المستوطنات البالافيتية ، (أي على اوتاد • ولكن عوضا أن تكون الاوتاد مغروزة في البحيرات ، كانت قائمة على الارض اليابسة) • ولقد تأكد اليـوم بان طـراز

اما بالنسبة لايطالية الوسطى ، فلقد كان التقدم الحضاري أقل مما شاهدناه في الشمال والجنوب ، وينعكس هذا التأخر النسبي بندرة استعمال المعدن والخزف كان اقل اتقانا والقطع الخزفية التي تم العثور عليها تمتاز ببعض الرسوم اللولبية البدائية الشكل •

اما بالنسبة لصقلية ، فيظهر بان جماعات جديدة قد وصلتها حاملة معها مقومات الحضارة الكامبانية[1] • ومن اشهر المواقع الاثرية العائدة لتلك الفترة موقع Castelluccio جنوب شرقي الجزيرة حيث عُثر على قبور محفورة في الصخر وهي عبارة عن حجرة يتقدمها مدخل (دهليز) ولقد أُحكم اغلاق القبر ببلاط • لقد عثر في تلك القبور على اسلحة وأدوات

البناء التيرامارني لاعلاقة له بالبناء البالافيتي • وهذه الاكوام ليست الا تراكم عدة طبقات سكنية •

ولقد توضعت القرى البترامارنية غالبا على شكل شبه منحرف ويجتازها طريقان رئيسيان متعامدان : شمالي جنوبي وشرقي غربي عدا عن عديد من الشوارع الفرعية والأزقة المتفرعة عن الطريقين الرئيسيين • اما المساكن التي كانت تقوم على جوانب الطرق ، فكانت مبنية عادة من التراب المدكوك مع اغصان الشجر •

ولقد اتقن التيرامارنيون الزراعة وربوا الابقار والماعز والخنازير ودجنوا الطيور كما انهم صنعوا الحبال ونسجوا الاقمشة وبرعوا بصناعة الخزف المزخرف بخطوط هندسية وصنعوا من البرونز أسلحة وأدوات مختلفة •

ولقد احيطت هذه القرى باسوار من التراب المدكوك وكذلك بخنادق تسهل الدفاع عن الاسوار •

وعثر خارج الاسوار على مقابر دفنت فيها بقايا الاموات الذين كانت تحرق جثثهم لتوضع رمادها في جرار فخارية ولقد عثر على صفوف متراصة من هذه الجرار •

(١) الكامبانية : مشتقة من الايطالية Campana (بمعنى الناقوس، الجرس) ، والحضارة الكامبانية (*Campaniforme* = جرسية الشكل ، ناقوسية الشكل) • قد شملت في فترة ما ، مناطق عديدة من أوروبة الغربية (الجزر البريطانية ، اسبانية ، فرنسة الجنوبية ، صقلية ، سردينية) • وأوروبة الوسطى (النمسة ، المانية ، الجنوبية ، مورافية) • وكذلك بعض مناطق من افريقية الشمالية •

ولقد أطلق على هذه الحضارة اسم الحضارة الكامبانية لان شعوبها اشتهرت باستعمال كؤوس واقداح (جرسية الشكل) ، جوانبها مزخرفة باشكال هندسية رُسمت بواسطة خطوط على شكل اسنان المنشار •

يُعتقد بان منشأ الشعب الكامباني كان في (وادي النهر الكبير في اسبانية الجنوبية) ومن هناك انتقل الى البرتغال والى مناطق اسبانية اخرى وخاصة الى مقاطعة (المرية Almeria) حيث كان موقع *Los Millarès* الذي يعتبر من اوائل مراكز التعدين في اوروبة •

ومن اسبانية انطلق هذا الشعب الى مختلف المناطق المذكورة اعلاه • واشتهر هذا الشعب بصناعة التعدين •

مختلفة ، سمحت لنا بتحديد تاريخ تلك المدافن • والملاحظ ان الادوات الحجرية مازالت اكثر انتشاراً من المعدنية • ومن ضمن الاشياء التي تم العثور عليها ، صفائح عظيمة صغيرة تشبه بعض ما عثر عليه في طروادة (الطبقة الثانية والثالثة) وفي Lerna (في البيلوبونيز) في مواقع اثرية يعود تاريخها الى الفترة الواقعة بين (١٨٠٠ ــ ١٤٠٠ ق•م) •

وهذا التقدم الحضاري الذي كشف عن آثاره في جزيرة صقلية قد شمل باقي الجزر الايطالية وخاصة ارخبيل Lipari •ومن اهم المواقع الاثرية التي تم الكشف عنها ، هي واقعة في جزر Filicudi, Stromboli, Panarea Salina حيث عثر على أطلال قرى قديمة مكونة من اكواخ مستديرة مبنية من التراب المدكوك • اما الاسس فهي حجرية • ولقد كشفت لنا محتويات القبور عن مدى علاقات ايطالية الجنوبية مع حضارات البحر الايجي طوال عصر البرونز[١] •

(٢) عصر البرونز الوسيط (١٤٠٠ ــ ١٢٢٥ ق•م)

من الملاحظ ، ان الحضارة في شبه الجزيرة الايبرية قد بدأت بالتراجع بعد عصر ازدهار رائع في فترة البرونز القديم ، وبالمقابل رفعت

---

(١) كانت اسبانية أهم مركز اوروبي في فترة عصر البرونز القديم •ونتيجة للتنقيبات والحفريات الاثرية التي اجراها الاخوان Siret بين عامي (١٨٨١ ــ ١٨٨٧) في المنطقة المحاذية للشريط الساحلي المتمد على طول (٧٥) كيلو مترا بين مدينتي Almeria , Murcia تم الكشف عن (٤٠) موقعا اثريا من اهمها موقع ***El Argar*** ولقد اصطلح على تسمية هذه الحضارة باسم الموقع المذكور • ولقد كشف النقاب في اطلال ***El Argar*** عن (٩٥٠) قبراً بعضها على شكل شبه صندوق مكون من ست صفائح و (بلاطات) حجرية والبعض الآخر مكون من مجرد حفر في الارض ولكن (٨٠٪) من الاموات قد اودعوا جرار احكم اغلاقها بواسطة جرار قلبت على الاولى • ويوضح لنا انتشار المدفن الفردي مدى التأثيرات المتبادلة مع الحضارة الايجية • والاثاث الجنازي الذي وضع مع الاموات يدل على ثراء فاحش • **ولقد درجت العادة ان توضع أسلحة نحاسية وبرونزية في قبور الرجال اما** القبور النسائية فقد اعطتنا خاصة مخارز ومرايا ومناقش • كما انه عثر في قبور الجنسين على حلي مختلفة من ذهب وفضة ونحاس وعاج وعلى انواع عديدة من الاحجار الكريمة • وتم العثور كذلك على العديد من الاواني الخزفية ، تميزت بخلوها من الرسوم •

ويظهر بان حضارة ***El Argar*** قد انتشرت في مناطق اخرى من اسبانية ومنها امتد تأثيرها الى بعض بلدان اوروبة الغربية •

مناطق اوروبية اخرى مشعل الحضارة وسارت به اشواطا بعيدة•ومن المناطق الاسبانية التي تابعت تطورها في ذلك العصر ، (جزر الباليار Les Baléares حيث ازدهرت حضارة التاليوت *Talayots* ، أي الابراج السيكلوبية التي شاهدنا مثيلا لها في النوراجز Nouraghes في سردينية[1] ولقـد عثرنـا في كورسيكة كذلك على ابراج حجرية مستديرة الشكل،شيدت على المرتفعات• ولقد عثر على بعض منها في Forre Foce , Balesta • ويتصل البرج عادة بحجرة مركزية بواسطة ممر • تذكرنا هذه الابراج باشكالها وتصاميمها بما عثرنا عليه من (نُوْرَاجِز) في سردينية •

ولقد دلّلت القطع الخزفية التي تمّ اكتشافها في هـذه المواقع ، عـلى اهمية العلاقات الحضارية القائمة في ذلك العصر بين هذه المناطق والمراكـز الحضارية في حوض المتوسط الشرقي•والى جانب نفوذ العلاقات المتوسطية ، نجد تأثيرات حضارية تمتّ الى اوروبة الوسطى وخاصة في التلال الجنازية•

اما بالنسبة لارخبيـل (ليبـارى) فمن اهم المواقـع الاثريـة التي تمّ اكتشافها هو موقع *Milazzese* في جزيرة Panarea حيث عثر على الاسس الحجرية لثلاثة وثلاثين (٣٣) كوخا وكذلك على بعض قطع من الاثـاث كالطاولات والمقاعد وهواوين حجرية وعديد من القطع الخزفية (قوارير ، اواني مختلفة) • والخزف هو اما ايجي المنشأ واما مصري • وهذه البقايا الخزفية هي التي مكنتنا من تحديد تأريخ هذه الفترة الواقعة بين (١٤٠٠ — ١٢٢٥) • ووجودها في هذه الجزر قد اكدّ لنا بان الطرق التجـارية التـي كانت تربط مصر باوروبة الغربية قد مرت بهذه الجزر •

بالنسبة لصقلية ، لدينا مقبرة **Thapsos** لتوضح لنا معالم عصر البرونز الوسيط في الجزيرة • ولقد عثر في قبورها المحفورة في الصخر عـلى قطع خزفية واسلحة وأدوات مختلفة موضحةً علاقـات الجزيرة مـع ايطاليـة الوسطى وجزيرة مالطة وكذلك مع العالم الايجي ومع مصر ونستدل على علاقات المنطقة بوادي النيل من اللآلىء (من الخزف المموه ، القيشاني) •

---

(١) انظر ص ٥٣ •

اما بالنسبة لشبه الجزيرة الايطالية ، فنرى بان المنطقة الشمالية كانت السباقة في المضمار الحضاري في تلك الفتـرة • وينعكس آثار هـذا التقدم الحضاري في ازدهار وتطور العمارة التيرامارنيـة • ويتأكد اليـوم ـ لدى العلماء ـ كما ذكرنا اعلاه[1] بانه لا علاقة لطريقة البناء التيرامارنية بالبالافيتية (اي ان المساكن لم تنتصب على اوتاد خشبية)• وكالسابق ،حصر التيرامارنيون مدافنهم خارج الاسوار المحيطة بالمجموعات السكنية • ولقد مارسوا في تلك الفترة طريقة حرق الموتى • وتدل مختلف الادوات وقطع الاثاث التي تمّ العثور عليها في القبور وفي الاطلال على ان التيرامارنيين قد مارسوا الزراعة خاصة ولكن نشاطاتهم شملت ايضا مختلف الحرف كما ان علاقاتهم التجارية مع جيرانهم ومع العالم الخارجي كانت ناشطة •

وظل نموذج La Polada [2] سائدا ، ذلك النموذج الذي اشتهرت به مناطق البحر الأبيض المتوسط • ولقد تمّ العثور على مجموعة من القطع الخزفية القاربية الشكل (زورقية الشكل) وعلى دنان مستويـة القعر لهـا عروتان وكذلك على كؤوس بعضها يحمل عروات ومحدودبة الشكل •

اما صناعة التعدين فكانت مزدهرة ويظهر بان السكان قـد استثمروا مناجم النحاس والقصدير الواقعة في المناطق المجاورة والقريبة وخاصـة في المنطقة التي سيطلق عليها فيما بعد اسم اترووريـة ***Etruria*** أوتوسـكانة ***Toscana*** ، ولقد عثر على قوالب فؤوس وخناجر وعلى عدد كبير من المناجل البرونزية •

(٣) عصر البرونز الحديث (١٢٢٥ ـ ١٠٠٠ ق٠م)

كانت جزر أرخيبل ليبارى **Lipari** وسردينية وصقلية وكذلك جزر البالبار [3] في طليعة مناطق اوروبة الغربية خلال فترة البرونز المتأخر •

---

(١) انظر ص ٩١ •

(٢) انظر ص ٩١ •

(٣) جزر الباليار الشهيرة ست وهي :
Formentera, Minorca, Mallorca, Conejera, Cabrea, Ibiza

وظلت سردينية شبه منعزلة عن التأثيرات الخارجية • وهكذا تابعت الحضارة التي ظهرت في الجزيرة منذ اواخر العصر الحجري ــ النحاسي تطورها محافظة على معالمها الرئيسية • والملاحظ ان فن العمارة قد خطا خطوات كبيرة وراح السكان يبنون **الأبراج المخروطية الشكل Nouraghes** من الحجر المنحوت واتخذت الحجرة المركزية للبرج تدريجيا شكل (قبور مقبية) ولقد عثر على نماذج شبيهة بها في ميكيني (في شبه جزيرة البيلوبرينز)• وتعقد شكل هذه الابراج في اواخر البرونز الحديث **وبدأت تحتوي على** عدة حجر متوضعة فوق بعضها البعض متصلة من الداخل بسلم • ويستدل من حظائر الحيوانات على ان تربية المواشي قد كانت مألوفة لدى سكان الجزيرة في تلك الفترة • اما المدافن ، فهي قبوية (على شكل قبو تحت الارض) ولها صلة بالاضرحة الميجاليتية • [1]

وازدهرت صناعة التعدين واعتمد السكان بالنسبة للمواد الاولية على مناجم الجزيرة الغنية وتظهر لنا القطع المعدنية التي تمّ العثور عليها ، بان الجزيرة قد اقامت علاقات اكثر من ذي قبل ، في اواخر عصر البرونز الحديث مع العالم الخارجي • ونلاحظ في بعض انواع من الخناجر وكذلك في الحدأة[2] تأثيرات شرقية وايجية • وتظهر تأثيرات **اوروبية غربية في** الانصبة الجنازية وفي السيوف وكذلك في الفؤوس ذات القبضات •

ولكن وجود هذه التأثيرات الدخيلة لا يعني بشكل من الاشكال ان سكان الجزيرة قد قلدوا في كل شيء الآخرين اذ ان التماثيل النذرية الصغيرة التي عثر عليها باعداد كبيرة في الهياكل ، هي ذات طابع محلي صرف وهي تصور محاربين متقلدين السيف والمجن وقبعت رؤوسهم بالخوذ •

اما بالنسبة لارخبيل لبارى Lipari فجميع الدلائل تؤكد بان الجزر

---

(١) انظر ص ٥٣ •

(٢) فأس مزدوج الحدين •

الايولية[١] قد وقعت تحت سيطرة الاوسونيين[٢] الذين وفدوا اليها باعداد كبيرة منطلقين من مراكزهم في ايطالية الوسطى • وتدلّ الحفريات بانمعالم حضارة البرونز الوسيط قد اندثرت فجأة ، ويمكننا تفسير ذلك بوصول موجة بشرية جديدة تحمل معها حضارتها • وفي الواقع ، بدأنا نرى السكان في تلك الفترة يضعون موتاهم في جرار خزفية • ولقد تمّ العثور على بعض القطع الخزفية ذات اللون الاسود المائل الى الاحمر والمزخرفة باشكال هندسية ، تُذّكرنا بنماذج من ايطالية الوسطى • والجدير بالذكر ان ماعثر عليه هو من صنع محلي •

وخضع القسم الشمالي ـ الشرقي لجزيرة صقلية لتأثيرات حضارية لها صلة بايطاليةُ الشمالية ونستنتج ذلك خاصة من طريقة حرق الموتى • اما المنطقة الجنوبية الشرقية للجزيرة ، فلقد تابعت تطورها الذي لاحظناه في فترة البرونز الوسيط ومختلف المدافن القبوية التي تمّ الكشف عنها تؤكد ذلك ، ومدفن **Pentalica** من افضل النماذج التي نُقّبت حتى الآن •

وتطورت صناعات الخزف والتعدين لدرجة كبيرة حتى ان فرنسة واسبانية ومن ثم انكلترة بدأت تقلد النماذج الصقلية ، ذات الطابع المحلي المبتكر (المشابك المعدنية) او المستعارة من حضارات بحر ايجة (السيوف ذات الطراز الميكيني) •

وفي اواخر عصر البرونز الحديث ، بسطت حضارة (الترامارنا

---

(١) الاسم القديم الذي كان يطلق على جزر ارخبيل (ليباري) • والتسمية مشتقة من البطل الخرافي الذي حكم هذه الجزر • وفي الاساطير القديمة ، اعتبر هذا (البطل ـ الاله) « سيد الرياح وصانع العواصف » ، وتقول احدى الاساطير بانه كان ابن الاله (جوبيتر ***Jupiter***) والحورية (ميناليبا **Ménalippe**) .

(٢) الأوسونيون : شعب قديم عاش في ايطالية الوسطى وتنسبه الاسطورة الى ***Auson*** ابن بطل ملحمة (الاوديسة) • وكما تعلم كان **Ulysse** او كما يقول هوميروس (اودوسيوس ***Odysseos***) الملك الاسطوري لجزيرة ايتاكة احد ابطال حرب طروادة • ولقد اشتهر بدهائه ومكره • وفي الواقع ، الملحمة المنسوبة لهرميروس ونعني بها الأوديسة تروى لنا عودة البطل الى وطنه وما اعترض سبيله من عقبات ومشاكل وكيف تغلب عليها • وتذكر الاسطورة (لاتينوس ***Latinos***) كأخ لاوسون و (ليباروس ***Liparos***) كابن له • ومن هنا الاسم المتأخر الذي اطلق على الجزر الايولية •

Terra Marna)[1] الخاصة بايطاليــة الشمالية أسبابهــا الى جنوب شــبه الجزيرة • ولقــد ظهرت آثــار ذلك خاصـــة في Timari , Fontanella ورغم ان الحضارة الميكينية قد ظلت مهيمنة على ايطالية الجنوبية ، فلقد بدأنا نلاحظ انه في اواخر الالف الثاني امتــد" نفوذ اوروبــة الوسطى الى تلك المنطقة ايضا وظهر ذلك خاصة في اشكال بعض الادوات البرونزية •

وسيزداد في مطلع الالف الأول نفوذ التأثيرات الخارجية في مختلف منــاطق حوض المتوسط الغربي ، مما ادى الى تراجع المظــاهر الحضـــارية المحلية ، امام مقومات حضـــارات حملها معهم غــزاة انحدروا من الشـــمال وتبعهم بعد قليل مستوطنون جدد وفدوا الى ايطالية من الشرق •

حـ ـ العصر الحديدي : (نحو ١٠٠٠ ق•م)

ظهر في ايطالية في اواخر الالف الثاني (ق•م) معدن جديد وهو الحديد الذي حل" تدريجيا محل البرونز وساد هذا المعدن الجديد شيئــا فشيئا وسينتشر استعماله في مختلف انحاء شبه الجزيرة • وبظهور الحديد، ننتقل من ازمنة ما قبل التاريخ ***Préhistoire*** [2] الى الفترة التي تسبق العصر التاريخي مباشرة ***Protohistoire***[3] •

والرأي المقبول اليوم ، ان الهنود الاوروبيين الذين تدفقوا على شكل موجات بشرية من اوروبة الوسطى الى سهل البو ، هم الذين ادخلوا هذا المعدن الى ايطالية وهم اول من علم شعوب شبه الجزيرة صناعة الحديد •

ولقد اشتهرت الحضارة الجديدة التي طورها هؤلاء الوافدون الجدد **بالحضارة الفيلانوفية**[4] وتتميز خاصة **باستعمال معــدن الحديد وبمزاولة** حرق جثث الموتى بدلا من دفنها • ولقد تغلّبت هذه الظاهرة في البدء، خاصة

---

(١) انظر ص ٩١ •

(٢) من اللاتينية وتعني قبل (Pre) .

(٣) من اليونانية وتعني أول (Protos) .

(٤) نسبة الى موقــع ***Villa Nova*** في منطقة اميلية ***Emilia*** الشرقية في ايطالية الشماليـــة ، وذلك بالقرب من مدينة بولونية Bologna .

في الشمال وفي الغرب من شبه الجزيرة • ومن اهم مخلفات الفيلانوفيين بقايا مساكنهم وقبورهم وما احتوت عليه من متاع •ولقد اتخذت القبور شكل آبار توضّعت فيها الجرار الجنازية التي احتوت على رماد الموتى • والجرار الفيلانوفيه هي على شكل مخروطين متعاكسين ويغطي القسم العلوي من الجرة غطاء على شكل فنجان مقلوب ، ولقد عثر داخل الجرار واحيانا الى جوارها على اشياء معدنية مختلفة أحْرِقت مع الموتى كالشكالات والاساور والعقود والدبابيس ذات الاشكال المختلفة •

ومن اهم ميّزات الحضارة الفيلانوفية ازدهار صناعة المعادن وخاصة معدن البرونز الذي استخدم بكثرة في صناعة الادوات المنزلية والاسلحة • ولقد ظهرت الى جانب طريقة صب المعدن التي كانت سائدة في البدء طريقة جديدة ونعني بها (طرق المعدن) • ورغم اننا نؤرخ بدايات الحضارة الفيلانوفية بظهور معدن الحديد في ايطالية ، فهذا لايعني ابدا بان هذا المعدن قد حلّ مباشرة محل البرونز الذي ظل يُستعمل بكثرة حتى القرن السادس (ق•م) ، عندما اُكتشِفت مناجم اترورية الغنية بالحديد •

ومن الملاحظ ان التطور الحضاري الذي شمل شمال شبه الجزيرة في البدء قد امتدّ تدريجيا الى باقي المناطق الايطالية بحيث ازداد استعمال المعادن وراح الحديد يحلّ تدريجيا محل معدن البرونز في صنع بعض الأدوات الزراعية كالمحراث خاصة •

اما في منطقتي اترورية واللاتيوم ، فعوضا من ان يضع السكان بقايا جثث موتاهم المحروقة في جرار شبيهة بالجرار الفيلانوفية، نجدهم يستعملون قارورة صلصالية على شكل كوخ • والجدير بالذكر ان هذه القارورة الصلصالية قد صنعت بشكل يشبه المساكن التي كانت منتشرة في تلك الفترة في كل من اللاتيوم واترورية •

ولقد عثر داخل هذه القارورات الجنازية على حلي برونزية كالمشابك والعقود والأساور وعلى اسلحة حديدية مزخرفة برسوم هندسية وكلها تشهد على تكنولوجية رفيعة وكذلك على ثراء اصحابها •

وما ذكرناه بالنسبة لايطالية الشمالية واترورية واللاتيوم ينطبق ايضا وبشكل عام على المناطق الوسطى والجنوبية لشبه الجزيرة•ويجب ان نوضّح بانه لم يعثر حتى الآن في (كامبانية *Campania*)[1] على آثار واضحة تؤكد امتداد تأثير الحضارة الفيلا نوفية الى تلك المنطقة من ايطالية •

والأمر الواضح هو ان الآثار التي تمّ العثــور عليهــا في جميع المناطق الشرقية لشبه الجزيــرة هي شــديدة الشبه بما عثر عليــــه في (بانونيـــه *Pannonia*)[2] و (ايلليرية *Illyria*) مما دفع البعض الى الاعتقاد بان الفيلا نوفيين قد انحدروا الى ايطالية من تلك المناطق قبل انتشارهم في شبه الجزيرة الايطالية •

وانتقال الفيلانوفيين من مناطقهم داخل القارة الى ايطالية يدخل ضمن اطار تحركات بشرية هائلة كانت تجري في اوروبة ولنذكر هنا بان دخول الوافدين الجدد الى شبه الجزيرة الايطالية يعاصر اجتياح الدوريين لبــلاد اليونان طاردين امامهم الآخائيين[3] •

ان مختلف الاواني الخزفيــة ذات الاصل اليــوناني ، وكذلك القطع والادوات الزجاجية ذات الصنع الفينقيوالتي تمّ العثور عليها في مواقع اثرية عديدة من ايطالية والعائدة الى تلك الفترة ، ان هذه الآثار تؤكــد لنــا بان ايطالية الفيلانوفية قد اقامت علاقات تجارية واسعة حتى مع بلدان الحوضين الاوسط والشرقي للمتوسط • ويمكننا القول بان الحضارة الفيلانوفية قــد لعبت دورا انتقاليا نحو العصر التاريخي لشبه الجزيرة الايطالية •

مشكلة الشعوب التي سكنت ايطالية ابتداء من مطلع الالف الاول (ق•م) :

١ ـ الاثر الحضاري لشعوب الحوض الشرقي للمتوسط في ايطالية :

ان الغموض الذي كان يكتنف ماضي المجموعات البشرية التي تدفقت

---

(١) *Campania* : تقع هذه المنطقة في جنوب غربي ايطالية مطلة على المتوسط ومن اشــــهر مدنها : (كبوا Capua) و (بومبيي Cumae) ، (كوماي Pompeii) •

(٨) *Pannonia* : منطقة واقعة بين الدانوب وايلليرية • يرويها نهرا الساف والدراف تــم اخضاع سكانها من قبل قيصر واوغسطوس •

(٣) راجع : الدكتور كامل عياد ، تاريخ اليونان الجزء الاول ، الطبعة الاولى ص ٩٨ ــ ١٠٤

على ايطالية حتى مطلع الالف الاول (ق•م) والتـي لم نتمكن من دراسـة بعض ملامح حضاراتها الا اعتمادا على الآثار المادية فقط ان ذلك الغموض لم يبدأ بالتبدد نسبيا الا مع وصول الاتروسكيين واليونانيين الى ايطالية ومـع ظهور اولى الكتابات والنقوش التي خلفتها لنا تلك الشعوب • اذ كما الحنا منذ البدء ، ليس لدينا بالنسبة لتاريخ ايطالية العتيق آثار ادبية شبيهة بالاوديسة والالياذة المنسوبتين الى هوميروس وكذلك ليس بحوزتنا مؤلفا « كانساب الآلهة » و « الاعمال والايام » المنسوبتين لهسيودوس ، حقا ليس لدينا روائع كهذه بالنسبة لايطالية العتيقة لتلقي لنا ضوءا ساطعا عـلى تاريخ شـعوبها في العصور البرونزية خاصة •

ان اليونانيين الذين راحوا يستقرون منذ القرن الثامن (ق•م) عـلى شواطئ ايطاليـة الجنوبية (التي اصطلح عـلى تسميتها باليونان الكبرى) وكذلك في صقلية ، ان هؤلاء قد جلبوا معهم حضارة متطورة سيكون لها دور كبير في دفع عجلة الحضارة والثقافـة في ايطالية • واضـافة الى مساهمتهم الحضارية هذه ، ترك لنا اليونانيون كتابات عن بعض الشعوب التي صادفوها واتصلوا بها في شبه الجزيرة الايطالية • وسيكون للاتروسكيين كما سنرى دور مماثل • ان قولنا هذا لايعني ابدا بان ايطالية قبل مطلع الالف الاول (ق•م) كانت بمعزل تام عن حضارات الحوض الشرقي للمتوسط • ولقد لاحظنا اثناء دراستنا للعصور البرونزية بان مختلف الدلائل تشير بان بلدان الحوض الشرقي للمتوسط قد اقامت علاقات ولو كانت محدودة – مع بعض المناطق الواقعة على شواطئ حوض المتوسط الغربي • ونجـد في جنـوب ايطالية ، الى جانب اليونانيين ، الفينيقيين[1] وسيلعب الفينيقيون الشرقيـون والفينيقيون الغربيـون (قرطاجـة ومستعمراتها) دورا كبـيراً في التـاريخ

---

(١) كنا ذكرنا بانه لا يوجد شعب فينيقي وشعب كنعاني (انظر ص ٤٥) • كل ما في الامر ان الكتاب اليونانيين قد اطلقوا على الكنعانيين اعتبارا من القرن الثامن اسم الفيتيقيين • وبما اننا نتعرض للكنعانيين خارج بلاد كنعان ونذكرهم بالنسبة لعلاقاتهم مع الغرب عامة ومع ايطالية واليونانيين خاصة ، نسمح لانفسنا تجاوزا باستعمال لفظة فينيقي) •

الحضاري لشبه الجزيرة الايطالية ولمختلف مناطق حوض المتوسطالغربي•

وهكذا يمكننا القول ، باننا نميز منذ القرن السابع (ق م) ثلاث مجموعات بشرية ستلعب دورا كبيرا في التاريخ الايطالي[1] • الا تروسكيين في الشمال واليونانيين والفينيقيين في الجنوب• وستنشأ في مناطق هذه الشعوب اولى المدن الشهيرة في ايطالية • اما الوسط فتاريخه سيظل غامضاً نسبيا في تلك الفترة وسيكون للاتروسكيين دور كبير في تطويره •

ولكن ما هي أهم المجموعات البشرية الايطالية الصرفة التي كانت قد استوطنت شبه الجزيرة في تلك الحقبة وذلك قبل وصول الاغريق والمجموعات البشرية الشرقية الى ايطالية ؟•

٢ ـ المجموعات البشرية والمناطق السكنية لايطالية العتيقة :

استوطنت ايطالية قبل وضول الاتروسكيين والاغريق اليها ، جماعات بشرية متعددة الجنسيات وشعوب مختلفة لم تكن ترتبط ببعضها البعض بوحدة عرقية•اما بالنسبة لايجاد نوع من الوحدة السياسية بين بعض المناطق وحتى على نطاق ضيق ، فان ذلك لن يتم مؤقتا الاعلى ايدي شعوب دخيلة على ايطالية ونعني بذلك الاتروسكيين ، وذلك قبل ان تستلم رومازمام الامور في اللاتيوم بعد طرد الاتروسكيين منه وتنتقل من الدفاع الى الهجوم ، أي قبل ان تتمكن وبعد حروب طويلة وشاقة من فرض سيطرتها تدريجيا على شبه الجزيرة الايطالية •

اما من الناحية اللغوية ، فيمكننا حتى مطلع القرن السادس (ق•م) تعداد عشرات اللغات التي لاترتبط ببعضها البعض بأية رابطة كالليغورية والاغريقية والكلتية والكنعانية(الفينيقية) والأتروسكيةوالاومبرية والفولسكية والسابلية ـ الأوسكية والسيكولية واللاتينية ••• الخ •

(٢) راجع : بخصوص الاستعمار اليوناني لايطالية الجنوبية وبالنسبة لعلاقات بلاد كنعان وقرطاجة مع شبه الجزيرة ، المرجع المذكورة اعلاه : (الدكتور كامل عياد ، تاريخ اليونان ص ٣٤٦ وما يتبع) •

وسنحاول دون الدخول في تفاصيل دقيقة ، وقبل الانتقال الى فترات تاريخية اكثر وضوحا ، القاء نظرة سريعة على هذه الفسيفساء العرقية ـ اللغوية •

كانت مناطق كالابرية **Calabria** [(١)] ولوكانية **Lucania** [(٢)] وكامبانية **Campania** [(٣)] مأهولة من الجنوب الى الشمال بجماعات بشرية عرفت باسم (ايطالي **Itali**) ومنها سيشتق اسم ايطالية الذي سيطلقه الكتاب الاغريق اعتبارا من القرن الخامس (ق•م) على منطقة كالابرية فقط• وبعد توحيد روما لشبه الجزيرة اتسع مدلول التسمية فراح الاغريق يطلقون الاسم على مختلف مناطق شبه الجزيرة •

وسكنت المناطق المذكورة الى جانب الايتاليين جماعات بشرية اخرى كان من اشهرها (البروتيون *Bruttii*) [(٤)] و (الاوسك **Osci**) [(٥)] والاوسونيون [(٦)] وتدل بعض الشواهد (من اساطير واسماء اعلام وكتابات على النقود) على صلات قرابة ولو بعيدة بين لهجات المجموعات البشرية المذكورة اعلاه وبين لغات الكتابات والنقوش اللاتينية والسيكولية [(٧)] •

ولذلك افترض بعضهم بان الشاطىء التيريني الممتد من نهر التيبر حتى صقلية قد اهلته منذ مطلع الالف الاول (ق•م) ، جماعات بشرية اصطلح على تسميتها بالايطاليين القدماء **Paleo - Italiques** ويُعْرَفون ايضا باللاتين

---

(١) كالابرية : منطقة تقع في جنوب ايطالية ، يفصل بينها وبين جزيرة صقلية مضيق مسينة ، من اشهر مدنها ريجيو **Reggio** .

(٢) لوكانية : منطقة تقع في جنوب ايطالية بين كامبانية وابولية (انظر الملاحظة الهامشية رقم ٢ ص ٥٥) وكالابرية واسمها الحالي بازيليكات **Basilicate** • من أشهر مدنها مدينة **Potenza** .

(٣) كامبانية : انظر أعلاه ص (١٠٠) •

(٤) نسبة الى منطقة بروتيوم في ايطالية الجنوبية •

(٥) الأوسك : شعب قديم سكن المنطقة الممتدة بين كامبانية واللاتيوم •

(٦) انظر ص ٩٧ مع الملاحظات الهامشية •

(٧) شعب ايطالي قديم انطلق من شبه الجزيرة الايطالية لغزو جزيرة صقلية • وأشتق اسم الجزيرة من اسم الشعب السيكولي •

الاوائــل • وهي تمت بصــلات الى بعضهــا البعض وتتميّز عن الشــعوب الاومبرية السابلية **Ombri - Sabelli** التي سكنت الشاطئ الشرقي المطل على الادرياتيكي وكذلك بعض سفوح سلسلة جبال الابنين • ولقد طمس نفوذ الثقافة اليونانية وكذلك التوسع الاتروسكي والطغيان البشري للايطاليين الشرقيين ، ان هذه العوامل مجتمعة قد طمست على مرّ السنين المعالم المميزة لأؤلئك اللاتين الاوائل •

اما البـوي **Pouilles** التي عرفت قديما باســم **Iapygia** ومن ثــم **Iapygii** [١] فقــد كانت منطقــة سـكن اليابيجيين **Apulia** والمســابيين **Messapii** والبوكتيين **Peucetii** والدونيين **Daunii** •. ولقــد اعتقــد القدماء بان جميع هذه الشعوب قد تدفقت على ايطاليــة على شــكل موجات بشرية آتية من البحر • واستنادا الى الكتــابات والنقوش العديــدة التي تمّ العثور عليها في المنطقة المعنيــة بالامر والمسطرة باحُرف يونانيــة ، استنتج العلماء المختصون بان لغة اولئك السكان كانت ضربا من الهندية ـ الاوروبية، ولكنها تختلف عن اللهجات الايطالية وتقترب بالعكس من لهجة النقوش التي تمّ العثور عليها في ايلليرية **Illyria** [٢] ، مما يؤكد لنا الاصل البلقاني المنسوب الى هذه الشعوب من قبل القدماء • ومن الطبيعي ان تؤثر حضارة المستعمرات اليونانية على اولئك السكان ولقد كان لمدينة تارنتوم **Tarentum** النفوذ الاشد في هذا المضمار وتنعكس آثار النفوذ اليوناني في شكل القبــور وفي عدم حرق جثث الموتى وكذلك في انتشار نوع من الخزف ذي الرسوم الهندسية • اما الاواني فهي مشهورة بالعروات المستطيلة • ورغم ان المنطقة قد خضعت حضاريا لنفوذ المستعمرات اليونانية ، فلقد تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها السياسي وخاصة بعد ان شكلت مدن **Brindisi , Ruvo , Canosa** اتحادا فيما بينهــا وظلت مستقلة عــدة قرون الى ان سقطت تحت ضربات الفيالق الرومانية •

---

(١) انظر الملاحظة الهامشية رقم (٢) ص ٦٨ •

(٢) وهي المنطقة المطلة على الادرياتيكي ولكن في الجهة المقابلة للشاطىء الايطالي •

اما بالنسبة لاواسط شبه الجزيرة فلقد سكنتها شعوب عديدة كان لبعضها دور حاسم في تاريخ ايطالية • فعدا عن اللاتين الذين استقروا عند مصب نهر التيبر نجد الاتروسك الذين استوطنوا منطقة اتروريــة[1] • وشغل تاريخ كل من هذين الشعبين حيزا كبيرا في تاريخ شبه الجزيرة • واذا ما تخطينا شمالا مناطق سكنى هذين الشعبين ، اصطدمنا بمجموعات بشرية اهلت منذ القدم مناطق اتروريا الشمالية وليغوريـة والبيمونت [2] ولومباردية[3] ولقد اطلق القدماء على هؤلاء السكان اسم الليغوريين **Ligures** ولكننا يجب ان نوضح هنا بان هذه التسمية قد دلت بالنسبة لليونانيين القدماء على جميع شعوب اوروبة الغربية • ولقد امتزج هؤلاء الليغوريون بالكلتيين نتيجة لاجتياح القبائل الكلتية مناطق سكناهم ونتج عن هذا الامتزاج العرقي مجموعات بشرية جديدة اصطلح على تسميتها « بالكلتيين الليغوريين » • ونتيجة للتوسع الاتروسكي وللضغط الكلتي ، اضطر الليغوريون الى الانسحاب والانزواء في مرتفعات جبال الالب والابنين • وفي عداد البقايا الاثرية التي يمكن ان نسبها الى هذه القبائل القديمة ، نذكر الرسوم المنقوشة على الصخور في ***Monte Bego*** في جبال الالب البحرية وبعض الانصاب الحجرية **Menhirs** في جزيرة كورسيكة •

والى الشرق من مناطق الليغوريين ، نجد الريتيين ***Rhaeti*** الذين سكنوا وديان الاديج الاعلى[4] والتيرول الجنوبي ولا ندري حتى الان اذا كان الريتيون يمتون بصلات قربى الى الاتروسكيين أو الى الليغوريين ، وكل ما يمكننا قوله من بعض آثارهم ، ان لوجودهم في المنطقة علاقة بالموجات الهندية ـ الاوروبية • واذا اتجهنا الى اقصى الشرق نصل الى منطقة

---

(١) انظر الملاحظات الهامشية رقم (٢) ص ٣٨ ورقم (٣) ص ٧٤ •

(٢) تقع هذه المنطقة بين سفوح جبال الالب وجبال الابنين ونهر تيكينوس **Ticinus** ومن اكبر مدنها اليوم مدينة تورينو •

(٣) تقع لومباردية في ايطالية الشمالية في وسط سهل البو وتعتبر مدينة ميلانو عاصمتها •

(٤) ينحدر من جبال الالب ليسقي التيرول الجنوبي ومنطقة فينتية ***Venetie*** ثم ليصب في البحر الادرياتيكي وطول نهر الأديج (٤١٠ كم) •

الفينتيين ***Veneti*** ومن اسمهم اشتق اسم مدينة البندقية ***Venetia*** الواقعة في وسط البقعة التي سكنوها • ويرجع القدماء اصل هؤلاء الى ***Illyria*** وترتبط لغتهم بعائلة اللغات الهندية ـ الاوروبية ولقد أوضحت دراسات كل من الايطالي **Pellegrini** والفرنسي **Lejeune** صلات القربى بين اللاتينية ولغة هؤلاء الاقوام ، ولقد حافظت حضارتهم على طابعها مئات السنين ووصلت الى اوج ازدهارها في غضون القرن الرابع (ق•م) • اشتهر السكان بتعدين وصناعة البرونز ومن اشهر مراكزهم الصناعية مدينتا **Este, Padova** ولقد خضع هذا الشعب لروما سلما بعد عقد حلف مع سيدة اللاتيوم •

وقبل ان ننتهي من هذه النقطة بالذات نود ان نتكلم عن شعب انقض على ايطالية كالصاعقة منذ مطلع القرن الرابع (ق•م) وهدد روما في عقر دارها ونعني به الشعب الكلتي • لقد انهال الكلتيون على شبه الجزيرة زارعين الرعب في قلوب سكانها بقاماتهم الطويلة وبطباعهم المتوحشة • ولقد كانت الغارات الكلتية بعنفها وقسوتها من اشد الساعات حرجا بالنسبة لمصير روما •

ويجب ان نعترف بان الغموض مازال يحيط بنقاط عديدة تتعلق بتاريخ هذا الشعب البربري وجميع العلماء غير متفقين حتى الان على امور عديدة تتعلق بهم • فمثلا من اين انطلق هؤلاء الكلتيون ؟ وأي طرق اتبعوها في تسللهم الى شمال شبه الجزيرة ؟ ومتى بدأ هذا التسلل ؟ وهل بشكل تدريجي ام حدث ذلك فجأة وبشكل غارات جماعية ؟

اذ ما استندنا الى اقوال المؤرخ اللاتيني تيطوس ليويوس عنهم **(V, 34, 36)** يجب ان نفهم بان الكلتين قد تسللوا الى سهل البو اعتبارا من مطلع القرن السادس (ق•م) وهنا يجب ان نوضح بان المكتشفات الاثرية التي تمت في شمال شبه الجزيرة وخاصة في القبور الكلتية ، ان تلك المكتشفات قد حددت لنا منتصف القرن الخامس (ق•م) كمنطلق لتسرب الكلتين الى سهل البو ، ولقد اوضحت لنا هذه المكتشفات ايضا بان الموجات

الكلتية قد تدفقت على شمال شبه الجزيرة بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن الرابع (ق•م) تقريبا أي بداية عصر الحديد الثاني •

ويقول تيطوس ليويوس ايضا بان نقطة انطلاق هؤلاء الكلتيين كانت بلاد الغال ***Gallia*** ، بينما الرأي المقبول اليوم والمستند الى مكتشفات حديثة يرجع كون أوروبة الوسطى وسهول الدانوب نقاط انطلاقهم •

وانطلقت ايضا من تلك المراكز وفي الفترة ذاتها ، اي منتصف القرن الخامس (ق•م) جماعات كلتية اخرى منها من اتجه نحو الغرب والبعض الاخر يمم وجهه شطر الشرق • ولقد اضطر الكلتيون الى النزوج تحت ضغط جماعات بشرية جديدة انحدرت من الشمال وتقدمت من الشرق باتجاه اوروبه الوسطى ، ونعني بها موجات الشعوب الجرمانية •

اما من ناحية انتقال الكلتيين الى ايطالية الشمالية ، فالرأي الراجح اليوم هو ان (فج) شعب الجولية **Col de Julier** قد كان الممر الرئيسي الذي سلكته الموجات الكلتية لتعبر الى ايطالية • ويقع منفذ الجولية الالبي على الطريق الذي يربط مدينة كوار **Coire** السويسرية بمدينة كيافينا **Chiavenna** الايطالية وبحيرة كومو **Como** • ولا ريب في ان الكلتيين قد استعاروا ممرات وطرق اخرى لم يكشف عنها النقاب حتى الآن •

اصطدم الوافدون الجدد بالاتروسكيين وانتزعوا منهم السيطرة على سهل البو • ولكن هذا النزاع الكلتي ــ الاتروسكي لم يقض على جميع معالم الحضارة الاتروسكية التي ظلت بادية المعالم في مراكز عديدة من ايطالية الشمالية ، في مدينة مانتوا **Mantua** مثلا الواقعة في لومباردية • وفي الواقع ، لدينا دلائل عديدة اليوم تشير بان الكلتيين لم يقضوا كليا على الاتروسكيين بل حصل امتزاج بشري كلتي ــ اتروسكي •

توزعت الموجات الكلتية المنهالة على ايطالية الشمالية على الشكل التالي:

سكن الانسبريون ***Insubres*** ، مناطق لومباردية الوسطى ، اما

الكينومانيون ***Cenomani*** فلقد استقروا في ضواحي مدينتي بركوموم **Bergomum** [1] وبريكسيا **Brixia** [2] وسكن البويون **Boii** الذين أعطوا لمدينة « فلسينا » الاوتروسكية اسم (بونونيا **Bononia**)، [3] سكن هؤلاء في لومباردية الجنوبية وفي منطقة اميلية • اما اللينغونيون ***Lingones*** فلقد اهلوا مقاطعة (رومانية ***Romagna***) [4] ومن ثم السينونيون **Senones** الذين عمروا المنطقة الواقعة شمالي (بيكنوم **Picenum**) [5] واطلق عليها فيما بعد اسم (سنونيا **Senonia**) وعرفت احيانا باسم (المنطقة الغالية **Ager Gallicus**) •

ان هؤلاء الكلتيين جميعهم قد هددوا روما تهديدا مباشرا ولعدة مرات، في القرن الرابع (ق•م) ، وستتمكن روما في مطلع القرن الثاني (ق•م) من اخضاع القبائل الكلتية ومن وضع حد لغاراتها المدمرة •

عندما وصل هؤلاء الكلتيون الى ايطالية الشمالية ، كانوا يحملون معهم مقومات الحضارة الحديدية التي ازدهرت في اوروبة الوسطى، تلك الحضارة التي اصطلح على تسميتها بحضارة (لاتين ***La Tène***) [6] •

كانت اسلحة الكلتيين حديدية ، جيدة الصنع ، ولقد اشتهر الوافدون الجدد بسيوفهم ورماحهم الصلبة • لقد تأثرت ثقافة وفن الكلتيين بما كان

---

(١) اسمها الحديث (بركاما **Bergama**) تقع في ايطالية الشمالية على بعد ٤٠ كم الى الشمال الشرقي من مدينة ميلانو •

(٢) واقعة في لومباردية ، الى الشرق من مدينة ميلانو واسمها الحديث **Brescia** •

(٣) اسمها الحديث (بولونيا **Bologna**) وهي عاصمة مقاطعة (اميلية ***Emilia***) تقع شرقي مدينة (رافينا **Ravenna**) •

(٤) مقاطعة تقع في شمال ايطالية من ناحية الادرياتيك جنوبي مقاطعة البندقية •

(٥) مقاطعة تطل على الادرياتيك •

(٦) ***La Tène*** : اسم مركز اثري سويسري يقع على ضفاف بحيرة نوشاتيل **(Neuchâtel)** حيث عثر على مجموعات كبيرة من الاسلحة ومن التحف الكلتية • ولقد اصطلح على اطلاق اسم (لاتين) على العصر الحديدي الثاني •

سائدا لـدى الاتروسكيين ولكن يجب ان نوضح بان الحضـارة الكلتية لم تتمكن في يوم من الايام من مضاهاة حضارة الاتروسكيين •

وهكذا تبدو لنا شبه الجزيرة الايطالية منذ مطلع الالف الأول وكأنها فسيفساء عرقية وقد عمرت مختلف مناطقها شعوب عديدة وفدت اليها من الشمال والشرق والجنوب حاملة معها عناصر حضارية متباينة •

ان ما نعلمه اليوم عن تاريخ شبه الجزيرة قبل الفترة الرومانية ،وذلك بفضل المكتشفات الاثرية التي تحققت منذ خمسين سنة ليظهر لنا البون الشاسع الذي قطعه علم التاريخ بالنسبة لتاريخ ايطالية العتيقة • ويجب ان لا يغيب عن بالنا هذا الأمر اذا اردنا فهم الدور الذي لعبه الاتروسكيون ومن بعدهم الرومان في سبيل توحيد شبه الجزيرة وتقدير ذلك حق قدره • ولا ندري حقا ، هل كان لهذا العامل ، ونعني به هذا الخليط العرقي العجيب ، دوره في تفكك ايطالية بعد انهيار روما في نهايـة القرن الخامس ميـلادي ، ذلك التفكك السياسي الذي دام **اكثر من اربعـة عشر قرنا أي حتى اعـلان الـوحـدة** الايطالية • ومازلنا حتى يومنا هـذا نلاحظ آثاره في ايطالية أي بين شـمال ووسط وجنوب شبه الجزيرة•ان احداث التاريخ الروماني تدفعنا الى الاعتقاد بان سيده اللاتيوم وان تمكنت من السيطرة على ايطالية قبل الفترة الأمبراطورية فان مجريات الأمور تؤكد بأن روما قد أخفقت في محاولتها لتوحيد ايطالية بشكل جذري ودائم •

الفصل الرابع

الاتروسكيون

عندما تحدثنا في الفصل السابق عن الشعوب التي سكنت ايطاليةاعتبارا من الالف الاول (ق٠م) ، ورد معنا اسم الاتروسكيين ٠

ولكن الدور الكبير الذي لعبه هذا الشعب بالنسبة لايطاليـة القديمـة يدفعنا لان نفرد له فصلا خاصا به ٠

بدأ الاتروسكيون يلعبون دورا حاسما في تاريخ شبه الجزيرة الايطالية اعتبارا من القرن السابع (ق٠م) وسيمتـد تأثيرهم خلال قرون عـديدة ، وحتى نهاية العهد الجمهوري ٠ واذا كانت سيطرتهم السياسية قد انحسرت تدريجيا اعتبارا من القرن الخامس (ق٠م) امام المنافسة الاغريقية خاصـة والقرطاجية احيانا ، لتزول فيما بعد نهائيا تحت ضربات الفيالق الرومانية ، فان تأثيرهم الحضاري في ايطالية الرومانية لم يندثر كليا بعد سقوط المدن الاتروسكية الواحدة تلو الاخرى بيد روما ، سيدة ايطالية الجديدة ٠

كاد الاتروسكيون ان يوحدوا شبه الجزيرة الايطالية لصالحهم ،ولكن الاغريق والرومان فيما بعد احبطوا مساعيهم وستقوم روما بتنفيذ هذه المهمة لصالح الشعب اللاتيني ٠ لقد انهزم الاتروسكيون سياسيا وعسكريا ولكن كم هو كبير التراث الذي خلفوه وراءهم ، وكم هو ثقيل دين روما تجاه هذا الشعب ؟!٠

رغم الاهتمام الذي حظي به التراث الاتروسكي منذ القدم ، قبل الفترة الامبراطورية ورغم جميع الدراسات التي تمت منـذ القرن الثامن عشـر

وحتى يومنا هذا ، تلك الدراسات التي كشفت بعض جوانب هذا التراث ، يمكننا القول بأن تاريخ هذا الشعب بكليته مازال غامضا نسبيا ولم يتمكن المختصون الا من القاء اضواء خافتة على المشكلة الاتروسكية • فمصدرهم ما زال غير مؤكد ولغتهم وكتابتهم مازالتا شبه مجهولتين وتاريخهم السياسي غامض في كثير من جوانبه •

ان نسيان الماضي الاتروسكي واسدال الستار على مآثر هذا الشعب ناتجان كما يقول (بيير غريمال)[1] عن « مؤامرة الصمت » ، تلك المؤامرة التي حدت بالرومانيين منذ مطلع العهد الامبراطوري ، الى طمس دور الاتروسكيين ونكران اثرهم بالنسبة لايطالية القديمة ولروما بالذات • ولقد اشار الى ذلك الامبراطور كلوديوس (٤١ — ٥٤ ميلادي) في خطابه المدوّن على (لوحة ليون) • لقد وضع الامبراطور كلوديوس الذي اشتهر بابحاثه اللغوية والتاريخية ، وكما يفهم من سياق خطابه ، مؤلفا عن الاتروسكيين • يقول كلوديوس في خطابه : « انه ليس حبيس الاساطير التي نسجها مؤرخو الحوليات الرومان ، ويتجزأ على النطق بالحقيقة بالنسبة للاتروسكيين ، رغم كون هذا الامر لا يروق للكثيرين • » ولكن بعد كلوديوس يسود الصمت المطبق من جديد •

هذا من جهة ومن جهة اخرى لم نتمكن حتى الان من فك رموز او بالاحرى من فهم مفردات هذه اللغة • وسنعود الى هذه النقطة بالذات لدى تعرضنا للغة الأتروسكيين •

اضافة الى ذلك لقد دمرّ الرومانيون لدى استيلائهم على المدن الاتروسكية مناطق بأكملها وأزالوا معالمها الحضارية •

ولكن رغم جميع العقبات ، فان معرفتنا بتاريخ هذا الشعب وبحضارته هي اليوم أفضل بكثير مما كانت عليه منذ خمسين سنة • فالمكتشفات الاثرية

(1) Grimal Pierré, *A La Recherche De l'Italie Antique*, Hachette, Paris, 1961, p.241.

تتوالى يوما بعد يوم في مختلف انحاء ايطالية ، ملقية الضوء على تاريخ هـذا الشعب وموضحة اكثر فأكثر جوانبه الغامضة •

ان نقطة انطلاق التوسع الاتروسكي والمركز الحيوي للامبراطورية الاتروسكية كان ــ كما نعلم ــ منطقة توسكانة في ايطالية الشمالية[١] •اطلق الاتروسكيون على أنفسهم اسم (راسنا **Rasenna**) وهي لفظة اتروسكية • اما الاغريق فلقد سموهم (تيرينوي *Tyrrhenoi*) ، نسبة الى (تيرنوس) ابن الملك (آتيس) ملك ليدية • وتيرنوس هو الذي قاد قسما من الشعب الليدي ، حسب رواية هرودوتوس ، الى ايطالية • واما الكتاب اللاتين فلقد اشاروا اليهم بلفظة (توسكي وأتروسكي) ومن لفظة (توسكي) اشتق اسم منطقة توسكانة حيث بدأت تتألق معالم الحضـارة الاتروسكية منـذ أواخر القرن الثامن (ق•م) • ولدى تعرضنا للحضارة الفيلانوفية ، رأينا انمقومات تلك الحضارة قد ظهرت أول ما ظهرت في شمال شبه الجزيرة الايطالية[٢]•

في اواسط القرن السابع (ق•م) بدأ شكل القبور الواقعة في منطقة توسكانة يتغير وكذلك متاعها وحتى طريقة الدفن • فكما تقدم أعلاه رأينا الفيلانوفيين يحرقون موتاهم ولكن فجأة بدأنا نرى طريقة دفن جثث الموتى تنتشر تدريجيا • وعوضا عن الاواني الخزفية التي كانت منتشرة في القبـور الفيلانوفية بدأت تتزايد الاواني البرونزية •

وشيئاً فشيئا بدأ شكل القبور يتبدل • وعوضا عن القبور التي كانت على شكل آبار في بدء الفترة الفيلانوفية ، راحت تنتشر القبور التي اتخذت شكل المساكن وبعض هذه القبور كانت على شكل حجر كبير ، تعلوها تلال جنازية وتجلـّى في هذه القبور ثراء فاحش غير منتظر اذا قيس بما كان سـائدا في الفترة الفيلانوفية ، ثراء يذكرنا بأبهـّة وعظمة قبور الشرق القديم •

ان جميع ما ذكرناه ينمّ عن تكنولوجيا جديدة ويكشف النقاب عن

(١) انظر أعلاه ص ٧٤ ، الملاحظة الهامشية رقم ٣ •

(٢) انظر أعلاه ص ٩٨ •

تطور وازدهار سريعين في مجالي الانتاج والتجارة • ان مطلع هذه الحضارة الجديدة ، التي أُصْطُلِح على تسميتها « بالحضارة المشرقية » ، يُحدِّد ايضا انطلاق التاريخ الاتروسكي •

١) معضلة اصل الاتروسكيين :

اجمع القدماء بالنسبة لاصل الاتروسكيين على رأي شبه موحّد ، اذ تبنوا رواية المؤرخ اليوناني هرودوتوس بالنسبة لوصول التيرينيين الى توسكانة ويروي المؤرخ اليوناني في مؤلفه قصة هؤلاء الوافدين الجدد • ومفادها ان مجاعة كبرى قد اجتاحت مناطق آسية الصغرى في اواخر القرن الثالث عشر (ق•م) مما حدا ببعض سكانها الى النزوح عنها الى الغرب • وهكذا هاجر قسم من الشعب الليدي في ايام الملك آتيس بن مانس[1] من بلاده نحو الغرب • يقول هرودوتوس بان آتيس فرز الشعب الليدي الى مجموعتين واقترع على الفئة التي ستظل في ليدية ، اما الفئة الاخرى فغادرت البلاد تحت قيادة ابنه (تيرنوس) • وهكذا ابحر هؤلاء من (ازمير) وهاموا على وجوههم في البحار طويلا قبل ان يصلوا الى ايطالية ، ويستقرّوا في منطقة الاومبريين[2] ، حيث أسسوا مدنا عديدة وابدلوا اسمهم القديم (ليديين) باسم جديد (**تيرينيين**) نسبة الى رئيسهم وقائدهم تيرينوس بن آتيس •

اعتمد الكتاب اليونانيون والرومانيون هذه الرواية ، ولذلك يتراءى لنا الاتروسكيون في مؤلفات ورجيليوس *Vergilius* وأوويديوس *Ovidius* وهوراتيوس *Horatius* [3] متخذين اسم (ليديين) • **ويقول لنا المؤرخ** تاكتيوس في الحوليات (IV, 55) ، بأن سكان ليدية كانوا يعتبرون انفسهم حتى فترته ، كاخوة عرقيين للاتروسكيين • ويضيف الفيلسوف سينيكا

(١) مانس : ملك خرافي لفريجية في آسية الصغرى ، ومانس هو وفقاً لبعض الروايات الخرافية ابن الاله زوس والالهة جي (الارض) • كان له عدة أولاد من بينهم آتيس •

(٢) أومبرية : منطقة في ايطالية الوسطى يرويها نهر التيبر • ومن اشهر مدنها *(Perusia)* و *(Arretium)* اللاتينية واسمها الاتروسكي هو *Arrezzo*

(٣) ثلاثة شعراء من القرن الاول (ق•م) • عاصروا فترة الامبراطور أوغسطوس •

Seneca (القرن الاول ميلادي) بان آسية قد ادعت أبوة التوسكانيين :
. *Tuscos Asia sibi vindicat*

ولكن يجب ان نقول بأنه وجد في عصر الامبراطور اوغسطوس من رفض روايـــة هرودوتوس هـذه ونعني بـذلك المـؤرخ ديـونيسيوس **الهاليكارناسي**[1] • يقول ديونيسيوس بانه لايعقل ان يكون الاتروسكيون قد انحدروا من الليديين ، اذ ان اللغة والحضارة الليديتين تختلفان ـ حسب رأيه ـ اختلافا جذريا عن اللغة والحضارة الاتروسكيتين • ويعتقد هذا المؤرخ ان سكان توسكانة يمثلون شعبا محليا موغلا في القدم • وقُدم هذا الشعب يفسّر لنا انفراده بلغة وبحضارة وبطباع خاصة به •

وهكذا منذ القديم وجدت لدينا نظريتان بالنسبة لاصل الاتروسكيين : **نظرية هرودوتوس التي ارجعت موطنهم الاصلي الى الشرق (ليدية) ونظرية** ديونيسيوس التي دافعت عن منبتهم المحلي (توسكانة) •

ولم يتمكن العلماء المعاصرون حتى الان من اعطاء جواب حاسم بالنسبة لاصل الاتروسكيين ، بل يمكننا القول بان المسألة قد ازدادت تعقيدا بظهور نظرية ثالثة وُجد من يروج لها منذ القرن الثامن عشر •

ولقد ادعى انصار هذه النظريـة بان الاتروسكيين يشـكلون فرعا من الغزاة الهنود الاوروبيين الذين اجتاحوا شبه الجزيرة الايطالية منذ عصر البرونز • ولكن الحجج والادلة التي قدمها انصار النظرية الهندية ـ الاوروبية ضعيفة وغير مقنعة • ان كان من الناحية اللغوية او الاثرية ويمكننا القول بان النقاش ما زال محصورا اليوم بشكل جدّي بين انصار النظريتين السابقتين •

ان عديدا من الحجج اللغوية والاثرية تبدو مؤيـدة للنظريـة الاولى (نظرية هرودوتوس) وتجعلها مقبولة لدى عدد كبير من العلماء البارزين • فالسمات الشرقية للحضارة الاتروسكية هي عديدة ومهمة لدرجة انها تنفي

---

(١) انظر أعلاه ص ٢ •

مجرد ظاهرة عرضية • رغم ان اللغة الاتروسكية مازالت ـ كما قلنا ـ غامضة نسبيا • ولقد تمّ العثور ، خارج ايطالية ، على كتابة وثيقة الصلة بالاتروسكية ونعني بذلك نقش النصب الذي عثر عليه في جزيرة لمنوس ، احدى جزر الارخبيل الايجي ، ولقد تمّ اكتشاف النصب عام ١٨٨٥ والنص يعود الى القرن السابع (ق•م) •

وهكذا اذا صحّ ان الاتروسكيين قد وفدوا من ليدية ـ حسب رواية هرودوتوس ـ فمن الممكن ان يكونوا قد رسوا في جزيرة لمنوس لفترةمن الزمن قبل ان يتابعوا مسيرتهم نحو الغرب ، عندئذ يتحدد تاريخ هجرتهم او بالاحرى هجراتهم اعتبارا من نهاية القرن الثامن (ق•م) وليس كما قال هرودوتوس منذ القرن الثاني عشر (ق•م) •

ومما يؤيد نظرية هرودوتوس اضافة الى الادلة اللغوية والأثرية ، الطابع الشرقي الصارخ للحضارة الاتروسكية • فالمرأة مثلا تحتل في العائلة وفي المجتمع مركزا مرموقا يذكرنا بعادات واعراف كانت سائدة في مناطق عديدة من آسية الصغرى • كما ان معتقداتهم الدينية اختلفت اختلافا كبيرا عما كان سائدا لدى الاغريق واللاتين • فلقد اعتقدوا بدين منزل دُوّنت تعاليمه في كتب مقدسة ، اما الهتهم فذات امزجة غامضة ورهيبة • ويجب على الكهان ان يرجعوا اليها دائما للاستفسار عن مشيئاتها وكذلك لتفسير بعض الرموز والاشارات الصادرة عنها والتي لها صلة بمستقبل البشر على الأرض• ولقد احتلت العرافة (معرفة الغيب) مركزاً مرموقاً لدى الاتروسكيين وهذه الظاهرة كانت سائدة ، كما نعلم ، لدى العديد من شعوب الشرق القديم •

ان عادة فحص كبد الضحية كانت رائجة في معتقداتهم • وكان كهانهم يفحصون اكباد الذبائح لقراءة الغيب من خلالها ومعرفة احوال البشر في المستقبل •

ويجب ان نقول بان عديدا من العلماء المختصين يحاولون التوفيق في

الاونة الاخيرة بين الرأيين : نظرية الاصل الشرقي ونظرية المنبت المحلي •
فمثلا الفرنسي (Pierre Grimal) [١] يقول ما مفاده : « باننا يجب ان نحذر من فكرة الغزو الصريح ، بل الافضل لنا اليوم استنادا الى آخر معطيات علم الاثار ، ان نسلم بان الاتروسكيين لم يفدوا الى ايطالية كغزاة حاملين معهم مختلف مظاهر حضارتهم من لغة ودين وفن الخ ••• نقول لم يفدوا الى ايطالية كغزة محاولين فرض سيطرتهم وحضارتهم بالقوة على السكان المحلّيين • بل وصلوا اليها على شكل موجات متعاقبة وتمثلوا الحضارة الفيلانوفية[٢] واضافوا اليها ما هو خاص بهم » •

وينادي برأي قريب من ذلك عالم ايطالي اختص بالاتروسكيين ونعني به M. Pallotino [٣] وكذلك مؤلفا « روما وامبراطوريتها »[٤] •

يقول المؤلفان : « فكل الدلائل من اي نوع كانت : اثرية او لغوية ومن اي مصدر جاءت : ايطالية بالطبع او شمالية او ايجية او آسيوية حتى ومصرية ، مما استشهد به المؤرخون في معرض بحثهم هذه القضية التي سلست مقاليدها بعد القرن الثاني للميلاد ، ثم عاد فارتفع الجدل حولها من جديد في القرن الثامن عشر وما بعده ، عقب العثور على النماذج البديعة التي خلفها الفن الاتروسكي ، ولا يمكن استعراضها هنا جميعا ولا يفيد عرضها شيئا ، والقول بأن اكثرية علماء العصر يأخذون بالنظرية التي تغلب الاصل الشرقي للاتروسك وترجحه ، لا يوجب الاقناع ولا يلزم الاخذ به ، اذ ان معضلات من هذا النوع لا تحل بالاقتراع وعدّ الاصوات • فهنالك اليوم علماء بارزون يتبنون هذا او ذاك من الرأيين المعارضين لنظريتنا هذه ، فمن الافضل ، والحالة هذه ، الوقوف الى جانب هذه الملاحظة مع العلم ان الوضع الحالي الذي تدعمه

---

(1) Pierre Grimal, *Ibid*, p. 290.

(٢) بالنسبة للحضارة الفيلانوفية انظر اعلاه ص ٨٣ وما يتبع •

(3) *Etruscologia*, Milano, 1955.

(٤) روما وامبراطوريتها ، تاليف اندريه ايمار وجانين أوبواية ، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد م• داغر ، منشورات عويدات ، بيروت ، ص ٢٥ •

الاكتشافات الاثرية والمناقشات العلمية ، والبراهين التي تؤيد المنبت الشرقي للاتروسك ، تبدو ، بالنسبة لغيرها ، اكثر انسجاما واقل عرضة للجرح من سواها . اما القول باكثر من هذا ، والذهاب الى ابعد منه ، ففيه عنت وفيه تغرير .. اذ ليس في هذه الحجج ما فيه القطع او الجزم نفيا او اثباتا » .

٢) نظرة سريعة الى التاريخ الاتروسكي :

لدى كلامنا عن الحضارة الفيلانوفية التي ازدهرت في ايطالية في العصر الحديدي الاول (١٠٠٠ ـ ٥٠٠ ق.م) قلنا بان نقطة انطلاق هذه الحضارة كانت ايطالية الشمالية ، ولكننا ذكرنا ايضا بان اسباب تلك الحضارة قد امتدت تدريجيا الى اواسط ايطالية حيث تمّ الكشف عن بعض آثارها في مناطق اترورية واللاتيوم[1] .

وهكذا يمكننا القول بان الحضارة الاتروسكية قد بدأت تتطور في مناطق كانت قد خضعت لاسباب حضارة عصر الحديد الاول .

ومن أشهر المراكز الحضارية في ايطالية الوسطى التي بدأ اسمها يبرز منذ مطلع الالف الاول (ق.م) ، نذكر ما يلي :

أ ـ مدينة Veii الواقعة على نجد بين منخفضات Due Fossi , Formello ولقد ازدهرت أحوالها بين القرنين الثامن والسادس (ق.م.) ولقد اصطدمت بروما منذ الفترة الملكية وعاد الصراع من جديد على اشدّه منذ عام (٤٨٥ قم) ودام حتى عام (٣٩٦ ق.م) . حينما استولى الدكتاتور الروماني F. Camillus على المدينة وهدمها. ولم يدركنا من آثار المدينة الا بعض البيوت وبقايا الاسوار والجسر وكذلك معبد

---

(١) انظر اعلاه ص ٩٩ .

على الاكروبول وآخر في Portonaccio حيث عثر على تماثيل للالهة Apollo [1] و Hermes [2] و Heracles [3] و Lato [4]،
ولقد نسبت جميع هذه التماثيل الى النحات Vulca ومحفوظة حاليا في روما في متحف Villa Giulia • ولقد عُثِر ايضا في احدى مقابر المدينة على اناء خزفي من نوع *Bucchero Nero* شهير بالابجدية الاتروسكية المرسومة عليه •

ب – Cervteri وهو اسمها الايطالي اليوم ولقد عرفت عند الاتروسكيين باسم *Chirsa* [5] • مركز اثري شهير يطل على المتوسط على بعد (٤٤ كم) شمال روما ذاع صيتها اعتبارا من القرن السابع (ق•م) خاصة نتيجة لعلاقاتها التجارية مع العالم اليوناني الى ان سيطرت عليها روما في القرن الرابع (ق•م) فبدأ اسمها يختفي تدريجيا • أُجريت فيها حفريات وتمّ العثور على عدد كبير من التلال الجنازية وعلى قبور ذات حجر مأتمية حيث وجد على ادوات وحلي يوجد معظمها في روما (متحف الفاتيكان ومتحف Villa Giulia).

جـ – Tarquinia : (اسمها الاتروسكي *Tarchuna* وعرفت عند اللاتين باسم *Tarquinii*) • اشهر مدينة اتروسكية في اترورية الجنوبية• تروى الاسطورة بان البطل الاسطوري Tarchon [6] هو الذي

---

(١) ابولون : اله النور والفنون عند اليونان تنسبه الاسطورة الى الاله وزس والالهة Leto

(٢) هرمس : اله يوناني يطلق عليه اللاتين اسم الاله Mercure • تنسبه الاسطورة الى الاله زوس والحورية Maia • وكان بشير ونذير الالهة وهو نفسه اله التجارةوالبيان والفصاحة •

(٣) هركول او هراقلس : نصف اله ، راجع عن اسطورته في كتاب الدكتور كامل عياد ، تاريخ اليونان ، ص ٩٨ – ١٠١ •

(٤) لاتو عند اللاتين وأطلق عليه اليونان اسم ليتو Leto وهي والدة أبولو والالهة Artemis (المعروفة بديانا عند الرومان) •

(٥) وعُرفت أيضا تحت اسم *Agylla* ، أما اسمها اللاتيني فهو *Caere* •

(٦) بطل اسطوري تتلمذ على يد العراف Tages ويعتبر تاجيس مؤسس العرافة لدى الاتروسك • وتروى الاسطورة بان مختلف تنبؤاته قد حفظت في كتب العرافة الاتروسكية •

اسمها • تقع على بعد (١٢٩ كم) شمال غربي روما قرب الشاطىء ، يعود تأسيسها الى مطلع الالف الاول ولكنها بلغت ذروة مجدها في القرن السادس (ق•م•) عندما تمكنت من السيطرة على روما ذاتها • وبعد تراجع النفوذ الاتروسكي في العهد الجمهوري اخضعتها روما بدورها في القرن الرابع (ق•م) •

نرى في المدينة القديمة اليوم آثار جدران ومساكن وكذلك بقايا مذبح في الهيكل المعروف بمعبد الملكة (*Ara Della Regina*) وهو من اكبر الهياكل الاتروسكية ـ الايطالية • تحيط بالمدينة اليوم مقابر اتروسكية قديمة تعود الى الفترة الواقعة بين القرنين السابع والثاني (ق•م) • اما ماعثر عليه من ادوات وحلي في حجرها المأتمية فهو محفوظ في قصر *Vitelleschi* وكانت هذه المدينة من اكبر مدن الاتحاد الاتروسكي •

د ـ Vulci : (اسمها الاتروسكي *Volci* او *Velcha*) تقع على بعد (١٢٠ كم) شمال غربي روما في منطقة تبعد ١٠كم عن شاطيء المتوسط وكانت احدى مدن الاتحاد الاتروسكي ثم خضعت لروما اعتبارا من عام (٢٨٠ ق•م) • اجرى لوسيان بونابارت (اخ الامبراطور نابليون) عام ١٨٢٨ في مقبرتها المحيطة بالمدينة الاتروسكية القديمة حفريات توالت بعده • ومن اشهر ما عثر عليه تصاوير محفوظة اليوم في روما في Villa Albani •

هـ ـ Chiusi : (اسمها الاتروسكي *Chamars* وعرفت عند اللاتين تحت اسم *Clusium*) : تقع على بعد ٨٠ كم جنوب شرقي مدينة Sienne في منطقة توسكانة[1] • كانت احدى مدن الاتحاد الاتروسكي ، ولقد بلغت ذروتها السياسية والعسكرية بين القرنين السابع والسادس(ق•م) وانعكس ذلك عندما زحف حاكمها Prosenna على روما لاعادة

---

(١) راجع اعلاه ص ٧٤ •

تنصيب ملكها المخلوع (تركوينيوس المتعجرف Tarquinius Superbus) استولى عليها الغاليون وهدموها اثناء غاراتهم على ايطالية ولكن احوالها ازدهرت من جديد بعد استيلاء الرومان عليها واصبح اسمها Clusium • واكتشفت فيها قبور قبوية شهيرة برسومها حيث عثر على عدد كبير من الاواني المأتمية المزينة برسوم اصحابها الموتى وكذلك نواويس (توابيت) من الخزف المشوي وجميعها محفوظة في متحفها وكذلك في فلورنسة •

و – Vetulonia : (واسمها الاتروسكي *Valluna* ، *Vetluna*) • تقع على بعد ١٥ كم من شاطيء المتوسط شمال شرقي مدينة Grosseto الحالية وكانت ايضا من اشهر مدن الاتحاد الاتروسكي المكون من اثنتي عشرة مدينة • لم يعثر فيها الا على بقايا اسوار قديمة وكذلك على رسوم مساكن بعضها يعود الى الفترة اليونانية •

اما قبورها فتمتد في المناطق المجاورة لها وفي ضواحيها أما ما عُثر عليه في القبور فمحفوظ اليوم في متحف فلورنسة •

ز – Populonia : (وعرفت عند الاتروسكيين باسم *Pupluna* واسمها اللاتيني *Populonium*) • تقع على ساحل المتوسط الى الشمال الشرقي من جزيرة البة Elbe تدل آثارها على ان المنطقة كانت مأهولة منذ العصر الحجري الحديث • ولقد كانت عامرة منذ العصر الحديدي الاول (١٠٠٠ – ٥٠٠ ق•م) حيث لعبت مركز اتصال بين الداخل وجزر البة وكورسيكة وساردينية ولقد تطورت علاقاتها مع العالم اليوناني ، ولقد اشتهرت بتعدين وصناعة الحديد • وعثر فيها على عدد كبير من القبور العائدة للفترة الفيلانوفية والاتروسكية •

ح – Volterra (اسمها الاتروسكي *Velathri* اما عند اللاتين فكانت تسمى *Volaterrae*) تقع على بعد ٦٩ كم جنوب شرقي مدينة Pisa احدى مدن الاتحاد الاتروسكي • واقدم آثار اكتشفت فيها تعود الى

القرن السابع (ق٠م) اشتهرت بمقالعها الرخامية وبصناعتها الخشبية ولقد عقدت علاقات تجارية خاصة مع جزر : البة وكورسيكا ووصلت الى اوج ازدهارها في القرن الثالث (ق٠م) ٠ ولكن عندما افتتح الطريق الساحلي الكبير المطل على المتوسط *Via Aurelia* فقدت من أهميتها قليلا كنقطة للمواصلات ٠ وتشهد اسوارها الضخمة العائدة الى العهد الاتروسكي بأن المدينة قد لعبت دورا كبيرا من الناحية العسكرية ٠ ولقد كشفت الحفريات التي اجريت فيها عن عدة انواع من القبور : قبور على شكل آبار ، قبور ذات حجرة واحدة ، دائرية الشكل وقبور ذات حجر متعددة ٠ ولقد عُثر في القبور المذكورة على نواويس وأجاجين (قوارير مأتمية) من الرخام ٠

واضافة الى ما ذكرناه نورد اسماء بعض المدن الاتروسكية التي اشتهرت اعتبارا من القرن السابع (ق٠م) ٠

أ — Arezzo (اسمها اللاتيني Arretium) : تقع في منطقة « اترورية » جنوب شرقي فلورنسة ٠ يقول عنها المؤرخ اللاتيني تيطوس ليويوس بأنها كانت مع مدينتي Perusia , Cortona من اهم المدن الاتروسكية في اواخر القرن الرابع (ق٠م) رغم اننا لا نشاهد اليوم من آثار المدينة القديمة الا القليل فلقد عثر في اطلالها على تحف برونزية شهيرة محفوظة اليوم في متحف فلورنسة ٠

ب — Bologna (اسمها الاتروسكي *Felsina* واطلق اللاتين عليها اسم *Bononia*) : يعود تأسيسها الى فترة الحضارة الفيلانوفية وغزاها الاتروسكيون في القرن السادس (ق٠م) واصبحت عاصمة أترورية الشمالية ٠ تقع في منطقة *Emilia* [1] في ايطالية الشمالية ٠ عُثر في مدافنها على عديد من التحف العائدة للفترة الاتروسكية وهي محفوظة اليوم في متحف المدينة ٠ استولى عليها الغاليون وهدموها في النصف

---

(١) انظر اعلاه ص ٩٢ ٠

الثاني من القرن الرابع (ق.م) . وعمّرها الرومان من جديد في القرن الثاني (ق.م) واصبح اسمها *Bononia* .

جـ - Bolsena (اسمها الاتروسكي *Belzna* واللاتيني *Volsinii*) :وتقع في وسط «اترورية» وكان ينتصب في منطقتها معبد Voltumna ، الالهة الوطنية للاتروسكيين حيث كان يجتمع سنويا ممثلو دول الاتحاد الاتروسكي . ويعتقد بانها كانت بمثابة العاصمة الدينية للاتحاد . ولقد كشفت الحفريات التي اجرتها ، في السنوات الاخيرة ، بعثة افرنسية عن معبد وعن آثار مهمة لاسوار المدينة الاتروسكية ، وكذلك عثر على عدد كبير من القبور ذات الحجر المأتمية المتعددة . اما التحف التي عثر عليها فمحفوظة في متحف Villa Giulia في روما .

د - Capua : تقع في منطقة كامبانية[1] وكانت من اهم مراكز السيطرة الاتروسكية في ايطالية الجنوبية . عثر في اطلال المدينة الاتروسكية على عدد كبير من التماثيل النذرية ولكن من اهم ما اكتشف في المدينة صفيحة من الخزف المشوى تحمل كتابة اتروسكية وهي محفوظة في متحف برلين .

هـ - Cortona : تقع على بعد (٣٢ كم) جنوبي Arezzo وهي من المدن الاتروسكية الشهيرة . انتصبت المدينة القديمة على هضبة واحيطت باسوار دفاعية ما زالت ماثلة حتى اليوم . وعثر في قبورها على عدد من التحف البرونزية محفوظة اليوم في متحف المدينة .

و - Perusia : مدينة شهيرة تقع في وسط منطقة اومبرية[2] ، احدى مدى الاتحاد الاتروسكي . شهيرة بتحفها البرونزية العائدة للقرن السادس (ق.م) وكذلك ببعض آثارها العمرانية العائدة للفترة

---

(١) انظر اعلاه ص ١٠٠ .

(٢) انظر اعلاه ص ٧٤ .

الواقعة بين القرنين الرابع والثاني (ق•م) • ومن اشهر محفوظات متحف المدينة نصبة (شاهدة) نذرية تحمل كتابة اتروسكية •

ومن المدن الايطالية التي عثر فيها علـى آثار اتروسكية نـذكر المدن التالية :

Fiesole (واسمها اللاتيني Fesulae)، Marzabotto, Sutri, Roma, Placentia, Paestum, Orvieto, (اسـمها الاتروسـكي ***Suthri*** واللاتيني ***Sutrium***) •

اعتبارا من القرن السابع (ق•م) تمكّن الاتروسكيون من السـيطرة على المنطقة التي ستحمل اسم اترورية فيما بعد ، حيث راحوا يبنون مـدنا محصنة • وكانت منطقة اترورية غنية بالمناجم المعدنية كما ان تربتها كانت خصبة ، ولقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة على ازدهار الصناعة والتجـارة لدى الاتروسكيين •

ومنذ منتصف القـرن السابع (ق•م) بـدأ الاتروسكيون يمدّون نفوذهم تدريجيا الى المناطق المجاورة واصطدموا باليونانيين الذين توافدوا على ايطالية منذ القرن الثامن (ق•م) ومن المؤكد اليـوم بان الاتروسكيين قـد تمكنوا من السـيطرة عـلى اللاتيوم وروما منـذ النصف الثاني من القـرن السابع (ق•م) •

وفي القرن السادس (ق•م) ، تابع الاتروسكيون تقـدمهم في شـبه الجزيرة فوصلوا الى منطقة كامبانية حيث أسسوا مدينــة **كـابوا** Capua وهنا اصطدموا من جديد باليونانيين الذين كانوا قد مدّوا نفوذهم على سواحل البحرين التيريني والادرياتيكي[1]• وعقد الاتروسكيون حلفا مع القرطاجيين وانتصروا على الاغريقيين في معركة Aleria [2] البحرية **(عام ٥٣٥ ق•م)؛** وبذلك أوقفوا مؤقتا تقدم النفوذ اليوناني كما انهم اضطروا الاغريق عـلى

---

(١) راجع اعلاه ص ٣٨ •

(٢) مدينة على ساحل جزيرة كورسيكة وتلفظ أحياناً **Alalia** •

الجلاء عن قواعدهم في جزيرة كورسيكة[1] •

وفي الوقت نفسه كان الاتروسكيون يمدّون نفوذهم الى شمال ايطالية حتى انهم تمكنوا بعد فترة بسيطة من السيطرة على معظم مناطق سهل البو[2]• حيث بسطوا عليها سيادتهم مدة قرن من الزمن •

ويمكننا اعتبار القرن السادس (ق•م) عصر سطوة الاتروسكيين : عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، اذ كان نفوذهم يمتدّ من جزيرة كورسيكة غربا حتى البحر الادرياتيكي شرقا ومن جبال الالب شمالا حتى جزيرة صقلية جنوبا •

ولقد شجعتهم انتصاراتهم على الاغريق في كورسيكة فحاولوا التقدم في جنوب ايطالية والقضاء على النفوذ اليوناني في اليونان الكبرى • ولكن هيرون (Hieron) حاكم مدينة سيراكوزة (في صقلية) اسرع لنجدة اخوانه في الدم وانجد المحاصرين في مدينة كوماي (Cumae) واضطر الاتروسكيين لفك الحصار عن المدينة بل والحق بهم بعض الاضرار براً وبحراً عام (٤٧٤ق•م)•

وفي الواقع ان تراجع الاتروسكيين امام مدينة « كوماي » لم يكن اول اخفاق يلاقونه ، اذ كما سنرى في بحثنا عن نشوء مدينة روما ، بدأ سكان اللاتيوم منذ نهاية القرن السادس (ق•م) بالثورة على الاتروسكيين • ولا ندري هل نقبل عام (٥٠٩ ق•م) على انه الحد الفاصل لسيطرة الاتروسكيين على اللاتيوم وروما ؟! اي هل نقبل الرواية القائلة بان سكان روما واللاتيوم تمكّنوا من طرد الاتروسكيين عام (٥٠٩ ق•م) • لدى كلامنا عن مدينة (Chiusi) قلنا بأن ملكها Porsenna ، قد زحف على روما واعاد الى العرش الملك الاتروسكي المخلوع (تركوينيوس المتعجرف)• سنعود الى هذه النقطة عندما نبحث النظام الملكي في روما •

---

(١) بالنسبة للتوسع اليوناني في ايطالية والعلاقات بين الاغريق والقرطاجيين راجع : تاريخ اليونان ، الدكتور كامل عياد ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤٦ وما يتبع •

(٢) راجع اعلاه ص ٤٩ •

كل ما يمكننا الجزم به الان هو ان مطلع القرن الخامس (ق•م) قد اعلن أفول نجم الاتروسكيين في ايطالية الوسطى والجنوبية • لاشـك بان الاتروسكيين لم يخلوا جميع منـاطق كامبانيـة بعد انكسارهم امام كوماي (٤٧٤ ق•م) • ولكن مما لا جدال فيه الان ان مواصلاتهم البرية بين اترورية وممتلكاتهم في ايطالية الجنوبية قد اضطربت منذ النصف الاول من القـرن الخامس (ق•م) ولقد حاولوا تأمين الاتصال بواسطة الاسطول ولكن هنا ايضا انبرى لهم الاسطول اليوناني بقيادة مدينـة سـيراكوزة وسدد لقواهم البحريه ضربات متتالية •

ومما جعل الوضع اشد خطورة على الاتروسكيين ظهور الخطر الغالي في شمال ايطالية[1] • وهكذا منذ النصف الثاني من القرن الخامس(ق•م) تعرّض النفوذ الاتروسكي في شبه الجزيرة الايطالية الى ثلاثة ضغوط :

١ ـ الاجتياح الغالي في الشمال •
٢ ـ المقاومة اللاتينية في الوسط •
٣ ـ المعاكسة الاغريقية في الجنوب •

ولم يهلّ منتصف القرن الرابع (ق•م) الا وكان الاتروسكيون قد اخلوا جميع ممتلكاتهم خارج « اترورية » • وسنرى بان روما لن تتوقف عن التوسع بعد اخراج الاتروسكيين من اللاتيـوم ، بل ان المبـادرة ستنتقل اليها • وستصبح سيدة اللاتيـوم مركز الثقل في ايطاليـة وهي التي ستنتصر بالتتالي على الاتروسكيين والغاليين واليونانيين وتوحّد شبه الجزيرة الايطالية تحت زعامتها • ولن يفيـد الاتروسكيين شيئاً محاولة تحالفهم مـع الغاليين والسامنيين ضد روما ، وستتمكن روما من الانتصار على جميع اعدائها بعد ان كاد الاتروسكيون ان يوحدوا شبه الجزيرة لصالحهم •

كيف نفسّر انحطاط الاتروسـكيين المفاجىء بعد صعودهم السـريع والصاعق في ايطالية ؟•

---

(١) راجع اعلاه ص ١٠٦ •

أرجع البعض تراجع الاتروسكيين السريع الى عدم وجود وحدة حقيقية بين مدن الاتحاد الاتروسكي اضافة الى ظهور المنافسات بين مختلف المدن الاتروسكية • وكذلك وجود الاضطرابات الداخلية بين الطبقات الفقيرة والمعدمة المكوّنة من السكان المحليين وبين الطبقة الموسرة الحاكمة المكونة من الاتروسكيين •

لاشك بأنه كان لهذه العوامل مجتمعة أثر في انهيار المدن الاتروسكية، ولكننا نود الآن ان نركّز على التنظيم السياسي لدى الاتروسكيين وسنبحث باقي العوامل لدى تعرضنا للحضارة الاتروسكية •

٣) الاجهزة والمؤسسات السياسية والعسكرية :

برزت لدى الاتروسكيين منذ القرن السابع (ق•م) عدة «مدن ـ دول» شكلت فيما بينها اتحادا ومن اشهر هذه المدن اثنتا عشرة مدينة نوردها باسمائها الأتروسكية :

Chirsa	Veii (١)	Tarchuna	Volci (Velcha)
Perusia	Belzna	Valluna	Rusellana
Velathri	Arezzo	Cortona	Chamars

وكانت هذه المدن ـ الدول « بمثابة العواصم الاقليمية لاترورية » وكانت كل واحدة منها تتمتع باستقلال سياسي واداري شبه مطلق • وكان يحكم كلا منها في البدء ملك أُطْلِق عليه لقب ***Lucumon*** (٢) يمارس السلطات المدنية والسياسية والعسكرية والدينية •

وفي نهاية القرن السادس (ق•م) حدث تطور في نظام الحكم (كما جرى في الوقت نفسه في بلاد اليونان) واصبحت جميع هذه «المدن ـ الدول»

---

(١) بعد سقوط **Veii** بيد الرومان حلّت محلها مدينة **Populonia** •

(٢) **Lucomon** : تروى الاسطورة بان حليف رومولوس قد حمل هذا الاسم كما ان الملك الاتروسكي (تركوينيوس القديم) الذي حكم روما (٦١٦ ـ ٥٧٨ ق•م) قد حمل هذا الاسم قبل صعوده الى العرش كأول ملك اتروسكي لروما • وكلمة (لوكومون) تعني «شيخ قبيلة » عند الاتروسكيين •

جمهوريات ما عدا مدينة Veii التي حافظت على نظامها الملكي • وكان يحكم الجمهوريات الاتروسكية ممثلو العائلات الارستقراطية وهم من الاتروسكيين وكانوا يشكلون مجلسا يُنتخب سنويا من بين اعضائه رئيس توكل اليه سلطات تنفيذ قرارات المجلس • وكان يطلق عليه بالاتروسكية لقب Zilath purthne اي « حاكم المدينة » •

وكانت الطبقة الاتروسكية الحاكمة تستثمر ارقاء من الشعوب الخاضعة لسيطرتها وتعيش من كدحهم بينما يقتصر دور الاتروسكيين الموسرين على التجارة والحكم والحرب ، اما المتوسطون من الاتروسكيين فلقد مارسوا ايضا الزراعة •

ورغم ان فكرتنا عن انظمتهم الداخلية مازالت غير واضحة تماما ، فمن المعروف بان مدن الاتحاد الاتروسكي قد اقامت فيما بينها علاقات سياسية وكان ممثلو مختلف المدن الاتروسكية يجتمعون سنويا – كما ذكرنا اعلاه[١] – في مدينة Belzna بالقرب من المعبد والمزار الاتروسكي الوطني المكرس لفولتومنة ، الالهة الوطنية للاتروسكيين ويناقشون مختلف الامور التي تهم مختلف المدن • وقبل البدء بأي عمل ، كانوا يجرون طقوسا دينية ثم ينعقد المجلس الاتروسكي الاعلى الذي يناقش مختلف الامور التي تمس مصالح « الامة الاتروسكية » •

في القرن السادس (ق•م) وفي اوج عظمتهم ، كان الاتروسكيون ينتخبون حاكما عاما يمثل الاتحاد الاتروسكي ويبحثون في امور السلم والحرب ويضعون الخطط الدفاعية والهجومية لمختلف المدن الاتروسكية • بل وكانت المدن الاتروسكية تضع احياناً مختلف جيوشها تحت امرة قائد واحد في الساعات الحرجة التي هددت كيان « الشعب الاتروسكي » • اي ان الطبقات الارستقراطية الاتروسكية كانت تشعر بمصالحها المشتركة وتحاول الدفاع عنها • ان هذا الامر ينطبق خاصة على القرن السادس (ق•م) •

---

(١) انظر اعلاه ص ١٢٢ •

ومما يلفت الانتباه عدم تمكّن الاتروسكيين من التغلب على النعرات الاقليمية وكذلك عدم نجاحهم في ازالة التناقضات فيما بينهم امام الاخطار الخارجية المداهمة ونعني بذلك اللاتين والاغريق والغاليين •

على كل ، منذ القرن الخامس ـ كما ذكرنا ـ بدأت سيطرتهم على جنوب وشمال شبه الجزيرة تضمحل تدريجياً ولن يهلّ مطلع القرن الثاني (ق•م) الا وكانت مختلف المدنالاتروسكية قد سقطت الواحدة تلوالاخرى في قبضة الرومان ، وستعلن معركة *Sentinum* عام (**١٩٥** ق•م) زوال الاستقلال الاتروسكي •

بعد زوال السيطرة السياسية الاتروسكية ، ظل هـذا الشعب الغريب يؤثر في حياة روما في مختلف المجالات•ومما يسترعيالانتباه ان الاتروسكيين قد لعبوا دورا حضاريا كبيرا بالنسبة الى ضآلة دورهم السياسي • وهنا تخطر على بالنا الملاحظـات والمفارقات التي اوردناهـا بالنسبة للكنعانيين والآراميين والاغريق[١] •

ومن الملاحظ ان أجهزة الحكم الرومانية قد تأثرت تأثرا كبيرا بما كان سائدا لدى الاتروسكيين • فلقب (لوكومون) الملكي المشتق من **Lauchme** الاتروسكي كان يطلق على الشخص الذي ورث وظيفة الملك • ولكن مهام (اللوكومون) ستكون محصورة في النطاق الديني بعد انتقال الاتروسكيين من النظام الملكي الى النظام الجمهوري وسنرى انعكاسا لكل ذلك في الأجهزة الرومانية •

فمثلا كان يفتتح مسيرة اللوكومون حراس يحملون فؤوس محزومة على اكتافهم وكانت هذه الفؤوس المحزومة[٢] تدل على « السلطان » الممنوح للحاكم وسيتخذ الرومان من هذه الفؤوس المحزومة « رمزاً لسلطان » بعض

---

(١) راجع اعلاه ص ٤٤ وما يتبع •

(٢) كانت الحزم مكونة من قضبان محزومة حول فأس ذات حدين •

الحكام كالديكتاتور والقنصل وقائد الفرسان[١] •

اما بالنسبة لتنظيم الاتروسكيين العسكري ، فلقد عرفنا بعض جوانبه اعتمادا على الأشكال الموجودة على وعاء على شكل (سطل *Situla*) برونزي موجود في متحف بولونية وهذا الوعاء يعود الى القرن الخامس (ق•م) • وتظهر لنا الأشكال جيشا اتروسكيا في حالة السير : ويأتي في الطليعة الفرسان وخلفهم مشاة الصف الاول ويليهم مشاة مدججين بسلاح اكثر ثقلاً من مشاة الصف الأول • ويظهر بان سلاح الفرسان قد حلّ تدريجيا محل العربات الحربية التي كان يركبها محارب وسائق العربة •

اما لباس الجندي فكان عبارة عن ثوب مخصرّ منحدر الى الركبتين ، وكانت تحمي رأسه ووجهه خوذة ذات عرفة تشبه ما كان مستعملاً لدى اليونانيين • اما اسلحته فكانت الفأس ذات الحدين (واصبحت فيما بعد ــ كما ذكرنا ــ رمزا لسلطان الحكام) والسيف والمزراق والرمح • وكان يتلقى ضربات العدو بواسطة مجن مستدير الشكل •

وكانوا يخصّون القائد المنتصر بعد عودته من ساحة المعركة بموكب نصر له طابع الاحتفال الديني ، وذلك بجعله شبيها بآلهتهم • فيطلون جسمه بمادة الزنجفر *Minium* [٢] ، ثم يحيطون عنقه بسلسلة تتدلى منها ميدالية (وسام) ذهبية لحمايته من الحسد ومن العين الشريرة ويتوجون رأسه بأكليل ذهبي يشبه غصن السنديان محدودب الشكل ويخلعون عليه سترة *Tunica* وحلة *Toga* حمراء اللون ويخصّونه بصولجان عاجي يعلوه نسر باسط الجناحين وكأنه يهم بالانطلاق نحو أعالي السموات •

---

(١) يقول الشاعر والقنصل الروماني Silius Italicus (القرن الاول ميلادي) في ملحمته عن الحرب البونية الثانية *Punica* ان سكان Vetulonia (انظر أعلاه ص ١٢٠) هم اول من جعل ستة من حاملي الفؤوس المحزومة يسيرون امام القنصل بينما كان ستة آخرين يسيرون خلفه • وهكذا كان عدد حاملي الفؤوس يساوي عدد مدن الاتحاد الاتروسكي ، وهي كما مر معنا اثنتا عشرة مدينة •

(٢) الـ (منيوم) : اكسيد الرصاص ، احمر اللون •

وسنجد اصداء لجميع هذه المظاهر لدى الرومان عندما كانوا يخصّون قادتهم وأباطرتهم فيما بعد بمواكب النصر •

٤) الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

تشير جميع الدلائل والوثائق بان المجتمع الطبقي كان قد شكل لدى الاتروسكيين منذ القرن السابع (ق•م) وذلك بعد تطوّر الاقتصاد وظهور التخصص في مختلف فروع الصناعة والتجارة والزراعة •

ويظهر ذلك خاصة في بروز طبقة أتروسكية ارستقراطية تتكّون من العسكريين والتجار ومالكي الاراضي وكذلك من رجال الكهنوت • وكان يمثل هذه الطبقة الارستقراطية ـ كما ذكرنا ـ الحكام (اللوكومون) • وكان افراد هذه الطبقة يعيشون في قصور محصنّة على المرتفعات بينما كان افراد الطبقة الوسطى (من حرفيين وصناع) وكذلك العبيد يسكنون في المدن والسهول • ويدّل بذخ قبور أفراد هذه الطبقة على أن الارستقراطية الاتروسكية قد بلغت منذ القرن السادس (ق•م) درجة كبيرة من الثراء •

ولقد خضعت شعوب المناطق التي سيطر عليها الاتروسكيون اعتبارا من القرن السابع (ق•م)[1] بدرجات متفاوتة من التبعية للوافدين الفاتحين •

وقد أُلْزِمت هذه الجماعات الخاضعة بدفع الضرائب وكذلك بتنفيذ مختلف اعمال السخرة ، كبناء أسوار المدن والقصور المحصنّة والقنوات وقبور الطبقة الارستقراطية • كما ان عدد الارقاء كان مرتفعا لدرجة انهم شكلوا طبقة على حدة ولقد خضع العبيد لاستثمار أشد قساوة وكانوا يعملون في المناجم والحقول كما ان بعضهم كان يخدم في قصور وبيوت الطبقة الارستقراطية الحاكمة •

يقول الشاعر اللاتيني ورجيلوس (٧١ ق•م ـ ١٩ ميلادي) في قصيدته المطولة « اعمال الأرض » Georgica : « كانت الارض فيما مضى

---

(١) بالنسبة لمناطق السيطرة الاتروسكية ، انظر اعلاه ص ١٢٣ وما يتبع •

مشاعا بين المزارعين • ولم يكن مسموحا ان تُدنَّس قدسيتها بوضع حدود بين الحقول كما انه لم يكن مسموحا ان تقسم بل كانت ملكا مشاعا بين الجميع الذين كانوا يشتركون فيما بينهم بالمحاصيل » • ويضيف قائلا : « •• ولكن عندما طالب الاله جوبيتر بحقوقه بالنسبة لأرض اترورية ، سمح كما تقول الحورية الاتروسكية Vegoia ان تقسَّم الارض وأن تحدَّد الحقول •اذ ان الاله بعمله هذا ، اراد ان يضع حدا لجشع البشر • »

هكذا يفسر الشاعر ورجيليوس ظهور الملكية الخاصة على الارض لدى الاتروسكيين • وهذه الطريقة في تفسير الاحداث ليست بغريبة على الاقدمين بل اننا نرى استطالات لها لدى بعض الشعوب والمجتمعات في عصرنا الحاضر •

اي ان الملكية الخاصة للارض لم تكن موجودة لدى الاتروسكيين كما انها لم تكن موجودة لدى غيرهم من الشعوب في فترة المشاعية البدائية • وكما ذكرنا سابقا حدث تطور في علاقات الانتاج ادّى الى ظهور الملكية الخاصة وبرزت هذه الظاهرة مع نشوء المجتمع الطبقي وظهور طبقة الارقاء •[١]

ويقول الكاتب اللاتيني وارو Varro (١١٦ – ٢٧ ق•م) في مؤلفه « عن الزراعة » بان اترورية قد اشتهرت بخصبها منذ القديم ان كان من ناحية الحبوب او من ناحية الاشجار والخضار ولم يكن بمقدور المرء ان يشاهد حقولا غير مستثمرة • ولقد اشتهر الريف الاتروسكي بخصب حبوبه وكانت الحبوب الفائضة تصدّر منذ القرن الخامس الى روما وخاصة في سنين القحط • واشتهرت ايضا مناطق اترورية بخمور ذائعة الصيت حتى في بلاد اليونان • وكان الاتروسكيون متقدمين على سكان اللاتيوم في مجال صناعة الخمور وتربية الكرمة • وعرفوا ايضا زراعة الكتان وكان نسيج الكتان الاتروسكي ذائع الصيت أيضاً •

ويعلل الشاعر اللاتيني أويديوس Ovidius (٤٣ ق•م – ١٧ميلادي)

---

(١) راجع اعلاه ص ٦٣ وما يتبع •

مهارة الاتروسكيين في المجال الزراعي بعلاقاتهم مع الشرق ومع قرطاجة •
ومن المعروف ان الزراعة قامت لدى القرطاجيين على أسس ومناهج علمية ومتطورة • ولقد اشتهر المهندسون والخبراء القرطاجيون بمهارتهم وفنهم • ولعل اشهرهم كان القائد القرطاجي ماغون (القرن الثاني ق•م) الذي وضع موسوعة زراعية من ثمانية وعشرين جزءا ظلت طائرة الشهرة وذائعة الصيت طوال العهد القديم ، مما جعل مجلس الشيوخ الروماني **يأمر بالعمل** على نقلها الى اللاتينية كما انه تم نقلها الى اليونانية •

ويعترف كل من الكاتب كاتو (٢٣٤ ق•م - ١٤٩ ق•م) الذي شغل منصب مراقب عام (١٨٤ ق•م) وكذلك العالم الطبيعي بلينيوس Plinius **(٢٣ - ٧٩ ميلادي)** بان الاول في مؤلفه « عن الزراعة » والثاني في موسوعته « التاريخ الطبيعي » اعترف هذا الكاتبان بانهما عولا في تنقيباتهما وتحقيقاتهما عن الزراعة على موسوعة القرطاجي (ماغون) المتقدم الذكر •

والى جانب نشاطهم الزراعي ، تفوق الاتروسكيون في حقل التعدين وتصنيع الحديد • ولكي يؤمنوا المزيد من الموارد التي كانوا بحاجة اليها ولتوفير المزيد من الخامات (حديد ، نحاس) التي كانت تفيض بها مقاطعة اترورية التي اشتهرت بمختلف مواردها الطبيعية سيطروا على جزيرة البة Elbe ، الامر الذي زاد من طاقاتهم على **تأمين المزيد من المواد الاولية** الضرورية لصناعتهم •

لدى تعرضنا لاهم المدن الاتروسكية ذكرنا مدينتي Populonia و Vetulonia الواقعتين تجاه جزيرة البة• وفي الواقع اشتهرت هاتان المدينتان الواقعتان في منطقة المعادن بالذات، باستغلال الثروات المعدنية الكامنة في المناطق المجاورة ولقد صرف نشاط الاهلين في تلك المناطق في سبيل استخراج الخامات المعدنية التي تقوم مدن أتروسكية اخرى باعدادها للتصنيع •

وفي الواقع ، اعتبارا من القرن السابع (ق•م) **ذاع صيت عدد كبير من**

المدن الاتروسكية بمصنوعاتها الحديدية والذهبية والفضية واشتهر البعض الآخر منها بالادوات الفخارية والخزفيات الثمينة •

في عام (٢٠٥ ق•م) عندما كان القائد سيبيون الافريقي يعد حملته لمهاجمة قرطاجة ولارغام هانيبعل على الجلاء عن ايطالية ، سمح له مجلس الشيوخ الروماني بان يتوجه الى مختلف المدن الخاضعة لروما او الحليفة لها وان يطلب منها تزويده بما يحتاجه لتجهيز الاسطول والفيالق التي تقرّر ارسالها ضد قرطاجة• ويورد لنا المؤرخ اللاتيني تيطس ليويوس (٥٩ ق•م ـ ١٧ ميلادي) في « التاريخ الروماني » بعض الايضاحات بالنسبة لتلك المهمة، فيقول : « اما مدينة **Caere** فلقد عرضت القمح ومختلف انواع المؤن اللازمة للبحارة والمراكب • بالنسبة لمدينة **Populonia** ، فلقد أمنّت الحديد الضروري ، ومدينة **Volterra** زودّت الحملة بالقمح وقدمت العتاد الضروري للسفن ، اما مدينة **Arezzo** ، فلقد عرضت ثلاثة الاف مجن ، وثلاثة الاف خوذة وثلاثة الاف مزراق وثلاثة الاف رمح طويل واسلحة اخرى بلغ تعدادها خمسين الف قطعة سلاح ، وكذلك أمنّت بعض الادوات كالفؤوس والمعاول والمناجل والاجران المعالف والارح (جمع رحى) ما يكفي لتجهيز أربعين مركبا • واضافة لكل ذلك قدّمت **Arezzo** مائة وعشرين الف مكيال[1] من القمح وكذلك مبلغا من المال يؤمن نفقات صف الضباط والجذاّفين ، وبالنسبة لمدن **Rusellae , Chiusi , Perusia** فلقد اعطت خشب الصنوبر اللازم لبناء السفن وكذلك كميات كبيرة من الحبوب »[2] •

وهكذا يمكننا القول بان مدن اترورية التي اشتهرت بصناعاتها المعدنية منذ القرن السابع (ق•م) قد ظل بعضها متفوقا في ذلك المجال حتى بعد خضوعها لروما • ولقد اشتهرت المنتجات المعدنية الاتروسكية في مختلف مناطق حوض البحر الابيض المتوسط • وكانت اترورية تتبادل منتجاتها

---

(١) المكيال الروماني يعادل ١٣ ليترا •

(٢) تيطس ليويوس ، التاريخ الروماني (٢٨ ، ٤٥) •

الصناعية وخاماتها المعدنية خارج ايطالية مع بلاد اليونان خاصة التي كانت تصدر اليها بدورها مختلف انواع الاواني الخزفية ذات اللون الاحمر والاسود ، هذه القطع الفنية التي عثر على الاف منها في القبور الاتروسكية • ولقد ظل الاعتقاد سائدا حتى نهاية القرن الثامن عشر بان تلك الخزفيات الثمينة كانت من صنع اتروسكي ولكن مختلف الدراسات المقارنة قد اثبتت اليوم وبدون ادنى شك بان مصدر هذه التحف الفنية لم يكن الا العالم اليوناني • ولكن قولنا هذا لايعني ابدا بان الاتروسكيين لم ينتجوا بعض الانواع الخزفية وخاصة الاواني ذات الاستعمال المنزلي وما هو مكرّس للطقوس الجنازية •

ولقد لازم التوسع الاتروسكي السياسي توسع تجاري • وتطورت علاقاتهم التجارية منذ منتصف القرن السابع (ق•م) مع اللاتيوم وكامبانية• وبعد تأسيسهم مدينة كابوا[1] اقاموا علاقات واسعة مع اغريقيي اليونان الكبرى عبر مدينة پوسيدونيا Posidonia [2] ، التي كانت بمثابة البوابة الاغريقية لمقاطعة كامبانية التي وقعت تحت الاحتلال الاتروسكي • وجميع ما عثر عليه في القبور الاتروسكية يدل دلالة واضحة على ان هذا الشعب قد عقد منذ عهد مبكر علاقات تجارية نشيطة مع اليونان القارية وشواطىء آسية الصغرى• ومما لاشك فيه أيضاً ان علاقاتهم مع القرطاجيين لم تكن معدومة •

٥) الحياة الاجتماعية والعائلية :

تختلف الحضارة الاتروسكية في كثير من مظاهرها عما كان سائدا لدى الشعوب التي سكنت شبه الجزيرة الايطالية منذ مطلع الالف الاول (ق•م) • ومن الصعب علينا ان نعرّفها كليا ونحدد صفاتها بشكل حاسم بصفحات معدودة لغناها واصالتها من ناحية ، ومن ناحية اخرى بسبب ندرة الوثائق الكتابية نتيجة لغموض اللغة الاتروسكية ، التي لم تحل رموزها تماما حتى

---

(١) راجع اعلاه ص ١٢٢ •

(٢) مدينة واقعة على الحدود بين مقاطعتي لوكانية وكامبانية • عرفت عند اللاتين باسم بايستوم Paestum .

الان وكذلك بسبب فقدان كثير من الدلائل المادية التي اندثرت وزالت نتيجة لعوامل عديدة .

ولكن يجب ان نضيف بان اكتشاف العديد من مختلف انواع القبور الاتروسكية منذ منتصف القرن التاسع عشر، ثم دراسة محتوياتها من مختلف الجوانب قد القى بعض الضوء على السمات الاساسية للحضارة الاتروسكية .

يمكننا القول بادىء ذي بدء ، بان الاتروسكيين كانوا قد طوروا « حضارة ـ المدينة » في فترة كانت فيها شعوب شبه الجزيرة تعيش عيشة زراعية ورعوية بحتة . ولدى تعرضنا للتنظيم السياسي لدى الاتروسكيين قلنا بان هؤلاء قد اوجدوا شبه اتحاد من اثنتي عشرة مدينة،[1] أي ان المدينة كانت مركز مختلف النشاطات السياسية والاقتصادية والدينية ؛ وبتعبير آخر كان الاتروسكيون في الفترة التي ادركناهم فيها قد تخطوا التنظيم القبلي وانتقلوا الى مرحلة جديدة نتيجة لتطوير القوى المنتجة التي اثرت بدورها على علاقات الانتاج وانعكس كل ذلك في نشوء تنظيم اجتماعي جديد ارتسمت خلاله مختلف مظاهر المجتمع الطبقي البدائي : (نشوء الصناعة ، ظهور الحرف ، تطور التجارة الداخلية والخارجية ، بروز الجيش النظامي، ظهور مختلف الطبقات ، الخ ...) .

وهذا الامر يقودنا الى القول بان الطبقة الحاكمة في المجتمع الاتروسكي كانت طبقة ارتسقراطية الطابع . ويشهد على ذلك كما يقول مؤلفا « روما وامبراطوريتها »[2] : « ... ما نراه من مظاهر الغنى والبذخ تتكشف عنهما معالم قبور القوم ومدافنهم اذا ما قارناها بالمقابر المتواضعة لجمهرة السواد . كانت مقاطعة اترورية مثوى عدد طائل من الاسر الكبيرة ، ترتبط فيما بينها بروابط الانساب والتضافر والتضام ، كما نلمس ذلك من خلال بعض المسميات والكنى التي لم يكن ما يحاكيها في عالم البحر المتوسط . فمن العادات التي سار عليها الشرق والشرقيون ان يأتي اسم الشخص متبوعا باسم

(١) راجع اعلاه ص ١٢٦ وما يتبع .

(٢) اندريه ايمار وجانين اوبوايه ، روما وامبراطوريتها ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٩ .

والده لتمييز الناس بعضا عن بعض ، بينما راح بعض الشعوب الاسيوية كالليكيين[1] مثلا ، ينتسبون للام ، الامر الذي حمل فريقا من المؤرخين على الظن بسيرهم على النظام الاومي •••• والجدير بالملاحظة هنا حرصهم على الانساب والاصلاب ، الامر الذي ساعد على تكوين شجرات عائلية معقدة • والظاهر انهم عرفوا هم ايضا نظام الاتباع (Clients) الذي نهج عليه الرومان • فمن المفيد كثيرا تحديد تاريخ الاخذ بهذه النظم ، اذ لابدّ ان يكون تطور المجتمع الاتروسكي قد ساعد كثيرا على تركيز الطابع الارستقراطي الذي برز في تاريخ متأخر ، عندما شبّت روما وترعرعت ، واخذت تؤثر بعيدا فيما حولها ••••

« ينتظم السلك الاجتماعي عند الاتروسك في قيام مدن عندهم ••• والذي يبدو من بعض الحوادث الطارئة ان الوئام لم يكن ليرفرف دائما بين المدن الاتروسكية حتى في العهد الذي بلغت فيه المدينة الاتروسكية أوجها ••• وهذا الوئام نفسه لم يكن ليطبع دوما الحياة الداخلية في المدن نفسها • فقد قامت في تاريخ متأخر جدا ، منافسات طبقية ، سياسية واجتماعية ، بين الارستقراطيين وطبقات الشعب وذلك ربما بتأثير من روما ، في بدء عهدها الاول ، وفي اعقاب تطور داخلي من العسير تتبع خيطه • ويظهر هذا الوضع بجلاء ابان الحقبة التي بلغ فيها الاتروسك عظمتهم ، اذ كانت تبرز هذه الخصومات بمناسبة انتخاب السلطات العامة وتعيين ممثليها في دوائر الحكم »•

في الواقع ، لايمكننا ان نحدد بشكل دقيق اوضاع الفئات الشعبية المنتجة (حرفيين ، عمال مناجم ، فلاحين) في المجتمع الاتروسكي ، اذ ان اغلب الرسوم الجنازية التي عُثر عليها في القبور المكتشفة تصوّر أوضاع الطبقة الارستقراطية • لاشك بان هذا الوضع قد يتبدل في المستقبل ، عندما

---

(١) الليكيون : نسبة الى مقاطعة ليكية ، الواقعة في جنوب آسية الصغرى ، مطلة على البحر الابيض المتوسط • (م•م•)

يتوصل العلماء المختصون الى تفسير الكتابات الاتروسكية بشكل افضل •
وكل ما نسمح لانفسنا أن نقوله الآن هو أن حياة البذخ والثراء الفاحش التي كانت تحياها الطبقة الارستقراطية الحاكمة تجعلنا نعتقد بان استثمار الطبقة الثريه للطبقات الكادحة كان استثمارا قاسيا •

نقول الطبقات الكادحة ، إذ في الواقع الى جانب طبقة المنتجين الاحرار (حرفيين ، عمال مناجم ، فلاحين) كان هنالك طبقة الارقاء • وكان هؤلاء العبيد يعملون اما كخدم في بيوت وقصور اسيادهم واما كانوا يكدحون الى جانب عمال المناجم في اعماق الارض او في الريف كمساعدين المفلاحين •
وفي الواقع ، ان معلوماتنا حتى الان عن هذه الطبقة لهي افضل بكثير مما هي بالنسبة لفئات المنتجين الاحرار ؛ اذ ان الرسوم الجنازية التي أُكتُشِفت في مختلف انواع القبور الاتروسكية تصور العديد من هؤلاء الارقاء من نساء ورجال في اوضاع مختلفة ، وهم يقومون بخدمة اسيادهم في البيوت او في القصور • اما بالنسبة لفئات المنتجين الاحرار ، فغيابهم الملحوظ عن هذه الرسوم اضافة الى عدم العثور ـ حتى الان ـ على قبور عائدة اليهم تجعل دراسة حياتهم ونشاطاتهم من مختلف الوجوه ، جدّ صعبة بل احيانا مستحيلة ، ولذلك نرانا مضطرين في اكثر الاحيان ان نكتفي ببعض الاستنتاجات العامة بالنسبة اليهم ، مستندين في ذلك الى مختلف العلوم المساعدة للتاريخ •

كما قلنا ، تصور الرسوم الجنازية العديد من الارقاء المنزليين في أوضاع مختلفة ، ومن الملاحظ ان بوادر المرح والنشاط تبدو غالبا على وجوههم وحركاتهم • لاشك باننا لا نصدق ما تصوره لنا هذه الرسوم بالنسبة للحالة النفسية لهؤلاء الخدم المنزليين ، ولكن ما يذكره المؤرخ والفيلسوف اليوناني بوسيدونيوس Posidonios (١٣٥ ـ ٥٠ ق•م) ، الذي يقول بان لباس هؤلاء البهي والبديع لايتناسب ووضعهم العبدي ، ان كل ذلك يحدو بنا الى الاعتقاد بان معاملة الاسياد للارقاء المنزليين كانت افضل بكثير من معاملتهم

لأولئك الذين يعملون في الحقـول او في المناجم ؛ كما ان اوضـاع الخدم المنزليين وحياتهم العامة كانت افضل مما كانت عليه لدىأقرانهم الذين ُحكـِم عليهم ان يكدحوا في مجال الانتـاج ، ان كان في الزراعـة أو في اعمـاق الارض ، في المناجم •

وكان من الممكن لبعض الارقاء (من نساء ورجال) الذين يخالفهـم الحظ لسبب من الاسباب ••• ان يُعْتَقوا وعندئذ يتمثلهم المجتمع بسرعة ولا يمضي جيل واحد الا ويكون نسبهم قد طُمِس وكثيرا ما يتوصل ابناء هؤلاء العتقاء الى مراكز اجتماعية يحسدهم عليها افراد الطبقة المتوسطة من الاحرار •

اما بالنسبة للمرأة الاتروسكية فيظهر بانها لعبت دورا كبيرا في الحياة العائلية كما انها احتلت مركزا رفيعاً في المجتمع ، مما حدا بالبعض ، كالكاتب الايطالي (آتيليوغاوديو Attilio Gaudio) ان يقول في مؤلفة (الاتروسكيون، حضارة مكتشفة من جديد) : « بان المرأة الاتروسكية لعبت دورا مهما في المجتمع الاتروسكي ويمكننا تشبيه دورها بما نجده لدى المرأة الحديثـة في مجتمعنا »•[1]

وفي الواقع لقد كان وضع المرأة الاتروسـكية شبيها بما نجده لـدى الكريديين والاسبارطيين[2] وكان يختلف اختلافا كبيرا عما كان سـائدا في المجتمعين الأثيني والروماني ، حيث كانت المرأة حبيسة المنزل وخاصـة في المجتمع الاثيني ، إذ كان دورها الاجتماعي هزيلا ومحدودا • ولذلك يجب علينا ان نحذر من الاقاويل الواردة في كتابات المؤلفين اليونانيين واللاتينيين ، تلك الكتابات التي شوّهت سمعة المرأة الاتروسكية وصوّرت أخلاق المجتمع الاتروسكي على غير حقيقتها •

---

(1) Attilio Gaudio, *Les Etrusques, une civilisation retrouvée*, Marabout Université, 1969, p. 67.

(٢) راجع بهذه الصدد : الدكتور كامل عياد ، تاريخ اليونان ، ص ٥٠ وص ١٨٨ •

ويجب ان لانستغرب ذلك من اناس لم يفهموا ما كان سائدا لدى الاتروسكيين ، حيث كان نظام الامومة متأصلا فيهم ، هذا النظام الذي مرّت به أغلب الشعوب في فترة من فترات تطور مجتمعها ، قبل ان يتضاءل دور المرأة بظهور الرقيق ونشوء المجتمع الطبقي[1] • ولكي نفهم كيف كان يحكم بعضهم على المجتمع الاتروسكي وكيف صوّر البعض الاخر وضع المرأة الاتروسكية ، نورد على سبيل المثال لا الحصر ، نصوص بعض الكتاب اليونانيين واللاتينيين •

ها هو مثلا المؤرخ اليوناني ثيوبومبوس Theopompos (القرن الرابع ق•م) يصف — حسب اعتقاده طبعا وبدون ان يستند الى مصادر موثوقة — بعض العادات والتقاليد السائدة في المجتمع الاتروسكي • يقول المؤلف : « تكون النساء عند التيرينيين[2] مشاع ، ويُعنين باجسامهن الى درجة كبيرة ويتدربن عاريات ، غالبا مع الرجال واحيانا فيما بينهن ، اذ ليس من العار لديهن ان يظهرن عاريات وان لا يجلسن على المائدة بالقرب من ازواجهن ولكن بقرب اوائل القادمين من المدعوين •••• ، ولقد اشتهرن بجمالهن الفاتن وبشربهن الخمرة بكثرة • » ويتابع الكاتب اليوناني قائلا بان التيرينيين يتعهدون جميع المواليد على السواء ولا يعرفون في الواقع من هو والد المولود الجديد • اما بالنسبة للجماع ، فلم يكن ينظر اليه على انه عمل شائن ويزعم الكاتب بانهم كانوا يمارسونه احيانا علانية وبدون خجل • ويضيف قائلا بان « اللواط كان شائعا في المجتمع الاتروسكي • »

ولقد زعم الكاتب المسرحي اللاتيني (بلوطوس Plautus) (٢٥١ — ١٨٤ ق•م) بان النساء الاتروسكيات قد تاجروا بمحاسنهن قبل الزواج ليجمعن مهرهن » •

من المؤكد باننا لا نصدق ما رواه هذان الكاتبان ، أو بالأحرى جميع

---

(١) انظر اعلاه ص ٧٩ •

(٢) ويعني بهم الاتروسكيين •

ما أورداه وخاصة ان المعلومات المستقاة من رسوم مختلف القبور المكتشفة تقدم لنا بيّنات لاشك بصحتهـا عن بعض ملامح الحياة الاجتماعيـــة لدى الاتروسكيين • فلقد اقترنت المرأة بالرجل برابطـة الزواج ولقـد كان من الصعب على الطرفين ان يفصما روابط هذا القران• كما ان المرأة الاتروسكية قد لعبت دورا كبيرا في حياة الاسرة وهي التي تربي الاولاد وتدير شؤون المنزل وكانت ترتبط بزوجها بحب وود متبادلين وتشارك رجلهـا بافراحـه واتراحه • وجميع الرسوم والتماثيل المكتشفة والتي عثر عليها في القبور تؤكد ذلك • ولكن هذا لاينفي بان المرأة الاتروسكية كانت تتمتع بحرية كبيرة كما انها كانت تحضر مع زوجها مختلف الحفلات وتشارك في بعض النشاطات الاجتماعية والالعاب وقد يحدث ذلك برفقـة زوجها أو بمفـردها • ومن المرجح بل من المؤكد انها كانت تساهم في ادارة الشؤون العامة للمدينة •

وان الدور الهام الذي كانت تلعبه المرأة ان كان في حياة الاسرة أو في نطاق المجتمع قد اعطاها مركزا مرموقا •

ولا ندري ، قد يكون المؤلفون اليونانيون واللاتينيون قد شوهوا سمعة المرأة الاتروسكية اما عن قصد وعمد واما عن جهل • نقول عن قصد ،نتيجة للتنافس الذي كان قائما بين الاتروسكيين من جهة وبين كل من اليونانيين واللاتينيين من جهة اخرى • على كل ، لم يهاجم اللاتينيـون واليونانيـون والاتروسكيين في مجال العادات والتقاليد الاجتماعية فقط ، بل حاولوا تشويه سمعة الاتروسكيين في مختلف الميادين •

ولكن قد يكون بعض الكتاب ذوي المقاصـد الحسنة قد وقعوا فريسة للخطأ ، اما لنقص في معلوماتهم واما نتيجة للمقارنة بين المكانة الرفيعة للمرأة الاتروسكية وبين الدور الهزيل والمحدود الذي لعبتـه النسـاء الاثينيـات والرومانيات في الحياة الاجتماعية •

على كل ، يجب أن لانستغرب ذلك من القدماء •• فكم نرى اليـوم بعض الذين لايفهمون تقاليد وعادات مجتمعات غير مجتمعهم ، كم نراهم

يصورونها في اغلب الاحيان على غير حقيقتها ، منطلقين في تفكيرهم من وجهة نظر متجاهلة نسبية المكان والزمان ٠

واحتل كل من الرقص والموسيقى حيّزا كبيرا في الحياة اليومية للاتروسكيين ٠ اما اشهر ادواتهم الموسيقية فكانت : القيثارة والناي المزدوج والصنج والصور والقرن والبوق ٠ ويظهر بان الاتروسكيين قد اصطادوا بعض فصائل الحيوانات على انغام الناي ٠ وعدا كون الموسيقى وسيلة من وسائل الطرب ، فانها كانت تلعب دورا كبيرا في المراسيم والطقوس الدينية والجنازية كما نشاهده اليوم في بعض المجتمعات ، كما ان مختلف الانغام الموسيقية كانت ترافق الأعياد والاستعراضات العسكرية والالعاب والحفلات الرياضية ٠ بل نشاهد في بعض الرسوم الادوات الموسيقية وهي ترافق بانغامها الخبّازين والطهاة اثناء عملهم ٠

وكذلك الرقص فكان على انواع : من الرقص المنفرد الى الرقص الجماعي بل نشاهد في الرسوم بعض الالعاب الرياضية تنفذ وكأنها حركات راقصة ، واحتل الرقص ايضا حيّزا كبير في الطقوس الدينية والجنازية ٠

وعرف الاتروسكيون الملاكمة والمصارعة ، ومختلف انواع المصارعة لتي انتشرت فيما بعد لدى الرومانيين كانتمعروفةوشائعة لدى الاتروسكيين٠ وفي الواقع لقد تركت مختلف هذه المظاهر آثارا جلية في المجتمع الروماني فيما بعد ٠ والعاب المصارعة في الميدان التي كانت ذائعة الصيت في روما ليست في الواقع الا ذات اصل اتروسكي ٠

٦) العمارة والفنون الجميلة

لقد كانت الحضارة الاتروسكية « حضارة مدن » كما ذكرنا آنفا ، واصبحت المدينة مركزا لمختلف النشاطات ٠ ونتيجة لذلك أعتُبرت المنطقة التي تقوم عليها مدينة اتروسكية منطقة مقدسة وحرام ٠

وتقتضي المعتقدات الاتروسكية ان يحدد اطار المدينة الاتروسكية

بواسطة خد تخطه سكة الفدان[1] وان يكون لكل مدينة ثلاثة ابواب وثلاثة معابد •

كانت المدن الاتروسكية من اكبر المدن في العالم القديم • ولقد بلغ محيط دائرة بعضها كمدينتي Veii , Tarchuna ثمانية كيلومترات تقريبا ، اما عدد سكان كل منهما فلقد بلغ تقريبا مئة الف نسمة •

وتدل آثار بعض المدن الاتروسكية التي تمّ الكشف عنها، على ان اغلب المدن قد بنيت على هضبة وأحيطت باسوار ونشاهد تلك الظاهرة في المدن التالية :

Cortona, Populonia, Arezzo, Rusellana, Vetulonia, Velathri, Perusia.

ومن الملاحظ ان المدن الاتروسكية الداخلية كانت اكثر تحصينا من المدن الساحلية • ولم يتمكن الغاليون ومن ثم الرومان من اكتساح بعض المدن الاتروسكية الا بعد حصار دام احيانا عدة سنين •

وتعطينا آثار مدينة Marzabotto فكرة عامة عما كانت عليه المدن الاتروسكية من تخطيط ومخطّط • هذه المدينة الواقعة على بعْد (٣٤ كم) جنوبي مدينة Bologna يشبه الى حد بعيد مخططات أغلب المدن الاتروسكية •

بنيت المدينة وفق تصميم مدروس في نقطة تتلاقى فيها خطوط المواصلات

---

(١) تروى الاسطورة ان رومولوس بعد ان استشار الالهة اخذ محراثا ، سلاحه نحاسي وشق اخدودا هو حد المدينة • فلما وصل الى الامكنة التي ستكون ابواب المدينة رفع المحراث بعناية دون ان يمسها ، ولما انتهت الطقوس الدينية ، امر رومولوس اتباعه ان يشرعوا فورا في بناء السور الذي سيحيط بمدينته واُعتُبر السور مقدسا ولم يكن في مقدور اي فرد ان يدخل المدينة الا من ابوابها ، حيث لم تمسّ حديدة الفدان الارض •

من الفعل اللاتيني ***Porta*** ومن هنا أُطلق على ابواب المدينة اسم **Portare** اي حمل • غير ان الاخ ريموس كان غاضبا حانقا ، اذ لم يقع عليه الاختيار ليكون ملكا • وكان واقفا بالقرب من رومولوس وهو يضع أسس المدينة • فلما بدأ الحائط يرتفع امامه ، ثارت ثائرته وغلى مرجل غيظه فقفز عبر الحائط وهو يصيح « هل لمثل هذه الحواجز ان تصون مدينتك؟! فاستشاط رومولوس غضبا وقتله وصاح قائلا : « هكذا سيهلك كل من يجتاز اسوار مدينتي » • وتضيف الرواية ان ذلك تم عام (٧٥٣ ق•م) •

الطبيعية • وكان مخططها على شكل رقعة شطرنج • وكان يخترق المدينة من الشمال الى الجنوب طريق رئيسي واحد وتجتاز هذا المحور الكبير ثلاثة طرق عرضانية عرض كل واحد منها (١٥ مترا) • ولقد عُثر على طرفي المحور الرئيسي الطولاني المتجه من الشمال الى الجنوب على عدة ازقة موازية له • وكانت جميع هذه الشوارع والازقة مجهزة بارصفة وبقنوات لصرف المياه •

ويستدل من أطلال المدينة بان اغلب مساكنها كانت محدودة المساحة • اما آثار الصروح الكبيرة التي تمّ الكشف عنها فتعود اغلبها الى المعابد الدينية •

ولقد استعمل الاتروسكيون كمواد للبناء الحجر الجصي والآجر المشوي والخشب •

ان الوصف الذي اعطيناه لمدينة Marzabotto يطابق مخططات المدن الاتروسكية التي ارتفعت صروحها في السهل • اذ ان المدينة المار وصفها تقع في سهل • ومما لاشك فيه ان مخططات المدن المعلّقة تشبه الى حد ما التصميم الشطرنجي الشكل ، مع الاخذ بعين الاعتبار طبيعة الارض •

ومن الملاحظ ان الاتروسكيين، كباقي شعوب العالم القديم قد استعملوا في بناء مساكنهم مواد بناء بائدة وقابلة للتلف كالخشب والطين النيء والمشوي واحتفظوا بالحجر لتشييد قبورهم وأسوار المدن وبعض أجزاء المعابد •

ولقد استعمل الاتروسكيون الاقواس والقبب (العقود) بكثرة بعكس اليونانيين الذين فضلوا الدعائم والاسكفة (جمع ساكف) • وسينتهج المهندسون الرومانيون نهجم غالبا ويستعملون هذين العنصرين المعمارين في بناء المسارح والمعابد وقناطر الماء واقواس النصر •

وكان يشاد في كل مدينة اتروسكية على مرتفع معبد مكرس للالهة • ولقد عثر على العديد من النماذج المصغرة للمعابد وهي من الطين المشوى • وتعطينا هذه النماذج المصغرة فكرة عن تصميم وشكل المعبد الاتروسكي •

وتطابق اشكال هذه النماذج ما جاء من وصف للمعابد الاتروسكية في مؤلف الكاتب الروماني Vitruvius (١) • وكان المعبد الاتروسكي غالبا مستطيل الشكل ، ويتكوّن من جزئين اساسيين : الرواق القسم المغلق • اما الرواق، فيتقدم الحجر الخلفية ويتألف من صفين من الاعمدة تطل على القسم الخلفي المكوّن من ثلاثة هياكل ، الاوسط منها اكبر من الاثنين الآخرين • وكان الخشب المادة الاساسية لبناء المعبد نفسه الذي يرتفع على مصطبة حجرية يصعد اليها بدرج يتقدم واجهة المعبد • اما الاعمدة فكانت ملساء الجذع دون اية زخرفة وتستند على قاعدة مستديرة أما القسم الاعلى منها ، فمكون من مرفقة (بروز زخرفي منحن يلي مباشرة سطح العمود) على شكل وسادة يعلوها تاج من الطراز الطوسكاني • وكانت تزيّن سطح المعبد تماثيل وصفائح من الطين المشوى متعددة الألوان •

رغم الشبه بين المعبد الاتروسكي والمعبد اليوناني ، فيجب ان لا ننسى بان الاول كان يختلف عن الثاني بالمواد المستعملة في البناء وبالزخرفة وبنسب العناصر المعمارية •

اما بالنسبة للقبور ، فلدى كلامنا عن حضارة ***Villa Nova*** قلنا بأن الفيلانوفيين قد اكثروا من بناء القبور التي كانت على شكل آبار • (٢) ولقد بنى الموسرون الاتروسكيون شتى أنواع القبور المخصصة لهم ولموتاهم • وقد لجأ الاتروسكيون الى القبور ــ الحفر البسيطة قبل ان ينقشوا في قلب الصخر الصلد او يبنوا القبور الفخمة التي اتت على طراز منزل عادي والتي كانت تضم حجرة واحدة او عدة حجرات •

ومن اهم القبور الاتروسكية التي عثر عليها حتى الان ضريح مدينة (شرفترى Cerveteri (٣)) وهو كعديد من القبور الاتروسكية مستدير

---

(١) كاتب ومهندس روماني عاش في القرن الاول (ق٠م) اشتهر بمؤلفه عن « فن العمارة » الذي أهداه الى الامبراطور أوغسطوس •

(٢) انظر اعلاه ص ٩٩ •

(٣) اسمها الايطالي هو (شرفترى اما الاتروسكي فهو Chirsa واطلق عليه الرومان اسم Caere ، راجع ص ١١٨ •

الشكل ويبلغ قطره (٤٨ مترا) • لقد اقيم فيه خمس ممرات ، تتجه من الخارج الى الداخل ، ثم يعقبها ممر سادس مستدير الشكلوهو الممر الوحيد الذي لم ينهبه اللصوص ونبّاشو القبور لانهم لم يهتدوا اليه•ولقد استخدمت القبر المذكور اسرة اتروسكية كبيرة كمدفن من القرن السابع الى الخامس (ق•م) ولقد نُقشَت حجره في الصخر وزُيّنت على أطرافها من الاسفل بالواح حجرية نحتت عليه اشكال ناتئة • اما الجدران فهي مزدانة بتصاوير زاهية ، اما الاموات فلقد وضعوا في توابيت حجرية ووضع الى جانبهم داخل التابوت او الى جانبه جميع ما يلزمهم لمتابعة الحياة في العالم الاخر من حلي واوائل وادوات منزلية واسلحة الخ ••• وفي الواقع ان هذا التحف التي تمّ العثور عليها في مختلف المدافن الاتروسكية هي التي القت لنا بعض النور على مختلف جوانب الحضارة الاتروسكية ، بينما لم تفدنا الكتابات الاتروسكية كثيرا في هذا المجال لغموضها النسبي حتى الان •

طبعا لم تكن جميع القبور الاتروسكية بهذه الضخامة والعظمة • وقد تقتصر احيانا على حفرة مستديرة ومحدودة الابعاد نقشت في الصخر ووضعت فيها القارورة الجنازية التي تحتوى رماد الجثة •

من الملاحظ ان بعض القبور الاتروسكية قد احتوت اجاجين (جمع اجانة) ضمَّت رماد الموتى الذين احرقت جثثهم • ولا ندري هل طريقة حرق الموتى قد مارسها بعضهم تحت تأثير الحضارة الفيلانوفية ام ان الذين مارسوها هم انفسهم انسال الفيلانوفيين الذين امتزجوا بالاتروسكيين فيما بعد ؟!

فمن المعروف ان الاتروسكيين قد امتازوا عن غيرهم من الشعوب الايطالية التي سكنت شبه الجزيرة اعتبارا من مطلع الالف الاول (ق•م) ، نقول ان الاتروسكيين قد امتازوا عن غيرهم بطريقة وضع جثث موتاهم داخل توابيت (نواويس) قبل ان تحفظ هذه النواويس في القبور التي تمّ الكشف عن المئات بل الالاف منها في مختلف المدن الاتروسكية •

وكانت تعلو القبور الاتروسكية الفخمة تلال جنازية • وهـذه التلال هـي التي أنجدت علمـاء الآثـار في الكشـف عن كثير من القبـور التـي غطتها مختلف انواع النباتات والاشجار على مر ّ العصور • ولكن من الملاحظ ان بعض القبور الاتروسكية قد بدأت تقتصر اعتبارا من القرن الرابع (ق•م) على مدفن قبوي يكون عـلى شـكل مغـارة تحت الارض • وكانت الادراج الحجرية المنقوشة في الصخر الصلد تؤدي الى هذه لقبور القبوية • ولقـد كانت النواويس توضع داخل هذه المدافن القبوية على مصاطب نُقِشت في الصخر • واقد جوفوا الجدران المقابلة للمصاطب او الملاصقة لها على شكل وقـاب حيث كانت توضـع مختلف الاوائـل والادوات والاواني الخزفيـة الضرورية للميت لمتابعة حياته في العالم الاخر •

ولدى تعرضنـا للفن الاتروسكي ، يجب ان لا تغيب عن بالنا صفـاته المركبة والتأثيرات المتبادلة التي خضع لها ومارسها بالنسبة لايطالية والعالم الاغريقي ومختلف مناطق حوض البحر الابيض المتوسط •

بينما كانت الآراء متباينة في الماضي حول اصالة الفن الاتروسكي ،نرى اليوم مختلف الباحثين قد اتفقوا على عدم نكران البراعة الفنية الاتروسكية •

يقول مثلا مؤلفا (رومـا وامبراطوريتها) : « يبرز هـذا الفن بجلاء المؤثرات التي تلقاها من الخارج وخضع لها وهي مؤثرات شرقية في بادىء الامر ، اتصلت بالاتروسك عن طريق الفن الاغريقي القديم الذي عرف هو ايضا طورا شرقيا ثم هيلينيا بعد ذلك • ولا شك عندنا في ان بعض رجال الفن من الاغريق استدعوا للعمل في مقاطعة اترورية ، فأفاضوا من فنونهم عـلى ما كان معروفا عند الاتروسك من أصول هذا الفن • ويحاول النقاد المعاصرون جاهدين ، ان يتبينوا الصفات المميزة للفن الاتروسكي الاصيل ، وهي صفات

ملازمة فيه ، مفردة له ، انما تبقى محدودة المدى والاثر لئلا تذهب بالانطباع العام . »[١]

ويقول (ريمون بلوك) مؤلف (روما ومصيرها) ، لدى بحثه عن اصالة الفن الاتروسكي : «لاشك بان النماذج الهلينية قد مارست اثرا مستمرا وعميقا . ولكن هذا لاينفي الطابع الخاص للانتاج الاتروسكي ، الذي يتميز مباشرة عما هو يوناني »[٢] .

ولدى مقارنتنا آراء العلماء المعاصرين بالنسبة لاصالة الفن الاتروسكي بما كان سائدا في القرنين الماضيين ، تتضح لنا الخطوة الكبيرة التي خطاها النقد التاريخي بالنسبة لهذه المسألة . فلنستمع مثلا الى احد هواة علم الاثار ونعني به **J. P. Mariette** حينما يرد[٣] على الايطالي **Piranesi** . وكان هذا العالم قد نشر عام ١٧٦١ مؤلفا تحت عنوان : « عظمة فن العمارة لدى الرومان ، ١٧٦١ » .

Della Magnificenza ed Architettura dei Romani, 1761.

وقد انكر **Piranesi** في مؤلفه كل اثر لليونانيين على الفن الاتروسكي . بينما نرى الفرنسي **J. P. Mariette** ينكر على الفنانين والمهندسين المعماريين الاتروسكيين أي ابداع فني ومعماري ويرد كل شيء الى اليونانيين .

ويمكننا ان نقول الان بأن الرأي السائد في الأوساط العلمية هو ان الفن الاتروسكي قد تلقى تأثيرات اغريقية وشرقية ولكنه منذ القرن الخامس (ق.م) بدأ الفنانون الاتروسكيون يطورون طريقتهم الخاصة في مختلف المجالات الفنية . ولدى كلامنا عن فن العمارة الاتروسكية لاحظنا بان العناصر المعمارية لدى الاتروسكيين تختلف احيانا عما كان مألوفا لدى اليونانيين ، وتلاحظ ذلك ايضا في النحت والرسم .

---

(١) نفس المرجع المذكور اعلاه ، ص ٣٤ .

(2) Raymond Bloch et Jean Cousin, *Rome et son Destin*, Armand Colin, Paris, 1960.

(3) *Gazette Littéraire De l'Europe*, 4 Nov. 1764.

فمن ناحية المواد نلاحظ بان النحات الاتروسكي يلجأ لتكوين تماثيله الى العجينة الصلصالية اللدنة والى البرونز (الشبهان) الصهير والمصبوب في قوالب ترابية • اما النحات اليوناني فكان يفضل ان يستخرج تماثيله من الكتل الرخامية والحجرية المنقوشة بواسطة ازميله • ومن ثم يتميّز النحت الاتروسكي بواقعيته واغلب النماذج مأخوذة من واقعه اليومي وتصوّر هذا الواقع بشكل محسوس واضح • اما النحت اليوناني فكان اكثر تجريدا وابتعد في اغلب الحالات عن الحياة اليومية ونماذجها ولجأ الى المطلق والى المواضيع الميثولوجية وعبّر النحات اليوناني غالبا عن مشاعره واحساساته بشكل رمزي •

ونذكر كأقدم نماذج للنحت الاتروسكي التي انتهت الينا ، تلك الاواني الجنازية المصنوعة من الطين المشوي (النضيج) وهي على شكل جرار اقرب الى الاستدارة ولها غطاء على شكل رأس بشري • وتقترب هذه الاغطية، المزخرفة هندسيا ، اقرب ما يكون من صورة الميت الذي احرقت جثته ووضعت بقاياها في الجرة الجنازية • ولقد عُثر على عدد كبير من هذه الجرار الجنازية في منطقة Chiusi [1] الايطالية ويعود السواد الاعظم منها الى مطلع القرن السابع (ق•م•) • ولقد تكشفت قبور تلك الفترة ، التي اصطلح على تسميتها بالفترة المشرقية عن تحف ثمينة من الحلي والخزفيات والمصنوعات العاجية • ومن المؤكد اليوم ان قسما من هذه التحف قد صنع محليا والقسم الاخر قد تمّ استيراده من العالمين الشرقي واليوناني •

وكانت المصوغات العائدة للفترة المشرقية مزخرفة غالباً بحبيبات وبنقوش ناتئة • وهذه التحف قد صيغت من الفضة غالبا واحيانا من الذهب • ويدلّ الذوق الرفيع الذي تتحلى به ، على مهارة فائقة في الصنعة • ولكن كلما ابتعدنا عن الفترة المشرقية ، فقدت هذه التحف من نعومتها واذا ما قارنا بعض

---

(١) وعرفت المدينة عند الاتروسكيين باسم ***Chamars*** واطلق الرومانيون عليها اسم ***Clusium*** •

القطع العائدة الى القرن الخامس (ق•م) مع مصوغات ومجوهرات الفترة المشرقية ، لاحظنا بوضوح الانحطاط الذي طرأ عليها •

ولقد كانت الصياغة وقفا على الحرفيين الاتروسكيين واليونانيين في ايطالية حتى القرن الثاني (ق•م) • ولقد كانت مهارة الصاغة الاتروسكيين ذائعة الصيت • وفي الواقع تؤكد مختلف الحلي والمجوهرات المكتشفة في القبور ، المستوى الفني الرفيع الذي بلغه الحرفيون الاتروسكيون في هذا المجال •

وتفوّق الاتروسكيون خاصة في صياغة مختلف انواع المشابك والدبابيس والاقراط الذهبية والفضية المرصّعة بالاحجار الكريمة •

ولقد برع الاتروسكيون ايضا في صناعة التحف العنبرية • ولقد استعان الحرفيون اثناء نقشهم العاج والعنبر بنفس الادوات التي هي بحوزة الحرفيين المعاصرين من المنشار الدقيق الى الازاميل والمبارد والمصاقل (جمع مصقلة للصقل والتلميع) والدوارة (البيكار) • وطبعا لقد استعملوا هذه الادوات وغيرها لصياغة تحفهم الذهبية والفضية •

ولا شك بان غلاء مادة البرونز قد حدت بالاتروسكيين الى انتاج نوع من الخزف الاسود الذي يشبه بعد شيّه معدن البرونز نفسه • وهذا الخزف الاسود الشهير هو الذي اطلق عليه اسم *Bucchero Nero* • وتعود اصول صناعة تلك الخزفيات السوداء الى الفترة الفيلانوفية • ولقد كانوا يحصلون على هذا اللون الاسود اللمّاع بحرق القطع الفخارية بعد طليها داخل افران أُحكم اغلاقها • ولقد اقتصر استعمال هذه الخزفيات السوداء على الطقوس الجنازية اذ اننا لا نجد اي اثر لها في الاستعمال المنزلي •

واقدم الاواني من نوع Bucchero Nero تعود الى الفترة الممتدة من ٦٨٠ الى ٦٠٠ (ق•م) وكانت من النوع الممتاز • واعتبارا من مطلع القرن السادس ظهر نوع من الخزف الاسود اللماع اقل جمالا من السابق • ولقد

انحصرت مراكز صناعة هذا النوع من الخزف في المدن الساحلية قبل ان تنتقل صناعته الى المناطق الداخلية وخاصة الى منطقة Chiusi .

ولكن الى جانب هذه الخزفيات الدقيقة انتج الاتروسكيون قطعا فخارية اقل جمالا ، صفراء وحمراء وسمراء اللون ، ولقد صنع **الاتروسكيون ايضا** من الخزف الاسود اللمّاع التماثيل النسائية الصغيرة الحجم •

اما بالنسبة لنحت التماثيل ، فقد بدا تفوق التأثير اليوناني منـذ نهـاية القرن السابع (ق•م) ولقد خضع النحت الاتروسكي كالنحت اليوناني ومنذ تلك الفتـرة الى تطور مماثل مارا بالاطوار الثلاثـة اي الطور المتقادم (Archaïque) والطور الاتباعي (الكلاسيكي) والطور الهلنستي •

ويشمل الطور المتقادم نهاية القرن السابع والقرن السادس (ق•م) ولقد تسرب خلاله الى اترووريـة النموذجان المفضـلان للنحاتـة (فن نحت التماثيل) اليونانية ونعني بهما الكوروس[1] والكورة[2] • اما الكوروس فيمثل شابا عاريا واقفا اما تمثال الكورة فيمثل فتاة واقفة ملتحفة • ولقد انتج الاتروسكيون اعدادا كبـيرة من هـذين النموذجين من البرونز بينما فضّل الفنانون اليونان الرخام والحجر •

و Vulca هـو الفنـان الاتروسـكي الوحيـد الـذي نعرف اسمه ، ولقد عمل في كل من روما و **Veii** المجاورة لروما من الشمال • ويظهر بان هـذا الفنان هو الذي نفذّ مجموعـة التماثيل التي زينت معبد جوبيتر في روما •

ولقد ازدهرت النحاتة الاتروسكية في الطور الاتباعي الممتد منذ نهاية القرن السادس وحتى الفترة الهلنستية ، حيث انتج الحرفيون الاتروسكيون

---

(١) **Kourōs** : كلمة يونانية تعني الفتى او الشاب واحيانا الطفل والابن •

(٢) **Kouré** : كلمة يونانية تعني الفتاة او العذراء واحيانا الابنة •

مختلف انواع الأواني والتحف • وكان معدن البرونز مادتهم المفضلة • وفي تلك الفترة ، نقل الفنانون الاتروسكيون احيانا بأمانة وبصورة حرفية عن النماذج اليونانية ولكننا نجد ايضا الطابـع الاوترسكي يغلب عـلى غيره وخاصة في التماثيل النذرية المستطيلة الشكل ، ذات الرأس الدقيق ، تلك التماثيل التي تذكّرنا بالنحت الحديث وخاصة بالتيـار الذي يمثله النحات المعاصر ***Giacometti*** •

ولقد خلف لنا النحت الجنـازي الاتباعي روائع فنّية من الأنصاب والتماثيل والنواويس وقسم كبير من هذه الروائع قد صنع من الطين المشوي (النضيج) • ومن الملاحظ ان الفنانين قد اولوا اهتماما خاصا لتقاطيع الوجه• وفي اغلب الاحيان كانت اغطية النواويس عبارة عن تمثال للميت وهو متمدد وكأنه يتهيأ لتناول الوجبة الجنازية ، وتماثيل تلك الفترة مليئة بالحركة • ونذكر على سبيل المثال لا الحصر تمثالين شهيرين من البرونز ونعني بهما : ذئبة الكابيتول والشميرة[1] التي عُثِر عليها في مدينة **Arezzo** .

ولقد تأثرت الحياة الفنية لدى الاتروسكيين بتضاؤل نفوذهم السياسي• وانعكس ذلك في القرنين الخامس والرابع (ق•م) بتراجع ظاهري فيمختلف المجالات ومن ضمنها النحت •

ولكن اعتبارا من القرن الثالث (ق•م) اي مع بدء الفترة الهلنستية ، حدث ازدهار فني جديد وظهر ذلك خاصة في التماثيل النصفية وفي تعابـير الوجه الواقعية • ويجب ان لا ننسى بان هذه الطريقة ليست بغريبة عـلى الاتروسكيين ، اذ لدى كلامنا عن النحت في الطور المتقادم ، ذكرنا الجرار الجنازية المغلقة بأغطية ، على شكل رؤوس بشرية تصوّر الميت وستنتقل هذه الواقعية في التعبير الى المدرسة الرومانيـة وسيظهر اثرها خاصـة في التماثيل النصفية الرومانية ، التي تعكس صورة الانسان بجميع دقائقها •

---

(١) حيوان خرافي له رأس الاسد وجسم العنزة وذنب التنين •

ومن الصفات الملازمة للنحاتة الاتروسكية في الفترة الهلنستية غلبة طابع الألم والعنف والقلق في التماثيل وخاصة ما له علاقة بالنحاتة الجنازية• وكأن الفنانين الاتروسكيين ارادوا ان يعبروا بطريقتهم هذه ، عن تشاؤمهم وعدم استقرار نفوسهم من جراء الانهيار السياسي للعالم الاتروسكي •

ولقد تفوق الحرفيون الاتروسكيون ايضا في ميدان الفنون الثانوية كصناعة المرايا والقراطل (السلال) البرونزية • ولقد عثر على الآلاف من هذه الوذائل (المرايا المعدنية ومفردها وذيلة) المستديرة الشكل ذات القبضات • وهذه الوذائل هي مصقولة من طرف وتستعمل كمرآة ، اما الطرف الآخر فكان مزخرفا بمختلف المواضيع الاساطيرية (المثيولوجية) المستقاة من العالمين الاتروسكي واليوناني ، ولكن المواضيع لم تكن احيانا الا مشاهد من الحياة اليومية الاتروسكية وخاصة ما له علاقة بالحياة العائلية وبكيان المرأة •

اما القراطل فكانت عبارة عن علب (صناديق صغيرة) مزدانة بنقوش ناتئة أو محفورة وكانت اسطوانية الشكل غالبا ، ولها قوائم على شكل حيوانات وقبضة مكونة من تماثيل صغيرة • وكانت تستعمل هذه القراطل لحفظ الحلي والمشاط وادوات الزينة • وكانت تقدم عادة للفتيات كهدايا بمناسبة زواجهن

وعندما نتطرق الى فن الرسم لدى الاتروسكيين يجب ان نوضح نقطة هامة ، وهي ان مختلف التصاوير التي كشف النقاب عنها في القبور تشكل مصدرا اساسيا لدراسة نواحي متعددة من حياة الاتروسكيين • اذ من المعلوم، ان اللغة الاتروسكية ما زالت غامضة نسبيا علينا ، ولذلك تكون هذه التصاوير معينا لا ينضب من المعلومات عن ماضي هذا الشعب الغامض •

اضافة الى ذلك ، يساعدنا فن الرسم الاتروسكي على جلاء بعض الجوانب الغامضة للرسم اليوناني • فمن المعلوم ان اليونانيين قد قصروا فن الرسم على زخرفة وتزيين ابنيتهم الرسمية والدينية ولقد اندثرت ، مع الاسف ، اغلب هذه الصروح ولم يصلنا منها الا النذر اليسير • ومن الواضح ان فن التصوير

الاتروسكي قد تأثر بالفن اليوناني ، كما حدث ذلك في ميادين اخرى وخاصة في الطور الاتباعي • ومن هنا تنبع اهمية التصاوير ذات المواضيع العديدة والأشكال المختلفة والتي كُشف النقاب عنها منذ القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا • ان الاتروسكيين ، خلافا عن اليونانيين ، قد اعتقدوا كالكريديين وكباقي شعوب الشرق الادنى القديم بالحياة الاخرى بعد الموت • ولقد اعتقدوا بخلود روح الميت في القبر ولذلك يجب ان يكون المثوى الاخير صورة عن الحياة الدنيا ومن هنا أهمية القبور الاتروسكية بما قدمته لنا من مختلف التصاوير والادوات والاواني الخزفية • ولذلك لا يجب ان ندرس فن الرسم الاتروسكي بمعزل عن حياتهم ومعتقداتهم ، أي لا يمكننا ان ننظر اليه على انه فن صرف اقتصر على تزيين جدران القبور • وبتعبير آخر ان مفهوم « الفن للفن » بعيد كل البعد عن روح الفن الاتروسكي وخاصة في نطاق الرسم •

اذا ما استثنينا بعض الرسوم الجدراية العائدة للفترة المشرقية (القرن السابع ق•م) • التي عثر عليها في مدفن *Campana* في مدينة **Veii** وفي مدفنين آخرين في مدينة Chuisi ، اذا ما استثنينا تلك الرسوم الجدارية ، تعود باقي التصاوير الاتروسكية الى القرن السادس (ق•م) • وهي عبارة عن صفائح من الطين النضيج (المشوي) المغطاة بالتصاوير ، وتشكل هذه الصفائح ، عندما توضع جنباً الى جنب رسما لموضوع واحد • وطريقة الرسم على الصفائح الطينية المشوية كالرسوم الجدارية كانت معروفة ومنتشرة لدى كثير من الشعوب القديمة ولقد كانت مألوفة لتزيين جدران القبور والمباني الرسمية والدينية •

ولقد لعبت مدينة Chiusi دورا كبيرا في نشر التيارات الفنية التصويرية للعالمين اليوناني والشرقي • اما مدينة Tarchuna فلقد تفوقت في مجال الرسوم الجدراية وخاصة في القرن السادس (ق•م) •

وتمثل لوحات مدفن Campana المحفوظة اليوم في متحف اللوفر

زخارف متشابكة بديعة وكأنها نسخة عن طنفسة شرقيـة • امـا لـوحـات Boccarana الخمس التي اكتشفت في مدينة Chiusi فانها تصوّر مشـاهـد جنزية ومآدب ، وبعض الصفائح الاخرى تمثل رقصات والعـاب جنازيـة مختلفـة •

وبشكل عام ، تعكس لنا التصـاوير الاتروسكيـة مختلف المـواضيـع المستمدة من واقع الحياة اليومية : كالرقص ، والعاب المصارعة والملاكمـة ، والحفلات الموسيقية ، مشاهد الصيد ، واحيانا يلجأ الفنـان الاتروسكي الى الاساطير المثيولوجيةأو الىالاحداث التاريخية كتلك اللوحة التي اكتُشِفتفي Tarchuna على جدران مدفن مشهور « بمدفن الثيران » • واللوحة تعود الى منتصف القرن السادس (ق•م) ويظهر فيها البطل اليوناني آخيللس مترقبا حركات Troïlus [1] الذي يقترب منه ، ممتطيا صهوة جواده •

والاثر الشرقي ــ الاغريقي واضح في المـوضـوع • ونرى حـوادث الموضوع بأشكال مختلفة منفذة على الخزفيات الاغريقيـة ولكن رغم ذلـك فاثر المدرسة الاتروسكية واضح تماما ان كان من ناحية الواقعية او الالـوان (ازرق كاشف ، اخضر ، احمر وردي الخ) • وجميع الخزفيات اليونانيـة لم يظهر عليها غالبا الا اللون الاسود واللون الاحمر •

ويظهر الاثر اليوناني واضحا في بعض اللوحات المعبرة عن مثيولوجيـة جهنم والحياة الاخرى حيث يظهر خارون [2] وهـو يختطف الميت من بين ذويه ليقوده الى العالم الاسفل • وتظهر تعابير الوجه احيانا وكأن الميت هو في

---

(١) ترويلوس : أحد ابطالحرب طروادة وهو احدثأولاد برايموس ملكطروادة منزوجتههكابة• وتزعم رواية اخرى بان هكابة قد حملت بترويلوس بعد اتصالها بالاله أبولو • ولقد تنبأ العرافون بان مدينة طروادة لن تسقطبيد اليونانيين اذا ما بلغ ترويلوس العشرين منعمره• ولكن الرواية تضيف بان البطل اليوناني آخيللس تمكن من قتل ابن الملك برئام بعد القاء الحصار على طروادة بفترة وجيزة •

(٢) يظهر خارون في الاساطير اليونانية كعزرائيل الذي يقود ارواح الموتى عبر نهر جهنم•ويظهر خارون في الرسم الاتروسكي كشيطان مجنح ، امتزجت الافاعي بشعره ، ماسكا بيده مطرقة ليقضي بها على المحكوم عليهم بالموت ويجرهم بعد ذلك الى العالم الاسفل •

سبيل رحلة طويلة بعيدة في مملكة الظلام • وتظهر في اللوحات احيانا أبالسة تصطك لمنظرهم الفرائص : اجسامهم مزيج من اعضاء الانسان والحيوان ، حاملين بأيديهم مطرقة يوجهونها بضربة قاضية الى المحكوم عليهم بمغادرة عالمنا هذا الى مملكة ، تبعث الرعب في النفوس والهلع في القلوب • حيث يظهر شياطين لهم من الطيور الخواطف مناسرها الحادة ومن الحصان آذانه وقد كشروا عن انياب قاطعة فاتخطف اللون من الاموات وشحب منظرهم •

في مختلف هذه المشاهد وغيرها تبدو جلية تأثيرات الفن اليوناني • الا ان الفرق الواضح بين المدرسة الاتروسكية ونظيرتها المدرسة اليونانية يظهر في ميل الاتروسكيين الى النزعة الواقعيـة المعبرة عن احزان واتراح وافراح الانسان بينما يغلب على الفن اليونـاني الطـابع المطلق المعبر عن المـواضيـع الميثولوجية والافكار المجردة الشاملة •

٧) المعتقدات الدينية :

تتميّز الديانة الاتروسكية بانها ديانة موحى بها ، وهـذا الامر وحـده يجعلها مختلفة عن ديانات الشعوب الايطالية التي سكنت شبه الجزيرة،اعتبارا من الالف الاول (ق•م) • كما انها تبدو فريدة من نوعها اذا مـا قورنت بديانات الشعـوب القـديمـة التي أهلت الحوضين الاوسط والغربي للبحر الابيض المتوسط •

ورغم انه كان لكل مدينة اتروسكية عبادة خاصة ، فلقد كان يجمـع بين مختلف تلك العبادات معتقدات واحدة تمتّ باصولها الى مبادىء شرقيـة نجد نظيرا لها خاصة في ديانات سكان بلاد الرافدين وشعوب آسية الصغرى ونخص منهم الحثيين • كما انها تشترك مع جميع تلك الديانات ومنها الديانة المصرية بعقيدة الايمان بوجود حياة ثانية بعد الموت وبخلود الروح الفردية •

ومما يميّز الاتروسكيين بـالنسبة للاقـوام المجـاورة لهم خضـوعهم واستسلامهم المطلق لمشيئة قوى علوية تحركها مقاصد خفيـة • ولا سبيـل

للانسان الضعيف ، امام هذه القوى الغامضة • ولكي تتم له النجاة، فلا سبيل له الا ان يستبين ارادتها وان يحاول الكشف عنها لئلا يأتي عملا لا تكون راضية عنه •

تروي اسطورة اتروسكية ، بان فلاحا يُدعى ترخون كان يحرث حقله عندما ظهر فجأة أمامه من باطن الارض ، كائن قزم غير مألوف الشكل ، له شكل الطفل وحكمة الشيخ ، واخذ يتقدم نحو الفلاح المذعور الذي اطلق صوت رعب دوّى في كل ارجاء اترورية فاجتمع الناس من كل حدب وصوب • فطمأنهم هذا الكائن الغريب وقال لهم ان اسمه هوتاجس وانه مرسل ليلقنهم اسرار العرافة وامرهم ان يسجلوا جميع اقواله في كتاب مقدس وبعد ان بلّغ رسالته اختفى مجددا في باطن الارض •

وتضيف الرواية بان المنطقة التي ظهر فيها الغلام العراف هي نفس المنطقة التي بنيت عليها فيما بعد مدينة Tarchuna • واشتق اسم المدينة من

اسم الفلاح ترخون الذي كان يقوم بحراثة الحقل • ولقد اعتبر ترخون فيما بعد مؤسس جميع المدن الاتروسكية •

وقد لُخّصت اسرار العرافة الاتروسكية في كتب جامعة منها كتاب (تاجس) • وتتلخص تعاليم تاجس بانها تسمح بالكشف عن اسرار المستقبل ولكن لا يحسن هذا الامر الا العرافون الذين تمكّنوا من الاسرار الدينية • ويقتضي الكشف عن الغيب اختصاصا يتطلب تمرسا طويلا باحكام وتقاليد العبادة والكتب الدينية • وتقضي تعاليم تاجس للكشف عن اسرار المستقبل ان ينظر الى كبد الحيوانات المقدمة الى التضحية • ومما حدا بالبعض الى ارجاع اصل الاتروسكيين الى الشرق ان عادة فحص كبد « الحيوانات الاضاحي » قد وجدت لدى بعض شعوب آسية الصغرى وبلاد ما بين النهرين • ولقد

كشفت الحفريات التي اجريت في ماري وفي مناطق اخرى من بلاد الرافدين عن عدد من كبود حيوانات الاضاحي ، من الطين النضيج ، مغطاة برموز وكتابات دينية تذكرنا بالكبود الاتروسكية التي عُثر عليها في ايطالية •

ومن الكتب الاتروسكية المقدسة المكمّلة لكتاب تاجس ، الكتاب المقدس المنسوب الى الحورية Vegoe • وتعاليم الحورية تقضي ان يراقب العرّاف الصواعق والرعود او اية ظاهرة طبيعية اخرى ، يغاير مظهرها النظام المألوف للاشياء ومنها طيران الطيور كاتجاهها مثلا من جهة معينة في الجو وفقا لمواصفات دقيقة •

ومن الكتب المقدسة لدى الاتروسك كتاب (بايغوه) الذي يعلم الناس طريقة تخطيط المدن • ويرد في هذا الكتاب تفصيلا للمراسم المقدسة التي يجب التقيد بها لدى انشاء او تأسيس مدينة وكيف يجب ان تتجه الشوارع واين تتقاطع • كما ترد ايضا المراسم المتعلقة بانشاء المعابد •

اضافة الى جميع المراسم المتعلقة بتأسيس المدن والمعابد وتنصيب الملوك والحكام واعلان حالات الحرب والسلم الخ ••• كانت خصوصيات الحياة اليومية تجري وفقا لمراسم دينية دقيقة ، وكان على المؤمن ان يتبعها لينجو بنفسه من الشقاء والبؤس والعذاب في الحياة الدنيا وفي العالم الاخر • اننا لا نعرف الكثير عن المراسم الدينية لخصوصيات الحياة بعكس المراسم المتعلقة بالاحتفالات والوظائف الرسمية العامة التي نجد اصداء قوية لها في روما ، عندما اقتبست سيدة ايطالية عن الاتروسكيين هذه المراسم والمعتقدات مع النظم السياسية والتنظيمات الادارية والعسكرية •

اما الالهة الاتروسكية فمنها ما هو اتروسكي محض مثل الالهة Voltumna وأعتُبرت ــ كما ذكرنا ــ الهة وطنية للشعب الأتروسكي • ومما لاشك فيه انه توجد علاقة ما بين مركز المرأة المرموق في المجتمع

الاتروسكي وبين مركز الصدارة الذي تحتله الالهة في مجمع الارباب الاتروسكي • ومن الالهة الاتروسكية الصرفة الاله **Tinia** الذي يرادف الاله زوس لدى الاغريق والاله جوبيتر لدى اللاتين والالهة طوران التي توازي الالهة فينوس او الزهرة •

وتظهر لدينا في اواخر القرن السابع (ق•م) مجموعة من ثلاثة الهة تدل مواصفاتها على اشتراكها بين الاتروسكيين من جهة وبين اليونانيين واللاتينيين من جهة اخرى ، وهي **Menrva , Uni , Tinia** وستعرف عند الرومان تحت اسماء **Minerva , Juno , Jupiter** واعتبارا من القرن السادس (ق•م) أصبحت جميع المدن الاتروسكية تحت حراسة هذا الثالوث الالهي •

ولقد اقتبس الاتروسكيون بعض الالهة مباشرة عن الاغريقيين كالاله هرقلس والاله ابولو وشقيقته الالهة ارتميس المشهورة باسم الالهة ديانا عند اللاتين •

ولقد وجد بين الالهة والبشر كائنات وسيطة هي «العفاريت» أو «الجن» وتاجس الذي مر ّ ذكره هو واحد منها • والعفاريت هي اما خيرة او شريرة• وتلعب هذه الكائنات دورا كبيرا في حياة البشر ان كان في الحياة الدنيا او في العالم الاخر •

وكما قلنا ، لقد اعتقد الاتروسكيون بالحياة الاخرى وكانوا يصوّرون الشياطين في البدء على شكل ملائكة مجنّحة ولم يكن منظرها مخيفا كما ظهر فيما بعد اعتبارا من القرن الرابع (ق•م) عندما راحت الأبالسة والشياطين الشريرة والمرعبة تظهر في التصاوير لترعب الموتى وكأنها تعكس روح التشاؤم من الحياة البشرية ومن الموت على السواء • ولا ندري قد تكون هذه المشاهد انعكاسا لتحطيم النفوذ الاتروسكي على يد قوى غاشمة لا تلين ولا ترحم •

واخيرا يجب ان لا يغيب عن بالنا بان التعليم الديني لدى الاتروسكيين

كان وقفا على افراد الاسر النبيلة الذين ينصرفون الى التفقه باسراره خلال مدة طويلة • وبتعبير آخر لقد كان الدين سلاحا رهيبا في يد الطبقة الارستقراطية استغلته افضل استغلال ضد الطبقات الكادحة والمستثمرة • ولما زالت الامبراطورية الاتروسكية ، اخذ النبلاء الاتروسكيون يعملون كعرافين وسحرة في روما سيدة اللاتيوم وقاهرة ايطالية •

٨) : اللغة الاتروسكية :

يبدو جليا مما ذكرناه عن الاتروسكيين بان حضارة هذا الشعب قد اصبحت اليوم اكثر وضوحا عما كانت عليه منذ خمسين سنة خلت •ولكن رغم ذلك فمازالت آراء العلماء المختصين غير موحدة بالنسبة لاصول هذا الشعب كما ان ابحاثهم المختلفة عن اللغة الاتروسكية لم تحل بشكل مرض ألغاز لغة هذا الشعب الغامض •

يقول المؤرخ اليوناني ديونيسيوس الهاليكارناسي الذي عاصر فترة الامبراطور اوغسطوس بان « الاتروسكيين كانوا يتميّزون عن باقي الشعوب الايطالية بلغتهم » • في الواقع ومنذ مطلع العصر الامبراطوري ، حلت اللغة اللاتينية محل اللغة الاتروسكية التي امست بمثابة لغة مماتة ، غير متداولة •

ان اغلب النصوص الاتروسكية التي هي بحوزتنا اليوم ، ليست في الواقع الا نصوصا جنازية عُثر عليها في مختلف القبور التي كُشف النقاب عنها • وتساعدنا هذه الكتابات الجنازية ، اذا ما قارناها مع بعض النصوص اللاتينية المماثلة ، اي المستعملة لنفس الغاية ، نقول قد تساعدنا هذه النقوش على الحصول على معلومات متعلقة ببعض المؤسسات السياسية والتنظيمات الدينية كما انها تفيدنا احيانا لدراسة اشجار الانساب لبعض العائلاتالمتنفذة • ولقد اظهرت ابحاث J. Heurgon [1] القريبة العهد ، بان دراسة شاملة لبعض النقوش ، قد تقودنا احيانا الى نتائج حاسمة لبعض جوانب الحضارة

(1) *l'Etat Etrusque,* dans, Historia, 1957, p.p. 63-97.

الاتروسكية • ولكن رغم كل ذلك ، يجب ان لا يغيب عن بالنا بان شواهد القبور هذه ، تظل محصورة النطاق ، ولا تضاهي النصوص المطولة الاغريقية واللاتينية او تلك التي عثر عليها في مختلف مناطق الشرق القديم والعائدة الى مختلف العصور التاريخية •

ولكن يجب ان نضيف بانه الى جانب تلك النصوص الجنازية الوجيزة، لدينا ثلاث وثائق اكثر إستفاضة ونعني بهـا : اللفائف والعصـائب الكتـانية لمومياء مصرية محفوظة اليوم في احد متاحف زغرب في يوغوسلافية • امـا الوثيقة الثانية فهي قطعة من الآجر عليها كتابات عُثِر عليها في مدينة كابوا (في كامبانية)[1] واخيرا نقوش شاهدة نذرية عُثِر عليها في مدينة Perusia المدينة الاتروسكية الشهيرة بتحفها البرونزية •

لا شك بانه يمكننا اليوم ان نقرأ مختلف الكتـابات الاتروسكية ، لان الابجدية الاتروسكية مستمدة بشكل أو بآخر من الابجديـة اليونانية • ولكن فك الاحرف او قراءة الكلمات لاتعني باننا توصلنا الى فهم معنى النص• وهكذا فان معاني اغلب المفردات الاتروسكية مازال حتى اليوم غامضا ،بالرغم من ترجمة بعض الكلمات وبالرغم من عثور علماء الاثار على بعض كتابات ثنائية اللغة مكتوبة باللغتين الاتروسكية واللاتينية ، وبالرغم ايضا من مختلف الجهود التي بذلها علمـاء اللغات وذلك باجراء دراسات مقارنـة للمفردات الاتروسكية مع مفردات لغات قديمة معروفة كاليونانية والمصرية والآشورية والكنعانية والطوسكانية القديمة ، تلك اللغات التي تأثرت بها اللغةالاتروسكية ــ كما يعتقد ــ بشكل أو بآخر ، نقول بالرغم من كل ما ذكرناه ، لا تزال اللغة الاتروسكية ليومنا هذا وبشكل عام ، أحجية غامضة وسرا مغلقا •

وعلى كل ، نكتفي ، على ضوء ما توصلت اليه مختلف الدراسات في هذا المضمار بالملاحظات التالية :

---

(١) انظر اعلاه ص ١٠٠ •

١ ـ يعتقد بان الاتروسكية تشبه بتركيبها اللغتين اليونانية واللاتينية ، اي ان بعض مفرداتها تخضع للتصريف •

٢ ـ تحتوي هذه اللغة صيغا وبعض المفردات العائدة للغات قديمة نطقت بها مجموعات بشرية سكنت ايطالية وأوروبة الجنوبية وتأثرت أيضاً بلهجات هندية ـ اوروبية ترجع باصولها الى اوروبة الشرقية •

٣ ـ وبالنسبة للملاحظة الثانية ، فان جميع المختصين بعلم اللغات متفقون اليوم على ان اللغة الاتروسكية ليست ذات اصل (آري) او بالاحرى هندي ـ اوروبي •

ان غموض اللغة الاتروسكية قد وضع العلماء المختصين في وضع صعب، لا يسمح لهم ان يستخرجوا شيئا هاما من مختلف النقوش والنصوص المكتشفة حتى الآن • وهكذا فعلم الفيلولوجيا (علم اللغة) يظل محدود التأثير في نطاق الابحاث الاتروسكية • على كل ، لم يلق العلماء المختصون سلاحهم ويتابع فريق كبير منهم بذل مختلف الجهود لحل الطلسم اللغوي الاتروسكي • وبانتظار اليوم الذي يتوصل فيه العلم الى ذلك ، تقدم لنا مختلف الاوابد والاثار المادية عونا لا يقدر وتساعدنا على جلاء بعض جوانب الحضارة الاتروسكية ومعضلات التاريخ الاتروسكي •

مراجع القسم الأول

عدا عن المصادر والموسوعات ومختلف المجلات التاريخية الوارد ذكرها احياناً في النص ، فان أهم المراجع التي اعتمدناها في تدوين فصول القسم الأول ، هي التالية :

(1) F. Altheim : *Römische Religiongeschichte*, Baden - Baden, 1951.

(2) A. Aymard et J. Auboyer : *Rome et son Empire*, Paris, P. U. F., 1954.

(3) J. Bérard : *La colonisation de l'Italie méridionale et de la Sicile dand l'antiquité : l'histoire et la légende*, Paris, P. U. F., 2e éd., 1957.

(4) R. Bloch : *Les origines de Rome*, «Que sais-je ?», Paris, P. U. F., 2e éd., 1949.

(5) Fr. Boemer : *Rom und Troja, Untersuchungen zur Früh-Geschichte Roms*, Baden - Baden, 1951.

(6) V. G. Childe : *The Dawn of European Civilization*, 4e éd., London, 1947.

(7) J. G. D. Clark : *Prehistoric Europe, The Economic Basis*, London, 1952.

(8) J. Déchelette: *Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo - ramaine*, T. 1 - 4, Paris, 1920-1927.

(9) P. Ducati : *Le problème étrusque*, Paris, 1937.

(10) G. Ferrero : *Grandezza e decandenza di Roma*, Vol. I - V, Milano, 1905 - 1907.

(11) A. Grenier : *Bologne villanovienne et étrusque* (Bibl. des Ec. d'Athènes et de Rome, fasc. 106, 1912).

(12) C. Hainchelin : *Les origines de la religion,* Paris, 1955.

(13) L. Homo : *L'Itatie primitive et les débuts de l'impérialisme romain*, Paris, 1953.

(14) A. Laming : *La découverte du passé. Progrès récents et techniques nouvelles en préhistoire et en archéologie,* Paris, 1952.

(15) G. Luzzatto : *Storia economica d'Itatia,* Roma, 1949.

(16) K. Marx : *Extraits commentés de L. H. Morgan «Ancient Society»*, Costes, Paris, 1931.

(17) Montellius : *Civilisation primitive en Italie depuis l'introduction des métaux,* 4 Vol., 1895-1940.

(18) L. H. Morgan : *Ancient Society,* New-York, 1878.

(19) M. Pallottino : *La peinture étrusque,* Genève, 1952. Etruscologia, Milano, 1955.

(20) G. Patroni : *La Preistoria,* Milano, 1937.

(21) J. Perret : *Origine de la légende troyenne de Rome,* Paris, 1942.

(22) Randall Mac Tver : *Villanovians and Early Etruscans,* Oxford, 1924.

القسم الثاني

الفصل الأول

اللاتيوم وروما في العهد الملكي

ينبغي علينا قبل كل شيء أن نحدد الاتجاه السائد حالياً في الدراسات التاريخية بالنسبة لنشوء روما وتطورها حتى القرن الخامس (ق٠م) ٠ ولقد قلنا أثناء تطرقنا لمصادر التاريخ الروماني، بان الغموض ظل يكتنف ـ ولفترات طويلة ـ تاريخ اللاتيوم وروما ، نتيجة لندرة الوثائق الكتابية بل لفقدانها أحياناً ، مما حدا بالبعض الى القول باستحالة دراسة تلك الفترة ، الموغلة في القدم ، من التاريخ الرومانى ٠ ولكننا أوضحنا بأن وجهة النظر هذه بدأت تتبدل منذ القرن التاسع عشر ولا سيما بعد ان بدأ الكشف عن مخلفات وأوابد حضارة اليونان الكبرى والحضارة الاتروسكية ، تلك المكتشفات التي ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ ايطالية في عصري الحديد الأول والثاني، وكذلك بعد الحفريات التي تمّ اجراؤها في مختلف أرجاء اللاتيوم وفي روما بالذات ٠

لقد كان مألوفاً والى عهد قريب أن يُنظر الى تاريخ روما ، كظاهرة قائمة بذاتها ، خضعت لتطور مستمر منذ البدايات الأسطورية والسيادة الايطالية وقبل ان تصبح السيطرة العالمية الرومانية حقيقة واقعية ٠ ولكن مختلف الدراسات والابحاث الأثرية واللغوية قد أوضحت بان نظرة كهذه ليست مطابقة للواقع التاريخي ٠ إذ بدأ يتأكد مؤخراً بأن المنطقة الغربية الوسطى لايطالية ـ حيث يقع اللاتيوم وفي وسطه روما ـ قد كان لها تاريخاً

مشتركاً بين القرنين الثامن والخامس (ق٠م) ، أي خلال فترة الملكية القديمة • اضف الى ذلك الدور الكبير الذي لعبته الحضارتان الأتروسكية والاغريقية في تطور ايطالية الوسطى ، وكذلك العلاقات المتبادلة بين الشعب اللاتيني ومجموعة الشعوب الأوسكية والاومبرية • ولذلك بدأنا نكوّن فكرة جديدة عن تاريخ روما ــ ما بين القرنين الثامن والخامس (ق٠م) ــ بمختلف مظاهره : الاقتصادية والسياسية والفكرية والدينية ؛ وانهارت بذلك مختلف الأساطير والروايات التي نسجها كتّاب عصر أوغسطوس عن الميلاد الاسطوري لسيدة اللاتيوم وعن تطورها في الفترة الملكية ؛ تلك الأساطير التي أحاطت بهالة من المجد والجلال والقدسية روما في مطلع تاريخها ، تملقاً لغرور وغطرسة الشعب الروماني المنتصر الذي بسط سيطرته على مختلف أرجاء البحر الابيض المتوسط • لاشك في أن جميع ماورد في كتابات ورجيليوس وهوراتيوس وتيطوس ليويوس وغيرهم من الكتّاب اللاتينيين واليونانيين عن نشوء روما وتطورها في الفترات الأولى ؛ نقول لاشك في أن مختلف تلك الروايات ليست عارية تماماً عن الصحة ، ولكن مما لاشك فيه أيضاً ، بأن وقائع التاريخ واحداثه قد احتجبت غالباً خلف الأسطورة •

ومهمتنا كطلاب تاريخ أن نزيل القشور البرّاقة عن الجوهر وان نستخرج بل ان « نولّد » الواقع من الاسطورة • وبتعبير آخر ، فالنقد التاريخي بذاته ليس غايتنا بل وسيلتنا لادراك الحقيقة التاريخية •

١ ــ اللاتيوم وروما بين الاسطورة والواقع •

يتشكل سهل اللاتيوم من حوض نهر التيبر الأسفل ، ويقع في وسط ايطالية ؛ ويحدّه من الغرب البحر التيريني ومن الشرق جبال الأبنين ومن الجنوب الجبال الالبينية Montes Albani • وهو عبارة عن سهل مستنقعي بركاني تبلغ مساحته (٢٠٠٠ كم^{2}) ، ويشكل نهر التيبر في شماله حدوده مع اترورية •

ولدى تطرقنا الى تاريخ ايطالية في العصر الحجري الحديث وفي

العصور المعدنية ، لفت انتباهنا ندرة المواقع الأثرية في سهل اللاتيوم • ويعود السبب في ذلك الى تأخر سكنى اللاتيوم بسبب وعورة أراضيه المستنقعية والبركانية ، حيث كانت فيضانات نهر التيبر الدورية تشكل في حوضه الأسفل ـ سهل اللاتيوم ـ مناطق مستنقعية غير صالحة للسكن • ولذلك لم يتمكن اللاتينيون الذين سكنوا بعض أطراف اللاتيوم سوى من اقامة بعض التجمعات السكنية : كآلبا المستطيلة •

Roma ; Praeneste ; Lanuvium ; Ardea ; Alba Longa

ولقد كانت هذه المدن محاطة من جهاتها المختلفة بسكان أشداء منعوا اللاتينيين من التوسع خارج حدود أراضيهم : كالاتروسكيين في الشمال والفالسكيين في الشمال الشرقي والسابينيين في الشرق والهرنكيين في الجنوب الشرقي والفولسكيين في الجنوب •

ولقد كانت اللغة اللاتينية مشتركة بين مختلف سكان اللاتيوم ، قبل ان تتخذها لغة لها ، فيما بعد ، مختلف شعوب شبه الجزيرة وينتشر استعمالها في مختلف أرجاء المتوسط في الفترة الامبراطورية •

واعتمد اللاتينيون في معيشتهم في مطلع الألف الأول (ق•م•) على الرعي وزرعوا بعض أنواع الحبوب والفواكه والخضروات • ولم تؤثر الحضارة الفيلانوفية الا قليلاً على منطقة اللاتيوم • ولقد قلنا لدى تطرقنا الى تلك الحضارة بأنه من أهم مظاهرها ازدهار الصناعات المعدنية (برونز وحديد) وتطور بناء المساكن والقبور وتنوع الحرف ونشوء العلاقات التجارية الداخلية والخارجية • أما المدن اللاتينية التي مرّ ذكرها معنا ، فلم تكن في الواقع إلا عبارة عن قرى كبيرة سكنتها قبائل عاشت على السلب والنهب قبل ان تمارس الزراعة والرعي • وكان سكانها يغيرون على بعضهم البعض قبل أن تغريهم الحاجة الملحة بانشاء بعض الاحلاف فيما بينهم لصد الغارات الخارجية • ولقد بنوا تجمعاتهم السكنية ، التي كانت عبارة عن

أكواخ مستديرة الشكل ، على مرتفعات يسهل الدفاع عنها ولا تكتسحها مياه الفيضانات .

ومن أشهر المدن اللاتينية حتى القرن السابع (ق.م) مدينة « آلبا المستطيلة » ، مركز الحلف الألبيني »، الذي انضوى تحت لوائه سكان ثلاثين مقاطعة لاتينية جمعتهم ديانة الاله (جوبيتر اللاتيني Jupiter Latialis) ، ومعبده كائن على جبل Cavo ، من أعلى الجبال الألبينية .

وبشكل عام ، كان المستوى الحضاري لسكان اللاتيوم أدنى مما كان عليه لدى كثير من الشعوب التي أهلت ايطالية اعتباراً من القرن الثامن (ق.م) كالاتروسكيين واليونانيين والقرطاجيين .

ولكن وقوع اللاتيوم في وسط ايطالية وتعرّضه لتأثيرات البحر التيريني الحضارية ، ثم اتصاله مع مناطق البحر الادرياتيكي بمسالك سهلة كطريقي Via Salaria ; Via Valeria ومركزه كجسر طبيعي يربط شمال ايطالية بجنوبها ؛ كل ذلك سيقوده وبقيادة روما ، للقيام بدور حاسم في تقرير مصير شبه الجزيرة الايطالية .

هذا هو الوسط الجغرافي والحضاري الذي نشأت فيه روما وبرزت كأسطورة تاريخية ، ملأت أخبارها الأسماع على مرّ العصور والقرون .

أ) اللاتيوم ونشوء روما الاسطوري

يمتاز العالم القديم باشراك الالهة في تأسيس المدن،
ليضفي عليها هالة من المجد والجلال .
(تيطوس ليويوس)

لم يكن في حوزة علم التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقبل تطوّر بعض العلوم المساعدة للتاريخ وقبل اجراء بعض الحفريات الأثرية التي ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ اللاتيوم وروما حتى

القرن الخامس (ق٠م) ؛ نقول لم يكن في أيدي المؤرخين سوى الروايات الاسطورية القديمة التي سردها الكتّاب اللاتينيون واليونانيون عن منشأ روما ٠

وتقول الاسطورة ، بأنه بعد سقوط مدينة طروادة بيد اليونانيين الذين حاصروها مدة عشر سنوات ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إلا بالخدعة ، ارتحل عنها المحارب الطروادي Aineias وهو ابن الالهة ڤينوس التي عشقت الطروادي Angchises ورُزقت منه هذا الولد ، الذي أصبح صهر ملك طروادة Priamos .

وتضيف الرواية بأنه بعد مغامرات عديدة في مختلف أرجاء البحر الابيض المتوسط ، استقر المطاف بالمحارب الطروادي على شواطىء نهر التيبر في اللاتيوم ، في بقعة كان الاله (ساتورنوس) قد التجأ اليها من بلاد اليونان ، بعد أن خلعه ابنه (جوبيتر) ، فجعل الاله من هذه البقعة مقر سكناه وسيطلق عليها الشاعر ورجيليوس فيما بعد اسم (المنطقة الساتورنية) *Saturnia Tellus* . [1] وعُرفت المنطقة لدى القدماء باسم Latium نسبة الى الفعل اللاتيني *latere* أي اختبأ ، حيث توارى ساتورنوس بعد اضطراره الى مغادرة مقره على جبل Olympos في اليونان ٠٠ وتعبيراً عن شكره لأهالي وطنه الجديد ، الذين استقبلوه بحفاوة ، علّمهم الاله زراعة القمح والكرمة ٠ ولذلك يظهر الاله ساتورنوس على المسكوكات وفي مختلف التصاوير والتماثيل اللاتينية حاملاً المنجل أو المشذب ٠

وحين حطّ الترحال بالبطل الطروادي Aineias على شواطىء اللاتيوم ، كان يحكمه الملك Latinus ، سليل الاله ساتورنوس ، الذي أُعجب بالطراودي وبحسن خصائله فزوّجه ابنته Lavinia [2]٠ ولقد خلف Aineias حماه في الحكم وشيّد مدينة جديدة أطلق عليها اسم Lavinium

(1) Virg., *En.*, 8, 358.

(2) *Ibid.*, 7, 45; Liv., 1,2.

اكراماً لزوجته ، وأصبح شعبه يعرف باسم الشعب اللاتيني نسبة الى Latinus • واختفى Aineias فيما بعد اثناء عاصفة هوجاء واصبح يُعبد لدى الأجيال الآتية باسم « جوبيتر القومي » *Jupiter Indiges* .

وحكم الشعب اللاتيني بعد اختفاء Aineias ابنه Askanios الذي عُرف أيضاً باسم يولوس • وبعد ثلاثين سنة من اختفاء ابيه ، شيّد بدوره مدينة « آلبا المستطيلة » في أعالي الجبل الالبيني ، التي اصبحت أهم مدينة في اللاتيوم ، وحكمها بعد موته ابناؤه وأحفاده ومنهم الملك (نوميتور) الذي رزق ابنة هي Rhea Silvia وابناً ذكراً • بيد ان (آميليوس) ، شقيق (نوميتور) الاصغر استطاع أن يعزل أخاه الاكبر ويغتصب الملك منه • واتقاء للمعاقبة قتل أبن أخيه ونذر ابنة اخيه للالهة *Vesta* مما يجبرها على أن تظل عذراء لمدة ثلاثين سنة ، فلا تخلّف نسلاً ينتقم منه لفعلته • ولكن اله الحرب (مارس) أُغْرِم بالفتاة واتصل بها سراً فحملت منه طفلين ذكرين هما رومولوس وريموس • فثار ثائر آميليوس وفار فائره فصب جام غضبه على الطفلين وأمر بالقائهما في نهر التيبر • وتضيف الرواية بان الآلهة تدخلت وحدثت المعجزة • فقذفت مياه التيبر بالطفلين الى الشط ، فرسا مهدهما عند سفح هضبة البالاتيوم ، تحت شجرة تين ، فأتت اليهما ذئبة من الجبال وحنت عليهما وأرضعتهما من ثدييها بينما أخذ صقر يحلق فوقهما حامياً اياهما من كل أذى ، الى ان عثر عليهما راعي قطعان الملك Faustulus فالتقطهما وحملهما الى زوجته التي تعهدت بتربيتهما •

ولما بلغ الطفلان سن الثامنة عشرة وأطلعا على مجريات الأمور ، تدبرا الأمر وتمكنا من قتل المغتصب (آميليوس) وأعادا جدهما الى عرشه في مدينة « آلبا المستطيلة » • ومكافأة لهما ، منحهما جدهما « نوميتور » أراضي التلال السبعة على ضفاف التيبر ، حيث قرّر الأخوان تأسيس مدينة جديدة على تل البالاتيوم[1] ، حيث رسا مهدهما وهما وليدان •

---

(١) التلال السبعة هي التالية :
Aventinum, Palatium, Quirinalis, Viminalis, Esquilinus, Caelius, Capitolium.

وتزيد الرواية بأنه بعد استشارة الالهة ، وقع اختيار الأخوين على منطقة « البالاتيوم » لتأسيس المدينة • واختارت الالهة (رومولوس) لوضع أسس المدينة المقبلة • فأخذ محراثاً ، سلاحه نحاسي ، وراح يشق أخدوداً حول تل « البالاتيوم » مختطاً بذلك سور المدينة • ولما بلغ الأمكنة المخصصة لأبواب مدينته ، رفع محراثه بعناية دون أن يمسها • وبعد انتهاء الطقوس الدينية ، أمر رومولوس اتباعه من اللاتينيين والألبيين أن يشرعوا فوراً ببناء السور الذي سيحيط بمدينته ويحميها وأصبح ذلك السور مقدساً ، ولم يعد في مقدور اي إنسان ان ينتقل من خارج المدينة إلى داخلها إلا من الأبواب حيث لم تمس حديدة الفدان الأرض ؛ ومن هنا أُطْلِق على كل باب من أبواب المدينة اسم **Porta** من الفعل اللاتيني **portare** أي حمل •

واستشاط ريموس غضباً لان اختيار الالهة لم يقع عليه وكان واقفاً بالقرب من أخيه عندما بدأ حائط السور يرتفع أمامه ، فغلى مرجل غيظه وقفز عبر الحائط صائحاً : « هل لمثل هذه الحواجز ان تصون مدينتك ؟ » مما أحنق رومولوس الذي قتل أخاه صائحاً : « هكذا سيهلك كل من يمتهن أسوار مدينتي » ••• وكان ذلك عام (٧٥٣ ق•م) •••

قُتل (ريموس)و ظلّ (رومولوس) السيد الوحيد ، وارتفعت اسوار روما على الدماء ، تلك الدماء التي سيسفحها الرومان بغزارة طوال قرون عديدة قبل ان يتمكنوا من اخضاع الشعوب الايطالية ومن مدّ سلطانهم على مختلف أرجاء البحر الابيض المتوسط •

وبعد أن أتمّ بناء سور المدينة الناشئة *Roma Quadrata* (١) على تل البالاتيوم ،وفي سبيل الاكثار من عدد سكان مدينته ، افتتح (رومولوس) على تل « الكابيتوليوم » المجاور ملاذاً لجأ اليه المغامرون والعبيد الآبقون والمتمردون؛فما كان من أهالي القرى والمدن المجاورة إلا مقاطعة الرومانيين الأوائل ورفضوا ان يتصاهروا معهم باعطائهم بناتهم كزوجات لهم • فدعا (رومولوس) الجيران السابينيين الى حفل ، تمّ اثناءه اختطاف النساء

(1) Enn., *An.*, 158.

السابينيات من قبل الرومانيين • فنشبت الحرب وكانت سجالاً بين الطرفين وبعد توسط النساء السابينيات تمّ عقد صلح بين الفريقين اصبح بنتيجته (رومولوس) و (تاتيوس) السابيني ملكين على الشعبين الروماني والسابيني• وقُتل (تاتيوس) السابيني بعد فترة في حربه ضد الأقوام المجاورة مما افسح المجال لرومولوس لكي يحكم بمفرده ؛ ولكنه اختفى بدوره في عاصفة هوجاء اثناء احتفال ديني فاعتُبر في عداد الالهة واصبح يُعْرف باسم الاله *Quirinus* •

ونشب الخلاف من جديد بين الرومانيين والسابينيين على تعيين خلف له• وبعد سنة كاملة من الصراع ، اتفق الطرفان على أن يعيّن الرومانيون ملكاً من السابينيين يحكم على الشعبين معاً • وتمّ انتخاب السابيني **Numa Pompilius** الذي اشتهر بالتقى والورع • وبارتقائه العرش يبدأ حكم ثلاثة ملوك سابينيين خلال (٩٩) سنة من (٧١٥ الى ٦١٦ ق•م) •• بينما كان مؤسس روما لاتينياً ودام حكمه تقريباً اربعين سنة (٧٥٤ — ٧١٥ ق•م) •

كان الملك الجديد رجلاً صالحاً وأرشدته في عمله الحورية **Egeria** [1] • وهو الذي نظمّ للرومانيين مؤسساتهم الدينية وأصلح التقويم بتقسيمه السنة الى (١٢) شهراً وبتعينه أيام الأعياد • وشجّع الزراعة بتقسيمه الأراضي وتوزيعها على أفراد الشعب وشيّد معبد الاله (جانوس) الذي كانت تُفْتح ابوابه في حالة الحرب وتُغلَق اثناء السلم ، وكذلك أسس معبد الالهة **Vesta** .

وخلفه في الحكم ملك سابيني آخر وهو **Tullus Hostilius** فاشتهر بحروبه ضد اعداء روما وبمآثره العسكرية وحكم من (٦٧٢ الى ٦٤٠ ق•م) • ويقول الرومانيون انه بحكمه ابتدأ حكم الملوك البشر في روما • وفي أيامه نشب الحرب بين روما وآلبا المستطيلة واصطرع خلالها ثلاثة ابطال من روما هم الاخوان (هوراتيوس) مع الابطال الآلبيين الثلاثة،

---

(1) Liv., 1, 19.

الاخوان (كورياتيوس) • ونتيجة لتغلب الأولين على الآخرين ورثت روما من آلبا سيادتها على اللاتيوم • ولكن هذه الأخيرة تمرّدت على روما فحاربتها سيدة اللاتيوم الجديدة ودمرّتها ونقلت سكانها الى روما واصبح تل « الكابيتوليوم » المركز الديني الأول في اللاتيوم بدلاً من المعبد الكائن على جبل Cavo • وعندما فسدت علاقات الملك المحارب مع الالهة قذف الاله (جوبيتر) مقره بالصاعقة •

وحكم بعده الملك البنّاء Ancus Martius (٦٤٠ – ٦١٦ ق•م) وهو ابن أخ الملك السابيني الأول Numa وهو الذي بنى جسر *Sublicius* على التيبر[1] ، وشيّد ميناء *Ostia* عند مصب النهر ، وحصن تل Janicularis للدفاع عن روما من ناحية الغرب •

ووفد في أيامه الى روما من اترورية كورنثي اسمه *Tarquinius* فوكل اليه الملك بالوصاية على أولاده • وبموت Ancus Martius ينتهي حكم الملوك السابينين وتبدأ الفترة الأتروسكية ـ الرومانية •

ب) تاريخ اللاتيوم وروما على ضوء المعطيات التاريخية الحديثة •

لا حاجة بنا الى القول بأن ما أوردناه من روايات اسطورية ،عن قدوم الطرواديين الى اللاتيوم واقامتهم فيه ثم تأسيس مدينة روما وما نُسب الى (رومولوس) أو Numa Pompilius وغيرهما من الملوك الأسطوريين ؛ نقول لا حاجة بنا الى القول بان تلك الروايات ليست إلا مجرد اساطير تعكس في طياتها بصورة أو بأخرى حقائق تاريخية بالامكان استخلاصها ، إذا أُحسن تفسير الأسطورة ، وذلك بالاعتماد على الدراسات المقارنة لبعض العلوم المساعدة للتاريخ •

ولذلك ، فعندما نقول بأن أغلب الروايات عن تأسيس ونشوء روما ، التي وردت في كتابات المؤرخين والكتّاب اليونانيين والرومانيين ، اعتباراً من

(1) Liv., 1, 33, 6

القرن الثالث (ق•م) هي أساطير ، فليس معنى ذلك بأن كافة ما ورد في تلك المؤلفات هو مختلق وخرافي ولا علاقة له البتة بماضي اللاتيوم وبتاريخ روما•

نحن لا ننكر ، بأن بعضهم مازال ينزع الى رفض جميع ما جاء في الروايات عن تلك الفترة التاريخية الغامضة من تاريخ ايطالية الوسطى ؛ ولكننا نود أن نضيف بأن بعض المعطيات العلمية الحديثة في نطاق الدراسات المقارنة ، قد أظهرت مؤخراً بأنه من الممكن أحياناً التوفيق بين ما ورد في الأساطير وبعض الروايات التاريخية القديمة وبين ما توصلت اليه من نتائج مختلف الدراسات اللغوية والمكتشفات الأثرية وغيرها من الأبحاث •

لم تظهر الحفريات الأثرية ، حتى الآن ، أي أثر لسكنى اللاتيوم في العصرين الحجريين القديم والوسيط ، بينما ظهرت آثار لانسان كان يدفن موتاه تعود الى العصر الحجري الحديث ، في عدة مواقع أثرية في حوضي نهري التيبر والآنيو[1] • ولقد أطلق القدماء على الأقوام التي سكنت ايطالية وبلاد الغال واسبانية في العصور الموغلة في القدم اسم « الليغوريين » ، ويعتقد بأنهم مزيج من موجات بشرية متوسطية وأوروبية غربية سكنت ايطالية قبل تسرب الهنود ـ الأوروبيين اليها[2] •

وتدل الحفريات الأثرية التي أُجريت في مختلف أنحاء اللاتيوم ، بأنه وصلت الى حوض التيبر الأسفل ـ في أواخر عصر البرونز ومطلع عصر الحديد الأول[3] ـ موجة بشرية جديدة كان أفرادها يمارسون حرق موتاهم عوضاً عن دفنهم • وتظهر حضارة القادمين الجدد نقاط تشابه عديدة مع « حضارة تيرامارنا » تلك الحضارة التي نشأت وتطورت على الأرض الايطالية في سهل البو ؛ ولذلك أُطْلِق على القادمين الجدد اسم « الايطاليين القدماء » ، وهم الذين امتزجوا مع سكان العصر الحجري الحديث الذين سبقوهم ـ أي مع الليغوريين[4] ـ ونشأ عن امتزاج الطرفين،

---

(١) الآنيو : نهر صغير يرفد التيبر واسمه بالايطالية *Teverone*

(٢) انظر بشأن الهنود الأوروبيين ص ٧٥ •

(٣) انظر أعلاه ص ٩٥ ـ ٩٩ •

(٤) انظر بشأن الليغوريين ص ١٠٥ •

اللاتينيون الأوائل أي الأجداد المباشرون لمختلف المجموعات البشرية التي استقرت نهائياً في اللاتيوم منـذ مطلع الألف الأول (ق٠م) ٠ وسيسـكن بعضها المنطقة التي سيطلق عليها فيما بعد اسم روما ومنها سينحدر الأجـداد الأولون للشعب الروماني ٠

ويظهر من الحفريات الأثريـة التي أجْـريت في قريـة **Germalus** عـلى تل **Palatium** بان المنطقة كانت مأهولة حوالي (١٠٠٠ ق٠م) وأول من أقام فيها قوم من الليغوريين مارسوا الرعي والصيد ٠ ونجد آثار لسكنى الانسان (قبور تحتوي على قوارير جنازية) في قريتي ***Fagutal , Oppius*** عـلى تل **Esquilinus** ، وتعود هذه المواقـع الأثرية الى القرنين التاسـع والثامن (ق٠م) وعُثـر أيضاً على آثار لمساكن ، على شكل أكواخ مستديرة الشكل ، في عدة قرى كائنة على تلال Caelius , Viminalis , Quirinalis وجميعها تعود الى القرنين الثامن والسابع (ق٠م) ٠ ومن أقـدم الكتـابات اللاتينية العائـدة الى تلك الفترة ، نقش على مشبك عثر عليـه في مدينـة Praeneste على بعد (١٠ كم) جنوب شرقي روما[١] ٠ ومختلف هـذه القرى قد أُقيمت على التلال ليسهل الدفاع عنها ولكي لا تنالها مياه الفيضانات، وقد زاد سكانها من حصانتها باقامة اسوار من التراب المدكوك حولها وجعلوا خنادق أمام الأسوار ٠ أما المساكن فكانت عبـارة عن أكواخ بيضويـة أو مستديرة الشكل ٠

وتدلّ المخلّفات الأثرية من أدوات منزلية وأسلحـة وبعض القطـع الخزفية الخ ٠٠ التي تمّ العثور عليها في تلك المواقع الأثرية ، على ان سكان تلك القرى كانوا يعيشون عيشة بدائية كما ان حضارتهم بمختلف مظاهرها لم تكن قد بلغت مستوى رفيعاً ٠

وحوالي القرن الثامن (ق٠م) ، أنشـأت سبع قرى كائنة عـلى تلال

---

(1) G. Lugli, *Les débuts de la romanité à la lumière des découvertes archéologiques modernes* (dans *Eranos*, 1943, p. 8 ss.).

Septimontium الاتحاد السباعي Caelius ; Esquilinus ; Palatium على غرار الاتحادات التي تشكلت في اللاتيوم كما ذكرنا سابقاً •

أما السابينيون وهم من سكان اللاتيوم القدماء ـ أي قبل وصول الموجة اللاتينيـــة حـوالي (١٠٠٠ ق٠م) ـ فلقـد شـيّدوا قراهم عـلى تـلال Aventinum ; Capitolium ; Viminalis ; Quirinalis ويظهـر بأنهـم كانوا اكثر قوة من اللاتينيين وتمكنـوا من الهيمنة عـلى التحالف السـباعي اللاتيني ولقد موّه الرومانيون فيما بعد ـ بدافع من عنجهيتهم وكبريـائهم ـ خضوعهم هذا بروايتهم عن الملوك السابينيين الثلاثة الذين تمّ انتخابهم من قبلهم • ومن الدلائـل اللغـوية عن تلك الهيمنة السابينية اسم **Quirites** (نسبة الى مدينة Cures السابينية)[1] ، وهو الاسـم الذي سيطلق عـلى الرومانيين النبلاء المنحدرين من سلالات عريقة ؛ وكذلك اسم **Quirinus** الذي سيُطلق عـلى روموُلوس بعد موتـه وتأليهـه • ومن المعـروف ان **Quirinus** هو اله التل السابيني Quirinalis • وكان ايضاً الـه الحرب لدى السابينيين ، وسيتكوّن المجتمع الروماني البدائي من امتزاج اللاتينيين بالسابينيين ، وستنمومدينة روما نتيجةلالتحام المجموعات السكنية لاربع تلال سابينية وثلاث تلال لاتينية • ولذلك يمكننا تفسير بعض الروايات الاسطورية كصراع الأخوين (ريموس) و (رومولوس) وحكم الملوك السـابينيين بالصراع السابيني ـ اللاتيني وبتفوق العنصر السابيني على العنصر اللاتيني •

ومما يلفت الانتباه أيضاً في هذا الصدد ان عدد الملوك الذين حكموا روما في الفترة الملكية كان سبعة ملوك ويطابق هذا العدد تلال روما السبعة، والملوك السبعة وفق الرواية هم رومولوس وهولاتيني وثلاثة ملوك سابينيين وثلاثة ملوك اتروسكيين •

والتلال السبعة التي مرّ ذكرها معنا تقع جميعها شرقي نهر التيبر ،

(١) من المعروف ان كلمة **Curia** تطلق على المكان الذي تلتئم فيه جلسات جمعيات الشعب الروماني القديمة ، وكذلك تطلق على مجلس الشيوخ الروماني كهيئة ، وعلى المكان الذي يعقد فيه الشيوخ الرومانيون جلساتهم •

ولكن لو عبرنا النهر غرباً لوجدنا تلالاً أخرى منها تل ***Janicularis*** ولقد حلّ به الاتروسكيون اثناء سيادتهم على اللاتيوم وروما • ولا ندري ، فهل لورود العدد « سبعة » في تحديد عدد التلال التي نشأت عليها روما وعدد الملوك ـ حسب الرواية ـ الذين حكموا روما في الفترة الملكية ؟ نقول هل لظهور هذا العدد في الرواية علاقة بالأتروسكيين وبأصلهم الشرقي البعيد؟!•• فمن المعروف انه كان لهذا العدد منزلة لاتدانيها منزلة أي عدد آخر في معتقدات شعوب الشرق الأدنى القديم؟ وانعكس سحر هذا العدد في الأساطير اليونانية وفي العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية لدى العرب قبل الاسلام وبعده[1] •وهل يساعدنا هذا العدد في تحديد الفترة الزمنية لتكوين الرواية

---

(١) من المعروف بان سكان بلاد الرافدين القدماء قد اشتهروا بالتنجيم • ويعتقد بانه كان لعدد السموات السبع والكواكب السيارة السبعة علاقة باشتهار هذا العدد وبمنزلته المقدسة لدى القدماء • وكان المنجمون في القديم يفسرون ما يجري من أحداث على الارض بعد استطلاع دورة الكواكب وحركات النجوم في السماء •

يقول العالم الأثري ***Rawlinson*** بأنه كان لكل من زقرة (بورسيبا) وزقرة (بابل) سبعة أدوار (طوابق) • وقد لون كل طابق بلون معين اشارة الى كوكب من الكواكب السبعة • أما تلك الألوان فهي كالتالي ، من الأسفل الى الأعلى : الأسود (زحل) ، الأبيض (عاشتروت) ، البرتقالي (المشتري) ، الأزرق (عطارد) ، القرمزي (المريخ) ، الفضي (القمر) ، الذهبي (الشمس) • اذا كان عدد الكواكب يتفق وما كان معروفا لدى الرافديين القدماء فان تحديد الكواكب وترتيبها لديهم لا يتفق مع ما اقترحه العالم البريطاني •

ولقد أصبح جلياً الآن بان بعض المعتقدات الدينية للشرق الأدنى القديم قد انعكست بصورة أو بأخرى في أسفار التوراة • نقرأ مثلا في « سفر التكوين » ، (الاصحاح السابع ، الفقرة ١ ـ ٤) : « (١) وقال الله لنوح ادخل التابوت أنت وجميع أهلك فاني إياك رأيت باراً أمامي في هذا الجيل•(٢) وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعةسبعة ذكوراً واناثاً•ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وانثى • (٣) وخذ أيضاً من طير السماء سبعة سبعة ذكوراً واناثاً ليحيا نسلها على وجه الأرض • (٤) فانني بعد سبعة أيام ممطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وماح كل قائم مما صنعته عن وجه الأرض •»

والاسبوع يضم سبعة أيام ، وأعتبر اليوم السابع يوماً مقدساً • وينعكس ذلك أيضاً في « سفر التكوين » ، (الاصحاح الثاني ، الفقرة ١ ـ ٣) : « (١) فأكملت السموات والأرض وجميع جيشها • (٢) وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل • (٣) وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي خلقه الله ليصنعه » •

وتقول الرواية بأن مسقط ابراهيم الخليل كان في بلاد ما بين النهرين • وبعد ان امتحن الله ابراهيم بابنه اسحق نرى ابراهيم يعود الى بئر سبع « سفر التكوين » ، (الاصحاح الثاني والعشرين ، الفقرة ١٩) : « ثم رجع ابراهيم الى غلاميه فقاموا ومضوا معا الى بئر سبع وأقام ابراهيم ببئر سبع » •

الأسطورية عن نشوء روما • وهل ساهم الاتروسكيون والاغريقيون ، الذين تأثروا بشكل أو بآخر بحضارات الشرق الأدنى القديم،نقول هل كان لهؤلاء شأن ما في ابداع الاسطورة ؟!

عندما تعرضّنا لأصل الأتروسكيين ، قلنا بان بعض الكتّاب اليونانيين

ويظهر العدد سبعة من جديد في قصة يوسف (سبع بقرات سمان وسبع بقرات عجاف ، سبع سنابل دقاق وسبع سنابل حسان الخ ...) •

ولقد أظهرت الحفريات بأن مدينة بابل كانت محصنة بسور مزدوج تفصل بين جداريه سبعة أمتار وكان للمدينة سبعة أبواب •

واعتقد الآشوريون بأن « سبعة » أسوار تحيط بالعالم الآخر • ويروى عن زرادشت بانه رأى « سبع » رؤى اثناء عزلته قبل ان يعلن رسالته • ومن تعاليم ماني لأتباعه في فارس الصيام « سبعة » أيام في كل شهر ، ولقد اشتهر عند الفرس الأقدمين « سبعة » وزراء •

ومن المعروف أن اليونانيين قد تأثروا أيضاً بأساطير ومعتقدات الشرق الادنى القديم • ومن جديد يظهر هذا العدد لديهم : فحكماء اليونانيين هم « سبعة » وعجائب العالم هي «سبع» وهي : اهرامات مصر ، حدائق سمير أميس المعلقة ، تمثال رودوس الجبار ، أسوار بابل وبرجها تمثال زوس الأولمبي الذي نحته فيدياس ، معبد أرتميس في افسوس ثم منارة الاسكندرية •

وظهرت آثار العدد أيضاً في أساطيرهم ، كالحرب الأسطورية « للقادة السبعة أمام طيبة » التي كتب عنها الشاعر الروائي (أسخيلوس) (القرن الخامس ق•م) •

ويظهر سحر العدد في الانجيل ، في كتاب « رؤيا القديس يوحنا » • تقرأ في (الفصل الأول ، الفقرة ٤) : « من يوحنا الى الكنائس السبع التي في آسية • النعمة لكم والسلام من الكائن والذي كان والذي سيأتي ومن الأرواح السبعة الذين أمام عرشه » •

وفي (الفصل الخامس ، الفقرة ١) : « ورأيت بيميني الجالس على العرش كتاباً مكتوباً من داخل ومن خارج مختوماً بسبعة ختوم » • ونتابع في (الفصل الثامن ، الفقرة ٢) : «ورأيت الملائكة السبعة الذين يقفون أمام الله وقد أعطوا سبعة أبواق » • وفي (الفصل الخامس عشر ، الفقرة ١) : « ورأيت آية أخرى في السماء عظيمة عجيبة سبعة ملائكة معهم الضربات السبع الأخيرة لأنه بها تمّ غضب الله » •

ومن أخبار العرب قبل الاسلام ان قبيلة « عاد » اهلكت في « سبع » ليال بعد أن أذاقها الله مر العذاب • والمعلقات الشهيرة هي « لسبعة » من شعراء الجاهلية وهم : امرؤ القيس ، طرفة بن العبد ، زهير بن أبي سلمى ، لبيد بن ربعة ، الحارث بن حلزة اليشتكري،عنترة بن شداد وعمرو بن كلثوم •

وكان للعدد « سبعة » عند العرب صلة وثيقة بدلالته اللفظية : فالجمل « السباعي » هو العظيم والرجل هو « سباعي » عندما يكون تام البدن • ومازال البدو من العرب يطلقون اسم « المسوبع » على اكبر البيوت للدلالة على الثراء وعلو المكانة •

واحتل العدد « سبعة » مركزاً مرموقاً في الاسلام • كقوله تعالى : « تسبح له السموات السبع والأرض » • والاراضي هي سبع كما ان هناك سبعة بحار • و « السبع المثاني »من القرآن هي اما سورة الفاتحة واما السبع السور الأولى • وفي هذا الصدد جاء الحديث النبوي « أوتيت السبع المثاني » • والقراء المشهورون هم سبعة وكذلك كبار الفقهاء •

والرومانيين قد أرجعوا أصلهم الى ليدية في آسية الصغرى • ولقد اشتهرت ليدية بكونها المنطقة التي امتزجت فيها حضارات الشرق الادنى القديم • ولقد اطلّع اليونانيون في أغلب الأحيان على الحضارات الشرقية عن طريق تلك المنطقة •

وتقوم مناسك الحج على الطواف سبع مرات حول الكعبة المشرفة •

تظهر بوضوح منزلة العدد « سبعة » لدى بعض الفرق الدينية في الاسلام • « فاخوان الصفا » يفسرون ، على غرار الفيثاغوريين القدماء ، الكون والوجود بالعدد • والرقم « واحد » هو أصل الأعداد ويرمز الى وحدانية الخالق • وينادي « اخوان الصفا » بسبعة رؤساء يقودون الناس في عالمنا هذا الى الطريق القويم وهم : « آدم ونوح وابراهيم والأنبياء الثلاثة العظام » وقد بشروا بالامام السابع « المهدي المنتظر » المحيط بعلوم من تقدمه وبظهوره يكون تمام العالم وعودة الحق الى نصابه •

وتقول فرقة الشيعة الاسماعيلية بأن الأئمة هم سبعة « الحسن ، الحسين ، علي زين العابدين ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، واخيراً الامام السابع اسماعيل وهو المهدي المنتظر » ، ولذلك أطلق على هذه الفرقة اسم « الشيعة السبعية » • ولكل امام من الائمة السبعة سبعة معاونين وهم: « المتعلم والمعلم والداعي وباب الباطن ولسان المعلم والحجة الكبرى ويد القدرة » •

وتظهر منزلة العدد « سبعة » لدى بعض المتصوفين في الاسلام ، ويقول « الشيخ السراج الطوسي) في كتابه « اللمع في التصوف » ان المقامات هي سبعة : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا •

وتبرز علاقة العدد « سبعة » بالتنجيم وبالكواكب السبعة (عطارد ، الزهرة «عاشتروت»، المريخ ، المشتري ، زحل ، القمر ، الشمس) في رواية المعتصم وفتح عمورية ورد أبي تمام على المنجمين بقوله :

والعلم في شهب الأرماح لامعـــــة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

والأقاليم المعمورة في مصورات الجغرافيين العرب هي سبعة ، ونجد صدى لذلك في الرحلات « السبع المشهورة » للسندباد البحري •

وما زلنا نقول اليوم « سبع الشيء » أي جعله طاهرا • ويقول البدو من العرب « سبع الله لك » أي أعطاك اجرك سبع مرات أو سبعة أضعاف أو رزقك سبعة أولاد •

وكما ذكرنا ، ظهرت قدسية العدد « سبعة » أول ما ظهرت في بلاد الرافدين • وتوجد في العراق في (قضاء عقره ، لواء الموصل) ، ناحية يطلق عليها اليوم اسم « العشائر السبعة » وسميت هكذا لأن العشائر فيها تتكون من سبع فرق وهي : كيرة ، رزكوى ، شايلو ، شيخ تبريني ، لوماء ، خنت بري وشنارك • وفي « العشائر السبعة » مقام الكرستي الاسقفي للكلدان• وكما هو معروف ، اشتهر الكلدانيون القدماء بالتنجيم•ونجد صدى لذلك في (انجيل القديس متى ، الفصل الثاني ، الفقرة ١ ــ ٢) : « (١) ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام أيام الملك هيرودوس اذا بمجوس قد أقبلوا من المشرق الى أورشليم • (٢) قائلين أين المولود ملك اليهود فانا رأينا نجمه في المشرق فوافينا لنسجد له • » ولقد أ ط لـ ق اسم المجوس على فئة من الكهان الفرس القدماء وكذلك على فئات من المنجمين والعلماء •

والمشرق بالنسبة لفلسطين هي بلاد ما بين النهرين حيث أقام الكلدانيون القدماء •

ولقد ورد في حديثنا عن (بيثاغوراس)[1] بان هذا الفيلسوف قد وُلد في جزيرة (ساموس) حوالي (٥٨٠ ق•م) ، وساموس كما نعلم تقع أمام الشاطيء الليدي • وتذكر بعض الروايات بان (بيثاغوراس) قد زار جزيرة العرب وسورية ومصر وبابل قبل ان ينتقل الى ايطالية الجنوبية (اليونان الكبرى) ، ويؤسس مدرسته الشهيرة في مدينة (كروتون) • ولقد اشتهر البيثاغوريون بارجاعهم جوهر الأشياء الى العدد ، وكما يقول استاذنا الدكتور كامل عياد : « فهم يقولون ان الاشياء في مكوناتها وجوهرها أعداد ، وان الاعداد هي نماذج الأشياء ، اي انهم كانوا يتصوّرون الأعداد بوصفها العلاقات أو النسب الموجودة بين الأشياء • وقد بيّن (آرسطو) ان السبب الذي دفع الفيثاغوريين الى هذا القول هو ما لاحظوه من انسجام بين الأشياء ولا سيما بين حركات الكواكب » • [2]

ومهما يكن ، فان ورود الرقم « سبعة » في الروايات بالنسبة لعدد التلال التي أُقيمت عليها مدنية روما البدائية ، وكذلك بالنسبة لعدد الملوك الأسطوريين الذين تولّوا أمرها في الفترة الملكية؛ نقول لا شك في أن ابراز تلك الظاهرة أمر يلفت الانتباه ؛ لاسيّما أن عدد التلال الواقعة شرق نهر التيبر وغربه يزيد على « الرقم المقدس » الذي تراءى أيضاً جلياً في العدد الأسطوري لملوك روما الأُول ؛ وكانوا « سبعة » كما ذكرنا سابقاً •

والرأي السائد اليوم ، اعتماداً على نتائج الدراسات المقارنة (الأثرية واللغوية الخ •••) ، ان الاتروسكيين قد ساهموا ، بقسط وافر ، في «تكوين اسطورة نشوء روما » ـ كما سنرى ذلك ـ عندما نتطرق الى الفترة الاتروسكية ـ الرومانية •

عندما بحثنا الشروط المناخية والمادية لمنطقة اللاتيوم في فتراته الأولى ، وأثرها الحاسم على مختلف المظاهر الاجتماعية للأقوام اللاتينية ، قلنا بأن بعض المؤرخين قد فسّروا أغلب الروايات الأسطورية عن نشوء روما

---

(١) انظر : تاريخ اليونان ، للدكتور كامل عياد ، ص ١٥١ •

(٢) تاريخ اليونان ، ص ١٥٤ •

وتطورها ، في فتراتها البدائية ببواعث وأسباب متعلقة بتربية المواشي وانتجاع الكلأ • وأضفنا أيضاً بان النزاع بين « آلبا المستطيلة والاتحاد السابيني ـ اللاتيني ، الذي أدّى في نهاية الأمر ، الى تدمير آلبا وخضوعها لروما فيما بعد ، لم يكن في الحقيقة إلا تعبيراً عن مساعي أصحاب قطعان الماشية ، في سبيل تأمين مناطق رعي جديدة لمواشيهم • وكما ذكرنا ، فان مناطق آلبا الجبلية تظل خضراء صيفاً بينما يكون الجفاف قد أصاب الريف الروماني[1]•

ان الصراع من أجل السيادة على اللاتيوم ، بين مختلف الأطراف المتنازعة (من سابينيين ولاتينيين وآلبيين) قد مرّ بعدة فترات عصيبة ؛ وكان كل طرف يرفض الخضوع لتحالف معيّن أو لمدينة بالذات • ولقد أتت المنازعات المتكررة بين مختلف الخصوم الى ضعف جميع الأطراف وأعطى المجال للأتروسكيين بالتدخل في شؤون اللاتيوم وبفرض سيطرتهم على الأقوام اللاتينية والسابينية معاً •

٢ ـ اللاتيوم في ظل الملوك الاتروسكيين :

لم تكن روما مدينة موحدة قبل سيطرة الاتروسكيين على اللاتيوم • ولم يكن هنالك ـ كما رأينا ـ إلا اتحادات موقتة اقتصرت على بعض القرى المتحالفة • والاتروسكيون في الواقع ، هم الذين « أوجدوا » روما وأعطوها هذا المركز الممتاز في اللاتيوم • ويتأكد اليوم بان اسم النهر الذي يروي روما « تيبريس » ليس اسماً لاتينياً بل اتروسكياً • والاسم الاتروسكي لهذا النهر هو ***Rumo*** ؛ واسم روما لا يعني سوى « ابنة نهر رومو » ؛ أي ان اسم روما هو اتروسكي أيضا[2]•وكما نلاحظ ،ما زلنا في فترة السيادة الاتروسكية على اللاتيوم غير متأكدين من الروايات التاريخية ، حيث تشيب الاسطورة الواقع التاريخي •

---

(١) أنظر أعلاه ص ٤١ و ١٤ •

(٢) حاول بعضهم اشتقاق اسم **Roma** من الكلمة اليونانية **Romè** وتعني : القوة أو القدرة• كما ان بعضهم ربط بين اسم روما واسم **Rhomé** وهي البطلة الاسطورية الطروادية التي رافقت « أوديسيوس » الى شواطىء اللاتيوم ، أثناء مغامراته في المتوسط ، بعد حرب طروادة •

أ) الأسطــورة :

حكم روما في العصر الملكي ـ كما ذكرنا أعلاه ـ ملك لاتيني واحد وثلاثة ملوك سابينين أعقبهم ثلاثـــة ملوك اتروسكيين امتـــد حكمهم من (٦١٦ ق٠م ، الى ٥٠٩ ق٠م)

وأول هؤلاء كان « ترقوينيوس القـــديم » Tarquinius Priscus (٦١٦ ـ ٥٧٩ ق٠م) ؛ وهو كورنثي المنشأ ٠ جاء الى روما وأصبح وصيا على أولاد آخر ملك سابيني (آنكوس ماريتوس) ٠ ولكن بعـد موت هذا الأخير ، اغتصب الكورنثي ، الذي جـــاء من مدينة *Tarchuna* [١] ، العرش وأبعد أولياء العهد الشرعيين ٠ ولقد عُرِف المغتصب قبل توليه الحكم باسم *Lucumon* ، وهو اللقب الذي أُطْلِق على حـكام المـدن الاتروسكية ٠ وكلمة (لوكومون) تعني « شيخ قبيلة » أو «رئيس» عند الاتروسكين [٢]٠ وتضيف الرواية بان هذا الملك قد ساهم في بناء روما ؛ ومن أهم منجزاته : « الفوروم » و « الملعب الكبير »*Circus Maximus* و « مجرى روما الكبير » *Cloaca Maxima* ٠ كما أنه عمل على تجفيف المستنقعات فتوسعت مساحة الأراضي القابلة للزراعة ٠

أما في النطـــاق السياسي فهو الذي أخضع اللاتينيين والســـابينيين والاتروسكيين كما انه زاد أعضاء مجلس الشيوخ بتعيينه مئة شيخ جديد ٠ وذهب في آخر حياته ضحية انتقام أولا Ancus Martius الذين أقصاهم عن العرش بعد موت أبيهم ٠ ورغم ذلك لم يتمكن هؤلاء من استلام الحـكم ، لأن زوجـــة الملك القتيـــل Tanaquil تمكنت مـن تنصـيب صهرهـا Servius Tullius ، الذي تقول عنه رواية بأنه مجهول المنشـأ بينما تقـول

---

(١) انظر اعلاه ص ١١٨ ـ ١١٩ ٠

(٢) انظر اعلاه ص ١٢٦ ٠

رواية ثانية بأنه ابن أمة ، عاشت في كنف أول ملك اتروسكي وأحبلها أياه الاله الحارس للبيت الملكي[1] •

وحكم هذا الملك خلال أربع وأربعين سنة (٥٧٨ — ٥٣٤ ق•م) • وهو الذي أقام أولى التنظيمات الادارية بتقسيمه روما الى عدة دوائر وأرض المملكة الى عدة مناطق ؛ كما انه وزّع السكان — حسب ثرواتهم — على خمس طبقات ليسهّل تجنيد الجيش • واشتهر أيضا بمنجزاته العمرانية : واليه يُنْسَب أيضا السور الجديد بجدرانه الضخمة ، التي يبلغ طولها (١١ كم تقريبا) • وتضيف الرواية بأن هذا الملك زال أيضا من الوجود نتيجة لمؤامرة حبكت خيوطها ابنته وزوجها « ترقوينيوس الجامح » •

واشتهر هذا الملك بحكمه الاستبدادي وبجرائمه ، ولذلك أطلق عليه اللاتينيون اسم Tarquinius Superbus • وهو ابن أول ملك اتروسكي • ولقد ألغى تنظيمات سلفه وأوجد حرساً خاصاً لحمايته ؛ ولكنه تابع بناء روما واليه يُنْسَب تشييد المعبد المكرّس للثالوث الالهي :
. Minerva , Juno , Jupiter

وقضى « ترقوينيوس المتعالي » طوال فترة حكمه (٥٣٤ — ٥٠٩ ق•م) وهو يحارب الأقوام المجاورة وخاصة اللاتينيين والسابينيين ، مما جعل الشعب يتذمر من وطأة حكمه • ولقد كان لتصرفاته أثــر سيء في نفوس رعاياه ؛ ومما زاد من وقعها على الشعب كونه مغتصباً وأجنبي المنشأ •

ولقد بلغ السيل الزبى عندما ألحق ابنه Sextus العار بأحد اقربائه Tarquinius Collatinus وذلك باغتصاب زوجة هذا الأخـير Lucretia التي انتحرت خجلا • حينئذ أثار زوج Lucretia الشعب الذي شـق عصا الطاعة على الملك المتكبّر ؛ وطُردت العائلة الملكية من روما وأُعْلِنَت الجمهورية فهرب Tarquinius Superbus وافراد عائلته الى اترورية ••• وهكذا سقط النظام الملكي في روما •

---

(١) يعتقد الرومانيون — كغيرهم من الشعوب القديمة — بانه كان لكل منزل اله يحمي أهله ومقدساته •

ب) العهد الاتروسكي ـ الروماني على ضوء الدراسات الحديثة :

مما يلفت الانتباه في الرواية الأسطورية التي وردت في مؤلفات الكتاب الاغريقيين واللاتينيين المتأخرين ما يلي :

١) وصول الملوك الاتروسكيين الثلاثة الى العرش بالاغتصاب أو بالجريمة •

٢) مقتل اثنين منهم وطرد الثالث •

٣) ان الزعيم الذي قاد ثورة الشعب الروماني ضد السلطان الاتروسكي ظهر في الاسطورة باسم Tarquinius Collatinus وللاسم الثاني مغزى خاص ؛ إذ تعني كلمة *Collatinus* [1] في اللغة اللاتينية « مع اللاتيني » •

ان الصراع الاتروسكي ـ اللاتيني المرير وكذلك المنافسة الاتروسكية ـ الاغريقية الشديدة ؛ ان كل ذلك قد تناقلته مختلف الأقوام التي سكنت ايطالية منذ القرن الثامن (ق•م) ، وها نحن نرى أصداءه تنعكس في الروايات التي صاغها الكتّاب الاغريقيون واللاتينيون ، اعتباراً من القرن الثالث (ق•م) ، اي بعد قرنين تقريباً من أفول نجم الاتروسكيين •

وما اظهار الملوك الاتروسكيين كمغتصبين عتاة أنهوا حياتهم بشكل مفجع إلا عبارة عن سعي هؤلاء الكتّاب ليشبعوا ذكرى الحكم الاتروسكي وليجحدوا فضل الشعب الاتروسكي على ايطالية بوجه العموم وعلى اللاتيوم وروما بشكل خاص وكل ذلك ارضاء لصلافة النبلاء الرومانيين وتملقاً لغرور الشعب الروماني •

وكم هو كبير الشبه بين حادث *Lucretia* وما نتج منه وبين خطف

---

(١) الكلمة مركبة من *Cum* « مع » و *Latinus* « لاتيني » • أما كيف أصبحت *Collatinus* ، فذلك ناتج عن عمليتي ادغام واعلال • وتقول أيضا *Collaboro* بمعنى « تعاون أو عمل معه » • والأصل هو *(Cum; Laboro)* ••• الخ •
وهذه الظاهرة هي اعتيادية في اللغة اللاتينية وفي غيرها من اللغات •

Paris ابن ملك طروادة ل « هيلينة » ، زوجة ملك اسبارطة ؛ مما أثيار غضب اليونانيين وكان السبب في نشوب حرب طروادة • وكما يقول استاذنا الدكتور كامل عيّاد : « فان البشر يحتاجون دوماً الى الكلمات العاطفية الضخمة حتي يقدموا على التضحية بأنفسهم »[1] •

ولاسم النبيل *Tarquinius Collatinus* الذي أثار الشعب ضد آخر ملك اتروسكي مدلوله أيضاً ؛ فنسبه اللاتيني لايعبّر سوى عن الصراع الاتروسكي ـ اللاتيني وعن دور اللاتينيين في اكراه الاتروسكيين على الجلاء عن اللاتيوم •

لقد قلنا بان الصراع في سبيل السيطرة على اللاتيوم قد سمح للاتروسكيين بالتدخل وبفرض سلطانهم على مختلف الأطراف المتنازعة[2] ، فألّفوا بين مختلف التجمعات السكنية الكائنة على تلال روما وأعطوا للمدينة هذا المركز الممتاز في اللاتيوم ؛ ولقد تمّ ذلك في منتصف القرن السابع (ق•م) ولا كما تزعم الرواية في عام **٧٥٣** (ق•م) •

مما لا شك فيه بأنه كان لموقع روما الجغرافي ، المتوسط من اللاتيوم ومن شبه الجزيرة دوره الحاسم في اختيار المنطقة كنقطة مفضلة على باقي المواقع الايطالية • ويتضّح لنا بعد القاء نظرة خاطفة على مصور ايطاليا الطوبوغرافي ، بأن « المدينة الخالدة » تقع على مفرق مسالك طبيعية ، استخدمت بعد رصفها كطرق عامة تربط روما بمختلف انحاء شبه الجزيرة • ومن أهم تلك الطرق : *Via Aurelia* منطلقاً من روما شمالاً بمحاذاة الساحل الغربي ؛ ويصل *Via Cassia* روما بسهل الو مخترقاً أترورية الداخلية ، بينما يتجه *Via Flaminia* الى الشمال الغربي نحو البحر الادرياتيكي فمقاطعتي Emilia ; Umbria • وينطلق *Via Valeria ;* *Via Salaria* ليربطا عاصمة ايطاليا بالمنطقة الوسطى للبحر الادرياتيكي • أما

---

(١) تاريخ اليونان ، ص ٨١ •

(٢) انظر اعلاه ص ١٧٧ •

Via Appia فينطلق من روما جنوباً محاذياً الساحل الغربي نحو مدينـــة **Capua** ثم يتجه شرقاً نحو مقاطعة **Apulia** ومدينـــة **Brundisium** بينما يتجه ***Via Latina*** مجتازاً السهل اللاتيني نحو مقاطعة **Campania** ؛

وهكذا فان مدينة روما قد انتصبت في بقعة سهلة الاتصـــال بمختلف المناطق المجاورة والبعيدة لشبه الجزيرة الإيطالية ، ولاسيما مع اكبر اقليمين ازدهرت في ربوعهما حضارات رفيعــة منــذ القرن السابع (ق٠م) ، ونعني بهما اترورية واليونان الكبرى ٠

يضاف الى كل ذلك ــ كما ذكرنا ــ ان سيدة اللاتيوم قد تكوّنت من عدة تجمعات سكنية بُنيت على هضاب ، صعبــة المنال لوعورة منحدراتهـا ؛ ولا شك في انه كان لهذا العامل دوره أيضاً في نشوء المدينة ، ولا سيّما بالنسبة لوسائل الدفاع والهجوم في العالم القديم ٠

كما ان روما تقع على « التيبر » ؛ ويكوّن هــذا النهر حاجزاً يفصل شمال اللاتيوم عن جنوبه ٠ ويشكّل هــذا الموقع بقربه من البحــر موضعاً ممتازاً لاقامة أول جسر في سافلة النهر ؛ وفي الواقع ، فمنذ القدم وحتى القرن التاسع عشر ، لم ينشىء الايطاليون جسراً على « التيبرس » في نقطة أدنى الى البحر من روما ٠

وأخيراً فان النهر في قسمه الأسفل ، الذي يربط روما بميناء **Ostia** الواقع على الساحل الغربي ، كان صالحاً للملاحة ؛ مما سهّل اتصال روما بجزر كورسيكة وساردينية وصقلية وكذلك بمختلف بلدان المتوسط الغربي ٠

وهذه العوامل مجتمعة قــد أعطت للموقع مركزه المتـــاز ، وحدت بالاتروسكيين الى جعل منطقة روما نقطــة انطلاقهم لسيطرتهم عــلى اللاتيوم وعلى ايطالية الوسطى والجنوبية ٠ وسيتابع الرومانيون المسيرة بعد اكــراه الاتروسكيين على الرحيل ، جاعلين من مدينتهم سيدة اللاتيوم وعاصمته ، قبل ان يخضعوا أقوام ايطالية الوسطى وينتقلوا تدريجيا ــ خلال قرنين من الزمن ــ الى السيطرة على شبه الجزيرة الايطالية ٠

استناداً الى الروايات اللاتينية واليونانيــة المتأخرة بدأ العهد الملكي في روما عام (٧٥٤ ق•م) وانتهى عام (٥٠٩ ق•م) بسـقوط النظـام الملكي وبطرد الاتروسكيين من روما • وحكم في الفترة الاتروسـكية ـ كما مر معنا ـ ثلاثة ملوك امتدّ حكمهم من عام (٦١٦ الى ٥٠٩ ق•م) •

ولا ريب في انه لا يمكننا بالنسـبة للفترة الاتروسكية ـ الرومانيـــة ان نسلّم بجميع ما جاء في الروايات ؛ بل سنحاول هنا أيضاً اجراء دراسة مقارنة ، معتمدين على مختلف الوثائق والمكتشفات الأثرية ، لايضاح تلك الفترة الغامضة من تاريخ روما واللاتيوم •

تدل الدراسات الأثرية بان منطقة روما في النصف الثاني من القـرن الثامن (ق•م) لم تكن تختلف بقليل أو بكثير عن مختلف مناطق اللاتيوم • فلقد ُعثر هنا وهناك على كِسَر خزفية وأواني برونزية مشابهة لبعضها البعض • وتدل الحفريات أيضاً بأنه حتى النصف الاول من القرن السابع (ق•م) ، لم تكن التجمعات السكنية قـد ازداد عـــددها واتسعت بشـــكل ملحوظ ، رغم ان قطع الأثاث قد راحت تظهر تقـدماً جليـاً وانعكس ذلك خاصةً بالعثور في الطبقات الأثرية العائدة الى تلك الفترة على أواني خزفية جيدة الصنع ، ذات أصل كورنثي • وفي الحقيقة ، بدأت العلاقات المتبادلة بين العالم اليوناني وايطالية تتوطد اعتباراً من القرن السابع (ق•م)• ولقد انتقلت المنتجات اليونانية الى اللاتيوم وروما نتيجة للعلاقات المبـاشرة بـين الإتروسكين وبـين العالم اليوناني ، أو بواسطـة المستعمرات اليونانيـة في ايطالية الجنوبية والجزر الايطالية•[1] •ومن أشهر تلك المستعمرات كانت مدن:
Sybaris , Regium , Cumae , Heraclea , Syracusae , Tarentum
الخ ••• ومن المستعمرات التـي لعبت دوراً مهماً في هذا المجال مدينـــة **Cumae** الواقعة عنـد خليج *Neapolis* ، والتـي يقول عنهـــا المؤرخ والجغرافي (سترابون) بان المهاجرين من مدينــة (خالكيس في جزيــرة

(١) انظر بشأن المستعمرات الاغريقية في « اليونان الكبرى » : الدكتور كامل عياد ، تاريخ اليونان ، ص ٣٤٦ ـ ٣٥٠ •

Euboia)[1] قد أسسوها مع غيرهم من الايونيين حوالي سنة (٧٥٠ ق٠م) ٠ ويعتقد البعض بان الاتروسكيين قد أخذوا حروف أبجديتهم ،التي نقلوها بدورهم الى اللاتينيين في القرن السادس (ق٠م) ٠ عما وجدوه من كتابات لدى الجالية اليونانية في مدينة Cumae .

ونتيجة لنمو العلاقات بين العالمين اليوناني والاتروسكي وبين اللاتيوم وروما ، تطورت مختلف المظاهر الحضارية في روما ٠ ويظهر ذلك جلياً من التحف الأثرية التي عُثر عليها في المستودعات النذرية *Favissae* لعديد من المعابد التي أنشأت على هضبتي *Quirinalis ; Capitolium* وفي منطقة *Forum Boarium* (سوق البقر) ، قرب كنيسة Sant ' Omobono الحالية ٠ ويعود تأسيس تلك الصروح الدينية الى الفترة الواقعة بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن السادس (ق٠م)٠ ويظهر من الأواني الخزفية التي تمّ العثور عليها في المستودعات النذرية وكذلك في أماكن أخرى من روما ، بأنها ذات صنع يوناني وهي ذات أشكال كورنثية أو أيونية أو آتيكية اضافة الى قطع اتروسكية من نوع *Bucchero Nero* وكذلك خزفيات ايطالية بدائية الصنع ٠

وتظهر جميع الآثار والوثائق بان مختلف هضاب روما قد كانت خاضعة في تلك الفترة للتأثيرات الاغريقية والاتروسكية ، مما أدّى الى تطور عمراني واضح ٠ ولكن رغم ذلك ، فلا يمكننا أن نقارن ثراء وأبهة المظاهر العمرانية في روما بما كانت عليه لدى بعض جاراتها في اللاتيوم واتروريـة الجنوبية ، كمدن Praeneste أو Veii أو Chirsa [2] ٠

لقد مرّ معنا بأن أول ملك اتروسكي (ترقوينيوس القديم) قد حكم روما من عام (٦١٦ الى ٥٧٨ ق٠م) وتضيف الرواية بأن آخر ملك أتروسكي قد طُرد من روما مع عائلته عام (٥٠٩ ق٠م) ٠ ويؤكد بعض

---

(١) تقع جزيرة Euboia غربي مقاطعة آتيكة ٠

(٢) انظر اعلاه ص ١١٧ ـ ١١٨ ٠

العلماء اليوم ، استناداً الى مختلف الدراسات ، بان الاتروسكيين لم يمارسوا سلطانهم على اللاتيوم وروما إلا بعد نصف قرن من تاريخ الرواية كما أن زوال نفوذهم قد كان في حدود (٤٧٥ ق•م)[١] •

بالنسبة لهوية الملوك الاتروسكيين ، فان اسم أولهم (ترقوينيوس) مشتق من الاسم الاتروسكي *Tarchu* ، نسبة الى المدينة الاتروسكية *Tarchuna* ولقد قلنا بان اللاتينيين قد أطلقوا عليها اسم Tarquinii [٢]• أما اسم *Lucumon* الذي أُطلق عليه قبل جلوسه على العرش، فلا يعني — كما مرّ معنا — سوى رئيس أو شيخ قبيلة ، وهو لقب حكام المدن الاتروسكية •

ويقول الامبراطور كلوديوس في خطابه الشهير الموجّه الى أعضاء مجلس الشيوخ[٣] عام (٤٨ ميلادي) بان Servius Tullius ، ثاني ملك اتروسكي ليس سوى المحارب الاتروسكي *Mastarna* • وعلى جدران قبر ، اشتهر باسم قبر François ، في مدينة Vulci [٤]، تظهر رسوم عدة محاربين اتروسكيين ، من جملتهم القائد Mastrana وهو يحارب بمؤازرة شخصين هما Caelius ; Aulus Vibenna رجلاً اسمه *Cnaeus Tarquinius* الروماني • إذا كان القبر المشار اليه آنفاً يعود الى النصف الثاني من القرن الثاني (ق•م) ، فان اكتشاف وعاء خزفي اتروسكي من نوع *Bucchero Nero* ، يعود الى القرن السادس (ق•م) قد أكدّ وجود رفيق Mastarna ، ونعني به Aulus Vibenna حيث يظهر اسمه بالاتروسكية على الخزف •

ويفسر بعضهم الصراع بين الملوك الاتروسكيين بالتنافس الشديد بين

---

(1) Bloch R. et Cousin J., *Rome et son Destin*, Armand Colin, Paris, 1960, p. 40

(٢) انظر اعلاه ص ١١٨ •

(٣) انظر اعلاه ص ١١١ •

(٤) انظر اعلاه ص ١١٩ •

مختلف المدن الاتروسكية ، مما أدّى في النهاية الى انهيار الاتحاد الاتروسكي وزوال سيادة المدن الاتروسكية الواحدة تلو الأخرى .

ولا ندري كيف كانت نهاية الحكم الاتروسكي في روما ؟! إذ ليس بحوزتنا سوى الروايات المتأخرة التي تروي كيف زحف ***Porsenna*** حاكم المدينة الاتروسكية **Chamars** على روما وأعاد تنصيب ملكها المخلوع[1] . وكل ما يمكننا قوله ، ان انهيار الحكم الاتروسكي في روما لم يكن عام (٥٠٩ ق.م) ، بل بعد ذلك بنصف قرن تقريباً ؛ اي مع تراجع الاتروسكين أمام مدينة « كوماي » أو بعده ببضعة أعوام[2] .

ان انهيار الحكم الاتروسكي في روما يقترن بأفول نجمهم في ايطاليا الجنوبية أمام الاغريقيين مما شجّع هؤلاء على عقد حلف مع بعض الاقوام اللاتينية ضد النفوذ الاتروسكي في ايطالية الجنوبية والوسطى . وليس صحيحاً ان الاتروسكين قد طُردوا من روما عقب حادثة ***Lucretia*** الأسطورية . ولقد أظهرت الحفريات في بقاع عديدة من روما ، بان المدينة قد تعرضّت لحريق كبير دمرّ احياء بكاملها في الفترة المعاصرة للصراع بين الاتروسكين من جهة وبين اللاتينيين وحلفائهم اليونانيين من جهة أخرى . ولاشك في ان ذلك كان نتيجة للمعارك الطاحنة التي جرت بين الطرفين داخل روما بالذات .

٣ ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العهد الملكي :

حينما تناولنا المناخ والشروط المادية لشبه الجزيرة الايطالية ، قلنا بان تربية المواشي قد احتلت المقام الأول لدى سكان اللاتيوم قبل أن تتطور الاعمال الزراعية وتشرع الزراعة في تشكيل موارد جديدة للثروة[3] . وكان الشعب الروماني يتكوّن من عدة جماعات ، تستثمر كل منها بقعة من الأرض

---

(١) انظر اعلاه ص ١١٩ .

(٢) انظر اعلاه ص ١٢٤ .

(٣) انظر بهذا الشأن اعلاه ، ص ٣٩ ـ ٤٤ .

بصورة مشتركة • اي ان الأرض كانت ملكاً مشاعاً بين مختلف أفراد الجماعة • وكانت الملكية الخاصة تقتصر حينئذٍ على الأدوات المنزلية والاسلحة الشخصية والحلي •

وكان على جميع أفراد الجماعة القادرين على حمل السلاح ، ان يشتركوا في الحروب التي كانت تشكل مورداً اقتصادياً اضافياً هاماً ، تلك الحروب التي لم تكن في الواقع إلا غزو المناطق المجاورة للاستيلاء على الأرزاق وخاصة رؤوس الماشية •

وكان جميع أفراد الجماعة يعتبرون أنفسهم من سلالة جد واحد ، أي أن آثار الطوطمية[1] كانت ما زالت عالقة في اذهان سكان اللاتيوم في ذلك العهد، ولذلك حمل جميع أفراد الجماعة اضافة الى اسمهم الشخصي ولقبهم ، اسم الجد الأول ؛ مثال ***Julii*** من سلالة ***Jule*** ; ***Claudii*** من سلالة Clausus ، الخ ••• ويطلق على الجماعة في اللغة اللاتينية اسم ***Gens*** [2] واسم الجد الأول ***Pater*** • وكان جميع أفراد الجماعة يشتركون في عبادة واحدة ***Sacra Gentilicia*** ، مكرسة لذكرى الجد الأول •

وتتفرع كل جماعة بدورها الى عدة فروع أو أسر ***Familiae*** تعترف كل واحدة منها بسلطة « رب العائلة » ***Paterfamilias*** ، وفي أسر كل جماعة ، أسرة ممتازة على غيرها من أسر الجماعة ، يُطْلَق عليها اسم « الأسرة الكبرى » ، ويُعتبر رئيسها بمثابة الوصي على مختلف الأسر الأخرى • ويتمتع هذا الأخير بسلطات واسعة : فله حق الحياة والموت على مختلف أفراد الجماعة ، ويقبل المولودين الجدد في عداد أفراد الجماعة وله الحق برفضهم • وكان يقبض مهر الفتيات[3] وله الحق بانزال العقاب

---

(١) انظر اعلاه ص ٧٣ •

(٢) تقول اللغة اليونانية ***Genos*** وفي اللغة العربية « جنس » •

(٣) كان الرجال لا يتزوجون نساء من داخل الجماعة،أي ان الزواج الخارجي كان معمولا به وما خطف « السابينيات » الا صدى لذلك (انظر اعلاه ص ٧٣ و ص ١٦٧) •

بمن يخالف تقاليد الجماعة ويمكنه أن يبيع ذكور الجماعة كعبيد الى جماعات أخرى ويتصرف بجميع أملاك وأرزاق الجماعة .

ولقد أدى تطور قوى الانتاج وتراكم غنائم الغزوات الى ثراء بعض الجماعات على حساب جماعات أخرى ، مما أدّى بدوره الى تعاظم أهمية الملكية الخاصة داخل بعض الجماعات .

وفي مطلع العهد الملكي ، برزت في المجتمع الروماني (١٠٠) جماعة عُرفت «بالجماعات الكبر» وتضم أفراد الطبقة الثرية . وكانت تلك الجماعات تتمتع بمختلف الحقوق التي مرّ ذكرها . والى جانبها « جماعات صغر » بلغ عددها (١٦٠) جماعة في القرن الخامس (ق.م) ، ولقد حُرِم أفرادها الذين شكلوا طبقة العوام Plebs ، من مختلف حقوقهم كما سنرى .

ان عدم المساواة التي وزّعت الجماعات الى كبرى وصغرى قد برزت أيضا داخل كل جماعة على حدة . فلقد تمكّن بعض أفراد الجماعة ، بفضل مراكزهم الاجتماعية والدينية الخ ... من مصادرة أملاك الجماعة (الأرض المشاع ، أملاك المعابد ، غنائم الغزوات) لحسابهم وأخضعوا باقي أفراد الجماعة لسطوتهم . وأصبح يطلق على الآخرين اسم (أتباع) Clientes .
ولقد ازداد عدد « الجماعات الكبر » تدريجيا فشكلّت ثلاث قبائل .
ولقد تشكلت « الجماعات الكبر» الأولى من السابينيين قبل أن يشكل الأتروسكيون « جماعات كبر » أخرى .

أما الاتباع ، فكانوا غالبا من السابينيين المعدمين اضافة الى بعض الأجانب الذين خضعوا لسلطان « الجماعات الكبر » بصورة أو بأخرى . أما « الجماعات الصغر » فكان جل أفرادها من اللاتينيين المغلوبين على أمرهم .
وكان اتباع كل جماعة يرتبطون بأعيان جماعتهم وكان لهم حقوق وعليهم واجبات . ويُطلق على الثري أو النبيل الذي يحمي اتباعه اسم Patronus فهو الذي يحميهم ويدافع عنهم أمام القضاء . ويحق له أن يخصص

لبعض أتباعه ، قطعا من أراضيه لكي يستثمروها ؛ ولكن هذه الاراضي لا تصبح ملكا للاتباع بل تظلّ حقوقيا ملكا للحامي •

ومقابل ذلك ، كان على التابع أن يخضع لحاميه في كل شيء : فيخدم في بيته ويحارب تحت امرته • وكان على الاتباع ان يشتركوا في دفع فدية حاميهم إذا وقع أسيرا ، كما انهم يساعدون في مهر بنات حاميهم لدى زواجهن •

وكان يحق للتابع ان يشترك في الطقوس الدينية المخصصة لعائلة الحامي وللجماعة التي ينتسب اليها حاميهم • وهذا أمر حُرِم منه أفراد طبقة العوام •

وسيصبح هؤلاء الاتباع ، الذين كانوا يعيشون حياة طفيلية ، قوة ضاربة بيد النبلاء ضد طبقة العوام فيما بعد •

ان ظهور فئتين متفاوتتي الحقوق داخل كل جماعة من « الجماعات الكبر » لا يعني سوى تفسخ وانحلال نظام المشاعية القديم • ولقد تأكد هذا التفاوت الطبقي ببروز طبقة العوام •

ويعتقد بأن اللاتينيين المغلوبين على أمرهم ، مع من انضم اليهم من أفراد معدمين من المناطق المجاورة قد شكلوا القسم الأعظم من تلك الطبقة• وكان أفرادها في تلك الفترة محرومين من مختلف الامتيازات المادية ويقيمون في الريف ويكدّون بعرق جبينهم لحساب النبلاء ، بينما تمتّع الاتباع الذين عاشوا في المدن في ظلّ حماتهم النبلاء ببحبوحة نسبية •

وبخلاف النبلاء الذين كانوا يفاخرون بأجدادهم وبنسلهم، ويمارسون مختلف الصلاحيات الدينية والسياسية ، فلم يكن لأفراد طبقة العوام ، ذوي النسب المجهول ، أي حق سياسي أو ديني • اذ انه لم يكن لعائلات العوام جدّ أوّل ، ذو نسب الهي ، يعبدونه ،كما كان الحال بالنسبة للنبلاء • بل ان التقاليد والأعراف التي كانت سائدة ، لم تكن تعترف على عقد زواج أفراد

طبقة العوام • ولقد حُرِّم على العوام ان يقترنوا بنساء من الطبقة الأولى ، ولقد نُظر بشذر الى أي فردٍ من الطبقة النبيلة إذا ما حاول الاتصال الوثيق بأفراد طبقة العوام •

وشكّلت طبقة العوام السواد الأعظم من المجتمع • ولقد مارس بعض أفرادها الذين تسرّبوا الى المدن بعض الأعمال الحرفية ، الى جانب أقرانهم الذين كانوا يكدحون في الريف •

ولم تكن الأرض ـ بشكل عام ـ ملكا للفلاح الذي يحرثها ، إذ كان النبلاء قد استولوا منذ مطلع العهد الملكي على القسم الاكبر من الأراضي الصالحة للزراعة وراحوا يؤجرونها لأفراد طبقة العوام • وكثيرا ما عجز الفلاحون المستأجرون عن الوفاء بالتزاماتهم تجاه النبلاء ، مالكي الاراضي• وفي تلك الحالة ، كان يحق لمالك الأرض أن يستولي على « كيان المستأجر المفلس » ، وبتعبير آخر ، يحكم عليه بفقدان حريته ويجعله عبدا له • ولقد ذكرنا[1] بأن الأرض قد قُسِّمت منذ مطلع العهد الملكي الى ثلاث فئات : *Ager Privatus , Ager Regius , Ager Publicus* .

ويأتينا في أسفل السلّم الاجتماعي طبقة العبيد والمعتقين • وأهم مصادر الرقيق في تلك الفترة هي :

أ) الرقيق بالولادة ويطلق عليه اسم *Verna* . والطفل الوليد يتبع عادة وضع أمه الحقوقي فاذا كانت حرة فهو حر وإذا كانت أمة فهو رقيق •

ب) بمقتضى سلطته المطلقة على أملاك العائلة وأفرادها ، كان يحق لرب العائلة أن يبيع أولاده كعبيد ، لمدى الحياة أو لفترة محددة • ولقد قيّدت فيما بعد قوانين « الألواح الاثنا عشر » سلطة الوالد المطلقة ، عندما نصّت احدى المواد على أنه لا يحق للأب ان يبيع ابنه أكثر من ثلاث مرات، حيث يفقد الأب بعد ذلك ، سلطته على ابنه ، الذي يصبح حر التصرف بشخصه[2] •

---

(١) انظر أعلاه ص ٤١ •

(2) Ulpianus, *Fragm.*, X, 1.

ج) عدم الاعتراف بالولد : تقضي العادة أن يحمل الأب ابنه الوليد في اليوم التاسع من ميلاده (اما بالنسبة للابنة فيكون اليوم الثامن) ، وذلك دلالةً على الاعتراف بالوليد • ويحق للأب ان يمتنع عن ذلك ومعنى ذلك انه رفض الاعتراف بالوليد كابنه • وحينئذٍ يهمل الطفل على رصيف الشارع فيهلك أو يلتقطه أي انسان ويجعله عبدا •

د) رقيق الدين : إذا عجز انسان حر من طبقة العوام من قضاء دينه فعند ذلك يرهن نفسه أو أولاده أو زوجته لدى دائنه ، ويتحول عند ذلك الرهين الى عبد • وتقول احدى مواد « الألواح الاثنا عشر » بانه إذا وُجد عدة دائنين فيحق لهم ان يتوازعوا النفس الرهينة وذلك بتقطيع الجسد وبتقاسمهم إياه • ويقول تيطوس ليويوس بأن هذا النوع من الرقيق قد أُلْغي بموجب قانون صدر (عام ٣٢٦ ق•م) • ولكن المؤرخ الروماني يضيف بأنه ليس من المؤكد أن القانون أُحْتُرم دائماً[١] •

هـ) إذا لم يسجل الروماني نفسه على لائحة المواطنين الأحرار أثناء الاحصاء العام الذي يشرف عليه المراقبان المنتخبان،كل خمس سنوات ، فانه يتحول الى رقيق • وكذلك المواطن الذي يرفض اداء الخدمة العسكرية ، فانه يقع تحت طائلة العقاب ويحكم عليه بالعبودية[٢]

ولم يشتهر هذا النوع من الرق إلا اعتبارا من مطلع العصر الجمهوري•

تلك كانت أهم المصادر الداخلية للارقاء في المجتمع الروماني ، في العهد الملكي وفي القرون الأولى من العصر الجمهوري • ولكن السواد الأعظم من العبيد كان ناجما عن مصدرين خارجيين ، ونعني بهما الحروب والقرصنة •

أ) يتحول الانسان الحر الى رقيق بمجرد وقوعه أسيرا في الحرب • وستشكل الحروب المصدر الأساسي للرق في العهد الجمهوري •

(1) Liv., II, XXIII, 1; *Ibid.*, VIII, XXVIII, 1; cf. Sall., *Cat.*, XXXIII.
(2) Val. Max. VI, III, 4.

ب) لم يعرف القدماء قانونا دوليا للأحوال الشخصية • وبمجرد خروج الانسان الحر خارج حدود وطنه ، كان عرضة للقرصنة ، ومصادرة الاشخاص الأحرار وبيعهم كارقاء كان أمرا مألوفا لدى القدماء • والقوة وحدها هي التي تحمي الانسان الحر البعيد عن شعبه وبلاده • وسيظل القراصنة يعيثون فسادا في مختلف أرجاء البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية العهد الجمهوري • وكانوا يسطون على الشواطىء ويختطفون السكان ويبيعونهم كعبيد في البلدان البعيدة •

ويحق لمالك الرقيق ان يعتق عبده • ويحمل العتيق *Libertus* والحالة هذه ، الى جانب اسمه العبدي اسم سيده القديم • ولا يحق للعتيق كالعبد ، ان يكوّن عائلة ؛ أي أن القانون لا يعترف بزواجه ، الذي لم يكن يُنْظَر اليه إلا كنوع من التسرّر • أما من الناحية الاقتصادية فانه يعمل لحسابه الخاص ، ويصبح أولاده اناساً أحراراً يتمتعون بجميع امتيازات الانسان الحر •

أما بالنسبة لوضع المرأةفانها كانت ــ كالمرأة اليونانية ماعدا فياسبارطة ــ أدنى منزلة مما كانت عليه المرأة الاتروسكية • وهذا ما حدا ــ كما قلنا[1] ــ بالكتاب الاغريقيين واللاتينيين الى تشويه سمعة المرأة الاتروسكية • ولم تشارك المرأة الرومانية زوجها في نشاطاته الاجتماعية ، كما أن دورها الاقتصادي كان معدوماً •

ذكرنا بأن الروايات قد نسبت الى الملك الاتروسكي Servius Tullius (٥٧٨ ــ ٥٣٤ ق • م) توزيع أفراد المجتمع الروماني على خمس فئاتبحسب الثروة لا بموجب النسبويُعْتَقَد اليومبأن التنظيم الجديد لم يحدث إلا في أواخر القرن السادس (ق ، م) • وعلى كل فمن المؤكد ان الاتروسكيين هم الذين أحدثوا الترتيب الاجتماعي الجديد • ويقول الفيلسوف الاشتراكي (فريدريش انجلز) في هذا الشأن : « وفي

(١) انظر اعلاه ص ١٤٠ •

روما ايضا وقبل الغـاء « النظـام الملكي » المزعوم ، جرى تقويض الترتيب الاجتماعي القائم على قرابة الدم وحلّ عوضاً عنه تنظيم دولة جديدة ، ولقد أقيم هذا التنظيم استناداً الى مناطق السكنى والى التباين في الثروات ».[1]

لا شك بأن اتخاذ الثروات كأساس لتصنيف المجتمع الروماني عوضاً عن النسب ، لا شك بأن هذا الاجراء بحد ذاته هو خطوة تقدمية وضربة عنيفة للطبقات النبيلة القديمة ، التي تستمد نفوذها ، والى درجة كبـيرة ، مـن حسبها ونسبها .

ولقد اقترن تصنيف الافراد حسب ثرواتهم بتوزيع جديد للسكان . فعوضاً عن القبائل الثلاث الاول التي كانت تتكون من النبلاء فقط ، وزّع التنظيم الجديد المواطنين الرومانيين ، من نبلاء واتباع وعوام على وحـدات سكنية ، دون الاخذ بعين الاعتبار العلاقات القبلية القديمة . وبذلك وُجّهت ضربة أخرى للطبقة النبيلة التي كانت تستمدّ قوتها من العصبيات القبليـة القديمة .

ولقد رأينا بأن آلاثينين صولون وقليستينس قـد اتخـذا اجراءات مماثلة بهدف أضعاف نفوذ الطبقة النبيلة في آثينة .

ولا شك في أن الدافع الاساسي الذي حدا بالاتروسكيين الى سن التشريع الجديد ، كان احتداد الصراع بـين طبقـة العوام التي ازداد دور أفرادها الاقتصادي في المجتمع وبين النبلاء ، الذين فقدوا كثيراً من سطوتهـم أبّان السيطرة الاتروسكية .

ان الانتقال من حياة البداوة الى الاستقرار ومن الرعي الى الزراعة قد ساهم في نشوء الحرف مما ادّى بدوره الى نمو طبقة الحرفيين في المـدن . ولا شك في أن معظم الحرفيين كانوا مـن العوام ، الذين اضطروا الى ترك

---

(1) Engels, F., *L'origine de la famille, de la propriété privée et de l'Etat*, Editions Sociales, Paris, 1954, p. 120.

الريف ، لسبب أو لآخر ، وخاصة بعد أن وضع النبلاء أيديهم على القسم الاكبر مـن الاراضي الصالحة للزراعـة ، تلك الاراضي التي كانت ملكاً مشاعاً قبل أن يتفسخ «نظام المشاعية البدائية» مولداً المجتمع الطبقي بمختلف خواصه .

ولا ريب في أن الاتروسكين قدساهموا بدورهم أيضاً في أضعاف سطوة النبلاء الرومانيين الذين كانوا غالباً من السابنيين ، اذ لا فرق بالنسبة للسادة الجدد بين النبلاء ، والعوام، بل بالعكس، فلقد كان من مصلحة الاتروسكيين أن تخفّف وطأة النبلاء على العوام وان يخفّ استثمار أولئك لهؤلاء . ولقد اعتبر الاتروسكيون جميع سكان روما كرعايا لهم ، مهما كانت الطبقة التي ينتمون اليها . أي أن الاتروسكيين قد رفضوا الاعتراف لنبلاء روما القدماء بامتيازات خاصة ناجمة عن أصلهم وشرف نسبهم ، ولذلك أحـدثوا النظام الجديد وصنفوا السكان الى فئات بموجب ثرواتهم ولا بمقتضى حسبهم ونسبهم .

لا شك في أن تلك الخطوة قد لعبت دوراً كبـيراً في تطور المجتمـع وذلك بفتح الابواب أمام الجميع ولكن مما لاريب فيه أيضاً انها أدّت الى ازدياد حنق النبلاء الرومانيـين على السادة الدخـلاء ، مما يفسّر لنا جزئياً مقاومتهم للاتروسكيـين ثم بـذل ما في وسعهم فيما بعـد للتشهـير بالفترة الاتروسكية وبحكّامها .

الى جانب بعض أفراد من العوام الـذين تسربوا الى المدينـة وعملوا كحرفيين ، نجـد العتقاء يلعبون دورهم أيضاً في ميـدان الصناعة الناشئة .

تنسب الرواية الاسطورية الى أول ملك سابيني Numa Pompilius (٧١٥ ـ ٦٧٢ ق . م) تنظيم النقابات الحرفية الاولية وتذكرها كما يلي : نقابات الموسيقيين والصاغة وعمال البناء والصباغـين والحذائين والدبّاغـين والحدّادين والخزّافـين وكان لكل نقابـة اله خاص بها يحمي أفرادهـا ويرعى أمورهم ومصالحهم .

٤ ـ أجهزة الحكم والادارة والجيش :

كما رأيناه كان المجتمع الروماني في العهد الملكي، كباقي مجتمعات العالم القديم موزعا على عـدة طبقات • ولقد انقسم المجتمع الى فئتين أساسيتين : فئة الرجال الاحرار وفئة ثانية ضمت طبقة الارقاء•أما فئة الرجال الاحرار، فتتشعب بدورها الى عدة طبقات :

أ) طبقة النبلاء •

ب) طبقة الاتباع •

ج) طبقة العوام •

د) طبقة العتقاء •

ولقد حُرمت طبقتا العبيد والعتقاء من ممارسة أي حق سياسي ، بينما تفاوتت الصلاحيات الممنوحة لكل من الطبقات الثلاث الاخرى كما سنرى فيما بعد •

ولقد تمثّل الحكم في تلك الفترة بثلاثة عناصر أساسية :

أ) الملك •

ب) مجلس الشيوخ •.

ج) الجمعيات الشعبية أو مجلس الجماعات •

أ) الملك : ولقد ذكرنا بأن الاتروسكين قد لعبوا دوراً كبيراً في ايجاد المنظمات السياسية الاولى في روما[1]•

عندما ذكرنا الملوك السبعة الذين حكموا روما ، رأينا بأن الصراع قد نشب بين اللاتينيين والسابينيين على تعيين خلف لرومولوس بعد اختفائه أثناء عاصفة هوجاء • ولقد تمّ الاتفاق فيما بعد على أن ينتخب الـلاتينيون

---

(١) انظر أعلاه ص ١٢٨ ـ ١٢٩ •

ملكاً من السابينيين ، وهكذا صعد الى العرش ثلاثة ملوك سابينيين تمّ انتخابهم من قبل اللاتينيين • ولقد أضفنا بأن الرومانيين قد حاولوا فيما بعد، تصوير خضوع اللاتينيين للسابينيين على أنه اتفاق بين الطرفين •

أما بالنسبة للملوك الاتروسكيين الثلاثة ، فمعلوماتنا عنهم ماز الت غير مؤكدة تماماً • ومن الملاحظ ، أن الكتّاب الرومانيين قد صوروهم فيما بعد كمغتصبين ، مما يفيد أن انتخاب الملوك قد كان معترفاً به قبل السيطرة الاتروسكية على اللاتيوم •

وهكذا،فيما يخص بعض الملوك،فلقد تمّ صعودهم على العرش بصورة انتخابية ، أي أن الملكية لم تكن وراثية • وتقتضي عملية انتخاب الملك عدة مراحل : فبعد موت الملك تعود جميع سلطاته ولفترة مؤقتة الى مجلس الشيوخ ، حث يمارس كل عضو من الشيوخ صلاحيات الملك لمدة خمسة أيام ، ويطلق على فترة « خلو كرسي الملك » اسم *Interregnum* . ويتناوب الشيوخ في ممارسة الصلاحيات الملكية حتى يتم انتخاب ملك جديد • ويطلق على الشيخ الذي يمارس الصلاحيات الملكية اسم *Interrex* واثناء ممارسة الشيخ لصلاحياته ، يستطلع ارادة الآلهة لتعيين شخص يتحلى بصفات *virtus ac potentia* (أي الفضيلة والعزة) • وقد تكرّر العملية عدة مرات قبل أن تتراءى الارادة الالهية وتشير الى شخص معيّن ويُطلق عليه حينئذ اسم *Designatus* (أي المختار) • ولكن الشخص المختار لا يصبح ملكا شرعيا ، الا بعد ان يجمع مجلس الجماعات ويرجو الجماعات بالموافقة على تعيينه • وتتمّ الموافقة لا بالتصويت بل بهتاف جماعي للمختار من قبل الالهة *acclamatio* ويصدر بعد ذلك عن مجلس الجماعات قانون *lex curiata* يمنح الملك بموجبه « السلطان المطلق *imperium* » .

يلاحظ بأن مجلس الشيوخ هو الذي يعيّن المرشح لمنصب الملك ، وتتم موافقة مجلس الجماعات على الشخص « المختار » بعد ذلك بالهتاف له ، أي أن مجلس الشيوخ كان يتمتع بالسلطة الفعلية ، بعكس مجلس

الجماعات الـذي كان يوافق أو يرفض دون مناقشة عـلى قرارات مجلس الشيوخ •

ويقول المؤرخ اللاتيني تيوطوس ليويوس[1] بأن الملوك الاتروسكيين كانوا مغتصبين لانهم لم يحترموا الاجراءات الانتخابية المتعارف عليها •

ويمارس الملك المنتخب بمقتضى « السلطان المطلق » ***imperium*** . سلطات واسعة : من دينية وعسكرية وقضائية ومدنية •

ويعتبر الملك الوسيط بين الآلهة ورعاياه • وهو الذي يستطلع ارادة الآلهة ويرأس مراسم التضحية المكرسة لها وينظم التقويم السنوي بتحديده الأعياد الخ •••

ويرأس الملك الجيش اثناء المعارك ويحدد مقدار الغرامات المفروضة على الأعداء ويرأس القضاء العسكري • ولكن لا يحق له أن يعقد بمفرده السلم أو أن يعلن حالة الحرب •

ولقد اقتصرت سلطاته القضائية على النظر بالجرائم والمخالفـات التي تمس ّ سلامة الدولة والوطن: كالخيانة العظمى والعصيان المدني والعسكري• وكان يحق له أن يسـّن بعض القوانين التي لا تتعارض والتقاليد والعـادات المتعارف عليها • أما بالنسبة لباقي القضايا المدنية ، فلقد كـان 'ينْظَـر فيهـا داخل الجماعات • ولا يتدخل الملك إلا إذا نشأ خلاف بين جماعة وأخرى وأدّى هذا الخلاف الى تهديد سلامة « الشعب الروماني » •

من الناحية المدنية ، كان رئيس « الشعب » ويرأس جلسات مجلس الشيوخ وهو الذي يعـّين أعضاء مجلس الشيوخ • وهو الذي يدعو مجلس الجماعات للاجتماع ويرأس جلسات هذا المجلس •

رغم ان سلطات الملك كانت ــ كما نلاحظ ــ واسعة ، فلم يكن بامكانه ان يستبدّ برأيه ويحكم بصورة مغايرة للتقاليد والعادات • وكان عليه قبل

(1) Liv., I, XLVII, 10.

القيام بعمل مهم ان يستطلع ارادة الآلهة *auspicatio* ، لأنـه لم يصبـح ملكاً ، إلا لأن الآلهة أوصت بذلك بعد استشارتها ، فسلطـات الملك ليست نابعة إذاً من شخصه بالذات أو من نسبه أو عائلته ، بل من ارادة الآلهة . ولذلك كانت شعاراته ذات مدلول الهي : فهو كالقائـد الاتروسكي الـذي أنعمت الآلهة عليه بالنصر ، يلبس ثوباً أحمر ويتوجون رأسه باكليل ذهبي ويحمل صولجاناً عاجياً يعلوه نسر باسط الجناحين منطلقـاً نحـو أعـالي السموات ، ويتنقل محمولا على كرسي عاجي يحمله اثنا عشر حارساً من حاملي الفؤوس المحزومة *Lictores* (١) .

ب ــ مجلس الشيوخ : ويشكل مجلس الشيوخ *Senatus* الى جانب الملك مؤسسة هامة ستزداد أهميتها في العصر الجمهوري لتصبح الجهاز الأساسي للحكم في مدينة روما .

وليس مؤكداً كما جاء في الروايات المتأخرة أن مجلس الشيوخ كان مؤلفاً في الفترة الملكيـة من (٣٠٠) عضو ، إذ لم يضمّ هـذا المجلس في صفوفه ، في بادىء الأمر سـوى رؤسـاء الاسر الكبيرة *Patres* أو كمـا يقولون « شيوخها » *Senes* . إذ ان عدد الأعضاء كان يختلف بـاختلاف عدد العائلات النبيلة الأولى . وتضيف الروايات بانه اعتباراً من عهـد الملك الاتروسكي (ترقوينيوس القديم) بدأ الملك يعيّن أعضاء مجلس الشيوخ . وأصبح يُطلَق على أعضاء المجلس اسم *Patres Conscripti* أي « الآباء المسجلين على اللائحة » .

ومجلس الشيوخ ، كما رأينا ، هو الذي يشير على مجلس الجماعات بالشخص « المختار من الآلهة » لمنصب الملك . كما انه يمارس السلطـات الملكية بعد موت الملك أو زواله لسبب أو لآخر . وكان على الملك أن يستشير المجلس في القضايا المهمة ، وكان من واجب المجلس أن يصدق النصيحـة

---

(١) ان الاثر الاتروسكي واضح في جميع هذه العلامات . انظر بشأن ذلك ، اعلاه ص ١٢٨ــ١٢٩ .

له . و'يعتبر مجلس الشيوخ المحافظ الأكبر على « تقاليد consilium
الأجداد » mos majorum ويعطيه هذا الامتياز سلاحاً رهيباً في يديه
ـ كما سنرى ـ وسيتمكن المجلس في الفترة الجمهورية من احباط مختلف
المشاريع الاصلاحية بحجة المحافظة على العرف والتقاليد والعادات القديمة .
وبمقتضى « سلطة الآباء patrum auctoritas كان يشرف على قرارات
مجلس الجماعات . والزيادة [1] تعني القدرة على النظر في قرار شعبي
لمجلس الجماعات ، لا يعلنه مجلس الشيوخ إلا بعد دراسته . ويحق له
ان يعدله ، كما انه يحق لمجلس الشيوخ ان لا ينشره وبتعبير آخر يحق
له ان يلغي القرار الشعبي .

إذا كان الملك يمثل الظاهر الملكي ومجلس الشيوخ الظاهر
الارستقراطي فان الظاهر الديمقراطي يتمثل في الجمعيات الشعبية أو
مجلس الجماعات Comitia curiata .

ج ـ مجلس الجماعات : جاء في الروايات المتأخرة ان الملك اللاتيني
« رومولوس » كان قد وزّع سكان مدينة روما على ثلاث قبائل وهي
Tities ; Ramnes ; Luceres . وتنقسم كل قبيلة الى عشر وحدات
'يطلق على على كل واحدة منها اسم Curia [2] .

يعتقد بأن اسماء القبائل هي إسماء اتروسكية . وعلى كل ، ليس
صحيحاً بأن تقسيم الشعب الروماني يعود الى فترة الملك الخرافي «رومولوس» .
من الملاحظ أن أقوام القبائل الثلاث تختلف عرقياً وسكنت كل قبيلة في
منطقة خاصة بها : فوحدات قبيلة Ramnes كانت لاتينية الأصل وأقامت
على تل Palatium ؛ بينما ضمت قبيلة Tities السابينيين الذين أقاموا
على تل Esquilinus ، وشكّل الاتروسكيون فيما بعد قبيلة Luceres

(١) المعنى الاشتقاقي لكلمة auctoritas هو الزيادة في الشيء ، من الفعل اللاتيني augere أي زاد الامر أو الشيء قيمة .

(٢) تطلق كلمة Curia على احدى وحدات القبيلة ، كما انها تطلق على المكان الذي تجتمع فيه الجمعيات الشعبية وكذلك على مجلس الشيوخ وعلى المكان الذي يعقد فيه المجلس جلساته .

واختاروا هضبة Janicularis [1] لاقامتهم وتقع تلك الهضبة غربي نهر « التيبرس » بعكس الهضاب السبع الأخرى الواقعة شرقي النهر الذي يشطر روما الى قسمين [2] .

وهكذا ، كان الشعب *Populus* يتألف من ثلاثين وحدة تنضوي تحت لواء ثلاث قبائل . وتضم هذه الوحدات أفراد الأسر النبيلة من « الجماعات الكبر » اضافة الى اتباعهم ، بينما حُرم من ذلك أفراد طبقة العوام *multitudo* تلك الطبقة التي أطْلِق على أفرادها اسم *Plebs* بمعنى « جمهور غير منتظم » . وكانت تلك الجمعيات توافق بالهتاف ، أي بدون تصويت فعلي ، للشخص الذي اختاره مجلس الشيوخ ليكون ملكاً وتمنحه باسم الشعب (النبلاء والاتباع) السلطان المطلق *imperium* . ويرى البعض في تلك الجمعيات أقدم مؤسسة في روما ؛ أي أن وجودها سبق بروز مجلس الشيوخ والملك .

كان يحق لتلك الجمعيات ، قانونياً ، ان تعلن حالة الحرب وتعقد السلم كما انها تصوت على بعض مشاريع تتعلق بشؤون الأحوال المدنية والقضائية وتصدرها بعد التصويت عليها بقوانين . ولا يمكننا في الواقع أن نحدد صلاحياتها بشكل واضح ، بالنسبة لتلك الفترة الغامضة من تاريخ روما .

وتجتمع تلك الجمعيات بناء على دعوة موجهة اليها من الملك . ويحق للكاهن الأعظم *Pontifex Maximus* ان يرأس اجتماعاتها عندما يطرح أمامها مناقشة الأمور المتعلقة بالدين .

---

(١) نجد الابروسكنين أيضاً على هضبة Caelius .

(٢) ما زال النقاش مستمرا حول أصل القبائل واسمائها وتكوينها العرقي الخ ... ويقول البعض ان تقسيم القبائل قديم جداً وان اسم Tribus (قبيلة) له صلة بالعدد Tres (ثلاثة) ويرى ان تقسيم القبائل الى عشر وحدات هي ظاهرة ليست بغريبة على ايطالية القديمة وخاصة لدى شعوب سكنت ايطالية منذ القدم كالأقوام الاومبرية ـ السابلية (انظر أعلاه ص ١٠٤) . كما ان البعض الآخر يرى بأن أفراد كل قبيلة قد اختصوا بأعمال معينة : فقبيلة عمل أفرادها بالزراعة بينما كان أفراد قبيلة أخرى محاربين الخ ...

لم يكن دور تلك الجمعيات كبيراً ، كما نلاحظ ، وخاصة اذا ما قارناه بصلاحيات مجلس الشيوخ والملك • وسيتضاءل دورها فيما بعد ، بعد احداث التصنيف الذي نُسب الى الملك الاتروسكي *Servius Tullius* . وسنتطرق الى هذا التصنيف الجديد للسكان ، حسب ثرواتهم ، اثناء دراستنا للعصر الجمهوري •

الجيش : تكوّن الجيش في العهد الملكي استناداً الى التنظيم القبلي ، اي ان « الجماعات الكبر » بنبلائها واتباعهم كانت الأساس في تأليف الجيش• وكان من المفروض أن تقدم كل قبيلة من القبائل الثلاث (١٠٠٠) جندي راجل و (١٠٠) فارس ، أي ان كل وحدة من مجموع الثلاثين وحدة تتمثل في الجيش بمئة جندي راجل وبعشرة فرسان ، وبذلك يكون مجموع الجيش (٣٠٠٠) جندي راجل و (٣٠٠) فارس •

ان معلوماتنا عن الجيش الملكي غير مؤكدة وخاصة بالنسبة للفترة الأخيرة عندما أحْدِث التصنيف الجديد الذي نسب الى الملك Servius Tullius أي عندما اصبح توزيع المواطنين ، حسب ثرواتهم ، أساساً لتكوين الجيش •

لقد ضمّ سلاح الفرسان في البدء النبلاء فقط بينما انخرط في فرق المشاة الاتباع الى جانب حماتهم النبلاء • ولم يكن سلاح الجيش موحداً وكانوا يستعملون الاسلحة البرونزية والحديدية •

٥ ـ المعتقدات والمؤسسات الدينية في طورها الأولي :

ان معلوماتنا في هذا الباب ليست أكيدة تماماً ، ولكن يمكننا أن نميّز منذ العهد الملكي ثلاثة أصناف من العبادات :

أ) العبادات العائلية •

ب) العبادات العامة •

جـ) العبادات الشعبية •

وليس صحيحاً ما تنسبه الروايات المتأخرة الى الملك السابيني Numa Pompilius من تأسيس مختلف قواعد الديانة الرومانية • فكان اللايتوم وروما قد مارسوا ، منذ القديم،مختلف العبادات الطوطمية واعتقدوا بقوى ما وراء الطبيعة التي تهيمن على حياة البشر وعلى مختلف المظاهر الطبيعة كالبراكين والزلازل والنار والهواء والمطر الخ ••• ولقد صنّف الرومانيون قوى ما وراء الطبيعة الى فئتين أساسيتين : فئة محسنة ومباركة وأخرى مضرة ومؤذية • ومن صفات الروماني الاساسية ، كما ذكرنا ، اعتقاده بالخرافات كما ان معتقداته قد تأثرت بشكل جلّي بمختلف مظاهر الحياة لزراعية[1]•

آ) **العبادات العائلية** *sacra familiaria* :

ويمكننا أن نترجم كلمة *sacra* اللاتينية « بالامور الحرم » • ولا يمكن إنتهاك حرمة شيء أو انسان بالمس دون أن يُصاب المنتهك بأذى •

وكانت تلك العبادات مقتصرة على الاسر النبيلة ويحق لرب العائلة كما ذكرنا أن يشرك اتباعه فيها ، بينما كان أفراد طبقة العوام محرومين منها ، إذ كما مرّ معنا ، كان العوام يعيشون خارج التنظيم العائلي ، أي أن المجتمع لا يعترف على عائلات العوام • ولقد قامت العبادات العائلية على الاعتقاد بخلود الروح ، وتجلّت بطقوس مختلفة :

١) عبادة الجدّ الاول : ذكرنا بأن العائلات النبيلة قد انضوت كل منها تحت لواء « جماعة » معينة يعود أفرادها بنسبهم الى جد واحد • وكان الجدّ الاول ذكر بشكل عام ، ما عدا جماعة *Julia* التي تعود بأصلها الى الآلهة Venus ، جدة Askanios مؤسس مدينة آلبا الذي اشتهر فيما بعد باسم Jule .

٢) عبادة البيت : كان لكل بيت نبيل رب يحميه يطلق عليه اسم

---

(١) انظر أعلاه ص ٤٣ •

Lar familiaris • وتجري طقوس عبادة « رب البيت » في المعبد المنزلي حيث ينتصب مذبح يحتوي في قسمه العلوي على موقد تشتعل فيه بدون انقطاع النار المقدسة • ولا يجوز ان تنطفيء هذه النار وإلا تعرّض المنزل وأهله للمصائب ونزلت بهم النوازل • وإضافة للمذبح ، يوجد محراب في احدى جدران المعبد يحتوي على تماثيل صغيرة من الشمع لرب البيت ولمعاونيه ألقي على عاتقهما السهر على مؤن المنزل •

٣) عبادة الاموات : ولقد أُقْتُبِسَت طقوس تلك العبادة الى درجة كبيرة من الاتروسكيين • ومنشأ تلك العبادة الرهبة من الامـوات ومن أرواحها • ولقد اعتقد الرومانيون ، كغيرهم من الاقوام في العالم القديم ، بأن روح الميت تصبح شريرة بعد مفارقتها الجسد • وكان على الاحياء القيام ببعض الطقوس تهدئةً لتلك الارواح الشريرة وتحاشيا لضغائنها •

ولقد كانوا يكرّمون الميت في المنزل بأن يقدموا لروحه الازهار والاطعمة في يوم ميلاده • كما انها كانت تجري طقوس مكرسة لجميع أموات المدينة ، في « عيد الاموات »*Feralia* . وتدوم هذه الاعياد تسعة أيام بكاملها (من ١٣ وحتى ٢١ شباط) من كل سنة ، تتوقف خلالها مختلف النشاطات الاقتصادية وتعطل الدوائر الرسمية ، كما أنه يُحرّم اجراء عقود الزواج وتُغلّق أبواب المعابد •

وتجري اعتباراً من الخامس عشر لشهر أيار ولمدة ستة أيام طقوس مأتمية عامة ، تلافياً لمضار « الاشباح »*larvae* وهي أرواح الموتى المجرمين وأرواح ضحاياهم • وتبدأ الطقوس بأن تلقي كاهنات الآلهة Vesta من جسر Sublicius في مياه نهر « التيبرس » بثلاثين مثال من الصفصاف تمثل أشخاصاً طاعنين في السن • ويرى البعض في هذا الطقس آثار عادة تضحية البشر ، تلك العادة التي مارستها أغلبية الشعوب في العصور الاولى •

٤) عبادة الملاك الحارس *Genius* [1]: اعتقد الرومانيون بأنه يوجد

---

(١) ونقول في العربية : جنّي وجنية وجمعها الجن بعكس الانس •

بجانب كل انسان في حياته مخلوق غير منظور يسهر عليه ويساعده في الملمّات • ولقد صوروا غالباً هذا الكائن المزعوم على شكل خفث (حية ضخمة غير مؤذية) • ويبرز هذا المخلوق الى الوجود مع الوليد ويتلاشى بعد موت الانسان •

وكان يشرف على تلك العبادات رب العائلة • وهو الذي يعلّم أبناءه كيفية اقامة الصلوات ويلقنهم التسابيح والمدائح الدينية • وكان على الابن البكر أن يخلف والده في دوره بعد وفاته • وإذا لم يكن لرب العائلة ابن ذكر ، يتوجب عليه أن يتبنّى صبياً لكي يخلفه في اقامة الطقوس الدينية العائلية •

أما الفتيات فيشاركن في تلك العبادات حتى زواجهن ويشتركن فيما بعد مع أزواجهن في اقامة تلك العبادات • وكان على الكاهن الاعظم ان يراقب حسن سير العبادات العائلية لكي لا يؤدي إهمالها الى تعكير صفو حياة المدينة •

ب) العبادات العامة *sacra publica*

يقول الكاتب اليوناني « بوليبيوس » بأن الرومانيين كانوا أكثر تديناً من الآلهة أنفسهم • وفي الحقيقة ، قلّ أن نجد بين شعوب العالم القديم شعباً أقام شأناً كبيراً للديانة ولطقوسها كما فعل الرومانيون القدماء • وعندما تناولنا منشأ مدينة روما ، رأينا كيف ان الكتّاب الكلاسيكيين في رواياتهم المتأخرة قد أشركوا الآلهة في كل مرحلة من مراحل نشوء المدينة •

وفي الحقيقة ، لقد أغرق الروماني القديم في التدين وكان لا يقوم بأي عمل ذي شأن قبل اجراء طقوس معينة وهكذا ارتبط كل حدث من أحداث حياته اليومية والعامة بمختلف الطقوس والعبادات في سبيل استطلاع مقاصد الآلهة وتجنباً لكل ما من شأنه مخالفة ارادتهم • وكما يقول مؤلفا (روما وامبراطوريتها) « لا ريب في أن هذه الطقوس قد ارتدت في الاصل

طابعاً سحرياً مكرهاً للقوة التي تقام الطقوس من أجلها • ولم يزل هـذا الطابع عنها كلياً : فان استعمال بعض الادوات واللجوء الاضطراري الى لباس التنكّر يرتديه المشتركون في الطقوس ، وحتى الشخص الرئيسي ، كالقائد الظافر في موكب النصر ، لا تفسير آخر لهما ؛ واستمرت بعض الصلوات أيضـاً بمثابـة رقي[1] حقيقيـة ولـم يتجاسروا في سواها ، إلا بكل عنايـة واهتمام ، على تعديل أية كلمة من كلماتها • إلا ان هذه الطقوس ، حـين نستطيع فهمهما ، ترتبط في مجملهـا بالاصول القانونيـة التي تتفرع مـع ما يرافقها من ايماءات وصيغ ، عن السحر أيضا • واننا لنجد احيانا مطابقة مدهشة بين ايماءات وصيغ متماثلة ، نقلت نقلا أحيانا من طقوس الى أخرى ، في ممارسة القانون المدني وممارسة الديانة • « فالتقوى » تعتبر قبل كل شيء آخر كعدالة نحو الالهة ، أي كتنفيذ ، غاية في الأمانة والدقة ، لكل ما هو متوجب لهم ، وما نعلم علم اليقين بأنه يرضيهم ، حتى نستميلهم لاستجابة ما نطلبه منهم • اضف الى ذلك ، في أغلب الأحيان ، ان الصلاة والذبيحة يرافقها نذر ليس سوى صفقة مؤخرة الأجل ، يعبّر المؤمن فيه ، بكلمات يجتهد معها الحؤول دون أي تهرب ممكن ، عما يلتمسه وعما يتعهد بتنفيذه حين يستجاب ملتمسه •

أجل ليس هذا خاصا بالديانة الرومانية : فالانســان ، في ضعفــه ، يستخدم كل وسيلة لديه تجعله يأمن شر القوى الفائقة الطبيعة • ولكنـه لا يبرز ، في أية ديانة أخرى ، بمثل هذا الوضوح وهذا الشمول • »[2]

لقد فاقت الالهة الرومانيـــة الحصر ، ولكن منذ وقت مبكر برزت مجموعة منهم وكُرّس لكل واحد منهم معبد خاص به •

---

(١) الرقى ومفردها الرقيه : هي اعتقاد البعض بأن يستعان بقوى ما وراء الطبيعة للتغلب على القوى الطبيعية • (م•م•) •

(٢) روما وامبراطوريتها ، تأليف اندريه ايمار وجانين أوبواية ، ترجمة يوسف اسعد داغر وفريد م• داغر ، منشورات عويدات ، بيروت ، ص ٢٠١ •

١) **امكنة العبادة :** تفيد كلمة *templum* في اللاتينية المعبد • ولقد دلت الكلمة في أول الأمر على بقعة مستطيلة الشكل ، يحددها العرّاف في عنان السماء بواسطة قضيبه المنحني ، وهو الشارة الرمزية للعرّافين • ويقوم العرّافون بهذا الطقس الديني قبل ان يباشر الرومانيون بتنفيذ أي عمل أو فعل يمت الى الحياة العامة بصلة ما ، كاعلان حالة الحرب على أعداء روما، أو عقد جلسة من جلسات الجمعيات المختلفة أو البدء بالانتخابات الخ ••• ويقوم العرّافون بذلك ليستطلعوا ارادة الالهة ويعرفوا إن كانوا راضين وموافقين على المباشرة بالعمل أم لا •

وبعد أن يتم تحديد البقعة في كبد السماء ، يراقب العرّافون طيران الطيور • فان مرّت أثناء طيرانها عن يمين *dexter* [١] البقعة المحددة ، كان ذلك طالع سعد ، ومعنى ذلك ان الالهة موافقة على المباشرة بالعمل • ولكن إذا كان مرور الطيور عن شمال *sinister* [١] البقعة ، كان ذلك طالع شؤم، أي ان الالهة غير راضية وعندئذ يؤجل تنفيذ العمل •

واُطلِقت كلمة *templum* فيما بعد على بقعة السماء التي تظلل المنطقة الواقعة خلف الأسوار *pomerium* ، التي حددها « رومولوس »

(١) لقد ربط الانسان منذ القدم بين اليد اليمنى وبين القوة والبركة والسعد • بعكس اليد اليسرى • ونقول في العربية اليمين واليُمن (بالضمة) • وميمون • وتقول العرب « هو ميمون الطائر » • ويقولون ايضا « فلان عندنا باليمين » أي بالمنزلة الحسنى • و « قدم على أيمن اليمين » أي على اليُمن والبركة • ولقد أقسم العرب بقولهم « أيمن الله » والتقدير « أيمن الله قسمي » • ويقولون أيضا « أيمن الله لا أفعل » •.
بالنسبة للغربيين فلقد انعكست مدلولات الكلمتين اللاتينيتين في بعض اللغات الاوروبية الحديثة •

ففي اللاتينية ذاتها كلمة *dexter* تعني اليمين ولكنها تفيد ايضا معاني اخرى كماهر وحاذق وموافق وميسور الخ • أما كلمة *sinister* فاضافة الى معنى شمالي أو أيسر فانها تعني أيضا أخرق ومنحوس ومضر وخبيث الخ ••• ومن الملاحظ ان الربط بين الجهة اليسرى وبين الشؤم والنحس قد انتقلت من الاتروسكيين والاغريقيين الى الرومانيين • لان الجهة اليسرى كانت مباركة في أول الامر لدى الرومانيين •

ونقول في الفرنسية *dextérité* وفي الانكليزية *dexterity* بمعنى الحذاقة والمهارة • أما الصفتان الفرنسية *sinistre* والانكليزية *sinister* فتعنيان معاً : مشؤوم ومنحوس ••• وكذلك الشؤم والنحس •

لاقامة مدينة روما ، إذ في وسط تلك المنطقة كانت تجري مراقبة العرّافين لطيران الطيور .

وبعد ذلك فقط اصبحت كلمة *templum* تعني المعبد أو مقر الاله . وفي الواقع فان اهم جزء في المعبد كان الهيكل *cella* حيث يمكث تمثال الاله ، الذي كُرِّس المعبد له .

أما عبّاد الاله فكانوا يجتمعون في الهواء الطلق حول مذبح قائم امام المعبد لاجراء مراسم الصلاة ، ولا يحق لهم الدخول الى داخل المعبد ، إذ ان هذا الأمر كان وقفاً على الكهنة ، سدنة المعبد . ولو أردنا اجراء مقارنة سريعة بين مفهوم المعبد القديم لدى الاتروسكيين والاغريقيين والرومانيين وبين مفهوم الكنيسة المسيحية لرأينا بأن المعبد القديم بكليته يقابل الموهف (سكرستّيا)[١] ، بينما الباحة الواقعة حول المعبد في الهواء الطلق تقوم مقام فناء الكنيسة المسقوف حيث يجتمع التقاة للصلاة . اما في الاسلام ، فان القدسية تمتد الى مختلف أجزاء المسجد ، إذ يستوجب على المصلّين ، كما نعلم ، ان يحتفوا قبل أن تطأ أقدامهم فناء المسجد وبشكل عام ، كان المعبد مخصصاً لعبادة اله واحد ولكننا قد نجد أحياناً معابد رومانية مخصصة لعدة آلهة . والأمر ذاته كان شائعاً لدى الاتروسكيين والاغريقيين .

ويمكننا القول بأن المعبد الروماني قد تطور متأثراً من ناحية مخططه بما كان شائعاً لدى الاتروسكيين والاغريقيين . ولقد أقيم المعبد الروماني بشكل عام على مصطبة يتقدمها سلّم مكّون من عدة عتبات . ويقع السلم في واجهة المعبد ، أي من طرف واحد فقط وهذا الأمر كان شائعاً في المعابد الاتروسكية ، بينما نجد السلالم تحيط المعبد الاغريقي من جوانبه الأربعة .

ويقول الكاتب اللاتيني Vitruvius الذي وضع مؤلفاً شهيراً عن فن العمارة في عصر الامبراطور أوغسطوس بأن عدد عتبات السلم الأمامي قد تتراوح في المعابد الرومانية بين تسع عتبات وخمس عشرة عتبة . ويضيف

(١) غرفة تجعل فيها الأكواب المقدسة والثياب الدينية في الكنيسة .

« ويتروويوس » قائلا بأنه كان من المفروض ان يكون عدد عتبات السلم مفرداً ، بشكل ان زائر المعبد يبدأ بصعود سلم المعبد بتقديمه القـدم اليمنى وينتهي في أعلم السلم أمام المعبد بالقدم اليمنى أيضا • وهذا دليل أيضا على التأثير الاتروسكي إذ كما ذكرنا انتقلت قدسية « اليمين » من الاتروسكيين الى الرومانيين ، بينما نجد ان اليـد اليسرى كانت مباركة في البـــدء لدى الرومانيين •

وكان المعبد الروماني في الفترة الاتروسكية ـ الرومانيـة كالمعبــد الاتروسكي مستطيل الشكل غالباً[1]،ولم يخرج عن هذه القاعدة سوى معبد الآلهة Vesta ، إذ كـان مستـدير الشكل • ولـدى كلامنا عـن الملك السابيني Numa الذي خلف رومولوس ذكرنا بأن الرواية نسبت اليه بناء هذا المعبد[2] • ويقول بلوتارخوس[3] في هـذا الصدد : « بأن الملك « نوما » قد أعطاه الشكل المستدير تقليداً لاستدارة الكون حيث كانت تحتل النار ـ حسب المذهب البيثاغوري ـ وسطه • » ويضيف الكاتب « ••• بأن اسم Vesta يدل على النار وعلى الوحدانية•» والنار كما نعلم كانت مقدسة لدى مختلف الشعوب الهندو ـ أوروبية • ولكن يجب ان نقول بأنه وُجد في ايطالية فيما بعد معابد أخرى ، مستديرة الشكل •

ويختلف المعبد الروماني عن المعبد الاغريقي بأنه لم يكن محاطاً من اطرافه الأربعة بالأروقة بل كان كالمعبد الاتروسكي مكوناً من قســمين : الرواق الأمامي والقسم المغلق خلفه •

واضافة الى المعابد ، أجرى الرومانيون القدماء عباداتهم في الطبيعة قرب غابات وينابيع مقدسة •

---

(١) انظر أعلاه ص ١٤٤ •

(٢) أنظر أعلاه ص ١٧٢ •

(٣) كاتب يوناني (٥٠ ـ ١٢٥ ميلادي) اشتهر بمؤلفه « السير » •

٢) الطقوس والشعائر الدينية :

ان الاصالة الحقيقية للديانة الرومانية ، ذات المعتقدات البدائية تكمن في الواقع في منظماتها وطقوسها وشعائرها المحددة بدقة فائقة • وموقف الروماني البدائي من آلهته يشبه كل الشبه موقفه من مجتمعه ومن منظماته السياسية والاجتماعية • فكما ان كل أمر في حياته العائلية والعامة كان واضح المعالم من ناحية واجباته وحقوقه ومحدداً بما يمكننا أن نطلق عليـــه اسم « القانون المدني » *jus civile* فاننا نجد الظاهرة ذاتها في نطاق الشـعائر والطقوس الدينية التي كانت محددة ومنظمة بشكل دقيق وفق تقاليد وأعراف أطلق عليها الرومانيون القدماء اسم « القانون الالهـي » *jus divinum* . فكما أنه كان مفروضاً على الروماني القديم أن يجري طقوس محددة تجاه الالهة ويقدم لهم الذبائح ، كان من واجب الالهة مقابل ذلك حماية العبّاد وتسهيل أمورهم ووقايتهـم مـن كل أذى وشر • وبتعبـير آخر ، كما انه كان للالهة حقوق على البشر ، كـان عليهم مقابل ذلك واجبات تجاههم •

وكما يقول « كاطو القديم » (٢٣٤ ــ ١٤٩ ق•م) الذي شغل منصب مراقب احصاء *censor* ، ان الروماني عندما يقـدم تقدمة للاله أو يجري طقوس وشعائر معينة فانـه يقرن عملـه هـذا بقولـه متوجهاً الى الالـه : «*ut tibi jus est*» [1] أي « كما يحق لك » ، وبتعبير آخر ، لقد أديت واجبي تجاهك ايها الاله وعليك الآن ان تقوم بواجبك تجاهي ، عليك ان تيسر أموري وترد عني كل أذى • وفي الواقع ، فان واجب الروماني تجاه الاله قـد كان طقساً أكثر من أن يكـون عاطفـة مجردة أو شعورا صوفيا بعيداً عن كل مصلحة • لقد كانت عبادته عقلية ومنظمة بشكل دقيق اكثر من كونها وجدانية • لقد اعتقد الرومانيون القدماء بالتأثير السحري للطقوس على ارادة الالهة ، أي انه كان بامكانها ان تعدلها بشكل أو بآخر ••• بل لقد ذهبوا أبعد من ذلك ، عندما قالوا انه بامكانهم ان يجبروا الالهة على تنفيذ رغباتهم ، بمجرد اقامتهم الطقوس المطلوبة منهم •

(1) Cat., *de R. R.*, 139.

وتشتمل الشعائر الدينية على اقامة الصلوات واجراء النذور وتقدمة الضحايا .

يقف العابد أمام المذبح متجها نحو الشرق بعد أن يكون قد غطا رأسه ويردد بصوت عال وراء الكاهن الصيغ الدينية ، الموجهة الى الاله . ويجب ان لا يقع العابد في الخطأ أثناء ترداده أقوال الكاهن وإلا بطل مفعول الصلاة . وتقترن الصلاة عادة بطقوس محددة يقوم بها الكاهن ويكررها المصلون . وينذر المصلي غالباً نذراً الى الاله إذا ما لُبّيَ طلبه كأن يقيم حفلة عامة أو أن يقدم تقدمات لمعبد الاله أو أن يوزع أموالا على على المحتاجين الخ ... وتنتهي الصلاة عادة بارسال قبلة باليد اليسرى الى الاله أو بالسجود أمامه .

وتجري بعد الصلاة تقدمة الاضاحي للاله ، وكان على مقدم الذبائح أن يتطهر قبل ذلك ويلبس ثوباً أبيض . ويجب أن تكون الحيوانات المعدّة للتضحية خالية من الشوائب والبقع . ويمسك خدام المعبد تلك الحيوانات بحبال غير مشدودة لاعطاء الانطباع بان الحيوانات المكرسة للذبح تسير الى التضحية راضية وبدون اكراه ، وبعد اجراء بعض الطقوس يقوم خادم المعبد بتضحية القربان .

وبعد تشريح الذبيحة ، يفحص الكاهن احشاءها وخاصة الكبد وذلك لمعرفة رضاء الاله بالذبيحة أو رفضه لها . وفي حالة رضاء الاله تحرق الأحشاء على المذبح وإلا وجب اعادة التضحية من جديد . وتوزع عادة قطع الذبيحة على الكاهن وخدام المعبد وباقي الحاضرين .

والرومانيون كغيرهم من شعوب العالم القديم قد قدموا احياناً لآلهتهم قرابين بشرية . ويقول « تيطوس ليويوس » في هذا الصدد ان تلك الطقوس ليست ذات أصل روماني . ولكن الكاتب نفسه يذكر بان

مجلس الشيوخ قد قرّر أثناء الحروب البونية الثانية دفن أغريقين وغاليين احياء كقرابين للالهة [١] .

واضافة للضحايا البشرية والحيوانية قدّم الرومانيون لآلهتهم ثمار الأرض والمأكولات من أقراص حلوى وغيرها . ويؤكد الكاتب « بلينيوس القديم » [٢] بأن التقدمات قد اقتصرت على ثمار الارض من (فواكه وبقول) في الطقوس التي أحدثها الملك السابيني « نوما پومپيليوس » .

ولقد ذكرنا سابقاً[٣] كيف كانت تتم عملية تطهير منطقة *Lustratio* بالطواف ثلاث مرات حول ما يُراد تطهيره ثم بتضحية ثلاث حيوانات (خنزير ، شاة ، وثور) وأطلقنا على تلك العملية اسم *Suovetaurile* .

وكانت تقام يضاً عدة حفلات سنوية (ألعاب رياضية ، سباق عربات الخ ...) على شرف الآلهة . ومن أشهرها « الالعاب الرومانية » *Ludi Romani* التي كانت تقام اكراماً للآلة الروماني الاكبر جوبيتير .

ولقد نسبت الرواية الاسطورية الى أول ملك أتروسكي « ترقوينيوس القديم » بناء « الملعب المستدير الاعظم » *Circus Maximus* خصوصاً من أجلها [٤].

والمثل الاعلى المرتجى من العبادات العامة هو التوازن أو كما دُعي « بالصلح مع الآلهة » .فاذا ما حدث ان اختل هذا الصلح « ... بفعل خطيئة بشرية لم يعلم بها أحد ، فان الالهة يظهرون استياءهم بالمعجزات . ولم تنطو هذه الاخيرة ، بحسب مفهومها الاول الذي لم يتبدل قبل أواخر الالف الثالث ، على أنه دلالة طبيعية على المستقبل ، وليس من مفسر يستطيع

---

(1) Liv., **23**, 57, 6.

(٢) كاتب روماني عاش في القرن الاول ميلادي واشتهر بمؤلفه الضخم « التاريخ الطبيعي وتطرق فيه الى مختلف العلوم الطبيعية .

(٣) انظر اعلاه ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٤) انظر اعلاه ص ١٨٢ .

أن يقرأ مستقبلا لا تنبىء به • فلا معجزة مفيدة إذن • بل كلها ، الصاعقة والفيضان ومطر الحجارة وولادة المسخ الغريب الخلقة وعرق أو حركة التمثال في المعبد وصعود الثور الى السطح ، الخ • تشير ، بانقطاع مجرى الأمور الطبيعي ، الى الغضب الالهي • فيقدم بها أحد القضاة تقريرا الى مجلس الشيوخ الذي يتخذ المقررات أو يشك في علمه فيلجأ الى الأحبار أو الهيئة الموكول اليها أمر استشارة كتب العرافة أو مستطلعي امعاء الضحايا، وينتظر أجوبتهم للتداول فيها • وهكذا تصدر الأوامر باقامة احتفالات التطهير والتكفير التي تشكل علاج المعجزات وتعيد الصلح • »[1]

ج) العبادات الشعبية : *sacra popularia* :

عندما طرقنا موضوع الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مطلع العهد الملكي ، أي قبل التصنيف الاجتماعي الذي نُسب الى الملك الاتروسكي « سرويوس توليوس » ، قلنا بان المجتمع الروماني قد اعتمد على الحسب والنسب لتوزيع المواطنين على عدة طبقات غير متساوية في الحقوق والواجبات • ورأينا بأن أفراد طبقة العوام قد عملوا خاصة في الريف وكانوا يستأجرون الأرض من النبلاء اذ ان أغلب الأراضي الصالحة للزراعة قد أصبحت ملك أفراد الطبقة الأولى بعد تفسخ وانحلال نظام المشاعية القديم •

ورأينا أيضا بأن أفراد طبقة العوام كانوا محرومين من حقوقهم الاجتماعية الأساسية (عقد زواج شرعي وبالتالي تكوين عائلة ، الاقتران بنساء من الطبقة الأولى) ، ونتيجة لذلك كما قلنا ، لم يكن للعوام عبادات عائلية ، كما كان الحال بالنسبة للنبلاء •

أما بالنسبة للعبادات العامة ، فلم يشارك فيها بعض أفراد طبقة العوام إلا بصعوبة فائقة • بل ويعتقد البعض بأن العوام قد حُرموا كلية في مطلع العهد الملكي من المشاركة فيها • وفي الواقع ، لقد كان للعوام عبادات خاصة بهم وكانت أغلب طقوس تلك العبادات خاصة بالحياة الريفية •

(١) روما والامبراطوريتها ، ص ٢٠٧ •

وكانت الربــة *Ceres* (الهة ثمار الارض) من الهتهــم الرئيسية ، وكانوا يقيمون على شرفهـا مختلف الحفلات والألعاب • و Ceres ليس في الواقع الا الاسم اللاتيني للالهة الاغريقية *Demeter* • ولقد انتقلت عبادتها من جزيرة صقلية الى روما واقترنت منذ القرن الخامس (ق•م) بعبادة الاله الاتروسكي *Liber* . [١] •

ومن آلهتهم الريفية الاله *Pales* (الــه المراعي والرعاة) وهــو من أقدم الالهة الرومانية • واعتبر هذا الاله حامي تل « البالاتيوم » • وكانوا يقيمون سنوياً في الحادي والعشرين من شهر نيسان اكراماً له أعياداً شعبية تتخللها الولائم[٢] •

وبعد حصول أفراد طبقة العـــوام على حقوقهم الاجتماعية والسياسية نتيجة لتعاظم دورهم الاقتصادي في حياة المجتمع، سيزداد ــ كما سنرى ــ عدد الأعياد الشعبية التي تمّت بصلة الى مختلف المشاغل الريفية •

والروماني في العهدين الملكي والجمهوري كان ــ كما ذكرنا ــ فلاحا مرتبطا بأرضه يعتقد بالخرافات[٣] •••

الهــة رومــا :

لقد كانت الالهة في روما اكبر عدداً من المواطنين

Fustel de Coulanges

ان الرومانيين كغيرهم من شعوب العالم القديم قد اعتقدوا بانتشار المبدأ الالهي في مختلف مظاهر الطبيعة • بل ان الرومانيين القدماء قد افرطوا في ذلك الاعتقاد وفاقوا غيرهم من القدماء في ذلك الصدد •

لقد تراءت لهم القوى الغامضة وهي تحيط بكل شيء • قوى ، غامضة من أورواح وجن تكمن في المتحرك والجامد ، في الحي والميت، قوى على أهبة الاستعداد للانطلاق في كل لحظة ، لالحاق الضرر بالانسان وانزال المصائب

(١) ويطلق على ذلك الاله في اللاتينية اسم « باخوس » وهو « ديونوسيوس » عند الاغريقيين•

(٢) لقد عبد الرومانيون Pales مرة كاله واخرى كآلهة •

(٣) انظر أعلاه ص ٤٣ •

بالكائنات الحية • ولقد آمن الرومانيون القدماء بأن أغلب القوى المتحجبة والخفية عن الانظار هي — من حيث المبدأ — قوى شريرة ومؤذية • ولكل من تلك القوى ارادة يجب على الانسان أن يستميلها بشكل أو بآخر حتى يأمن أذاها وتصبح نافعة له بعد أن كانت مضرة • وهذا الاعتقاد الذي استمر حياً على مر السنين يفسر ميل الرومانيين القدماء الى تكريم الالهة والعفاريت والجن ، ويعلل لنا اعترافهم بعدد لا يحصى من « القوى الخفية » • ولكن اعتقادهم هذا لم يمنعهم من « ••• اعتبار بعض القوى أعظم شأناً من غيرها • ومن البديهي ان تسلسل مراتبها قد اختلف باختلاف الأوساط الاجتماعية وباختلاف الزمان • ويثير اكتشاف اسباب هذا التسلسل واختلافه صعوبات كبيرة ، لأن تأثيرات ، كثيرة ، تتفق تارة وتتناقض أخرى ، قد فعلت فعلها منذ عهد قديم جداً ••• ولا يعقل ان لا يكون الرومان قد ورثوا شيئاً عن أقدم شعوب ايطالية الاصلية التي انتمت هي نفسها الى مجموع المتوسطيين • ولعله من الجائز ان ننسب الى هذا المنشأ عبادات تتجه في الواقع ، من وراء آلهة مختلفة الاسماء ، الى مبدأ الخصب ، ويبدو ترجيح المنشأ نفسه ممكنا لبعض مظاهر عبادة الأموات ولا سيما وان ارتباطها بالعبادات الزراعية ، عن طريق اعتقاد مشترك بالتجديد والبقاء ، أمر طبيعي جدا من ناحية ثانية •

ويتمثل اسهام الهندو — أوروبيين بالآلهة السماويين : فان اسم جوبتير ، اله النور والزوبعة ، يحتوي على اسم زفس الذي أضيفت اليه في حالة رفع الاسم ، تسمية «*Pater*» (الأب) • ومما لا ريب فيه أيضاً ان عبادات المنزل (فيستا) والعائلة تتصل بالمنشأ نفسه •

واخيراً فعلت بعض التأثيرات الاتروسكية واليونانية فعلا تنظيمياً بغية تقريب « القوى » المتجاورة واعطاء بعض الالهة شخصية مميزة • ولكن الاتفاق أبعد من أن يتحقق آنذاك حول طاقتها وتحديدها وموعد مفاعيلها •

أضف الى ذلك ، ان هذه التأثيرات الأخيرة ، مهما بلغ من قوتها ، لم تحد قط ، بشكل محسوس ، من تكاثر مطرد لا متناه في عدد الالهة الذين

اعترف بهم الرومانيون • فقد عرفوا اكثر من جوبيتر واحد خصّ كل منهم بنعت عبادي يميزه وبمعبد أو مذبح أيضا • فقد حمل هذا الاسم آلهة سياسيون : اله المدينة الأعظم الذي أقام له الملوك الاتروسك معبدا على الكابيتول ، واله اتحاد المدن اللاتينية ••• الذي كان له معبده على الجبل الألبي ، وآلهة سماويون ، فكان هنالك جوبيتر لوسيتيوس (*Lucetius* اللامع) واليسيوس (*Elicius* المطر) وفولغور (*Fulgur* الزوبعة) وسومانوس (*Summanus* البرق الليلي) وتونانس (*Tonans* الرعد)؛ وآلهة تستجلب السعد ، فكان هنالك جوبيتر فيرتيريوس *(Feretrius)* اله الشجرة الذي تعلّق عليه غنائم العدو ولابيس *(Lapis)* الاله الذي تمثله صوّانة ، ويغلب انه استمرار لعبادة الفأس في عهد ما قبل التاريخ ؛ وآلهة عسكريون ، فكان هنالك جوبيتر بروبوغناتور (*Propugnator* المدافع المحارب) ، وستاتور *Stator* « موقف » الهاربين) وديبولسور *Depulsor* « طارد » الأعداء) وفيكتور (*Victor* المنتصر) • وباستطاعتنا ان نمضي في التعداد بعيداً وان نقوم بتعداد مماثل لكثير من الالهة • »[(١)]

ولكن يمكننا القول بأنه قد اشتهرت منذ وقت باكر بعض الالهة اكثر من غيرها • فمثلا الاله « مارس » الذي أصبح فيما بعد اله الحرب وحامي الجيوش الرومانية قد كان قبل ذلك اله النباتات النامية في فصل الربيع•والاله *Neptunus* ، اله البحار والانهر كان شهيرا منذ العصور الخوالي وكان مقدسا بشكل خاص في المدينة الاتروسكية Veii الواقعة بالقرب من روما • وكذلك الاله *Vulcanus* ، اله النار ، فلقد انتشرت عبادته منذ القدم في منطقة Ostia حيث يصب النهر الذي يروي روما • ويعتبر البعض الاله *Saturnus* ، اله بذر الحبوب والزراعة من اقدم الالهة الايطالية • ولقد ذكرنا سابقا اسطورة هذا الاله وكيف التجأ الى منطقة اللاتيوم وعلم سكانها زراعة القمح والكرمة[(٢)]• ومن الالهة القديمة الاله *Janus* اله النور وهو

---

(١) روما وامبراطوريتها ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ •

(٢) انظر اعلاه ص ١٦٩ •

الذي يفتح الأبواب (janua) • ولقد أقاموا معبده في ساحة الفورم حيث تظل أبوابه مفتوحة على مصراعيها أيام الحرب وتغلق في وقت السلم •

ومن الهتهم القديمة التي اشتهرت منذ القرن السابع (ق•م) الالهة التالية: Carmenta ، الهة الينابيع والهة التنبؤ بالمستقبل ؛ Faunus ، اله الماشية ؛ Flora الهة الزهور ؛ Juno حامية المرأة ؛ Minerva الهة الذكاء والحكمة ؛ Pomona ، الهة الثمار والأشجار ؛ Tellus ، الهة الأرض والحصاد ؛ Vertumnus (من الفعل اللاتيني vertere بمعنى غيّر وبدّل وهو اله الفصول والتجارة ؛ Vesta الالهة الحامية للمواقد المنزلية • ولقد ذكرنا سابقاً Liber (باخوس) و Ceres و Pales الخ ••• وهذه الالهة جميعها منها ما هو لاتيني أو سابيني ومنها ما هو من أصل اتروسكي أو يوناني • ومن الخصائص الدينية البارزة للرومانيين القدماء قابليتهم الفائقة حيال الالهة الأجانب • ولقد عبدوا الالهة الغربية اما بأسمائها الأجنبية أو اطلقوا عليها اسماء لاتينية جديدة • ولقد قدّس الرومانيون القدماء بعض الالهة الكبرى في مجموعات وبنوا لها معابد مشتركة فيما بينها • ومن أولى المجموعات التي عبدوها ، الثالوث الالهي : Janus ; Mars ; Jupiter وأبدلوها اعتبارا من الفترة الاتروسكية بمجموعة أخرى[1] مكونة من الثالوث الالهي : Minerva ; Juno ; Jupiter .

بما ان الرومانيين القدماء قد اعتمدوا في معاشهم خاصة على الرعي والزراعة ، نلاحظ أن أغلب آلهتهم قد أولوا اهتماما كبيرا للأمور الريفية• ولذلك نجد معتقداتهم الدينية في العهد الملكي بدائية جدا ، لا سيما اذا ما قارناها بما كان سائدا لدى الاغريقيين ؛ الذين طوّروا أساطير لا تعد ولا تحصى تتعلق بخلق الكون والانسان ومختلف الحيوانات البحرية والبرية • وفي الواقع ، ان الخرافات الرومانية في مطلع العهد الملكي تبدو صبيانية وبدائية جدا اذا ما قورنت بالاساطير الاغريقية • ويجب ان لا يغيب عن بالنا

---

(١) انظر أعلاه ص ١٥٨ •

بأن الاغريقيين القدماء قد كانوا على اتصال دائم اعتبارا من القرن السابع (ق•م) مع مختلف الحضارات الشرقية (آسية الصغرى ، بلاد كنعان ، بلاد الرافدين ، وادي النيل) ، تلك الحضارات العريقة التي طورت معتقداتها الدينية الى درجة كبيرة منذ الألف الثالث (ق•م) • ولا شك في انه كان لذلك أثره البعيد في تطور العالم الاغريقي وفي اغناء مختلف مظاهره الحضارية • وسيحدث الأمر ذاته مع سكان اللاتيوم وايطالية القديمة بعد اتصالهم بالأتروسكيين والاغريقيين وتأثرهم بمختلف مظاهر الحضارتين الاتروسكية والاغريقية •

الفئات الكهنوتية :

وهنا ايضا نجد اختلافا كبيرا بين المفهوم الاغريقي والمفهوم الروماني البدائي • فبينما كان لدى اليونانيين كهنة دائمون محدودو العدد ، كان لدى الرومانيين عدد كبير منهم •

كان الملك في تلك الفترة المسؤول الأول عن الديانة القومية ، يساعده في ذلك عدد كبير من الكهنة المختارين من صفوف النبلاء وقد توزعوا على عدد من الأخويات (المجموعات) ، اختصت كل واحدة منها بخدمة اله معين • ولم يؤلف هؤلاء الكهنة « اكليروساً » كما نجده اليوم مثلا في الكنيسة الكاثوليكية ، إذ ان مختلف مؤسساتهم قد ظلت مستقلة بعضها عن البعض • ورغم ان اعضاء تلك الجماعات الدينية كانوا مكرسين ، أي أن صفتهم الكهنوتية ترافقهم حتى الموت ، فانهم قد عاشوا في الوقت نفسه حياة المواطن العادية ولم تكن وظائفهم الدينية تشغلهم طوال الوقت وكان بمقدورهم ان يتزوجوا ، باستثناء « الوستاليات » (راهبات الالهة *Vesta*) • ويمكننا ان نوزع تلك الفئات الكهنوتية على ثلاث مجموعات أساسية :

١ ـ تضم المجموعة الأولى الفئات الكهنوتية العامة ، أي تلك التي ينقطع افرادها الى خدمة الهة روما وأهم تلك الفئات هي :

أ) فئة تضم خمسة عشر كاهناً ، أفرد كل منهم لاله معين ، ويطلق على كل واحد منهم في اللاتينية اسم *flamen* • وأطلق على ثلاثة من هؤلاء الكهنة اسم « الكهنة العظام » لأن كل واحد من هؤلاء الثلاثة كان يخدم الهاً عظيما • وأولهم وأعلامهم مرتبة هو الكاهن المنقطع لخدمة الاله « جوبيتر » وأطلق عليه في اللاتينيـة اسم *Flamen dialis* ؛ أمـا ثانيهمـا فهـو *Flamen martialis* الذي وقف ذاته على خدمة الاله « مارس » وثالثهما هو *Flamen quirinalis* الذي انقطع لخدمة الاله *Quirinus* وهو الاسم الذي أُطْلِق على «رومولوس » بعد اختفائه أثناء عاصفة هوجاء•

ولقد شغل الكاهن الذي خدم الاله « جوبيتر » وظائف الملك الدينية أثناء غياب هذا الاخير عن روما ولذلك أحاطوه بمختلف مظاهر التقديس والاجلال ولكنهم أخضعوه وامرأته « الكاهنة » لمراسم عبادية قاسية ، فمثلا وجب عليه ألا يشذب الكرمة ويستهلك شراباً مختمراً أو يلمس أو يمتطي الحصان أو أن تقع عيناه على أي سلاح أو ان يشاهـد ميتاً الخ • وبالمقابل كان من حقه ان يحضر جلسات مجلس الشيوخ وكان يُحْمَل على كرسي عاجي ويسير أمامه حارس من حاملي الفؤوس الخ ••

ب) هيئة تضم الأحبار ، وكان عددهم ثلاثة أو خمسة أحبار في البدء ثم وصل هذا العدد الى تسعة أحبار ابتداء من القرن الثالث (ق • م) • ويطلق على الحبر اسم *pontifex* ولقد عنى الاسم في الماضي « صانع الجسر أو الجسور » وكان الملك يرأس هيئة الاحبار قبل أن ينتقل ذلك المنصب الى « الحبر الاعظم » • *Pontifex maximus* .

ولم يكن هؤلاء الاحبار كهنة بحصر المعنى،أو على الاقل لقداُعتُبروا كهنة فقط أثناء قيامهم بوظائفهم الكهنوتية • وفي الواقع لقد شكلوا فئة من الولاة نُسبت اليهم وظائف دينية • ولقد كانوا ينتخبون فقط في العهد الملكي من بين النبلاء كما انهم في الوقت ذاته كانوا يلعبون دوراً سياسياً خطيراً في المجتمع وأغلبهم كانوا من الشيوخ أو كبار القواد العسكريين أو القناصل •

ولقد شكلت هيئة الاحبار أعلى منظمة دينية في المجتمع الروماني ولقد شمل سلطانها مختلف الفئات الكهنوتية •

ولقد أُسند في البدء الى الاحبار مهمة العناية بجسر ***sublicius*** ، وهو الجسر الوحيد الذي كان يصل ضفتي نهر «التيبرس» ، ولذلك أُطلق عليهم اسم *Pontifices* (مفردها Pontifex)[1] •

وتطورت وظائفهم فيما بعد واصبحوا بمثابة حراس التقاليد الدينية وكان من حقهم بل من واجبهم مراقبة حسن سير العبادات العامة والعائلية • وكان أكبرهم « الحبر الاعظم » هو الذي ينظم التقويم السنوي ويحدد أيام الاعياد • وكان الاحبار يشرفون على الطقوس والاعياد التي تُقام سنوياً على شرف الثالوث الالهي : *Jupiter ; Juno ; Minerva* .

جـ) كاهنات الالهة *Vesta* : لقد ذكرنا بأن الملك « آميليوس » بعد اغتصاب الحكم من أخيه الاكبر الملك « نوميتور » قد نذر ابنة أخيه Rhea Silvia للالهة Vesta[2] ، إذا فعبادة تلك الآلهة هي قديمة جداً في روما •

وكان عددهن أربع كاهنات ثم أصبح هذا العدد ست فسبع • وكن ينتخبن من أسر النبلاء ويخدمن مدة ثلاثين سنة (يتلقين خلال عشر سنوات المبادىء والارشادات ويخدمن الآلهة خلال عشر سنوات أخرى ويقضين السنوات العشر الباقية بتعليم وتدريب الكاهنات الحديثات العهد) • ويقمن خلال الثلاثين سنة في معبد Vesta • وكان عليهن أن يبقين طاهرات ولا يجوز دخول أي رجل ــ ما عدا الحبر الاعظم ــ الى معبدهن ، وكان يشرف عليهن مع « الحبر الاعظم » أقدمهن في الخدمة وهي « الكاهنة الكبرى » • وبعد مضي الثلاثين سنة يعدن الى الحياة العامة ويستطعن الزواج • وإذا حدث وزنت احداهن خلال الثلاثين سنة المذكورة ، أُعتبر عملها خرقاً

---

(١) من *pons ; ontis* جسر و *fex* من *facere* : صنع •

(٢) انظر أعلاه ص ١٧٠ •

للقـدسيات ووجب غندئـذ وأدها حيـة • وكان الرومانيون ينظرون الى أولئك الكاهنات أثناء خدمتهن وبعـد تحررهن من نذرهن بعـين الاجـلال والاكرام • وكانت وظيفتهن الاساسية السهر على النار المقدسة في المعبد • ويجب أن تظل تلك النار مشتعلة ليلا نهاراً وإلا فان المصائب والكوارث تحل بمدينة روما • ولذلك فان عقوبـة السوط تنتظر الكاهنـة التي تترك النار تخبو •

والى جانب الهيئات الكهنوتية التي ذكرناها ، وجدت هيئات ثانويةأوكل اليها الرومانيون القيام ببعض الطقوس الدينية فمثلا فئة «الكهنة القفازين» مؤلفة من اثنى عشر كاهناً ، أوكل اليهم حراسه ترس مقدس سقط مـن السماء • وكان يؤدون سنوياً في شهر آذار « رقصة حربية » على شرف آله الحرب « مارس » •

وهنالك هيئـة أخرى مكونة من عشرين كاهناً كـانوا بمثابة السلك الدبلوماسي الروماني ، فهم الذين يعلنون الحرب على أعداء روما ويشرفون على عقد المعاهدات بين روما وغيرها من الدول وهم الذين أوجدوا وطوروا « القانون الدولي » الروماني •

٢ وتضم المجموعة الثانية فئات مهمتها خدمة آلهة الطبيعة ومـن أهم تلك الفئات :

أ) فئة تضم اثنى عشر كاهناً ينتخبون من أفراد أكبر أسرتين نبيلتين رومانيتـين : أسرة Quinctilii وأسرة Fabii وكانـوا يقومون سنوياً في الخامس عشر من شهر شباط اثناء عيد Lupercalia بطقوس سحرية في سبيل تطهير الاراضي الرومانية ولحماية الزرائب من الذئاب • وكانوا يطوفون راكضين حول تل « البـلاتيوم »[1] شبه عراة وقد أمسكوا بأيديهم سيوراً جلدية لجلد كل شخص من رجـل أو امرأة يصادفونه في

---

(١) حيث تقع المغارة المقدسة *Lupercal* المكرسة للاله *Faunus Lupercus* • وتقول الرواية بأنه في تلك المغارة أرضعت الذئبة الاخوين روملوس وريموس • (انظر أعلاه ص ١٧٠)•

طريقهم • وكانت النساء العواقر يعترضن طريق الكهنة عمداً لان الجلد يساعدهن على الحمل ، أما جلد الرجل فيؤدي الى أن يرزق ولداً وتتكاثر مواشيه وتزداد غلال حقوله •

ب) وتضم فئة أخرى اثني عشر كاهناً ، يقيمون سنوياً في شهر أيار في غابة مقدسة مجاورة لروما طقوساً دينية على شرف Ceres الهة الأرض وثمارها •

٣ـ أما المجموعة الثالثة فتشتمل على فئات مهمتها التنبؤ بالمستقبل :

أ) فئة أولى ضمت ستة عرافين طبقوا تقاليد العلم التفاؤلي بمراقبتهم طيران الطيور وبدراسة مختلف الظواهر الطبيعية (البرق ، الرعد ، الصواعق الخ •) • (انظر ص ١٥٧) وهؤلاء العرافون هم من أصل أتروسكي •

ب) فئة أخرى ضمت اختصاصيين انتموا بأغلبيتهم الى الترورية ، أوكلت اليهم العرافة عن طريق استقراء أحشاء الضحايا ولا سيما كبدها • (انظر ص ١٥٦) •

ج ـ هيئة ثالثة ضمت «مفسري كتب العرافة» تلك الكتب التي ابتاعها الملك الاتروسكي « ترقوينيوس المتعجرف » من عرّافة مدينة Cumae وكان مفسرو كتب العرافة يراجعون كتبهم في حال حدوث معجزة وذلك ليفسروا المقاصد الالهية •

لا نذهبن الى أبعد من ذلك ، كما يقول مؤلفا « روما وامبراطوريتها » « في استعراض الكهنوت الروماني • فهو كاف لتبيان عدد الفئات الكهنوتية وتنوعها والأهمية والمرتبة اللتين احتلهما بعضهم في تنظيم المدينة • كانت مثل هذه المؤسسات شبه مجهولة في المدن اليونانية • ولكن معرفتنا بها في روما ، على ما رأينا ، لا يستنتج منها انها ابتكار روماني : فان لاكثر من كهنوت مما استعرضنا ، كما نرجح ، اصوله في العادات الاتروسكية أو الايطالية •

أما ما يلفت النظر ، وما قد يكون رومانياً حقاً ، فهو ، على الرغم من تعدد هذه الفئات ، نفوذها والدور الذي سمحت لها المدينة بأن تلعبه في حياتها بالذات : ويفسر هذان الواقعان احدهما الآخر ، على كل حال ، فقد كان لها خلال زمن طويل ، يدوم بالنسبة لاكثرها حتى آخر العهد الجمهوري ، قوة جاذب حقيقية ، ومن الطبيعي جدا أن يعلق قيصر ، الذي لم يكن بعد متقدماً في مراتب الأمجاد ، أهمية استثنائية لنجاح ترشيحه للقب « الحبر الاعظم » ، فلم يكن ذلك ، بالنسبة له مجرد لقب ، بل وظيفة من الدرجة الأولى ••• وفي العهد الذهبي للنظام المجلسي ، سعى النبلاء وراء وظائف الكهنوت ، وقد بلغ منهم انهم جمعوا منها اكثر من واحدة حين استطاعوا الى ذلك سبيلا ••

كل ذلك يكشف لنا بوضوح الطابع الديني العميق الذي ترتديه المدينة الجمهورية • فالحياة السياسية والحياة الدينية فيها قد ألفتا كلاً واحداً يقوم به الرجال أنفسهم ، حمل رب العائلة مسؤولية العبادة المنزلية ، وتوجب كذلك على المسؤول الروماني ان يتحلى في آن واحد بخبرة دينية وخبرة سياسية ، كما توجب على علمه القانوني ان يتخطى القانون المدني والقانون العام ويشمل القانون المقدس •••• وقد عمّ الاعتقاد بأن روما مدينة بعظمتها لتعطف الآلهة الذي قابله ، بكل نزاهة ، ارضاء لمتطلباتهم بلغ دائماً الحد المطلوب ، دون أن يتخطاه • »[1]

---

(١) روما وامبراطوريتها ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ •

الفصل الثالث

روما ومطلع العهد الجمهوري

١ ـ روما ونهاية الحكم الاتروسكي

لقد ذكرنا بأن نهاية الحكم الاتروسكي في روما ليست جلية تماماً . ولا شك في أن الاتروسكيين قد حاولوا مراراً العـودة الى روما وفرض سيطرتهم على اللاتيوم مجددا . ولقـد روى الكاتبان « تاكيتوس » (١) و « بلينيوس القديم »(٢) كيفية زحف Porsenna حاكم المدينة الاتروسكية Chamars على روما محاولا اعادة ملكها المخلوع « ترقوينيوس المتعجرف » الى عرشه . ويروي المؤرخان كيف ان Porsenna استولى على روما وهدم سورها حجرا حجرا ، وفرض عليها ان تمتنع عن استخدام الحديد الا في صنع الأدوات الزراعية . وقد تأثرت الكبرياء الرومانية فيما بعد من هـذه الكارثة فحاولت اخفاءها بابتداع اساطير الأبطـال *Horatius Cocles* ، *Mucius Scaevola* . ويروي « تيطوس ليويوس » في تاريخه (II, X) كيف ان البطل « هوراتيوس » وقف وحده على جسر *sublicius* ، وهـو الجسر الوحيد الذي يصل ضفتي نهر « التيبرس » ، يواجه ثلاثين ألفا من جنـود Porsenna ولم يبرح مكانه الا بعد أن تحطم الجسر وسقط في النهر فتقدم البطل الى الضفة التي يقف عليها أعداء روما واصطدم معهم ثم اختفى فجأة وسط اليم جريحاً ينزف دماً . وتمكّن من الوصول الى الشاطىء الآخـر

(1) Tac., *Hist.*, III, 72.

(2) Plin., *N. H.*, XXXIV, 139.

حيث كان بانتظاره آلاف من مواطنيه فسحبوه الى اليابسة • ولقد فقد البطل احدى عينيه في المعركة ولذلك اطلقوا عليه اسم *Cocles* أي « الأعور » •

أما بالنسبة «لموكيوس سكايفولا» فيحدثنا عنه أيضا «تيطوس ليويوس» II, XXII, 13 **كيف ان هذا الشاب قد تطوع لانقاذ روما بأن يقتل** Porsenna وكيف انه تنكر في زي فلاح وشق طريقه الى معسكر الأعداء مخفياً خنجراً بين طيات ملابسه وتمكن من التسرب الى داخل معسكر أعداء وطنـــه • وتضيف الرواية الأسطورية بأن البطل الروماني رأى أحد اتبـــاع الملك الاتروسكي يرتدي ثوباً أرجوانياً ، ويوزع النقود على الجنود ، فاعتقد انه قد عثر على الملك فاقترب منـه واستل خنجره خفية وغيبـــه في قلب أمين الخزانة فأُلقي القبض عليه وجيء به أمام الملك الذي هدد الشاب الجريء بالعذاب وبالموت لكي يجبره على اخباره بحالة الجيش الروماني • غير ان موكيوس وضع يده اليمنى في شعلة من النار ، كانت فوق مذبح قريب منه وتركها في وسط اللهب حتى احترقت الى رماد • ومنذ ذلك الوقت بـــدأ يستعمل يـده اليسرى ولذلك أطلق عليـــه مواطنوه اســـم *Scaevola* أي «الأعسر» • لقد فعل الشاب هذا ، دون أن يتأوه أو يتململ ، حتى يثبت للملك انه لا يخاف العذاب ، أو إذا حكم عليه بالموت ، تحمله كما يجب على كل روماني ان يتحمـــله • أما Porsenna ، فلقد أذهلته شـــجاعة « موكيوس » فنسى غضبه وأمره ان يعود الى روما دون ان يلحق به أي ضرر •

وبعـد أن يروى « تيطوس ليويوس » مأثرة الرهينة النبيلة العـذراء **Cloelia** التي تمكنت من الفرار سباحة وكيف ان الرومانيين رغم اعجابهم بشجاعتها أعادوها الى الملك Porsenna متوخين المحافظة على معاهدتهم مع الملك الاتروسكي بأمانة واخلاص، ولقد سرّ Porsenna تصرف الرومانيين فأطلق سراح الفتاة ، الرهينة الرومانية ، وسمح لها بأن تصحب معها كثيراً من الرهائن الآخرين الى روما •

ويضيف « تيطوس ليويوس » في روايته بان الملك الاتروسكي وجد ان الرومانيين قوم نبلاء ، فرفض مساعدة « ترقوينيوس المتغطرس » وهدم معسكره القائم فوق تل *Janicularis* ، ثم عاد ادراجه الى بلاده ... وقدّم جميع المؤن والقمح التي كانت بمعسكره الى سكان روما . فسر الرومانيون أيما سرور بالأطعمة التي قدّمها لهم الملك Porsenna ، فأهدوه تاجاً من الذهب وعرشاً وصولجاناً من العاج وثوباً ارجوانياً موشى بخيوط الذهب . وكان الملك يستحق بنظر روما هذه الهدايا العظيمة ، لأنه أثبت أنه عدو كريم سامي الخلق .

وفي الواقع ان تراجع الملك الاتروسكي Porsenna على الشكل الذي ورد في روايات المؤرخين اللاتينيين اعتبارا من القرن الثاني (ق.م) يخالف مجريات الواقع . وكما قلنا سابقاً[1] ، لقد دلّت الحفريات الأثرية في تل « البالاتيوم » وغيره من تلال روما ، على أن المدينة قد تعرضت لحريق كبير دمّر معالم ذلك العهد (آخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس) . وكما يقول الدكتور سليم عادل عبد الحق : « فان نهاية السيادة الاتروسكية على روما لم تكن نتيجة لثورة وطنية . وانما كانت من نتائج اتحاد الاغريقيين مع اللاتينيين وثورتهم بوجه الاتروسكيين وانهيار سلطة هؤلاء في اتياليـة الجنوبية واللاتيوم . ولم تلعب روما دوراً ما في كل ذلك . وكان تحريرها من ملوكها الأجانب نتيجة من نتائج انتصار التحالف الاغريقي اللاتيني على الاتروسكيين الذين أوجدوا فيها رخاءً اقتصادياً عظيماً ... وتقول بعض النصوص التاريخية انه بقي في روما بعد جلاء الاتروسكيين بعض أفـراد السلالة المالكة ، مما يتنافى مع ما ورد في رواية التحرير الوطني . ثم ان بعض المؤرخين المعاصرين يفسرون أسباب عداوة الأقوام اللاتينية المجاورة لروما ، وقتالهم أهلها سنة (٥٠٩ ق.م) ببقـاء مصالحها مرتبطة بمصالح الاتروسكيين . ومما يجدر ايضاحه ان الخواص الرومان هم الذين استفادوا

(١) انظر أعلاه ص ١٩٠ .

من زوال الحكم الاتروسكي ، لأنهم ما كانوا ينظرون بعين الرضى الى محاباة الملوك للعوام • »[1]

٢ ـ روما وجيرانها في القرن الخامس (ق٠م) •

لقد رأينا بأن الحكام الاتروسكيين هم الذين حوّلوا روما من مجموعة من القرى المتحالفة الى مدينة كبيرة وقوية تسيطر على مختلف أنحاء اللاتيوم• ولقد ذكرنا مختلف العوامل التي حدت بالاتروسكيين الى اختيار روما كنقطة أساسية لفرض سيطرتهم على اللاتيوم وعلى ايطالية الوسطى والجنوبية[2] • وهكذا بفضل السيادة الاتروسكية على اللاتيوم ، احتلت روما المقام الأول في الحوض الأسفل لنهر « التيبرس » وهيمنت على مختلف المدن اللاتينية • ولكن بعد جلاء الاتروسكيين عن روما وانحطاط سلطانهم على اللاتيوم ، برزت النزعات الاقليمية من جديد وحاولت المدن اللاتينية ان تنفصل عن روما ، بل سعت الى تشكيل اتحاد فيما بينها لتعاكس بواسطته مقاصد روما وتنهي سيطرتها على المدن المجاورة لها •

ستضطر روما الى بذل جهود جبارة خلال مئات السنين ، قبل أن تتمكن من تحقيق وحدة ايطالية لأول مرة في التاريخ •

ستضطر روما غير مرة ، دفاعاً عن كيانها ، الى محاربة اعدائها الذين هاجموها في عقر دارها • ستضطر مرات كثيرة الى مصارعتهم ، قبل ان تتمكن من ردّهم نهائياً ، لتنتقل فيما بعد الى مهاجمتهم واخضاعهم •

لم يكن الرومانيون ليتصورون ، بعد جلاء القوات الاتروسكية عن أراضيهم ، ما سيتمكنون من عمله • ولم يكن الرومانيون ليدركون النتيجة التي ستؤول اليها مساعيهم • لا شك في انه لم يمر بخاطرهم ، بانهم بعد عدة قرون سيصبحون سادة ايطالية ••• لا شك في انه لم يخطر في بالهم

---

(١) روما والشرق الروماني ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ص ٤٩ •

(٢) انظر أعلاه ص ١٨٦ •

بانهم بعد اخضاعهم مختلف أقوام ايطالية ، سيتمكنون بثباتهم وشجاعتهم ومثابرتهم من بلوغ أوج مجدهم . نعم لم يخطر في بالهم بأنهم سينتهون الى السيطرة بعد عدة قرون، على مختلف بلدان حوض البحر الابيض المتوسط، اضافة الى مناطق شاسعة في أوروبة وآسية وافريقية .

ان كل ذلك لم يكن ليخطر في بال نبلاء روما ، لا سيما وان شبه الجزيرة الايطالية كان تبدو في ذلك العهد ، وكأنها فسيفساء عرقية ، عمرت مختلف مناطقها شعوب وأقوام عديدة قدمتها منذ مطلع الألف الأول(ق.م)، أقوام نطقت بأكثر من اثنتي عشرة لغة مختلفة . فعدا عن اللاتينيين والاتروسكيين والاغريقيين والقرطاجيين نجد الأقوام الليغورية والكلتية والاومبرية والفولسكية والسابلية ـ الأوسكية والسيكولية الخ[1] . ان كثرة العناصر البشرية المتباينة التي سكنت ايطالية اعتباراً من مطلع الألف الأول (ق.م) قد أقامت بلا شك العقبات في طريق الوحدة الايطالية .

اضافة الى ذلك ، فان الوضع الداخلي في روما لم يكن مثالياً ، نتيجة للصراع الطبقي الذي ذرّ قرنه بعد زوال السيادة الاتروسكية وبعد ان ظهرت سلطة الاسر النبيلة بأجلى مظاهرها ، تلك الأسر التي ملكت القسم الأكبر من الأراضي الرومانية وتمتعت بامتيازات لا حدود لها ، بينما كانت طبقة العوام محرومة من مختلف حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية .

لم يكن يخطر في بال أي انسان ، بان تلك المدينة التي كانت مهددة من الداخل بحرب أهلية طاحنةومن الخارج من قبل جيران أشداء يناصبونها العداء الشديد ، لم يكن يخطر في بال أي انسان بان تلك المدينة ستغدو سيدة ايطاليا وستثب الى الشهرة وثباً باخضاعها الممالك والامبراطوريات .

ستحقق روما الوحدة الايطالية بالدم والحديد . ولقد بدأت باخضاع الأقوام المجاورة لها قبل ان تصطدم بالاقوام القاطنة في وسط ايطالية وشمالها

---

(١) انظر اعلاه ص ١٠٢ ـ ١٠٩ .

لتلتفت فيما بعد الى ايطالية الجنوبية وتستولي على المستعمرات الاغريقيـة الواحدة تلو الأخرى معلنة صراعها المرير مع قرطاجة •

ولقد افتتحت روما هـذه السلسلة الطويلة من الحروب والمعـارك بمقارعتها الأقوام اللاتينية المجاورة لها ، تلك الأقوام التي استكانت للسيطرة الاتروسكية ثم شقت عصا الطاعة على روما غداة زوال تلك السيطرة •

وهكذا ما كادت روما تتحرر من السيطرة الاتروسكية إلا واضطرت الى خوض سلسلة من الحروب القاسية ضد جيرانهـا المباشرين • وتفيض الأجزاء الاولى من (تاريخ) « تيطوس ليويوس » بالحديث عن أخبار تلك الحروب والمعارك •

بدأ اللاتينيون بالثورة على روما وألّفوا حلفاً انضمت اليه أغلب المدن اللاتينيـــة ، ومن أشهرها : Tusculum ; Aricia ; Ardea ; Lanuvium وغيرها ، وكان مركز الحلف مدينة Aricia • ولم تصبر روما على المصيبة وتقبل هزيمتها بل هبّت تحاول استرجاع مكانتهـا ، فجمعت جيشاً عظيماً وزودته بالأسلحة والمؤن واختارت لقيادته Postumius وعينتــه دكتـاتوراً لمدة ستة شهور وخولته سلطة واسعة كما لو كان ملكاً •

ويطلق المؤرخون على تلك الحرب اسـم « الحرب اللاتينيـة » • وتحتجب أخبارها وراء الروايات الاسطورية • ولقد ورد في الرواية بان الجيش الروماني قـد التقى بقـوات الحلف اللاتيني بالقـرب من بحـيرة *Regillus* بمنطقة Tusculum في اللاتيـوم (عـام ٤٩٦ ق•م) وتضيف الرواية بان الرومانيين قد قاتلوا ببسالة ولكن الغلبة كادت تتم لاعدائهم • وعندئذ تقدم القائد الروماني أمام جميع جنوده ونذر ان يبني معبداً عظيماً للشقيقين التوأمين Pollux ; Castor [١] ، لو هبّا لمساعدته وجعلا النصر لجيشه• وما كاد القائد الروماني ينهي ابتهاله، حتى أبصر الجمع مشدوهين،

(١) أبطال خرافيون، ابناء الاله « زوس » والاميرة « ليدا » ، ابنة « تستيوس » ملك « ايتولية » في اليونان القارية •

شابين جسمهما اكبر من جسم البشر ، يلبسان حلتين مدرعتين لامعتين ويركبان جوادين أبيضي اللون ؛ تقدم الفارسان وترأسا الجيش الروماني وسارا به من جديد ضد أعداء روما ، الذين ذعروا لمرأى الفارسين العجيبين، وذهلوا للهجوم الجديد المفاجيء ، فأطلقوا العنان لأقدامهم يسابقون الريح ... وكان النصر — كما تضيف الرواية — للجيش الروماني على قوات الحلف اللاتيني ... ورفض اللاتينيون بعد ذلك خوض غمار المعركة ضد الرومانيين وتخلوا عن مساعدة « ترقوينيوس المتعجرف » وعقدوا الصلح مع روما .

ومما لا شك فيه ان الصراع بين الطرفين كان مريرا وطويلا ، ولم تتمكن روما من احراز بعض النجاح الا بعد جهود كبيرة . ولقد حاول المؤرخون الرومانيون فيما بعد ، كعادتهم — ان يحجبوا ذلك بقالب اسطوري. ومما تجدر ملاحظته ان المعاهدة بين المتخاصمين لم توقع الا بعد ثلاث سنوات من بدء القتال . ولقد نقش نص المعاهدة على عمود من البرونز كان معروضاً في الفوروم وظلّ حتى القرن الاول (ق . م) . ولقد عُقدت المعاهدة — كما يفهم من نصها — بين طرفين متكافئين . ولقد أورد المؤرخ « ديونسيوس الهاليكارناسي » بنودها كما يلي : « سيسود السلام بين الرومانيين واللاتينيين ما دامت السماء تجلّل الارض وما دامت الأرض تحت الشمس ولن يحمل أحد من الموقعين على المعاهدة السلاح ضد الآخر ولن يسمح لعدو آخر أن يمرّ بأراضيه ، بل سيساعد حليفه بكل قواه اذا هوجم . أما غنائم المعارك التي يخوضها الطرفان فانها ستوزع بينهما بالعدل . »[1]

لقد وجد من المؤرخين المعاصرين من تشكك في صحة المعاهدة نذكر منهم Siber ; Bonfante ; Kübler ; A. Rosenberg ; Piganiol وسلّم بها L. Homo ; Mommsen ; Tenney Frank ; P. de Francisci

ورغم ذلك فان الجميع متفقون على القول بأن اتفاقية ما قد جرى عقدها

(1) VI, 91 sq.

بين الطرفين المتنازعين أمّنت مصالحهما بالتبادل ، ولقد تطورت الاتفاقية فيما بعد الى نوع من التحالف الروماني ـ اللاتيني • ولقد انضم الى التحالف الهرنيكيون الذين كانوا يشرفون على وادي Sacco حيث يمر الطريق الذي يصل بين روما و Campania •والهرنيكون كانوامن الأقوام اللاتينيةوألفوا اتحاداً فيما بينهم ، أهم مدنه Aletrium ; Capitulum ; Anagnia وغيرها • وجميع هذه المدن تقع في سهل اللاتيوم • وندرك أهمية انضمام الهرنيكيين الى الحلف الروماني ـ اللاتيني اذا أدركنا منطقتهم التي كانت تقع خلف الايكيين والفولكيين ، أولئك الأقوام الذين ثاروا على السلطة الرومانية وهددوا روما مراراً •

ولقد سعت روما الى تأمين جبهتها الشمالية ، فعقدت تحالفاً مع مدينة Chirsa (اسمها اللاتيني Caere ويطلق عليها في الايطالية اسم Cerveteri) • وتقع هذه المدينة على بعد (٤٤ كم) شمالي روما على الساحل المتوسطي •

لقد شكلت المحالفات الثلاث (مع اللاتينيين والهرنيكيين) ومدينة Caere) العناصر الأساسية للسياسة الخارجية الرومانية طوال القرن الخامس (ق•م) •

وستعتمد روما بعد الدبلوماسية على السلاح لاخضاع الأقوام الذين رفضوا التفاهم معها • ونودّ قبل أن نتابع حديثنا عن غارات تلك الأقوام على روما وهجمات روما المعاكسة،نقول قبل متابعتنا الحديث عن مختلف الأخطار التي تهددت روما في عقر دارها ، نود القاء لمحة خاطفة على الوضع الداخلي في روما بعد زوال الخطر الاتروسكي •

٣ ـ الوضع الداخلي في روما في القرن الخامس :

لقد ذكرنا بان المؤرخين الرومانيين الذين سطروا مؤلفاتهم اعتبارا من مطلع القرن الأول (ق•م) ، قد نسبوا الى الملك الاتروسكي Servius Tullius (٥٧٨ ـ ٥٣٤ ق•م) تصنيفاً جديداً ، وزّع بموجبه

أفراد المجتمع الروماني على خمس فئات معتبراً بذلك الثروات ، بعـــد ان كان التصنيف السابق قد اعتمد على الحسب والنسب في نظرته الى أفراد المجتمع • ولقد أضفنا بأن المؤرخين المعاصرين قد حدّدوا التاريخ الأقصى لذلك التصنيف بنهاية القرن السادس (ق•م) •[1]

وإذا كنّا من ناحيتنا نسلّم بذلك التاريخ ، فان ذلك لا يعني بشكل من الأشكال ، ان التوزيع الاجتماعي الجديد قد تراءى للعيان كاملا منــذ البدء • فلقد اقتضت عملية الفرز الاجتماعي عشرات السنين ، قبل ان يتخذ التصنيف الجديد شكله النهائي ، حيث نجد المواطنين الرومانيين موزعين على عدة فئات وفقاً لثرواتهم •

ولم يكن التصنيف الجديد من ابداع شخص واحد ، مشرعاً كان أو ملكاً كما ورد في الروايات المتأخرة ، بل لقد كان نتيجة حتميـة للتطـور الاقتصادي والاجتماعي الذي زاد أهمية طبقة العوام في روما ، تلك الطبقة التي أخذ أفرادها يلعبون دوراً اكبر من ذي قبل في مختلف المجالات: الاقتصادية والسياسية والعسـكرية • وبكلمات أخرى ، فان الحقـوق الجزئية التـي حصلت عليها طبقة العوام لم تكن الا حصيلة الصراع الطبقي الحاد الذي نشب بين أفراد تلك الطبقة وبين النبلاء الذين استأثروا بجميع خيرات المجتمع (الأرض والمواشـي خاصـــة) وانفردوا بالسلطة بعـــد زوال السيطرة الاتروسكية • لا يمكننا ان نتتبع مختلف أشكال هذا الصراع في مرحلتـه الأولى ، وكل ما يمكننا تأكيده الآن ، على ضـوء معلوماتنا واسـتناداً الى مختلف الدراسات التاريخية المقارنة ، ان النزاعات « بين طبقة العوام والنبلاء قد كانت السبب في حدوث تلك الثورة في روما • »[1]

نحن لا ننـكر الدور التمهيدي الذي لعبـه الحكام الاتروسكيون بايجادهم ظروف جديدة ، ساعدت أفراد طبقة العوام على مقاومة الطبقـة النبيلة • فلقد ساهم الاتروسكيون ، كما قلنا سابقاً ، في اضعاف سطوة نبلاء

---

(١) انظر اعلاه ص ١٩٦ ــ ١٩٧ •

روما ، عندما عاملوا مختلف الرومانيين معاملة واحدة باعتبارهم رعايا لهم مهما كان حسبهم ونسبهم • نعم ، لقد كان لتلك الخطوة من جانب الاتروسكيين دورها ايضا في التطور الاقتصادي والاجتماعي • ولقد كـان من مصلحة الحكم الاتروسكي أن يحدّ من استثمار النبلاء للعوام ، لأن طبقة العوام كانت تشكل الطبقة المنتجة في المجتمع • وهذا ما يفسّر أيضا جزئيا سخط نبلاء روما على الحكّام الاتروسكيين وسعيهم الحثيث لاسقاط حكمهم •

حاول النبلاء بعد زوال السيطرة الاتروسكية ان يعودوا بالأمور الى ما كانت عليه في الماضي ، فسعوا في سبيل ذلك الى تركيز مقاليد السلطة في أيدي الأسر النبيلة ، ونذكر من أشهر تلك العائلات أسر Claudia ; Valeria ; Fabia .

أما من الناحية الاقتصادية ، فلقد كان النبلاء يملكون قطعان الماشية واستولوا تدريجيا على القسم الأكبر من الأراضي الصالحة للزراعة لتربية مواشيهم • وعندما تناولنا بالبحث المناخ والشروط المادية في ايطالية قديماً ، ذكرنا بأنه بالامكان تفسير الصراع العنيف بين النبلاء والعوام بمزاحمة كبار ملاكي قطعان الماشية الفلاحين الصغار على الارض[(١)] •

أما أفراد طبقة العوام فلقد أقام عدد كبير منهم في الريف • فمنهم من كان يملك قطعةصغيرة من الأرض ومنهم من كان يستأجرها من مالكها النبيل المقيم في المدينة ويستثمرها على أن يقاسم غلاتها مع صاحبها • ولقد لجأ بعضهم الى استئجار الأرض مع الاستدانة من المرابين لشراء البذار ، وويل لهؤلاء إن حدث وتأخر وفاء الدين لسبب من الأسباب (سوء الموسم، كوارث طبيعية ، الخ •) ففي تلك الحالة يمكن للدائن أن يرهنه أو أن يستعبده وإذا حصل ووُجد عدة دائنين ، فيحق لهم كما رأينا توزيع النفس الرهينة بتقطيع جسد المدين •

ازاء تلك الشروط المعيشية القاسية في الريف ، اضطر بعض أفراد

(١) انظر اعلاه ص ٤١ وص ١٩٢ •

من العوام ان ينحوا بصرهم الى المدينة • فمنهم من هام على وجهه متسكعاً ومنهم من انقطع الى خدمة الأسر النبيلة ولكن أغلبهم عمل في الحرف ؛ لا سيما ان بعضها قد بدأ يتطور بسرعة فائقة بفعل الحاجات الملحة ، وخاصة الحرف المتعلقة بصناعة الأسلحة وبناء التحصينات العسكرية والمنشاءات الدفاعية ، وذلك نظرا الى الأخطار الخارجية التي كانت تتهدد روما من جيرانها المباشرين قبل عقد معاهدات التحالف معها ومن الشعوب الجبلية التي كانت تغير على الأراضي الرومانية فينة بعد فينة •

ولم تلبث ، نتيجة لتطور تلك الحرف وغيرها ، أن تكونت فئة جديدة من عوام المدينة ، فئة محدودة الدخل ، ولكنها أخذت تشعر بأهميتها بعد ازدياد شأنها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية • وان أسر تلك الفئة هي التي ستقود هجمات طبقة العوام على النبلاء للحصول على بعض الحقوق السياسية والاجتماعية والدينية • وستستفيد بعض الاسر البورجوازية الجديدة من الأوضاع البائسة للعوام الريفيين ، لتحريضهم على الثورة ضد النبلاء ولاجبارهم على التنازل عن بعض امتيازاتهم لصالح طبقة العوام •

واضافة للعامل الاقتصادي الذي ذكرناه ، برز عامل جديد زاد أهمية طبقة العوام ، ونعني بذلك الأسلوب الجديد للتجنيد والحرب •

ففي السابق ، كما رأينا ، تشكل الجيش الملكي من أفراد « الجماعات الكبر » واتباعهم • وكان على كل قبيلة من القبائل الثلاث ان تقدم (١٠٠٠) جندي راجل و (١٠٠) فارس ، أي أنهم قد اقتصروا على تجنيد النبلاء واتباعهم وبذلك لم يتجاوز الجيش بمجموعه ، بين فرسان ومشاة ، ٣٣٠٠ جندي •

ويعتقد بعضهم بأن الملوك الاتروسكيين بعد انتهاجهم سياسية خارجية توسعية وبعد خوضهم حروب ضد أقوام اللاتيوم وضد الاغريقيين ، قد افتقروا الى عدد أكبر من الجنود ولذلك جنحوا الى طبقة العوام وجندوا بعض أفرادها وخاصة الأغنياء منهم مما زاد سخط النبلاء على الحكم

الاتروسكي • ولا شك في ان هذا العامل قد لعب قسطاً كبيراً في ايجـــاد التصنيف الجديد المنسوب الى « سرويوس توليوس » ، ذلك التصنيف لذي المحنا اليه مراراً • ولقد رحّب اغنياء العوام بذلك ولم يمتنعـوا عن الخدمة ، على أن ينالوا بعض الحقوق السياسيـة والاجتماعية التـي تصون أموالهم واشخاصهم ، تلك الحقوق التي كانت وقفاً على النبلاء • ومن المرجح ان الطبقة النبيلة بعد انتصارها على الاتروسكيين قد حاولت في هذا الميدان أيضا العودة بالعجلة الى الوراء وتسريح العوام أو منعهم على الأقـل من الانتساب الى القوات المسلحة ، مما أثار نقمة العوام اكثر من ذي قبل •

لقد أراد النبلاء سلب العوام بعض الحقوق التي حصلوا عليها في آخر الفترة الاتروسكية • ولكن لم يدر بخلد الطبقة النبيـلة بأنه لم يكن في وسعهـا ، بعد زوال القدرة الاتروسكية ، الدفاع عن روما بقواهـا فقط ، دون الاعتماد على سواعد الأغلبية الساحقة لسكان المدينة؛ لا سيما وان جيران روما المباشرين قد حاولوا كما مرّ معنا ، مستفدين من فرصة الفوضى والدمار التي حلّت في المدينة من جرّاء الصراع بين الاتروسكيين وبين اعـدائهم ، نقول ان اعداء روما قد حاولوا انتزاع تفوقها على مختلف مدن اللاتيوم •
واحتكروا لأنفسهم الأراضي الأميرية *ager publicus* التـي كانت ، من

لقد غالى النبلاء في صلفهم ولم يقدّروا حق قدره عزم العـوام على الدفاع عن المكتسبات التي نالوها بل وعلى توسيعها • ولا شك في ان أهداف مختلف فئات العوام لم تكن واحدة • فالريفيون منهم كانوا في حالة يُرثى لها بعد ان صادر النبلاء لحسابهم القسم الأكبر من الأراضي الصالحة للزراعة التي كانت من حيث المبدأ، ملكية عامة عائدة الى مختلف المواطنين الرومانيين • ولذلك رفع الريفيون من العوام شعار : « الأراضي الأميرية من حق جميع المواطنين ، بدون تمييز » •

أما بالنسبة للفئة المدنية من العوام التي انتقلت الى روما حيث ازدهرت أحوالها الاقتصادية ، فلقد بدأت تشعر بأهميتها المتزايدة في حياة المجتمع •

ولقد برز من بين صفـوف تلك الفئـة أسر اكثر ثراء من غيرهـا ، شكلت « البورجوازية الرومانيـة » كما يقـول البعض • ومن أشهرها ، عائـلات Sempronia , Licinia ; Minucia وغيرها • ولقـد أخذت تطالب تلك الفئة من طبقة العوام ، بالحاح متزايد ، المساواة مع النبلاء في الحقوق السياسية وبالسماح لأفرادها بتقـلد مختلف المناصب التي كانت من حـق النبلاء فقط •

ويمكننا تلخيص البرنامج العام لمختلف فئات العوام كالتالي :

١) المساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية والدينيـة مع النبلاء • ولقد عبّر خاصة عن تلك المطالب ، العوام المدنيون الذين يمارسون مختلف الحرف ويتعاطون التجارة •

٢) النظر في وضع الأراضي الأميرية واعادة توزيعها من جديـد بين مختلف المواطنين دون النظر الى طبقتهم • ولقد الحّ في تحقيق ذلك ، العوام الريفيون •

٣) البحث في قضية الديون والأراضي المرهونة ؛ لا سيما ان عـدداً كبيراً من العوام قد فقدوا حريتهم نتيجة لعدم تمكنهم من تسديـد ديونهم الى النبلاء المقيمين في روما والى المرابين ، الذين استخفوا بهم وعـاملـوهم أسوأ معاملة بدون رحمة أو شفقة •

لقد شعر العوام بأنهم يمثلون العنصر الجوهري في ميـدان الانتـاج وانه لن تسير الحياة الاقتصادية سيرهـا الطبيعي سـواء في الزراعـة أو في الحرف الصناعية لولاهم • لقد ادركوا بأنهم يكوّنون القاعدة الاقتصـاديـة التي تقوم عليها الدولة •ويضاف الى جميع ما ذكرناه العامل العسكري عندما شعروا بأنهم يمثلون العنصر البشري الذي لاغنى عنه للـدفـاع عن رومـا حيال الأخطار التي تعرضت لها المدينة من قبل جيرانها المباشرين ومن قبـل الأقوام الجبلية المحيطة باللاتيوم • اذا أخذنا بعين الاعتبار جميع العـوامـل

المذكورة أعلاه ، ادركنا حق قدرهـا الخطوة الخطيرة التي خطتهـا طبقـة العوام باعلانها العصيان المدني •

بدأ العوام يعبرون عن استيائهم بتشكيلهم جمعيات خاصة بهم تناقش أمورهم الخاصة بطبقتهم • وكانت تلك الجمعيات في نظر النبلاء غير قانونية• فحاولوا التدخل لمنع تلك الجمعيات من الانعقاد • فانتقل العوام الى التهـديد بالانسحاب من روما الى التلال المجاورة لتشكيل مدينة جديدة تتعاون مـع أعداء روما • وعندما ضغطت الأقوام المجاورة لروما على المدينة ، رفض عدد كبير من العوام حمل السلاح للـدفـاع عن رومـا ، بـل ان بعض الفرق العسكرية المشكلة من العوام قد انسحبت مرة من ميدان القتال ، تـاركـة الساحة خالية أمام الأعداء والتجهت الى روما لتهديد النبلاء•وتذكر الروايات بان العوام قد هاجموا مراراً أملاك النبلاء وخربوهـا ونهبـوا ممتلكاتهـا • وكانت نقطة تجمع النبلاء تل *Aventinum* ، بالقرب من ميناء روما على نهر « التيبرس » حيث يقع معبد الربة Ceres ، الهة ثمار الأرض وحامية العوام • وهناك يستمعون الى خطب زعمائهم ، ثم يسيرون في شوارع رومـا مهددين النبلاء الظلاّم •

وتذكر الروايات أنه في عام (٤٩٤ ق•م) وعندمـا كان الخطر على أشدّه من جراء تهديد الأقوام اللاتينية لرومـا ، انسحب العوام على جبـل يقع على بعد خمسة كيلو مترات من روما وراء نهر *Anio* أحد سواعد نهر « تيبرس » وأعلنوا عن عزمهم في الانفصال عن رومـا وفي تشكيل مدينـة جديدة • فارتاعت الطبقة النبيلة للخبر وأسرع مجلس الشيوخ الى ارسال وفد الى المنشقين[1]،يرأسه مواطن حسن السمعة وهو Menenius Agrippa للتفاوض مع العوام • أسفرت المفاوضات عن عقد اتفاق بين الطرفين المتنازعين وينص على شرطين أساسيين :

١) انشاء مؤسسة تضم عدة أشخاص مهمتهم الدفاع عن العوام •

(1) Liv., II, XVI, 7; II, XXXII, 8.

ويتم انتخابهم من قبل العوام في جمعياتهم القبلية • ويشترط في المرشح لهذا المنصب الذي سيطلق عليه اسم « النقيب أو المحامي عن الشعب » *tribunus plebis* أن يكون من العوام وسيلعب « محامو الشعب » دورا كبيرا في القرون الاولى للعصر الجمهوري ، قبل أن يتمكن مجلس الشيوخ والنبلاء من شل دورهم بدسائسهم ومناوراتهم •

٢) اعترف النبلاء أيضا بشرعية الجمعيات أو المجالس التي كان قد شكلها العوام في الماضي • وأصبحت تلك المجالس تُعرف فيمابعدباسم «مجالس القبائل » *Comitia tributa* • ولقد كان لتلك المجالس بعض السلطات التشريعية ، كما أن العوام كانوا ينتخبون فيها ممثليهم وخاصة المرشحين لمنصب « محامي الشعب » •

جُعل هذا الاتفاق الجديد اتفاقا مقدسا ، وسُمي الجبل الذي عسكر فيه العوام الذين هددوا بالانفصال عن روما ، بالجبل المقدس ، واشتهر الاتفاق فيما بعد باسم « اتفاق الجبل المقدس[1] وكان ذلك عام (٤٩٤ ق•م) •

٤ ـ التطورات الاقتصادية والاجتماعية في القرن الخامس (ق • م) :

بخلاف ما قد يتبادر الى أذهان البعض ، فان اضمحلال السيطرة الاتروسكية على اللاتيوم وتقهقرها في ايطالية الوسطى لم يساعد على ازدهار الاوضاع الاقتصادية في روما • فلقد رأينا بأن اختيار الاتروسكيين لموقع روما كنقطة أساسية لمدّ سيطرتهم على اللاتيوم ولتوسعهم في مقاطعة Campania قد عاد بفائدة عظيمة على المدينة وجعل منها مركزاً مهماً للمبادلات التجارية بين ايطالية الشمالية والجنوبية ، أي بين أكبر مركزين حضاريين في شبه الجزيرة ونعني بهما « اليونان الكبرى » وأترورية[2] •

ونودّ قبل أن نتابع بحثنا لتلك الفترة ، أن ننبه الى ما ذكرناه بالنسبة

(1) *MONS SACER* : Liv., II, XXXII, 2.

(٢) انظر أعلاه ص ١٨٥ •

لصحة معلوماتنا عن الفترة الاولى للعصر الجمهوري[١] • لا شك في أن المامنا بمختلف جوانب حياة المجتمع الروماني في القرنين الخامس والرابع (ق • م) ، لهو اليوم أفضل بكثير مما كانت عليه سابقاً ، أي قبل أن تتطور بعض العلوم المساعدة للتاريخ ، التي ساهمت في أغناء معارفنا عن تلك الفترة الغامضة من تاريخ روما • ولكن هذا لا يعني أبداً بأن كل شيء قد أصبح جلياً في أذهاننا • وإذا كانت بعض الامور قد أصبحت أكثر وضوحاً ، فكم هي عديدة ومتنوعة تلك المواضيع التي ما زالت تحتاج الى المحص والتدقيق • ولقد لاحظنا كيف أن روايات « تيطوس ليويوس » و « ديونسيوس الهاليكارناسي » عن نهاية الحكم الاتروسكي في روما هي مفعمة بالاساطير[٢] •

من المؤكد أن سقوط الحكم الاتروسكي في روما وتقهقر نفوذ الاتروسكيين في اللاتيوم وفي ايطالية الوسطى قد أفقدا روما مركزها الممتاز القديم • بل لقد الحق ذلك أيضاً الضرر بالمدن اللاتينية في اللاتيوم وهذا ما يفسّر لنا مقاومتها لروما في مطلع القرن الخامس •

وتشير جميع الدلائل الى ان روما وايطالية الوسطى قد وقعتا في أزمة اقتصادية حادة طوال القرن الخامس (ق • م) • فبالنسبة الى روما ، تدل الشواهد المادية الصادرة عن الطبقة الاثرية العائدة الى ذلك العهد ، على تقهقر ملحوظ في مختلف النواحي الحضارية : من نقصان في المصنوعات المعدنية والخزفيات المتقنة وشحّ في الحبوب والمواد الغذائية • ويستدل أيضاً من الآثار على توقف في حركة بناء المعابد وغيرها بل أن المدينة لم تستطع اعادة بناء سورها الذي تهدّم أثناء الصراع بين الاتروسكيين ومنافسيهم • والروايات التاريخية مليئة بالاخبار عن المجاعات التي تهدّدت روما فينة بعد فينة طوال

---

(١) انظر أعلاه ص ٣ ـ ٢١ •

(٢) انظر بالنسبة للمصادر اللاتينية واليونانية وللمراجع عن القرنين الخامس والرابع (ق•م) في روما :

A. Piganiol, *Histoire de Rome*, P. U. F., Paris, 1949, pp. 54-58 et 68-71.

القرن الخامس ؛ وكأن الحياة قد توقفت أو بالاحرى وكأن الحضارة قد تقهقرت وعادت أشواطاً الى الوراء • وتدل مختلف الوثائق على أن روما قد اضطرت أن تستورد المنتجات الصناعية من أتروريه ومن اليونان الكبرى ، وكذلك المواد الغذائية (حبوب ، زيت ، خمر الخ •) فلقد استوردتها روما من اليونان الكبرى الشهيرة بغلالها الزراعية • كما يقول R. Besnier « لم يعد يحسب لروما حساب وكأنها ليست قائمة »[1] •

ويمكننا القول ، بأنه منذ مطلع العصر الجمهوري وحتى فترة الاجتياح الغالي لروما (٣٩٠ ق • م) اقتصر نشاط الرومانيين على الاعمال الزراعية ، اضافة الى الحروب العديدة التي خاضوها ضد سكان اللاتيوم والاقوام الجبلية مما اضطرهم الى الاهتمام ببعض الصناعات فقط وخاصة صناعة الاسلحة وتنفيذ بعض المشاريع البنائية التي تمت بصلة الى الاعمال الحربية •

ولقد تضافرت عدة عوامل على بروز هذا الركود الحضاري الجلي في روما في القرن الخامس (ق • م) ؛ منها السياسي ومنها الاجتماعي ومنها الاقتصادي والتقني • ويمكننا تلخيص مختلف هذه العوامل كالتالي :

١) ركود الحياة الاقتصادية نتيجة لتقهقر قوى الانتاج : فمن جهة غادر عدد كبير من الحرفيين روما بعد زوال النفوذ الاتروسكي وبذلك تراجع المستوى التقني للانتاج • ومن جهة أخرى ، لم يتمكن الرومانيون من تخصيص رأس المال اللازم لتطوير الصناعة الحرفية ،إذ كما رأيناه اضطرتهم الامور الحربية طوال القرن الخامس ومطلع القرن الرابع الى الاهتمام خاصة بالحرف المتعلقة بالنواحي العسكرية (صناعة الاسلحة ،البناء العسكري الخ •) وبذلك أهملوا الحرف المنتجة للمواد الاستهلاكية اليومية •

٢) بالنسبة للانتاج الزراعي ، هجر عدد كبير من الفلاحين الارض وتقلدوا السلاح • ولقد شكل هؤلاء الفلاحون الصغار في الواقع العمود

(1) *L'etat économique de **Rome** de 509 à 264, Revue Historique de Droit Français et Etranger*, Paris, 1955, p. 215.

الفقري للفرق الرومانية التي خاضت المعارك الدامية ضد أعداء روما الذين هددوها في عقر دارها طوال القرنين الخامس والرابع (ق٠م) ٠ ولقدقُتل في ساحة المعركة عددٌ كبير من هؤلاء المزارعين وبذلك تناقصت الايدي العاملة في الزراعة ٠

٣) ويقابل هذا النقص في مجالي الانتاج الصناعي والزراعي خلل في العلاقات التجارية بين روما وايطالية الوسطى من جهة وبين أترورية واليونان الكبرى واليونان القارية من جهة أخرى ٠ فروما التي كانت تعتمد في كثير من موادها الاستهلاكيــة على وارداتها من المناطق المار ذكرها ، قد وجـدت نفسها في النصـف الاول من القرن الخامس في وضع جديد من ناحيةعلاقاتها التجارية والخارجية ٠

فرغم أنها قد استوردت بعض المواد الغذائية من أترورية ، فمما لاشك فيه أن العلاقات المتوترة بين الطرفين بعد سقوط الحكم الاتروسكي في روما قد أدّت في مطلع القرن الخامس (ق٠م) الى الحد من الوارداتالاتروسكية الى روما ٠

أمـــا بالنسبـة للاغريقيين ، فيجب أن لا تغيب عن ذهننا الحروب الميدية ، تلك الحروب التي أدت بمقدماتها وأحداثها ونتائجها الى اضطراب أوضاع العالم الاغريقي طيلة النصف الاول من القرن الخامس (ق٠م) ؛ مما أدى الى نقصان الواردات الاغريقية بل الى انقطاعها أحيانا ، في فترة كانت فيها روما أحوج ما تكون اليها ٠ فعلاوة على تدهور الانتــاج في بلاد اليونان القارية نتيجة لاجتياح الفرس لها بعـد احتــلال شواطىء آسـية الصغرى ، حيث المدن اليونانيـة المزدهرة مما حـرم ايطالية وروما من مصنوعات ومحاصيل الحوض الشرقي للبحرالابيض المتوسط ، نقول علاوة على ذلك ، فلقد انعكس التيار التجاري عندما شرعت مستعمرات « اليونان الكبرى » في تصدير منتجاتها الصناعية وغلالها الزراعية الى الوطن الأم في

فترة كانت فيها جهود بلاد اليونان القارية مكرسة لصد الفرس ولطردهم من الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط •

٤) لقد كان الصراع الطبقي على أشده في القرن الخامس (ق•م) بين النبلاء والعوام • ولقد لعب هذا العامل دورا كبيرا في تعقيد الازمة الاقتصادية • فعدم التوافق بين قوى الانتاج من جهة وبين علاقات الانتاج من جهة أخرى ، قد أدّى الى تفجير التناقضات داخل المجتمع الروماني • ولقد ظهر ذلك في ثورات العوام وفي عصيانهم المدني وفي تهديدهم بالانفصال عن روما مما جعل النبلاء يتنازلون عن بعض امتيازاتهم ويلبون بعض مطالب طبقة العوام • ولكن نضال العوام ضد النبلاء لم يكن الا في بداياته الاولى وسيستمر سنوات عديدة قبل أن تحصل الفئات الكادحة على بعض حقوقها •

أما من ناحية الرقيق ، فلقد رأينا بأن أكثر مصادره كانت داخلية في العصر الملكي • ولكن في القرن الخامس والنصف الاولى من القرن الرابع (ق•م) شكل « رقيق الدين » المورد الاول للعبيد • ولقد كان القسم الاكبر من هؤلاء من فئة الفلاحين الرومانيين المعدمين • لم تلعب طبقة الرقيق دورا كبيرا في الصناعات الحرفية ، ولكن ظهور عدد كبير من أرقاء الدين قد عقد الوضع الداخلي في روما وزاد من حدة الصراع الطبقي • ولقد أوردنا نصاً لتيطوس ليويوس يقول فيه بأن هذا النوع من الرقيق لم يحرّم نظرياً الا بموجب قانون صدر (عام ٣٢٦ ق•م)[١] •

لقد أدى التطور الاقتصادي ـ كما رأينا ـ الى ظهور فئة جديدة من عوام المدن اشتغل أفرادها في المهن الحرفية • ولقد أثرى بعض هؤلاء وأصبحوا يشكلون مع النبلاء القدماء طبقة جديدة واسعة النعمة بعكس صغار الحرفين والعوام الريفيين •

---

(١) أنظر أعلاه ص ١٩٥ •

ويمكننا تقسيم أفراد المجتمع الروماني في النصف الثاني للقرن الخامس (ق٠م) اعتمادا على « قانون الاحوال الشخصية » الى مجموعتين أساسيتين :

١ ـ المجموعة الاولى تضم المواطنين •

٢ ـ المجموعة الثانية وتضم من لا يتمتع بصفة المواطن وتشمل تلك المجموعة العتقاء والعبيد •

ولقد وزع التصنيف المنسوب الى الملك الاتروسكي « سرويوس توليوس » مجموع المواطنين الرومانيين الى خمس فئات وذلك وفقاً لثرواتهم :

آ ـ الفئة الأولى : يملك كل من أفرادها مبلغ ١٠٠ ألف AS *«libralis»* [١] •

ب ـ الفئة الثانية : يملك كل من أفرادها مبلغ ٧٥ ألف

جـ ـ الفئة الثالثة : يملك كل من أفرادها مبلغ ٥٠ ألف

د ـ الفئة الرابعة : يملك كل من أفرادها مبلغ ٢٥ ألف

هـ ـ الفئة الخامسة : يملك كل من أفرادها مبلغ ١٠ آلاف

أما الكادحون *proletarii* [٢] الذين يكسبون قوتهم بعمل أيديهم ، فلم يشملهم التنظيم •

---

(١) وحدة نقدية برونزية على شكل سبيكة تزن (٢٧٢ غراماً) • ولم تظهر أولى القطع النقدية في روما الا في القرن الرابع (ق٠م) • ويطلق عليه اسم *libralis* من libra وهي وحدة قياسية للأوزان (٣٢٧ غراماً) • ولقد اختلف وزن تلك الوحدة النقدية AS فيما بعد ، وأصبحوا يطلقون الكلمة على القطع النقدية البرونزية ، ذات الأوزان المختلفة •

(٢) مفردها *proletarius* ، ومعناها في الأصل ، الشخص الذي لا يملك الا أولاده *proles* • وأصبحت الكلمة تعني فيما بعد : الانسان المعدم واكتسبت معاني أخرى : كالمبتذل والسوقي والحقير الخ •••

ولقد ترتب على هذا التصنيف كما سنرى نتائج عديدة : من ناحية الضرائب والخدمة العسكرية وحق الترشيح لبعض المناصب الاداريةالخ ..

واضافة للتصنيف على أساس الثروات ، وزّع الاصلاح المنسوب الى « سرويوس توليوس » مختلف المواطنين الرومانيين على احدى وعشرين قبيلة عوضاً عن القبائل القديمة الثلاث[1] ، وذلك بموجب مناطق سكناهم . وتقسم تلك القبائل الى قبائل مدنية وقبائل ريفية . أما القبائل المدنية فهي *Palatina* ، *Collina* ، *Suburana* ، *Esquilina* . وتضم تلك القبائل في صفوفها سكان مدينة روما حيث السيطرة للموسرين من نبلاء قدماء وللبورجوازية الجديدة . ولقد انضم الى فئة البورجوازية الجديدة المؤلفة من العوام الذين أثروا بتعاطيهم التجارة والاعمال الحرفية، لقد انضم اليها عدد كبير من التجار الاغريقيين وغيرهم الذين حلّوا ركابهم في روما قادمين من جزيرة صقلية ومدينة مرسلية ومقاطعة **Campania** وانتظم الفلاحون في صفوف سبع عشرة قبيلة ريفية . ولقد ارتفع عدد القبائل الريفية في القرن الثالث (ق.م) الى احدى وثلاثين قبيلة . وسنرى أثناء بحثنا عن المجالس ، بان التصنيف الاول الذي وزّع المواطنين الرومانيين على خمس فئات وفقاً لثرواتهم ، سنرى بأن ذلك التصنيف سيغدو الاساس لتشكيل « المجالس المئوية » **Comitia centuriata** . أما التصنيف الثاني الذي وزّع مختلف المواطنين ، مهما كانت ثرواتهم ، على احدى وعشرين قبيلة سكنية ، فسيصبح المصدر لتشكيل « المجالس القبلية » **Comitia tributa** .

وكان لكل من تلك المجالس اختصاصاتها المحددة من ناحية انتخاب الحكام والولاة والتصويت على القوانين واعلان حالة الحرب الخ .

ويأتينا في أسفل السلم الاجتماعي العتقاء والعبيد . ولم يتبدل وضع

---

(١) أنظر اعلاه ص ٢٠٣ .

العبيد كثيرا عما ذكرناه في نهاية العصر الملكي • وسيزداد عددهم ودورهم الاقتصادي في الانتاج اعتبارا من القرن الرابع (ق•م) أي بعد وقوع عدد كبير من الاسرى نتيجة لحروب روما ضد أعدائها •

٥ ــ تطور القانون والالواح الاثنا عشر :

لم يُكوّن القانون الروماني في مراحله الاولى بنيانا حقوقيا كاملا ، متلاحم الاجزاء ، حاويا قواعد مجردة لمختلف الحالات ، كما نعهده اليوم في مختلف القوانين المسجلة • ولقد ارتبط القانون في أصوله الاولى ارتباطا وثيقا بالدين • وما زلنا نجد في قانون الالواح الاثنى عشر ، ذلك القانون الذي يدل على الاتجاه العلماني الجديد للحقوق ، نقول ما زلنا نجد ارشادات حقوقية عليها مسحة دينية ، منها الارشادات المدنية والجزائية ومنها بعض الاصول المتعلقة بمختلف أنواع العبادات •

وكمختلف مجتمعات العالم القديم ، كان القانون في روما في بادىء الامر من اختصاص رجال الدين وكانت هيئة الاحبار[1] هي التي تفسّر مختلف الاصول والقواعد الحقوقية • وفي الواقع ، لم يكن للرومانيين في بداياتهم الاولى قوانين وقواعد حقوقية تنظم مجتمعهم ، بل كان الاحبار يعتمدون على « سنة الاجداد » ***mos maiorum*** لاصدار فتاويهم • ولم يكن هنالك نصوص مدونة مسجلة يستند اليها هؤلاء أثناء فصلهم في المنازعات بين مختلف الاطراف ، بل أن « سنة الاجداد » هذه كانت تتألف من مجموع عادات قبلية ومراسيم ملكية ووصايا كهنوتية ، وكان « القضاة » يفسرونها كما يشاؤون على قدر قناعاتهم وبحسب اهوائهم ، اذ لم يكن هنالك مواد قانونية مسجلة ، واضحة التعبير ، صريحة ، تحدد حقوق وواجبات أفراد مختلف طبقات وفئات المجتمع •

كانت العادات والتقاليد العائلية والقبلية المصدر الاساسي للقانون في

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٢٢ •

بدايات العصر الملكي • ولكن الى جانب ذلك ، بدأت تتكون تقاليد ملكية نابعة من سلطان ملوك روما وذلك مع تزايد أهمية السلطة الملكية الرومانية وتوطدها على حساب نفوذ العائلات النبيلة •

ولقد رأينا سابقاً[1] ، بأنه كان يحق لمجلس الجماعات « الجمعيات الشعبية » التصويت على بعض المشاريع القانونية المتعلقة بشؤون الاحوال المدنية والامور القضائية واصدارها على شكل قوانين بعد التصويت عليها • وكان ذلك يتم بناء على مبادهة ملكية • ويذكر الرواة بأن الفقيه **Papirius** قد نظم في نهاية العصر الملكي مجموعة قوانين ملكية اشتهرت فيما بعد باسم ***ius papirianum*** • ولقد أورد بعض المؤرخين والاخباريين اليونانيين واللاتينيين في كتاباتهم بنود بعض تلك « القوانين الملكية » مما يسمح لنا تكوين فكرة عن خطوطها العامة • وتنسب الرواية صياغة « القوانين الملكية » خاصة الى (روملوس) مؤسس مدينة روما والى الملك المشرع Numa Pompilius[2] •

ومن الملاحظ ، أن تلك القوانين تتعلق خاصة بطقوس الذبائح والقرابين وكذلك بمختلف عناصر القانون الخاص (الزواج ، الطلاق ، الحياة الزوجية ، حقوق الاب على أولاده الخ) والقانون الجنائي (قتل الابن لابيه ، نقض العهد والحنث في اليمين ، الاعتداء على أملاك الغير الخ •) • ويلاحظ أيضا بأن العقوبات كانت غالبا ذات طابع ديني[3] •

كيف تنظر المدرسة التاريخية المعاصرة الى ما جاء في روايات الاخباريين القدماء عن « القوانين الملكية » وعن تطور الشرائع المدنية والجزائية في العصر الملكي ؟ •

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ •

(٢) أنظر أعلاه ص ١٧١ ـ ١٧٤ •

(٣) راجع بشأن العقوبات ما جاء في « السير المقارنة » لبلوتارخوس : (Numa, XVIII, XXX ; Romulus, XXXV) •

اعتمادا على مختلف الدراسات المقارنة ، يمكننا الجزم بما يلي :

آ ـ رغم انه كان يحق نظريا لمجلس الجماعات **Comitia curiata** أن يناقش أحيانا « مشاريع قوانين » ويصدرها على شكل قوانين بعد التصويت عليها ، فمن المؤكد أن ذلك لم يحدث الا نادرا في العصر الملكي .

ب ـ واذا اتفق والتأم « مجلس الجماعات » وناقش بعض الامور الحقوقية ، فمن المستبعد أن تكون تلك المؤسسة قد أصدرت قراراتها مدونة ، اذ أن الكتابة في العهد الملكي لم تكن شائعة الاستعمال ثم أن اصدار القوانين مدونة بشكل جلي واضح ، لتحديد حقوق وواجبات أفراد المجتمع ، ان هذا الامر كان من المطالب الاساسية لطبقة العوام في مطلع العصر الجمهوري ، ومعنى ذلك أن هذه السنة لم يكن معمولا بها طوال العصر الملكي . وبالتالي ، فان « القوانين الملكية » المفترضة لم تكن قوانين بكل معنى الكلمة بل يمكننا القول بأنها لم تكن قواعد حقوقية مدونة .

ولقد ذهب بعضهم الى القول ، بأن مجموعة القوانين الشهيرة باسم *ius papirianum* هي من تصنيف فيلسوف فيثاغوري وضعها بين عامي (٤٦ ـ ٣٧ ق.م) ، اذ أن بعض قواعد « القوانين الملكية » (كالنهي عن أطعمة معينة والنفور من الدم وقدسية الزواج ، الخ) . توافق ما جاء في المذهب الفيثاغوري [١] .

قد يكون هذا الرأي مبالغ فيه . ولكن هذا لا يعني مطلقاً بأن ما جاء في كتابات الاخباريين القدماء مقبول بتمامه . ف « القوانين الملكية » لم تكن في الواقع سوى التعبير عن عادات قديمة (قبلية وعائلية) شاعت في العصر الملكي وساهمت الى درجة كبيرة في تكوين الهيكل الحقوقي لروما الملكية .

---

(1) J. Carcopino, *Les prétendues « lois royales »*, Mélanges d'Archéologie et d'Histoire, 1937, 344 - 376.

وبذلك نسبها الاخباريون والرواة الى ملوك روما وأطلقوا عليها اسم « قوانين ملكية » •

ان « سنة الاجداد » *mos maiorum* التي نظمت شؤون المجتمع الروماني طوال العصر الملكي ، قد أخذت تفسح المجال منذ مطلع العصر الجمهوري الى مبدأ حقوقي جديد ، أكثر تقدمية ، ونعني به القانون ***lex*** .
وتدل كلمة ***lex*** [١] في روما على أحكام حقوقية شتى ، مختلفة في معانيها اختلافا كبيرا • فقد تطلق كلمة LEX على الشروط المدرجة في عقد خاص بين طرفين أو أكثر ***(lex contractus)*** . أو على أنظمة النقابات المهنية ***(lex collegii)*** • ولكن كلمة ***lex*** تعني خاصة الاحكام الصادرة عن السلطات العامة ، من لها حل الامور وعقدها ، تلك السلطات التي ترسم قواعد حقوقية ملزمة لمختلف أفراد المجتمع • ويطلق على تلك الاحكام اسم ***leges publicae*** ، ولهذه الاحكام العامة ، تخصص القسم الاعظم من بحثنا •

ومن أشهر القوانين وأكثرها أهمية التي صدرت في العصر الجمهوري ، « قانون الالواح الاثني عشر »[٢] • ذلك التشريع الذي لعب دورا كبيرا في حياة الشعب الروماني في العصرين الجمهوري والامبراطوري وكان المصدر الاساسي لسننهم وشرائعهم خلال سنين وسنين •

لقد ذكرنا سابقاً أن تفسير الاصول والقواعد الحقوقية وتأويل مختلف العادات كان من جملة امتيازات « هيئة الاحبار » • وكان الاحبار ينتخبون من بين أفراد طبقة النبلاء ومن الطبيعي أن يتبع هؤلاء الاحبار اهواءهم بمراعاتهم مصالح الطبقة التي ينتمون اليها ، اذ لم يكن هنالك قواعد

---

(1) G. Longo, V° *Lex*, NDI IX, 1963, 784 - 794; J. Gaudemet, *La loi et la coutume*, Trav.et rech. Inst. droit droit compare, Univ. de Paris XXIII 1962, 35 - 57.

(2) Fr. Wieacker, *Zwölftafelproblem*, RIDA III, 1956, 459-491; F. Cancelli, *Leggenda e storia delle dodici Tavole*, Roma, 1959.

حقوقية مدونة ، تحدّد صلاحياتهم بشكل جلي وبدون أي لبس أو اشتباه ، ولذلك أخذ العوام يلحّون في الطلب لكي تصبح القواعد الحقوقية مدونة ومعلومة من الجميع وغير خاضعة لاهواء ورغبات فئة اجتماعية بعينها • وتضيف الرواية[1] بأنه في عام (٤٦٢ ق•م) ، طلب محامي الشعب C. Terentilius Harsa تشكيل لجنة للقيام بهذا العمل •

ولكن النبلاء أصمّوا الآذان ولم يستجيبوا لمطلب ممثل طبقة العوام ، فتوترت العلاقات من جديد بين طبقتي النبلاء والعوام وساد الاضطراب وتفاقمت الخلافات مما هدد أمن مدينة روما • فرأى النبلاء بأنه لا بد لهم من الاستجابة لطلب محامي الشعب فأذعنوا للامر الواقع ، واجتمع بذلك « مجلس الجماعات » عام (٤٥١ ق•م) وعين لجنة من عشرة أعضاء *decemviri* بصلاحيات مطلقة ، مهمتهم تدوين القوانين *(decemviri legibus scribundis)*.

ويضيف الرواة بأن وفداً قد أرسل الى بلاد اليونان[2] لدراسة شرائع ودساتير المدن اليونانية وخاصة دستور صولون • ويستنتج من كتابات الاخباريين بأن اللجنة المكلفة بالتدوين كانت مكونة عام (٤٥١ ق•م) من النبلاء فقط ولكن بعد عدة شهور عدل تركيبها ، فأصبح نصف الاعضاء من العوام والنصف الآخر من النبلاء • وترأس اللجنة في أعمالها Appius Claudius ، نبيل من أماجد العائلات النبيلة • ولقد

---

(١) من أجل تفاصيل أوفر عن الأحداث بمقتضى الرواية التقليدية ، راجع : Denys, X 1-60; Cic., *de Re Publ.* II, 36-37.

(٢) ما زال النقاش دائرا حول التأثير الاغريقي على « قانون الألواح الاثني عشر » • ومما نشر مؤخراً حول هذا الموضوع :

J. Delz, *Der griechische Einfluss auf die Zwölftafelgesetzgebung*, MH XXIII, 1966, 69-83.

من الواضح ، أن تأثيرات بعض الشرائع الاغريقية (دستور صولون خاصة) هي جلية في « قانون الألواح » • ولكن مما لا شك فيه ، ان تلك التأثيرات كانت محدودة — وهذا أمر منتظر إذ أن المجتمع الروماني كان أقل تطورا من مدن « اليونان الكبرى » ومن القسم الأكبر من المدن الاغريقية الاخرى في « بلاد اليونان القارية » والشاطىء الايوني ، بشكل عام •

نُشر عام (٤٥٠ ق٠م) عشرة ألواح ثم أضيف اليها لوحان آخران في السنة التالية ٠

وبعد أن أنهت اللجنة أعمالها ، أراد بعض أعضائها الاستفادة من وضعهم لتنفيذ سياسة استبدادية في روما ، اذ كما تقول الرواية ، كانت جميع الضمانات التقليدية التي تحمي المواطنين من الطغيان قد عُلّقت ومنها حقوق محامي الشعب ، وذلك بعد أن صوت « مجلس الجماعات » على تعيين اللجنة المكلفة بالتدوين ٠ ويقال بأن رئيس اللجنة ، النبيل **Appius Claudius** قد أساء استعمال السلطة أكثر من غيره عندما حاول الاعتداء على العذراء **Virginia** ، فما كان من والد الفتاة الا أن قتل ابنته لانقاذ شرفه من العار ، مما أدى الى انتفاضة شعبية عامة كان من نتائجها حل اللجنة والعودة الى العمل بالضمانات التقليدية ومنها حقوق محامي الشعب في حماية طبقة العوام ٠ وصادقت المجالس فيما بعد على « قانون الالواح » ونقشت مواد القانون على اثني عشر لوح من الحجر وعلقت تلك الالواح في الفوروم ، ليطلّع مختلف المواطنين على مواد القانون ٠

تلك هي رواية الاخباريين اليونانيين واللاتينيين عن ميلاد « قانون الالواح » ٠ ولقد اتخذ المؤرخون المعاصرون مواقف جد متفاوتة منها ٠ ومما لا شك فيه أن هذه المشكلة قد أثارت وما زالت تثير أشد الجدال بين مختلف المدارس التاريخية المهتمّة بالتاريخ الروماني ٠ ولقد تناولت أبحاث النقاد جوانب مختلفة من الرواية (تاريخ تدوين « قانون الالواح » ، مختلف الحوادث التي اعترضت تشكيل اللجنة ، التطورات التي رافقت أعمالها ، فحوى القانون ومختلف مواده) ٠ فلقد أكد مثلا كل من الايطالي[1] **Ettore Pais** والفرنسي[2] **Ed. Lambert** بأن جميع ما جاء في كتابات الاخباريين القدماء عن « قانون الالواح » ليس الا أساطير

---

(1) *Storia di Roma* I, 1 (1898) 550-605.

(2) *L'histoire traditionnelle des XII Tables*, Mélanges Appleton, 1903, 501-627.

بأساطير وان ما انتهى الينا من مـواد الالواح لا يطـابق النص الاصلي •
وبخـلاف ذلـك ، فلقـد قبـل البعض الآخـر ، كالعـالم الفرنسي[1]
P. F. Girard والايطالي[2] P. Frezza وغيرهما من المؤرخين أغلب ما
جاء في الرواية •

لاتخاذ أي موقف من الخلاف الناشيء حول هذه المشكلة ، علينا قبل
كل شيء أن نبين الاسس التي تعتمد عليها معرفتنا لـ « قانون الالواح » ثم
تحديد العناصر المقبولة في روايةالاخباريين ، لنتطرق بعد ذلك الىالظروف
التاريخية التي رافقت تدوين المواد الاثنتي عشرية :

١) من المعروف أن الغاليين قـد اجتاحوا منطقة اللاتيـوم واحتلوا
مدينة روما حوالي (٣٩٠ ق•م) وعملوا فيها التخريب والتدمير • ولو
أننا افترضنا بأن ما جاء في الرواية عن نشـر الالواح في الفوروم عـام
(٤٥٠ ق•م) هو صحيح فما لا شك فيه أن النص الذي انتهى الينا ليس
بالنص الاصلي ، بل انـه لاحق لعـام (٣٩٠ ق•م) ، حيث أن الالواح
الأصلية قد زالت نتيجة للتدمير الغالي • ومن الراجح أن الرومانيين قـد
أعادوا نقش ألواح جديدة ، محافظين بشكل عام عـلى جوهر القانون •
ولكن مما لا شك فيه ــ كما أظهرت الدراسة اللغوية المقارنة ــ أن نص
الالواح الجديدة ، من ناحيـة الصياغـة اللغويـة ، كان مختلفا عن نص
الالواح القديمة • كما أن موادا مختلفـة ، قـد عدلت بصورة تجـاري
التطور العام الذي خضع له المجتمع الروماني خلال عشرات السنين •

ولقد انتقلت الينا مـواد الالواح الجديدة في كتابات المؤلفين والفقهاء
اللاتينيين أمثال (Gaius ، A. Gellius ، Labeo ، Cicero) وغيرهم ، مما

(1) *L'histoire des XII Tables*, NRDH, 1902, 381-436.
(2) *Corso di storia del diritto romano*, Roma. 1954, 111-120.

سمح بترتيب[١] نص الالواح على وجه التقريب •

٢) تشهد عدة دلائل ساطعة (السيرة الاخبارية الرومانية[٢] ، لغة النص[٣] ، منطوق النص الحقوقي[٤]) على أن مواد « قانون الالواح » كما انتهت الينا ، تعود بتاريخها كحد أدنى الى نهاية القرن الرابع (ق•م) •

٣) عديدة هـي المواد الحقوقيـة ل « قانون الالواح » التي تعكس وتعبّر عن الشروط الموضوعية والصراعات الطبقية والتطورات والحوادث التاريخيـة للمجتمع الرومـاني في القرنين الخامس والرابـع (ق•م) : كالصراع على الاراضي الاميرية بين طبقتي النبلاء والعوام وفشل الاصلاح الزراعي رغم المحاولات المتكررة لممثلي طبقة العوام ؛ الاجراءات المقترحة لقمع مختلف أنواع المخالفات الجزائية والجنائية ؛ العقوبات الاقتصادية ؛ تحديد الربى ؛ الخ ••

في الحقيقـة ، لا يمكننا أن نعتبر « قانون الالواح » دسـتورا بالمعنى الحرفي للتعبير وخاصة من الناحية التشريعية ، ليس هذا فقط ، بل لا يمكننا أيضا أن نعتبره قانونا بالمعنى الحديث للكلمة • اذ أن الالواح الاثني عشر بمختلف موادها ، لم تكّون مجموعة كاملة لكافة الاحكام والوصايا السارية المفعول ، والامر لا يتعدى في واقع الحال ، سوى تعيين وتحديد أهم العادات المتعارف عليها ، بشكل لا يقبل أي ابهام أو التباس من أي طرف كان ، اذ ان الخواص كانوا يعاملون بسوء تكراراً العوام ، كما ان طبقة العوام أخذت تتمرد حينا بعد حين على امتيازات طبقة النبلاء ، مطالبـة بتغيير الاوضـاع

---

(١) ان تصنيف مختلف المواد وتوزيعها بعد ترقيمها عـلى اثني عشر لوح ليس الا عمليـة افتراضية • اذ لا يشير أي نص اقديم الى ذلك ، ويعود الفضل في التصنيف المقبول حتى الآن ، باجماع الباحثين ، الى العالم Driksen • وما زال العمل بهذا التصنيف، الذي يرجع بتاريخه الى عام ١٨٢٤ ، ساري المفعول ، لاستباب عملية لا أكثر ولا أقل •

(2) Fr. Casavla, *V° Ius Flavianum*, NDI IX, 1957, 380-381.

(3) Fr. Weacker, *Zwölftafelproblem*, RIDA III, 1956, 483-485.

(4) Cf. B. Perrin, *Le délit décemviral de destruction de récolte*, Ann. Univ. Saraviensis, II 1953, 173-194.

بشكل تصان فيها مصالح العوام بصورة أفضل • وبهـذا المعنى أيضـا فان « قانون الالواح » لم يكن تماما رائعة قانونية مبتكرة ، فكثيرا مـا نعثر في مختلف مواده على قواعد ومبادىء حقوقيـة ترتقي بأصـولها الى العصرين الملكي والاتروسكي وأحيانا الى فترات تاريخية تقادم عهدها • ولكن بجانب تلك العناصر القديمة ، نجد محدثات حقوقية مدرجـة في مختلف مـواد الالواح كنتيجة منطقية للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدها المجتمع الروماني خلال القرنين الخامس والرابع (ق•م) • ومن هذا القبيل أيضا ، اضافة لاعلان « قانون الالواح » ، بحيث أصبح العوام يعرفون ما لهم وما عليهم ، يمكننا أن نعتبر نشر الالواح كسباً كبيراً للعوام وخطوة تقدميـة ، رغم أن المشـرعين العشرة لـم يقتدوا تمـاما بالمشرعين اليونانيين (صولون وقليستينس مثلا) ولم يبتدعوا دسـتورا كاملا ، تـام الانسجام والتآلف ، يحسم مختلف مشاكل المجتمع •

ان شهرة « القانون الاثني عشري » لدى الرومانيين ، خلال قرون وقرون ، لا تكمن فيما جاء به المشرعون العشرة من أمور جديدة فقط ، بل ان تلك الشهرة تأتي من تلك الخطوة الثورية ، ونعني بذلك جعل القانون مكتوباً بعبارات جليـة واضـحة ، تحدد حقوق وواجبـات مختلف أفراد المجتمع الروماني •

★ ★ ★

الفصل الثالث

تأسيس الدولة الرومانية واقامة المنظمات

السياسية والاجتماعية الاولى

يقول مؤلفا « روما وامبراطوريتها » ـ : « ولكن هنالك اكثر من مثال للجمهورية ، وترتدي الجمهورية الرومانية نفسها اكثر من شكل • فقد بدا تنيظمها للاغريق الذين حاولوا إذ ذاك معرفتها معرفة جيدة كصورة الدستور المختلط الذي سعى واضعو النظريات عندهم ، منذ زمن بعيد ، لتحديد مثله الأعلى : دستور يستفيد في آن واحد من حسنات الملكية والارستقراطية والديمقراطية ، لأنه يقتبس بعض العناصر عن كل من هذه الانظمة ويعدّل الواحد بالآخر فيتجنب بذلك تجاوزاتها وافسادها • وبوليب[1] هو أشهر هؤلاء الاغريق واكثرهم اعجاباً، وقد وصلت الينا نبذ هامة من البحث الذي كرسه في أواسط القرن الثاني ، للأنظمة الرومانية ، تكوّن الأساس الذي لا غنى عنه للدرس الذي قد يحاول هذا أو ذاك القيام به اليوم • ولكن الواجب يقضي في الحقيقة تصحيح استنتاجاته : فاذا أعتبر بوليب نفسه ان التوازن في طريق الانهيار ، فانه لا يرى أو يتظاهر بأنه لا يرى ان التوازن الذي يغالي في اطرائه ليس في الواقع إلا ظاهراً[2] • » •

وفي الحقيقة ، لقد استنام عدد كبير من المؤرخين المعاصرين الى تلك اللوحة الزاهية التي نسجها اليوناني بولوبيوس عن مختلف المنظمات

(١) هو المؤرخ اليوناني بولوبيوس : انظر ما جاء عنه أعلاه صفحة ٧ ـ ٨ (م • م •) •

(٢) روما وامبراطوريتها ، ص ١٢٨ •

السياسية والاجتماعية ، وذلك ارضاءً لغرور العائلات الرومانية النبيلة ، وهو الذي كان يعيش في كنف « سيبيون الافريقي » وعائلته ذات الحسب والنسب • ولم يتردد مؤلف « التاريخ العام » عن القول بأن مؤسسات الحكم والادارة في روما تكاد تحقق دستور المجتمع المثالي ، كما تصوره الفيلسوف أرسطو في مؤلفه « مقالة في السياسة » • ولكن ما جاء به « الرهينة بولوبيوس » في هذا الباب ، تملقاً لحكام روما ، لا يطابق تماماً الأمر الواقع •

فرغم ان دستور « الجمهورية الرومانية » يستند نظرياً الى التوازن بين ثلاث سلطات سياسية تراقب بعضها البعض تبادلاً ، ونعني بها :

آ ـ **السلطة التنفيذية** : وتتمثل بمناصب الحكام *magistratus* وتدل على « الظاهر الملكي » •

ب ـ **السلطة التشريعية** : متمثلة بمختلف المجالس الشعبية *Comitia* وتشير الى « الظاهر الديمقراطي » •

ج ـ **سلطة المراقبة والاستشارة** : وتتمثل بمجلس الشيوخ *Senatus* الذي كان يصور بوقار اعضائه « الظاهر الارستقراطي » •

نقول بأنه رغم هذا التوازن المموّه ، فالسلطة الفعلية كانت ـ كما سنلاحظ ـ بيد مجلس الشيوخ ، الذي يضم بين صفوفه كبار رجال الدولة وممثلي العائلات الرومانية النبيلة •

ولقد ذكرنا سابقاً[1] بأنه كان لنبلاء روما شأن عظيم في الاحداث التي تمخّضت عن طرد الاتروسكين من روما واللاتيوم • ومنذ تلك الفترة ، أخذ الصراع الطبقي يشتد بين النبلاء من جهة وباقي فئات الشعب من جهة

---

(١) انظر اعلاه ص ٢٣٦ •

أخرى[1] : صراع على السلطة ، صراع بين الملاكين والمحرومين ، صراع بين السادة والعبيد • ولقد اقترن الصراع الطبقي في الداخل ــ كما رأينا[2] ــ بضغوط خارجية مارسها جيران روما عليها بعد زوال السيطرة الاتروسكية •

ولقد تطورت المنظمات السياسية والمؤسسات العسكرية والادارية من خلال الصراع الطبقي الحاد وكذلك تحت تأثير الأخطار الخارجية ، وقبل أن نتطرق الى مختلف المنظمات والمؤسسات ، نودّ القاء نظرة سريعة على علاقات روما مع جيرانها ، وقد هدّد بعضهم غير مرة أمن روما ، بل لقد تعرض مراراً كيان « سيدة اللاتيوم » للخطر •

١ ــ من التحالف الروماني ــ اللاتيني الى الخطر الغالي :

لقد رأينا سابقاً[3] كيف ان روما ــ معتمدة على قوة السلاح والدبلوماسية معاً ــ قد تمكنت من عقد ثلاث محالفات مع جيرانها اللاتينيين والهرنيكيين ومع مدينة **(Caere)** ، محالفات شكلت الاركان الأساسية لسياسة روما الخارجية طوال قرن من الزمن • إذ إنه ، بجانب ، الأقوام والقبائل التي هادنت روما طوعاً أو كرهاً ، انتصبت قبائل جبلية أخرى في وجه روما ، معرضةً كيانها للخطر الشديد طوال القرن الخامس (ق•م)؛ فاضطر حكام روما الى خوض غمار حروب ضارية على حدود اللاتيوم ، دفاعاً عن دولتهم الفتية ، ولصد هجمات مغيرين شديدي البأس •

لقد سبق وذكرنا اسم شعب كان له الأثر الحاسم في حياة روما في العصر الملكي وفي مطلع الجمهورية الرومانية ، ونعني بذلك السابينيين[4]•

---

(١) انظر اعلاه ص ٢٣٩ ــ ٢٤١ •

(٢) انظر اعلاه ٢٣٠ ــ ٢٣٤ •

(٣) انظر اعلاه ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ •

(٤) انظر اعلاه ص ١٧٢ •

ولقد جاء أيضاً بمقتضى الاسطورة ــ ان ثلاثة ملوك سابينيين قد حكموا روما بعد موت « رومولوس » خلال (٩٩) سنة • ولقد أضفنا بأن العلماء يعتقدون بأن بعض السابينيين قد استقروا في اللاتيوم قديماً ، وانهم لعبوا دوراً كبيراً في المصير التاريخي للحوض الأسفل لنهر « التيبر » اعتباراً من القرن الثامن (ق•م) ؛ فاصطدموا باللاتينيين ومرّ الصراع بين الطرفين بفترات عصيبة ، مما أضعف مختلف الأطراف وأفسح المجال للاتروسكيين بالتدخل في شؤون اللاتيوم وبفرض السيطرة الاتروسكية على الاقوام اللاتينية والسابينية معاً[1] •

ويظهر بأن الصراع الروماني ــ السابيني وقد خفّت وطأته لمجابهة الخطر الاتروسكي ، قد تجدّد بعد زوال السيطرة الاتروسكية ، وخاصة بعد معركة بحيرة ***Regillus*** والتحالف اللاتيني ــ الروماني • وكانت نقطة انطلاق السابينيين ، المنطقة الشمالية الشرقية لروما ، الواقعة في «جبال الابنين » الوسطى ، شمالي نهر الآنيو ***Teverone*** ، من سواعد نهر التيبر ، ويظهر بأن العلاقات بين روما والسابينيين قد تبدلت مراراً من حالة سلم الى حالة حرب في النصف الأول من القرن الخامس (ق•م) ، ويذكر الاخباريون ، بان السابينيين قد تمكنوا ، اثر هجوم مفاجيء عام (٤٦٠ ق ، م) من دخول روما والاستيلاء على قلعة **Capitolium**[2] ، قبل ان يضطرهم الرومانيون الى الجلاء عنها بعد فترة وجيزة • ويظهر بان العلاقات بين الطرفين قد تحسّنت شيئاً فشيئاً فيما بعد نتيجة للسأم من هذه المصادمات وتفادياً للخسائر المترتبة عليها • ويجب ان لا يغيب عن بالنا بان عائلات نبيلة سابينية كانت قد استقرت في روما منذ مئات السنين ، من أشهرها عائلات **(Postumia ، Valeria ، Claudia)** وفي الحقيقة فان الخطر الواقعي لم يصدر عن السابينيين ، بل عن أقوام جبلية أخرى ،

(١) انظر اعلاه ص ١٧٣ ــ ١٨١ •

(٢) أحد تلال روما السبعة ، حيث ينتصب معبد الاله « جوبيتر » •

كانت أشد وطأة على روما ، طوال القرن الخامس (ق٠م) ، ونعني بهم الولسكيين والايكيين ٠

أما الولسكيون **Volsci** ، فكانوا ينتشرون في تلال **Lepini** وفي بطائح « السهل البونتي »[١] ***Pomptinus Ager*** الواقع في اللاتيوم الى الجنوب الشرقي من روما ٠ ولقد انطلق هؤلاء الجبليون من مناطقهم تلك غربا ، وبلغوا الساحل المتوسطي واتخذوا من مدينة **Antium** مرفأ لهم بعد أن أنشأوا اسطولاً للمبادلات التجارية في البحر التيريني ٠

ولقد جاء في كتابات المؤرخين والاخباريين الرومانيين واليونانيين روايات عديدة عن التصارع الروماني ـ الولسكي٠ وخلال تلك المصادمات الخامية الوطيس ، جرى حادث البطل الروماني **Caius Marcus** الذي اشتهر فيما بعد باسم ***Coriolanus***[٢] ، بعد ان لعب دوراً كبيراً في احتلال مدينة **Corioli** ، عاصمة الولسكيين ٠ والرواية كما يسردها الرواة[٢] ، ان هذا الشاب الروماني ، المنتسب الى العائلة النبيلة **Marcia** والذي اشتهر ببسالته في احدى المعارك ضد الولسكيين ، بينما كان الرومانيون يحاولون احتلال عاصمة أعدائهم ، قد اختلف مع العوام وحاول ان ينال من حقوق « المحامين عن الشعب » ***Tribuni Plebis*** ، مما حمل هؤلاء على اتخاذ قرار بوجوب نفيه من روما ، بعد أن رفض المثول أمامهم لاستجوابه عن سلوكه ، والتجاء الى الولسكيين ، اعداء وطنه وترأس

---

(١) سهل مترامي الاطراف تبلغ مساحته (١٥٠٠ كم ٢) اشتهر بخصبه قديماً ولكن اهمال صيانة قنوات الري فيه حوله الى منطقة مستنقعات اشتهرت باسم المستنقعات البونتية « ***Pomptinae paludes*** ٠ ولقد جرى تجفيفه واصلاحه حديثا اعتبارا من عام ١٩٣٠ ٠

(٢) انظر تفاصيل أوفى حول الرواية في مؤلف « بلوتارخوس » (**السير المقارنة** ، سيره كوريولانوس ٠ وكذلك في المؤلف ذاته « المقارنة بين كوريولانوس والقائد الآثيني **Alcibiades**) ٠

ولتحقيق رواية « بلوتارخوس » علينا ان تقابلها بما جاء عن الحادث في كتابات **Liv., II, 34-40** وكذلك ما جاء به « ديونسيوس الهاليكارناسي » **VIII, 1-60; VII, 21-7; VI 92-4**.

جيشهم ، الـذي زحف على روما وعسكر عـلى بعـد خمسة اميال منهـا وهدد اسوارها • فذعر حكام روما للحادث ، وارسلوا الى الولسكيين وفداً يطلبون الصلح ، مستحلفين « كوريولانوس » أن يرأف بوطنه ، ولكـن هذا الأخير أرجع السفراء الرومانيين وأخبرهم بأنه لا صلح مع روما إلا اذا تخلى الرومانيين الى الولسكيين عن جميع المدن التي أخذوها منهم في الحرب الاخيرة • فأرسل الرومانيون سفراء آخرين سار على رأسهم الكهنة بملابسهم المقدسة محاولين نيل شروط أخف من الاولى ؛ ولكن الفشل كان نصيب الوفد الثاني أمام عناد « كوريولانوس » • فعاد الوفد الى روما معلناً فشله • فاقترح عندئـذ أحدهم التوسل الى والدة « بطل معركـة Corioli » النبيلة Veturia والى زوجته Volumnia للـذهاب الى « كوريولانوس » والتأثير عليه • وتضيف الرواية ، أن الوالدة والزوجة حدّتا وأخذتا معهما أطفال « كوريولانوس » الصغار وتوجهتا الى معسكر الولسكيين ، مع زمرة من السيدات الرومانيات •

وتضيف الرواية بأن « كوريو لانوس » عندما أبصر أمه وزوجتـه مع اطفالـه الصغار وباقي السيدات الرومانيات « قفز من مقعـده وجرى مسرعاً الى والدته ، وهمّ أن يقبلها ، ولكنها أبعدته عنها ، والدموع تنهمر غزيرة من مقلتيهـا ، وأمرتـه أن يجيب أولاً عن سؤالها ؛ ســألته في لوم قائلة : « هل أنا والدة « كوريولانوس » البطل الروماني الذائع الصيت ، أم والدة أسير في يدي قائد الولسكيين ؟•• ما هذا يا Caius ؟ لو لم أكن أماً ، لظلّت بلادي حرة مرفوعة الرأس ! ولما اجتاحتها وهددتها جيوش الأعداء هذه ! • وما ان أتمت والدته قولها ، حتى سجدت زوجته وأطفاله عند قدميه ، وتعلقوا بركبتيـه ••• فعلت كلمات والدته مالـم يستطع أي فرد آخر أن يفعل ، فان « كوريولانوس المتغطرس » ، لم يحتمل كلمـة واحدة من كلمات اللوم اللاذعة التي تفوهت بها والدته •• فصاح والدموع تترقرق في عينيه : « أماه ! ما هذا ؟•• لم يقهرني غيرك •• لقد انتصرت

عليّ ونلت الظفر لروما ولكنك حكمت على ابنك بالاعدام • » وبعد ذلك قاد « كوريولانوس » الجيش الولسكي بعيداً عن روما[1] •

وتقول بعض الروايات بان القائد الولسكي **Tullus** الذي كان يحقد عليه ويحسده دبّر مصرع « كوريولانوس » ؛ بينما جاء في روايات أخرى بأن « بطل معركة **Corioli** » عاش منفياً حتى فتّت في عضده السنون • ويقول « بلوتارخوس » بأن الحادث جرى في عام (٢٦٦ من تأسيس مدينة روما) أي عام ٤٨٨ (ق•م)[2] •

ولقد أحرز الرومانيون بعض الانتصار على الولسكيين في عام (٤٨٥ ق•م) ؛ ولكن هؤلاء بغاراتهم المتكررة على اللاتيوم ، ظلّوا يشكلون خطراً على روما طوال القرن الخامس (ق•م) ، عندما قامت القوات الرومانية في آخر الأمر بهجوم كاسح على مناطق الولسكيين عام (٤٠٦ ق•م) واستولت على مدينة **Anxur** (اشتهرت فيما بعد باسم **Tarracina** قبل أن يؤسس الرومانيون مستعمرة **Circei** اللاتينية لمراقبة الولسكيين •

ولقد تكرّر تحالف الولسكيين مع الايكيين **Aequi** . لمهاجمة اللاتيوم والمدن الحليفة لروما • والايكيون كانوا في نظر بعض المؤرخين من الليغوريين ؛ ويرى البعض الآخر بأنهم من الأقوام الايطالية الجبلية الذين امتزجوا بالليغوريين نتيجة للتوسع الاتروسكي ولضغط الكلتيين[3] • وكان الايكيون يغيرون على اللاتيوم من مواقعهم الجبلية الواقعة الى شمال شرقي

---

(١) لقد ألهمت تلك الرواية الشاعر الانكليزي « شكسبير » في مأساته الشهيرة «كوريولانوس» وكذلك الموسيقي الألماني « بتهوفن » في رائعته التي أعطاها اسم البطل الروماني •

(٢) لقد اختلفت الآراء حول الرواية لدى المؤرخين المعاصرين • ومن أهم ما كتب عنها نذكر ما يلي :

E. Pais, *Storia di Roma*, I, 1; Bloch, *Quelques mots sur la légende de Coriolan*, Mél. Ec. Fr. Rome, 1881, I; Mommsen, *Die Erzählung von Cn. Marcuis Coriolanus*, (in *Hermes*, 1869).

(٣) انظر أعلاه ص ١٠٥ •

روما • ولقد تأثرت من غاراتهم الدورية مدن الاتيوم :
.(Roma ، Tibur ، Lanuvium ، Aricia ، Tusculum)

ولقد بان الخطر الايكي على أشده عندما تقدم هؤلاء مع الولسكيين حتى أبواب روما ولم يتمكن الرومانيون من ايقاف الزحف المعادي الا بعد أن تولى Quinctius Cincinnatus الدكتاتورية في روما وقاد خلال ستة عشر يوماً الجيش الروماني ضد الايكيين ؛ فانقذ الفرق الرومانية المحاصرة من الفناء وأبعد الخطر عن روما • ويروي T. Livius (III, 25)

كيف ان هذا القائد كان يعمل في حقله عندما وصل الى بيته ممثلو مجلس الشيوخ ليخبروه بأنه اختير دكتاتورا لينقذ وطنه من الخطر، وكيف انه هرع الى روما وذهب توا الى الفوروم وأمر باغلاق الحوانيت وبايقاف جميع الاعمال حتى يتم انقاذ روما • وتضيف الرواية بان الحادث جرى في عام (٢٩٦ من تأسيس مدينة روما = ٤٥٨ ق•م) •

ويضاف الى جميع هذه المعارك والحروب التي خاضتها روما ضد أعدائها ، دفاعاً عن أرضها ، طوال القرن الخامس (ق•م) يُضاف اليها القتال المرير الذي دار بين روما وبين اعدائها الاتروسكيين ، سادة اللاتيوم سابقاً ، لا سيما المدينة الاتروسكية Veii وخليفتها مدينة Fidena الواقعة على نهر « التيبر » • ولقد رأينا سابقا[1] •بأن مدينة Veii قد اصطدمت بروما منذ الفترة الملكية وأصبح الصراع على أشده ، بعد ابعاد الاتروسكيين عن روما ودام زهاء قرن تقريبا ، عندما استولى الدكتاتور الروماني F. Camillus عام (٣٩٦ ق•م) على المدينة الاتروسكية • ولقد كان السبب الجوهري للصراع بين مدينتي Veii و Roma ،تأمين حرية الملاحة على نهر « التيبر » ، حيث كان يُعتَبَر هذا النهر المنفذ الوحيد لمدينة Veii الى البحر • وبما ان مدينة Fidena كانت تشرف على النهر

---

(١) انظر اعلاه ص ١١٧ •

فلقد استعانت بها مدينة Veii واتحدت بذلك مصالح الطرفين لمقاومة المطامع الرومانية • ولقد حاول الرومانيون مراراً منع الاتصال بين المدينتين باحتلال طرق المواصلات التي تجمع بين الطرفين ، فكان هؤلاء يردّون على ذلك بالاغارة على طول تخوم روما فينهبون ضواحيها ويحرقون المحاصيل ويدمرون الممتلكات ، مما يؤدي الى تجدد المعارك بين روما واعدائها • وتذكر الرواية كيف ان القائد الروماني C. Cossus قد قتل بنفسه Tolumnius ملك مدينة Veii بعد ان سقط هذا الأخير في قبضته ، وذلك اثناء اخضاع واستيلاء القوات الرومانية على مدينة Fidena ، حليفة المدينة الاتروسكية Veii ، عام (٤٣٧ ق•م) ؛ فاضطرت مدينة Veii لمهادنة سيدة اللاتيوم فترة من الزمان • ولكن هدف روما المطلق ، وهو احتكار الملاحة على نهر « التيبر » في مجراه الأسفل لم يتحقق تماماً ؛ ولذلك انتهز الرومانيون أول فرصة للقضاء على المدينة المنافسة قضاءً مبرماً • ولقد تمّ ذلك عام (٣٩٦ ق•م) على يد الدكتاتور الروماني F. Camillus ، كما ذكرنا سابقاً • وتذكر الرواية بأن الحصار الروماني ــ اللاتيني لمدينة Veii دام زهاء عشر سنوات • (٤٠٥ ــ ٣٩٥ ق•م) ، اذ ان المدينة الاتروسكية التي لم تكن تبعد عن روما اكثر من عشرة أميال شمالاً ، كانت مشيدة فوق قمة عالية ، يستحيل الصعود اليها من جوانبها الثلاثة ، وكانت منيعة التحصين من مختلف الجوانب ، ولذلك وقف الرومانيون وحلفاؤهم اللاتينيون عشر سنوات أمام أسوار مدينة كما وقف من قبلهم الاغريق عشر سنوات أمام أسوار مدينة طراودة • وتضيف الرواية بأن القائد الروماني أدرك بأنه لن يستطيع الاستيلاء على هذا الحصن الحصين بالقتال اطلاقاً ، فلجأ الى الحيلة ، كما فعل من قبله الاغريق اثناء حصارهم لمدينة طراودة • وعوضا عن الحصان الخشبي أمر F. Camillus بحفر ممرات تحت الأرض ، بين معسكره وقلب المدينة المحاصرة ، فشقت تلك النفق

بسرية تامة واستطاع الجنود الرومانيون أن يدخلوا عبرها الى مركز المدينة فاستولوا عليها ونهبوها وهدموها حجراً حجراً •

ولقد أدى سقوط مدينة **Veii** الى سلسلة من الكوارث حلّت بمدن الترورية الجنوبية ، فسقطت الواحدة تلو الاخرى بيد الرومانيين واللاتينيين وفي الواقع ، فان تحطيم مدينة **Veii** الاتروسكية لم يكن فقط بفضل جهود القوات الرومانية بل جاء هذا الانتصار نتيجة للتحالف الروماني-اللاتيني •

وبما أن الفالسكيين[1] **Falisci** قد هرعوا الى نجدة **Veii** أثناء الحصار، فان القوات الرومانية ـ اللاتينية المتحالفة احتلت أراضيهم وأخرجتهم منها ، فهرع اليها جمهور من الرومانيين واللاتينيين حيث أسسوا مستعمرتي[2] **Sutrium** و **Nepete** .

وتوزع سكان المستعمرتين وأولئك الذين حلوا في ربوع الاترورية الجنوبية على أربع قبائل ريفية جديدة وهي قبائل : Tromentina ، Arniensis ، Stellatina ، Sabatina . وأصبحت أراضي « الجمهورية الرومانية » تشكل في مطلع القرن الرابع (ق•م) بعد أن ضمت الى اقليم « دولة روما » مختلف المناطق المفتتحة ، رقعة تساوي مساحتها (٢٢٠٠ كم٢) عوضاً عن (١٠٠٠ كم٢) في مطلع القرن الخامس (ق•م) ؛ وأصبحت بذلك روما قوة ذات نفوذ وسلطان وأكبر دولة في ايطالية الوسطى •

ولقد كانت البلاد التي خضعت لسلطان روما مناطق خصبة ، اشتهرت بجودة أراضيها وبكثرة غلالها ؛ كما أن سكانها الأصليين من اتروسكيين وغيرهم قد اشتهروا منذ القديم بمهارتهم في مختلف أنواع الحرف • ولقد زودت روما بمختلف أنواع الثمار والمصنوعات في فترة كانت روما أحوج ما تكون اليها ، اذ أن القسم الاكبر من سكان روما كانوا قد انصرفوا عن

---

(١) أقوام يقيمون في المناطق الجبلية لجبال « الابنين » الواقعة شمالي شرقي اللاتيوم •

(٢) تقع المدينتان على بعد (٥٤ كم) تقريبا شمالي روما •

الانتاج الزراعي والحرفي الى الاعمال العسكرية ، حاملين السلاح دفاعا عن دولتهم الفتية ، قبل أن يوسعوا رقعة بلادهم على حساب جيرانهم ، كما مر معنا •

واضافة لذلك ، فستلعب مختلف المستعمرات والحصون التي أقيمت في المناطق المفتتحة منذ أمد يسير ، دورا كبيرا في حماية اللاتيوم من غارات الأقوام الجبلية التي لم تخضع حتى تلك الفترة لروما ؛ وستغدو كالترس الذي يحمي روما والمدن اللاتينية المتحالفة معها من الشمال والشمال الشرقي •

ان روما وقد غدت أكبر دولة في ايطاليــة الوسطى ، لم تعد عملياً متساوية مع حلفائها اللاتينيين والهرنيكيين[١] • ولقد أخذ حكامها يطمحون لاحتلال المركز الأول في اللاتيوم على حساب حلفائهم القدماء ؛ فراح مجلس الشيوخ ونبلاؤها يخططون لذلك ، ولكن كما سنرى ، فان هذا الهدف لن يتحقق الا بعد زمن بعيد وبعد نشوب صراع مرير بين مختلف الأطراف •

وقبل أن نتطرق الى مختلف أجهزة الادارة والحكم في العهد الجمهوري الأول ، نود أن نلقي نظرة سريعة على التأثيرات البالغة التي أحدثتها تلك الحروب في المجتمع الروماني ، حيث راح الرومانيون خلال هذا العهد ينظمون مؤسساتهم السياسية ويطورون أجهزة الادارة والحكم •

٢ ــ تطور الصراع الطبقي : من « اتفاق الجبل المقدس » الى ظهور الحظر الغالي ــ الكلتي •

ان الحروب العديدة ، الحافلة بالأحداث ، التي خاضتها روما على مختلف الجبهات ، ضد جيرانها المباشرين وضد الأقوام الجبلية ، طوال القرن الخامس (ق•م) ، قد خلفت آثارا بعيدة المدى في المجتمع الروماني بطبقاته المختلفة ، وأدّت الى تطورات بالغة الأهمية في مختلف أجهزة الحكم • وفي الحقيقة ، ليس من السهل على المرء أن يحدد بصورة جلية واضحة

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٣٢ ــ ٢٣٤ •

مختلف المراحل التي رافقت هذا التطور السياسي والاجتماعي في فتراته الأولى ، اذ أن معلوماتنا عن هذا العهد ما زالت ، كما كررنا القول ، غير وافيـــة •

عندما تطرقنا الى التطورات الاقتصادية والاجتماعيـة في القـــرن الخامس (ق•م) ، رأينا كيف أن أزمة اقتصادية حـادة قـد ألمت بروما واللاتيوم وبايطاليةالوسطى كما تشير الىذلك مختلف الدلائل والوثائق[1]• ومما لا شك فيه ، ان طبقة العوام في الريف وفي المدينـة كانت الضحيـة الاولى لتلك الأزمة • ولقد مر معنا كيف أن العوام كانوا في حالة بائســـة ومحرومين من مختلف الحقوق في فاتحة العهد الجمهوري ، مما أدى الى عصيانهم والى الاعلان عن عزمهم في الانفصال عن روما ، مما حدى بالنبلاء الى التنازل عن بعض الحقوق لطبقة العوام[2] • ولكن نضال العوام للحصول على حقوقهم السياسية والاجتماعية والدينية كان في بداياته الاولى •

كان الخواص ينكرون على العوام حق استثمـار الاراضي الاميريـة **ager publicus** • ونتيجة لدوام حالة الحرب وبسبب فقرهم المدقع ، كان العوام يضطرون للاستدانة من النبلاء ، وفي حالة عدم استطاعتهم تسـديد ديونهم ، فكان يحق للدائن أن يبيع المـدين ، بموجب قاعـدة قديمـــة **nexum** ، كرقيق في منطقـة تقع وراء نهـــر التيبر *trans Tiberim* أو أن يطلب سجنه • ورغم أن هـذا النوع من الرقيق قـد ألغي بموجب قانـون **Poetelia Papiria** الذي صدر عام (٣٢٦ ق•م) ، فان المؤرخ T. Livius يضيف بأن البعض لم يحترم ما جاء به القانون الجديد[3] •

ورغم أن « اتفاق الجبل المقدس » قد نص على انشاء مؤسسة « المحاماة عن الشعب » للدفاع عن العوام ، فان العوام كانوا محرومين من حق المساهمة بادارة سياسة روما الداخلية والخارجية ؛ كما أنهم كانوا محرومين من أغلب

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ •
(٢) أنظر أعلاه ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ •
(٣) أنظر أعلاه ص ١٩٥ •

الحقوق المدنية . ولقد رأينا كيف أن العوام قد حصلوا على بعض مطالبهم بنشر « الألواح الاثني عشـر » ، بعد أن كان الخواص يفسرون العادات والتقاليد القديمة حسب مصالحهم وأهوائهم .

ومع ازدياد أهمية العوام في المجتمع الروماني ، بدأ هؤلاء يشعرون بالغبن النازل بهم وأخذوا يطالبون بانتزاع بعض الامتيازات (الاجتماعيـة والسياسية الخ ..) من أيدي الخواص .

كان القـانون يمنـع الزواج المختلط بين الخواص والعوام ، بعزل الطبقتين عن بعضهما ، عزلا تاما . ولقد رفض الخواص مرارا التنازل عن هذا الامتياز ، بعد أن أقره لهم « قانون الالواح الاثني عشر » . وفي عـام (٤٤٥ ق.م) قدم أحد « محاميي الشعب » وهو Canuleius مشـروع قانون يجوز الزواج بين أفراد الطبقتين ، فقاومه الخواص قبل أن يضطرهم ضغط العوام الى قبوله[1] . ولقد أصبح بامكـان الطبقتين بموجب القانون الجـديـد *lex Canuleia* ، الامتزاج تدريجياً ؛ مما أدى الى نشوء فئة جديدة من الخواص وأثرياء العوام ، فئة تربطها مصالح مشتركة ؛ وستصبح النواة لتكوين طبقة رومانية جديدة ، وستلعب هذه الطبقـة الجديدة دورا كبيرا في الدفاع عن روما وفي تخطيط السياسة الخارجيـة أثناء الفتوحـات الكبـرى .

والى جانب نضالهم في سبيل الحصول على المساواة في الحقوق المدنية وعلى تحقيق بعض المطالب الاقتصاديـة ، كـان العـوام يطالبون بالحقوق السياسية ، حيث كانوا محرومين من ممارستها في مطلع العهد الجمهوري . ويقـول T. Livius بأن العوام قد قرنوا مطالبتهم بالسماح بالزواج المختلط بشعار سياسي ، ألا وهو افساح المجال لممثليهم ليشغلوا منصب القنصلية[2] ،

---

(1) Cf. J. Bayet, *Le problème du conubium entre le patriciat et la plèbe* (In Tite – Live, *Hist. rom.* T. IV 126 – 132, coll. Univ. France, 1946); Fr. de Visscher, *Conubium et civitas*, Iura II (1951), 140 – 144.

(2) IV, I, 1 – 2.

اذ أن القنصلين كانا يُنْتَخَبان فقط من بين أفراد طبقة الخواص • ولكن الخواص عارضوا بذلك معارضةشديدةوفضلوا أن تزول القنصلية الى حين، من أن يشغل ممثل عن العوام أحد مركزيها • فنشأ عوضاً عن منصب القنصلية نظام « المحاماة العسكرية ذات الصلاحية القنصلية » *tribunatus militaris consulari potestate* . وكان عدد هؤلاء المحامين العسكريين في البدء ثلاثة محامين ، ثم أصبح أربعة عام (٤٢٨ ق•م) قبل أن يرتفع هذا العدد الى ستة محامين عسكريين عام (٤٠٥ ق•م) من جراء ازدياد عدد الفرق العسكرية وتكاثر الحروب التي خاضتها روما ضد أعدائها ، كما مر معنا سابقاً • ولم يقبل الخواص بأن يصبح بعض ممثلي العوام في عداد المحامين العسكريين ، الا لحاجتهم الماسة للعوام عندما كانت المعارك ضد المدينة الاتروسكية **Veii** على أشدها • وسنرى بأن العودة الى نظام القنصلية لن يتم الا بعد الغارات الغالية وبناء على الحاح العوام ، على أن يحتفظ العوام بأحد المنصبين •

واضافة الى ذلك ، فلقد تمكن العوام اعتبارا من عام (٤٢١ ق•م) أن يشغلوا بالتساوي مع الخواص منصب حراسة الخزينة ***Quaestura*** حيث عُيِّن خازنان ***Quaestores*** من العوام واثنان آخران من الخواص•

أما بالنسبة الى باقي المناصب التنفيذية ، فلن يتمكن العوام من الوصول اليها الا بعد فترة الغارات الغالية ، كما سنرى فيما بعد •

ولقد قلنا سابقاً[1] بأن مجلس الشيوخ الذي لعب الدور الرئيسي في ادارة الدولة الرومانية ، والذي كان يمثل الظاهر الارستقراطي ، قد ضم في بادىء الأمر في صفوفه رؤساء الاسر النبيلة فقط ، ولن يتمكن بعض أعيان العوام من التسرب الى حرمه الا اعتباراً من مطلع القرن الرابع (ق•م) • وعلاوةً على أن تلك الفئة من العوام لم تكن تمثل مصالح جماهير الشعب الروماني تمثيلا صحيحا ، بحكم وضعها المالي ، فانها لن

(١) أنظر أعلاه ص ٢٠٢ •

تتمكن بأفرادها ذوي العدد اليسير، من التأثير الناجع في سياسة هذا الجهاز الحاكم ، الذي ظل يُعْتَبر الحصن الحصين للفئات المحافظة في المجتمع الروماني لفترات طويلة •

عندما تطرقنا الى عصيان العوام في مطلع القرن الخامس (ق•م) ، والى « اتفاق الجبل المقدس » عام (٤٩٤ ق•م) ، قلنا[١] بأن الاتفاق المذكور قد نص على انشاء مؤسسة « المحاماة عن الشعب » كما أن النبلاء اعترفوا بشرعية « مجالس العوام » **Concilia Plebis** .

ورغم أن مجلس الشيوخ قد وافق بعد الاستيلاء على مدينة *Veii* أن يوزع أراضي المدينة الاوتروسكية على فئة من العوام بمقدار سبع[٢] (jugera) لكل رب عائلة ، فسيظل الصراع على الأراضي الأميرية *ager publicus* بين الخواص والعوام من أهم المعضلات التي أثارت خصومات ومنازعات لا تعد ولا تحصى بين الطبقتين طوال العهد الجمهوري[٣] •

ولكن رغم هذا الصراع الطبقي العنيف بين العوام والخواص ، يمكننا القول بأن هذا الامتزاج الذي أخذ يتم تدريجيا منذ منتصف القرن الخامس (ق•م) بفضل الاجراء القانوني الجديد *lex Canuleia* وذلك بين طبقتي المواطنين الرومانيين ، ان هذا الامتزاج سيستمر فيما بعد ليكّون جيلاً من الأحرار الرومانيين يشعرون ، رغم الفوارق الطبقية ، بانتسابهم الى « دولة روما » لا سيما أن التصنيف المنسوب الى الملك الاتروسكي « سرويوس توليوس » الذي وزع المواطنين على فئات مختلفة وفقا لثرواتهم كان قد فتح السبيل لتقويض الترتيب الاجتماعي القائم على الحسب والنسب[٤] ، ويضاف الى ذلك ، ان حروب القرن الخامس ومطلع

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٤١ •

(٢) jugera ومفردها *jugerum* وهي وحدة رومانية لقياس مساحة الاراضي الزراعية وقدرها (٢٥٠٠ م٢) •

(٣) أنظر أعلاه ص ١٥ ؛ ص ٤١ ؛ ص ٢٣٩ •

(٤) أنظر أعلاه ص ١٩٦ ــ ١٩٧ ؛ ص ٢٤٦ •

القرن الرابع (ق٠م) التي خاضتها روما ضد أعدائها ، لم تسفر عن نتائج مماثلة بالنسبة الى مختلف فئات طبقة العوام ٠ فعدا عن أولئك العوام الذين أثروا بفضل المنتجات الحرفية الخاصة بالجيش وبالاعمال العسكرية ، أعطى مجلس الشيوخ لفئات أخرى من العوام الذين اشتركوا بالحروب ضد أعداء روما حصصاً من الاراضي الاميرية التي سقطت بيد الدولة الرومانية بعد انتصاراتها على أعدائها ٠

وهكذا بدأنا نلاحظ منذ منتصف القرن الخامس (ق٠م) « حالة داخلية ناشئة عن أن العوام كانوا طبقة غير متجانسة تماما ٠ ففيهم الاغنياء الذين يطالبون بالمساواة المدنية والسياسية مع الخواص ، وفقراء يطالبون باصلاحات اجتماعية واقتصادية هدفها فقط تحسين مستواهم المادي ٠ ولا شك في أن اختلاف وجهتي النظر المتقدمتين أخر انتصار العوام من منتصف القرن الخامس الى منتصف القرن الرابع ٠

« وحالة خارجية ناتجة عن أن الخواص والعوام بدأوا يشعرون جميعا بحب وطنهم المشترك ، وفهموا وجوب القيام بتضحيات متبادلة ، لتأمين سلامة دولتهم ٠ وهذا ما سهل وصول الطرفين الى اتفاق على نقاط معينة بين فترة وأخرى ٠ »[1]

نقول على نقاط معينة ، اذ أن العوام لن يحصلوا على بعض الحقوق والامتيازات ، الا بعد نضال طويل الامد ، مرير وشاق ٠ ورغم ذلك ، فان تلك المساواة الجزئية لم تكن الا اسمية ٠ اذ أن اعتماد الثروات ، عوضا عن الحسب والنسب وقرابة الدم ، لتوزيع أفراد المجتمع الروماني على فئات اجتماعية مختلفة ، قد أوجد تصنيفاً طبقياً جديدا ، يضم من ناحية الخواص مع أثرياء العوام ومن ناحية أخرى فقراء العوام والمعدمين ٠ ولا شك ، كما قلنا سابقاً[2] ، في أن اتخاذ الثروات كأساس لتصنيف المجتمع الروماني

---

(١) الدكتور سليم عادل عبد الحق ، **روما والشرق الروماني** ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٥٩ ، ص ٥٩ ؛ أنظر أعلاه ص ٢٣٩ ٠

(٢) أنظر أعلاه ص ١٩٧ ٠

عوضاً عن الحسب والنسب ، كان بحد ذاتـه خطوة تقدميـة وضربة عنيفة للخواص الذين كانوا يستمدون نفوذهم من حسبهم ونسبهم ، ولكن هذا لا يعني أبدا بأن التناقض الطبقي قد زال أو أن استثمـار فئات اجتماعيـة لفئات أخرى قد تلاشى • بل بلعكس ، فان التصنيف الجديد قد أوجـد طبقة حاكمة جديدة مكونـة من الخواص ومن أثريـاء العوام • وأصبح المواطنـون الرومـانيون *cives Romani* لا يتميزون عن بعضهم البعض بحسبهم وبنسبهم ، بل بوفرة ما يملكونه أو بقلته وكذلك بما يشغلونه من مناصب سياسية وادارية في مختلف أجهزة الحكم •

وبجانب العوام والخواص ، كان هنالك العبيد • ولقد أخذ عـددهم يزداد بعد كل حرب خاضتها روما ضد أعدائها • وعندما تطرقنا الى مختلف مصادر الرقيق في العهد الملكي ، قلنا بأن الانسان الحر يتحول الى رقيق بمجرد وقوعه أسيراً في الحرب • ولقد اشتهر الرومانيون بتطبيق هذا المبدأ بحذافيره سواء على أعدائهم أوعلى مواطنيهم • وكم من مرة رفضت السلطات الرومانية أن تعتق الاسرى الرومانيين بدفع فدياتهم أو بمبادلتهم بالأسـرى الأعداء !•• ولقد نظر الرومانيون بقساوة الى الاسير ، رومانياً كان أم غـير روماني • فالانسان الحر الـذي يسمح لعدوه أن يجرده من سـلاحه في ساحة الوغى ليس جديرا بالحرية • لقد كانوا يؤمنون بأن على المحارب أن ينتصر أو أن يُقْتَل ، اذ لا مكان للجندي المتخاذل في المجتمع الروماني • لقد أخذ يتشكل قطيع أسرى الحرب وسينمو عددهم مـع الايـام نتيجـة لحروب روما في ايطالية وخارجها •

ولقد رأينا كيف أن العنف الشـخصي (القرصنة ، قطع الطريق ، الخ ••) أثناء السلم قـد يجعل من الانسـان الحـر عبداً • ويُضـاف الى مصادر الرق هذه ، مصـادر أخرى[1] : كرقيق الدين وعدم اعتراف الوالد بابنه ورفض المواطن اداء خدمة العلم ، الخ ••

---

(١) بالنسبة الى مصادر الرق ، أنظر أعلاه ص ١٩٤ ـ ١٩٦ •

من خلال هذا الصراع الطبقي بمختلف أشكاله في الداخل ، وكذلك تحت تأثير الضغوط الخارجية أخذت تنتظم مؤسسات الدولة الرومانيــة • وستترك هذه العوامل الداخلية والخارجية آثارا جلية وعميقة على مختلف أجهزة الادارة والحكم •

٣ ـ المؤسسات السياسية وأجهزة الحكم في الدور الجمهوري الأول:

I ـ السلطة التنفيذية :

لقد اعتمدت أكثر من دولة في الماضي ، ولا تزال تعتمد أكثرها حتى اليوم ، مفهوم التسلسل الضروري في الوظائف العامــة ، استناداً للتجربة وللرأي القائل بأن الخبرةالمكتسبة في أدنىالوظائف لتبدو مفيدة في أعلاها • أما في روما ، فقد اتخذ هذا المبدأ شــكلا صارماً • ويطلق عليه المؤرخون تسمية « تسلسل الأمجاد » *Cursus honorum* ، الذي نُظّم بكل عناية • ونعني بـ « تسلسل الأمجاد » نظام مراتب مختلف المناصب التي يمكن أن يشغلها مواطن ما في غضون الحياة • ومن حيث « ان هذه المناصب توزع بالانتخاب وتتيح ممارسة قسط متفاوت من سلطة الدولة ، فانها « أمجاد » تعتز بها حياة المواطن ولا يهمل ذكراها الحفدة • ولكن هذه الأمجاد غــير متساوية في العظمة ، والطموح يدفع كل قاض الى محاولــة بلوغ أرفــع الأمجاد سمواً التي تستند الى شاغلين أصيلين قليلين • »[(١)] • ولقد كان على مختلف الموظفين « الحكــام » *magistratus* أن يتدرجوا في سلّم اداري يتناقص فيه عدد الحكام المنتخبين من درجــة الى أخرى • ويبدأ الحــاكم « سيرته الادارية » بالوظائف المالية والوظائف البلدية ، تلك المناصب التي تشكّل قاعدة « الهرم الاداري » ، ثم يتدرج على مراحل متفاوتة الى قمــة الهرم حيث بامكانه عندئذ أن يشغل مناصب القضاء والقنصلية والمراقبة •

وتُطْـلَق كلمة *magistratus* في اللاتينية على الوظيفة والقائم بها •

---

(١) روما والامبراطورية ، ص ١٣٧ •

وتشتق الكلمة من *magister* « المعلم » • ولكلمة « المعلم » *magister* صلة بكلمة magis بمعنى « أكثر » ، وبالتالي فالمعلم هو « أكثر من الانسان المبتدىء » أي يعرف أكثر منه ، كما أن « الحاكم » magistratus هو « أكثر » من مواطن لا منصب له • والحاكم بهذا التعريف « ليس بخادم الجماعة ، أو منفذ لقراراتها أو خاضع لرقابتها وأوامرها أو قابل العزل بارادتها : هذا هو القاضي[١] في الديمقراطيات اليونانية ، أو بالاحرى ما يضطرنا فقر المفردات التاريخية الى تعيينه بهذا الاسم التي احتفظت اللغة الفرنسية ، مع ذلك ، باطلاقه على القاضي (*Juge*) ببعض مفهومه اللاتيني • واذا ما عُين القاضي الروماني وفقاً للأنظمة ، يتسلم بالوقت نفسه ، بمعزل عن الجماعة ، وفوق الجماعة ، سلطاناً مستقلا ، يجعل منه تجسيداً للدولة ، وممثلا ومستعملا لسلطتها •• سلطان وسلطة : وهنا أيضا يردّ التضايق الى غموض المفردات العصرية وعدم انطباقها على الوقائع التي ليست مجرّد فوارق ، على الرغم من مرتكزها المثالي • كان الرومان يتكلمون عن الـ بوتستاس *Potestas* التي لهذا المنصب أو ذاك ، فنترجم نحن *Potestas* « بقوة » ، في حال ان ما كان يقصد بها هو امكانات العمل الخاصة بمنصب ما ، بحيث يمكن تطبيق هذا المفهوم على الانظمة اليونانية • ولكنهم كانوا يميزونها نظريا عن « السلطان » ، وهو مفهوم أوسع وأرفع ، وخاصة لمناصب قضاء عدة وللدكتاتورية ، والقنصلية والقضاء : فكان يعني ، في حال المحافظة على وحدته ، السلطة العليا في الدولة ، وحق القيادة في الحياة المدنية (« في البيت ») والحياة العسكرية • وهذا بالضبط ما جهله الاغريق • »[٢]

وفي الواقع ، فان لكلمة *Potestas* « القدرة ، القوة » صلة بالفعل

---

(١) لا يقصد بكلمة « القاضي » ما تعنيه حديثا ، بل يقصد بذلك كل موظف منتخب يشغل منصباً اداريا • (م•م •) •

(٢) **روما وامبراطوريتها** ، ص ١٢٩ •

possum « تمكن من ، قـدر على » وباسم الفاعل **potens** « قادر على تنفيذ أمر ما » ، في حين أن كلمة *imperium* « السلطان » تذكرنا بالفعل *impero* « أمر ، قاد » وبكلمـــة *imperator* التـي أفادت في البــدء « الرئيس ، القائد العسكري ، الآمر » قبل أن تشير فيما بعد الى حاكم روما المطلق في الفترة الامبراطورية ، ونعني بذلك « الامبراطور » • وبينما كان « حكام » الحلقات الدنيـا يتمتعون « بالقـدرة على تنفيـذ أمر مـا » ضمن اختصاصاتهم ، فان الحكام الذين يحتلون قمـة « الهـرم الاداري » كانوا يصـدرون أوامرهم المطلقـة ويرمزون بذلك الى « جبروت الدولـة » بما يتمتعون به من « سلطان مطلق » *imperium* .

وقبل أن نتطرق الى مختلف المناصب الاعتيادية ، حيث كان « حكامها » يُنْتَخبون سنويا للقيـام بهـا ، نذكر المناصب الاستثنائية ، تلك التي كان يشغلهـا بعضهم ، بصـورة أو بأخـرى ولسبب أو لآخـر ونعني بذلك : الدكتاتور ومحامي الشعب ومراقب الاحصاء والأخلاق العامة :

آ ـ **الدكتاتور** : لقد رأينا سابقاً[1] كيف ان حالة الدكتاتورية قد أعْلِنَت في روما عندما داهمتها الأخطار الخارجية • ولكلمة *dictator* صلة بفعل *dicto* « أملى على ورسم لـ •• » • وفي الواقع ، فالدكتاتور هو حاكم استثنـائي يختاره ويعينه أحـد القناصل الحاكمين ، بناء على دعوة مجلس الشيوخ الذي يكون قد أعلن حالة الطوارىء لمواجهـة الاخطـار القصوى لتهديد خارجي مداهم أو فتنة داخلية خطيرة • وكما قلنا ، يتم اختيار وتعيين الدكتاتور من قبل أحد القناصل الحاكمين ، أي أن استلام هذا الحاكم المطلق منصبه لا يتم عن طريق الانتخاب ، وبناء عليه

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٣٢ ؛ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ •

فلا سلطة عليه لأيـة جمعية انتخابية • ولقد أخذوا يختارونه اعتبارا من عام (٣٢٠ ق•م) من بين القناصل القدماء • ورغم أن القنصل هو الذي يختار الدكتاتور ويعينه ، فان هذا « الحاكم الفرد » لا يستمد سلطانـه ***imperium*** من القنصـل الذي عينه ، بل من الالـه **Jupiter** ، وبذلك كان يتمتع بسلطان لا حدود له[١] • وفي الحقيقة عندما يتم اعلان حالة الدكتاتورية ، يتوقف جميع الحكام عن ممارسة صلاحياتهم ولا يستثنى من ذلك سوى « نقباء العوام » الذين يتابعون ممارسة سلطاتهم • ويعتقد البعض بأن النقبـاء رغم ممارستهم لسلطاتهم ، فانهـم يفقدون حق الاعتراض النهائي *veto* على أي اجـراء يقوم به الدكتاتور[٢] •

وكان يعهد الى الدكتاتور بمختلف السلطات (العسكرية والمدنية والقضائية) لمدة أقصاها ستة أشهر ويمكنه عندئذ أن يتصرف بحياة المواطنين (حق الحياة والموت) ويعبىء كـل قوى الدولة • وقد يعتزل الدكتاتور منصبه قبل انتهاء الاشهر الستة ، اذا ما قدر بأن الخطر الذي استدعى تعيينه قد زال •

ولقد أعلن مجلس الشيوخ حالة الدكتاتوريـة مرارا في القرنين الخامس والرابـع (ق•م) عندما كـانت الاخطـار الخارجية تحدق برومـا وكـان الصراع الطبقي بـين العوام والخواص على أشـدّه • واعتبـارا من مطلـع القرن الثالث (ق•م) لم تُعْلَن حالة الدكتاتورية الا نادراً ، كمـا حدث مثلا عندما اجتاحت القوات القرطاجية ايطالية وهددت روما في عقر دارها •

---

(1) Cf. D. Cohen, *The Origins of Roman Dictatorship*, Mnemosyne X (1957) 300 - 318.

(2) Fr. De Martino, *Storia della costituzione romana*, I, 383 - 387.

ومفهوم الدكتاتورية لدى الرومان يختلف عما رأيناه لدى الاغريق • ونلاحظ هذا الاختلاف من الناحية الدستورية وكذلك من ناحية المحتوى الطبقي :

١) فالحكم الاستبدادي أو الطغياني كما يعرفه أرسطو في (مقالة في السياسة) ، هو الحكم الذي يتسلط فيه الطاغية بلا مسؤولية ما ، على الشعب ويتولى السلطة لمصلحته الخاصة لا لمصلحة المواطنين • وهذا ما يجعله حكم استبداد واكراه ، حيث لا يخضع المواطنون طوعاً لذلك الحكم الارهابي •ويقابل الفيلسوف اليوناني الحكم الاستبدادي بالحكم السياسي أو كما يقول « السياسة » ، وهو حكم صادر عن الشعب ويعتمد على مؤسسات دستورية ويطلق على الطاغية في اليونانية اسم *turannos* وللتسمية صلة بالفعل اليوناني turanneo أي « استبد ، طغى » ولهذا الاشتقاق مدلوله • أما « الحكم السياسي » كما تصوره الفلاسفة اليونانيون فيطلق عليه اسم *politeia* ، وتذكرنا هذه الكلمة بالمدينة polis وبالفعل politeuo بمعنى « عاش كمواطن ، تمتع بحقوق المواطن ، ساهم في سياسة المدينة والدولة الخ ••• » ونجد أصداءً لمفهوم الحكم السياسي ، كما كان يتصوره اليونانيون ، في اللغات الاوروبية الحديثة ، فنقول في الفرنسية والانكليزية (politic , politique) بمعنى السياسة وسياسي وكذلك (polite , poli) بمعنى مهذب ، أديب ، صالح ، الخ ••• وفي الواقع ، ففي بعض الفترات القديمة من تاريخ « المدن ــ الدول » اليونانية ، ارتبط مفهوم الانسان المهذب والمتحضر بسكنى المدينة وبتمتعه بالحقوق المدنية أي بحق المشاركة في ادارة المؤسسات السياسية ، وهكذا فمفهوم « السياسة » لدى اليونانيين القدماء كان أكثر شمولا مما هو عليه الآن •••

وبذلك ، فالطاغية في بلاد اليونان لا يستلم الحكم بصورة دستورية ولمدة معينة ، بل انه يستولي على السلطة بشكل أو بآخر (مثال على ذلك دكتاتورية بوليقراتس في ساموس وبيزيستراتوس في آثينة وحكم الطغاة في صقلية) ، وقد تطول أو تقصر مدة حكم الطاغية من مدينة الى أخرى • وقد ينتهي حكمه بقتله أو بطرده من الحكم نتيجة لمؤامرة أو ثورة وقد يخلفه أولاده في الحكم بعد موته ••• ومن هذه الناحية ، فان الدكتاتورية في روما تختلف عما كانت عليه في مختلف المدن اليونانية • فكما رأينا، يختار أحد القناصل الحاكمين الدكتاتور ويعينه لمدة ستة شهور فقط وقد يعتزل الدكتاتور الحكم قبل انقضاء تلك الفترة اذا قدّر بأن الظروف التي استدعت تعيينه قد زالت •

٢) اذا فمن الناحية النظرية ، فان الدكتاتورية في روما كانت دستورية ، على حين أن حكم الطغاة في بلاد اليونان كان غير دستوري • وكون الدكتاتورية دستورية في روما وغير دستورية في بلاد اليونان لا يحجب عنا مطلقاً محتواها الطبقي في العالمين الروماني واليوناني •• ولقد رأينا بأن تعيين الدكتاتور كان يتم بعد أن يكون مجلس الشيوخ قد أعلن حالة الطوارىء• صحيح أن تلك الحالة قد تُعْلَن لمجابهة خطر خارجي ،ولكن كم من مرة أعلن مجلس الشيوخ حالة الطوارىء لمجابهة الاخطار الداخلية نتيجة لاحتدام الصراع الطبقي • ومجلس الشيوخ ، كما نعلم ، كان يمثل مصالح مختلف الفئات المحافظة في المجتمع الروماني • ولذلك يمكننا القول بأن الدكتاتورية في روما ، مع انها كانت دستورية نظرياً ، فانها لم تكن تمثل مصالح السواد الاعظم من أفراد المجتمع الروماني •

أما في بلاد اليونان فلقد « رضيت الجماهير الشعبية في (آثينة) كما في أكثر البلاد اليونانية الاخرى ، بالنظام الديكتاتوري الذي قام في القرن السادس لانقاذها من الحكم الارستوقراطي ـ الاقطاعي • فان الطبقات الفقيرة ، عندما تضطر الى الاختيار بين الحرية والرخاء الاقتصادي ، تميل بطبيعتها ، مثل الاغنياء الى تفضيل المال على الحرية • ولا شك في أن النظام الديكتاتوري كان يسعى في الدرجة الاولى الى منع الاغنياء من استثمار الطبقات العاملة • كذلك كان الاغنياء يقبلون بهذا النظام الذي يتولى حمايتهم من ثورة الجماهير ويحفظ أموالهم أو على الاقل معظمها ، من أن تنهب بالقوة أو بالقوانين التي تسنها مجالس الشعب • على أن الحلفاء الطبيعيين للنظام الديكتاتوري هم أفراد الطبقة الوسطى • لان الديكتاتور لا بد له في سبيله دعم سلطته من القيام بالمشاريع العمرانية وتشجيع الصناعة والتجارة واصلاح الشؤون المالية وحماية الآداب والعلوم والفنون وبذل الاموال الطائلة على الحفلات والمهرجانات • وكل هذا مما يعود بأكبر الفوائد على الطبقة المتوسطة قبل غيرها • وهو عادة ينصب نفسه مدافعاً عن المقدسات الدينية والتقاليد الاخلاقية ويتمسك بالمظاهر الديمقراطية ، كما هي الحال مع (بيزيستراتوس) وبذلك يكتسب عواطف الشعب ويجعله يعتقد بأنه يحكم نفسه بنفسه ويتمتع بالحرية • واذا أمعنا النظر نلاحظ أن الديكتاتور بأتباعه هذه الخطة السياسية انما يمهد وربما دون قصد ، للحكم الديمقراطي • لان الشعب ، متى تحسنت حالته الاقتصادية وشعر بزوال الخطر من جانب الارستوقراطيين لن يكتفي بمظاهر الحرية ، بل لا بد أن يقوم ويطالب بحقوقه ويسعى للخلاص من الحكم الفردي • وهذا

ما حدث في (آثينة) بعد عهد (بيزيستراتوس) ... »[1] .

وفي الحقيقة ، فان الفيلسوف اليوناني ارسطو ، رغم عدم تحبيذه لحكم الطغاة ، فاننا نراه في مؤلفه (دستور الأثينيين) يصرح بأن بيزيستراتوس لم يكن « في حكمه يسيء في شيء الى الجمهور ، بل كان يوفر له السلام ويحافظ على هدوئه ودعته ...وأعظم ما كان يقال فيه (في بيزيستراتوس .م.م)، ميله الى الشعب وعطفه . »[2] .

وهكذا ، فالحكم الدكتاتوري (الطغياني) في بلاد اليونان ، كان يمثل على وجه العموم ، مصالح الطبقات الوسطى والطبقات الكادحة ، أما في روما ، فان اعلان حالة الطوارىء ، والدكتاتورية كان يتم بناء على طلب مجلس الشيوخ ، الذي كان يضم في صفوفه نبلاء روما ومختلف الفئات الرومانية المحافظة .

ب ــ المحامون عن الشعب : لقد رأينا سابقاً[3] كيف أن العوام قد حصلوا ، نتيجة لـ « اتفاق الجبل المقدس » على حق انشاء مؤسسة تضم عدة أشخاص ، يتولون حماية العوام والدفاع عنهم . ولقد أطلق عليهم اسم « المحامين عن الشعب » أو « نقباء العوام » . وحيث أن المرشح لهذا المنصب يُشْتَرط فيه أن يكون من طبقة العوام ، فمن المستحسن أن نطلق على هؤلاء اسم « نقباء العوام » أو « المحامين عن العوام » ، اذ أن مهمتهم تنحصر في الدفاع عن طبقة العوام .

كان العوام ينتخبون نقباءهم في جمعياتهم الخاصة بهم ،

---

(١) الدكتور كامل عياد ، تاريخ اليونان ، ص ٢٤٤ .

(٢) ارسطو ، دستور الأثينيين ، عربه عن أصله اليوناني وعلق عليه الأب اوغسطينس بربارة ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤٤ ــ ٤٥ .

(٣) أنظر أعلاه ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ .

وكان عدد هؤلاء النقباء أربعة في البدء قبل أن يرتفع الى عشرة محامين اعتبارا من عام (٤٧١ ق٠م٠) بعد أن تكاثر عددالقبائل وازدادت أهمية العوام في حياة المجتمع ٠

جُعِلَ هؤلاء النقباء مقدسين بأشخاصهم ٠ ولا يجوز لأي انسان أن يمسهم بأذى ومن يتجرأ عليهم يصبح خارج القانون ويحكم عليه بالاعدام ٠ ولقد امتد التقديس الى بيوتهم، حيث لا يجوز لاي انسان مهما علا شأنه أن ينتهك حرماتها ٠ وكان يحق لاي فرد من العوام اذا اعتبر نفسه مضطهدا أو مطاردا أن يعتصم بها ٠ وهذا ما يُطْلَق عليه اسم « حق المساعدة » *Jus auxilii* ؛ فيتدخل عندئذ « المحامي » بما يتمتع من حق « النقض » *veto* [1] ويوقف أي قرار من قرارات مجلس الشيوخ أو يمنع تنفيذ أي اجراء اداري صادر عن أي حاكم أو موظف مهما علت مكانته ٠ ومثلما كان الدكتاتور يتمتع بسلطة تنفيذية لا حدود لها ، كان المحامي يتمتع بسلطة مطلقة في معارضة ورفض أي اجراء يمس مصالح طبقة العوام ٠ أي أن صلاحيات المحامين لم تكن ايجابية بل سلبية ٠

ولقد لعب هؤلاء النقباء دورا كبيرا في تنظيم الحركة الشعبية ٠ ولقد حاول النبلاء أن يقيدوهم في صلاحياتهم باستمالة بعضهم اليهم ، اذ أن قراراتهم لا تكون نافذة ، في بعض الحالات ، الا اذا صوت عليها بالاجماع المحامون العشرة٠ اذ انه يكفي أن يخالف واحد فقط من المحامين العشرة رأي زملائه ، ليصبح قرار المحامين باطلا ٠ كما أنه لا يحق للمحامي

---

(١) *veto* بمعنى « أعترض ، أمانع » من الفعل اللاتيني (veto, are) « اعترض على ، عارض ، ردّ » ٠

أن يمارس صلاحياته خارج أسوار روما ، وبتعبير آخر ، لا يحق للنقيب أن يشمل بحمايته أي فرد من العوام عندما يكون خارج أسوار روما ، بقيادة أحد الحكام ، كالقناصل مثلا عندما يقودون الجيش الروماني في الميدان • وكان العوام يجددون انتخاب نقباءهم سنويا •

ج ـ **مراقب الاحصاء والأخلاق العامة** *censor* : من الفعل اللاتيني censeo بمعنى « خمّن ، قدّر ، ميّز ، اعتبر » • وكان المواطنون الرومانيون في « مجالسهم المئوية » ينتخبون كل خمس سنوات من بين القناصل القدماء مراقبين اثنين يُعهد اليهما ، خلال ثمانيةعشر شهرا ، باحصاء الاشخاص والممتلكات وبتوزيع المواطنين ، بمقتضى ثرواتهم ، على مختلف الفئات التي نص عليها التصنيف المنسوب الى الملك « سرويوس توليوس »[1] • ويحدّدالمراقبان أيضا قيمة الضرائب ويلزّمان الواردات والنفقات العامة ، للسنوات الخمس القادمة •

واضافة لعملهما الاحصائيهذا ، يقوم المراقبان ، بصفتهما نظّار الأخلاق العامة ، بوضع لوائح باسماء أعضاء مجلس الشيوخ • وكان من صلاحياتهما ، اقصاء أولئك الذين يبدو لهما سلوكهم ، حتى الخاص ، موضع انتقاد وشبهة • وكان يحق للمراقبين أن يوجها الى مختلف المواطنين ، ارشادات وتوصيات خلقية وأدبية •

ومع أن T. Livius يذكر بأن مؤسسة المراقبة قد أحدثت في عام (٤٤٣ ق•م)[2] ، فان أسماء المراقبينالذين يرد ذكرهم قبل (عام ٤٠٣ ق•م) مشكوك في أمرها •

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ •

(2) IV, VIII, 7.

وبجانب تلك المناصب الاستثنائية ، كان الرومانيون ينتخبون سنوياً حكاماً ، يشغلون مناصبهم لمدة سنة واحدة ، ونعني بذلك القناصل والقائمين على الشؤون القضائية ونظّار الشؤون البلدية ووكلاء الشؤون المالية :

آ ـ **القناصل** : لقد رأينا سابقاً(1) كيف أن الخواص قد فضلوا أن تزول القنصلية كمؤسسة حاكمة ، على أن يشغل ممثل عن العوام أحد منصبيها • وهكذا أُسْتُبْدِل القنصلان بـ « المحامين العسكريين ذوي الصلاحية القنصلية » • وتذكر روايات الاخباريين بأن « نقيب العوام » Licinius Stolo قد تقدّم مع أحد زملائه بعدة مشاريع اصلاحية عام (٣٦٧ ق•م) وينص أحدها على العودة الى نظام القنصلية والاحتفاظ بأحد منصبيها الى العوام • فعارض الخواص بذلك من جديد ، فتوترت العلاقات بين الطبقتين وكانت الاخطار الخارجية تحيق بروما ، فاضطر النبلاء في آخر الأمر الى العودة الى نظام القنصلية • ومع أن المشروع قد نصّ على أن يكون أحد القنصلين من العوام ، فمن المؤكد أن هذا الأمر لم يتحقق بشكل دائم الا اعتبارا من عام (٣٢١ ق•م) •

وكان القنصلان يُنْتَخَبان ، كما قلنا ، لسنة واحدة • وجرت العادة أن يُطْلَق اسماهما على تلك السنة • وما عدا الدكتاتور الذي كان يتولى منصبه استثنائياً ، كان هذان الحاكمان يُعْتَبَران من أكبر رجال الادارة والحكم في العهد الجمهوري ويتمتعان بصلاحيات مدنية وعسكرية واسعة ، وذلك بعد منحهما « السلطان المطلق » *imperium* .

وكانت مهمتهما الاساسية قيادة الجيوش وادارة الاعمال العسكرية ضد أعداء روما • وكانا يتعاونان في سبيل ذلك مع

(1) انظر اعلاه ص ٢٧٠ •

مجلس الشيوخ • وبعد أن تكون المجالس ذات الصلاحية قد وافقت على اعلان حالة الحرب ، يشرف القنصلان على اختيار المواطنين الذيـن سـتتألف منهـم « الجوقات » *legiones* وينظمان في الوقت ذاته لوائح بالضرائب المقررة على المواطنين لتغطية نفقات الحملة •

ويتمتع القنصلان بصلاحيـة انزال مختلف العقوبات ، بدون أية محاكمة ، بحق أي مخالف من الضباط أو الجنود الخاضعين لسلطانهما ، بعد مغادرة الجيش لمدينة رومـا ؛ بل يحق لهما اصدار حكم باعـدام أي جندي مخالف مهما علت رتبته ؛ اذ أن الروماني ، خارج أسـوار رومـا ، يفقد بعض الضمانات الدستورية التي تحميه كمواطن ، ولا يُنْظَـر اليه ، إلا كجندي كُتب عليه تنفيذ أوامر رؤسائه بدون أي أخذ ورد ؛ وأية مخالفة قد تعرضه لشتى العقوبات •

أما في مدينة روما ، فالقنصلان هما اللذان يوجهان الدعوة الى التئام مجلس الشيوخ والمجالس المئوية والقبلية ويرأسان اجتماعاتها • ويحق للقنصلين أثناء رئاستهما للمجالس المئوية والقبلية ، ان يقترحا مشاريع قوانين على الاعضاء *rogationes* . وبعـد التصويت عليهـا بالموافقـة ، تصبح تلك القوانـين *leges rogatae* ملزمة لجميع المواطنين •

ومع أن مجلس الشيوخ هو الذي ينظم ويدير شـؤون الخزينة العامة ، فان وكلاء الشؤون المالية لا يتصرفون بمفردهم، بل عليهم مشاورة القنصلين وتلقي التعليمات منهما •

وعلاوة على ذلك ، فلقد عهـد الى القنصلين بمراقبـة الاجانب وباخماد جذوة القلاقل وقمع الاضطرابات الداخلية •

وعندما تطرقنا الى دستور اسبارطة قلنا بأنه كان « هناك المراقبون الخمسة الذين يشبههم الكاتب الروماني (شيشرون) بالمحامين أي (تريبون) في الجمهورية الرومانية الذين كان ينتخبهم الشعب لتمثيله والدفاع عن حقوقه ، لان المراقبين أيضا ينتخبون من قبل الجمعية العامة ، ولكن الاصح مقارنتهم بقناصل (روما) أو الوزراء في الدول الحديثة اذ انهم يقومون، مثل هؤلاء بالسلطة الادارية • »[1]

وكما نلاحظ ، كان القنصلان يلعبان دورا سياسيا كبيرا ويحظيان بمنزلة اجتماعية مرموقة في روما ؛ وهذا ما حدا بالنبلاء الى محاولة الاستئثار بمنصب القنصلية دون العوام • ومع أن القانون الليكيني لعام (٣٦٧ ق•م)[2] قد سمح للعوام بأحد منصبي القنصلية ، فان الاحصاءات لم تسجل أكثر من خمسة عشر قنصلا من العوام ، طوال الفترة الممتدة من منتصف القرن الرابع (ق•م) الى منتصف القرن الاول (ق•م)[3] •

ولا ريب في أن ثنائية الحكم القنصلي كانت مقصودة ، ليحول الرومانيون دون استئثار شخص واحد بالحكم ، اذ أن القنصلين كانا يحكمان بصورة متساوية وبالتناوب دون أن يقدم أحدهما على الآخر •

ب ـ القضاة العدليون *praetor* [4] من الفعل اللاتيني praeeo بمعنى « تقدم ، سبق غيره ، أصدر التعليمات » • وكان هؤلاء

---

(١) الدكتور كامل عياد **تاريخ اليونان** ، ص ١٨٣ •

(٢) نسبة الى نقيب العوام Licinius Stolo المتقدم ذكره •

(3) Cf. Strasburger, V°*Homo novus*, RE XVII, 1223.

(٤) ان الاشتقاق اللغوي لكلمة praetor مشكوك فيه • فالكاتب اللاتيني (كيكرو في *de lèg*. III, 3, 8) يشتقه كما ذكرنا من الفعل (praeeo . *ire*) • ويرى البعض بأنه قد يكون لكلمة praetor صلة بالكلمة الاتروسكية purthne « الحاكم » (أنظر أعلاه ص ١٢٧) •

القضاة ، من أكبر رجال الحكم في أول عهد الجمهورية قبل انشاء مناصب القناصل ، فأصبحوا يحتلون المرتبة الثانية في جهاز الادارة والحكم بعد القناصل .

وعلينا أن نميّز بين « القاضي الاعظم » *praetor maximus* الذي حكم روما بمساعدة القنصلين ، بعد زوال الملكية ، وكانت مرتبته أرفع من هذين الاثنين[1] وبين « القاضي العدلي » praetor ، وهو الذي نص عليه القانون الليكيني عام (٣٦٧ ق.م) وأسْند اليه الاشراف على أمور القضاء المدني في مدينة روما ، وكان ينظر في الدعاوى بين المواطنين الرومانيين ، ولقد عُرِفَ هذا الحاكم باسم « القاضي المدني » *praetor urbanus* . وفي حال غياب القنصلين عن مدينة روما ، يمارس هذا القاضي صلاحياتهما . وسيقيم الرومانيون فيما بعد منصباً لقاض آخر وهو « القاضي المتنقل » *praetor peregrinus* وينظر هذا الاخير في الدعاوى التي يكون أحد الاطراف فيها أجنبيا . ويرى البعض[2] ، بأنه لم يكن في البدء من حق « القاضي المتنقل » أن ينظر في الدعاوى الناشئة بين المواطنين الرومانيين وبين الاجانب بل انه لم يمارس هذه الصلاحية إلا اعتبارا من العصر الامبراطوري ؛ بينما يعتقد البعض الآخر[3] ، بان « القاضي المتنقل » قد نظر ، منذ البدء ، في الدعاوى التي يكون أحد الاطراف فيها أجنبيا والآخر مواطنا رومانيا .

وسيرتفع عدد القضاة فيما بعد عندما تتوسع رقعة الدولة

---

(1) A. Piganiol, *La Conquête Romaine,* P.U.F, Paris, 1967, p. 194.

(2) D. Daube, *The Peregrine Praetor,* JRS XLI, 1951, 66-70.

(3) F. Serrao, *La iurisdictio del pretore peregrino,* 1954 (c. r. Bonifacio, *Iura* VI, 1955, 236 - 246).

الرومانيــة • والقاضي المــدني كالدكتاتور والقنصلين يتمتع ب « السلطان » *imperium* • ولكن سلطانه كان أدنى مرتبة من سلطان القنصلين *imperium minus habet*

جـ ـ نظّار الشــؤون البلديــة *aediles* ولهذا الاسم صلة ب aedes بمعنى « معبد وكــذلك دار ومســكن » • وفي الحقيقة ، كانت مهمة هؤلاء تنظيم حراسة الأبنية العامة وصيانة الشوارع ومراقبة سير الاعمال في الاســواق والاشــراف على الحمامات العامة والينابيع والقنوات ومجاري المياه •

ولقد أوكل اليهم أيضا مراقبــة المــواد الاستهلاكية في الاسواق وتأمين المؤن الضرورية من الحبوب وغيرها من المواد الغذائية لسكان العاصمة •

واضافة لذلك ، كان هؤلاء النظّار يراقبون نظافة المدينة من الناحية المادية و « الاخلاقية » •• وكانوا ينهضون بمهامهم بمساعدة شُرَط المدينة الذين كانوا يأتمرون بهم •

ويأتي هؤلاء في المرتبةبعدالقضاة «المدنيين» و « المتنقلين »، ولم يكن يتمتعون بـ « السلطان » *imperium* • وكان عددهم في البدء اثنين ، يتم انتخابهما من قبل « جمعيات العوام » ولذلك اشتهرا باسم « نظّار العوام » ثم أضيف اليهما اعتبارا من عام (٣٦٦ ق•م) ناظران آخران ، تنتخبهما « المجالس القبلية » وكانا عادة من الخواص •

وما كانت مهام أولئك النظار الاربعــة لترتدي أهميــة تذكر « لو لم يضف اليها تنظيم الالعاب في مواســم الاعيــاد الدينية : فاستطاع النظّار بذلك ، حتى ولو كان الثمن تصدّع ثروتهم الشــخصية ، اكتســاب شعبية تؤمن انتخابهم لمناصب القضاء العليا • »[1]

---

(١) روما وامبراطوريتها ، ص ١٣٤ •

د ـ **الخزّان** *quaestores* وهم وكلاء الشؤون المالية ويتولون الادارة المادية لصناديق المال العامة • ويأتي هؤلاء في أدنى مرتبة من « هرم الادارة والحكم » • كان عددهم في البدء اثنين من الخواص ، ولكن اعتبارا من عام (٤٢١ ق•م) ، كما قلنا[١] ، أخذ العوام يشغلون بالتساوي مع الخواص منصب حراسة الخزينة ، فشرعوا ينتخبون خازنين من العوام واثنين آخرين من الخواص •

وكانت وظيفتهم في البدء تأمين حراسة خزينة الدولة ، وقد أودعوها معبد الاله Saturnus ؛ ومن هنا اسم « خزنة ساتورنوس » *aerarium Saturni* • ولقد ارتفع عددهم فيما بعد فوصل الى (٢٠ خازناً) أيام « سولا » و (٤٠ خازناً) في عهد « يوليوس قيصر » •

وكما نلاحظ ، فهنالك في الدرجة الاولى « مناصب قضاء[٢] عدة ، ويمتلك أحدها ، منصب المحامي عن حقوق الشعب ، أسلحة كافية لشلّ كافة المناصب الاخرى • وهنالك أخيرا أكثر من قاض أصيل لكل من هذه المناصب • ولم ينج من مبدأ هذا التعدد الشامل سوى الدكتاتورية ، ولكن مدّتها لا يمكن أن تتجاوز ستة أشهر •

« ولا تدوم المناصب الاخرى طويلا أيضا ، من جهة ثانية ، على الرغم

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٧٠ •

(٢) يعني الكاتب هنا بمناصب « القضاء » مناصب « الحكم » ؛ وعندما نقول « القاضي » فنعني بذلك الحاكم ، ولقد جاء في **لسان العرب المحيط** ، لابن منظور في باب « قضي » : « القضاء : الحكم ••• قال أبو بكر : قال أهل الحجاز القاضي معناه في اللغة القاطع للأمور المحكم لها ••• وفي صلح الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد هو فاعَلَ من القضاء الفصل والحكم لأنه كان بينه وبين أهل مكة ، وقد تكرر في الحديث ذكر القضاء ، وأصله القطع والفصل ••• والقضاء : الحتم والأمر • وقضى أي حكم ••• وقوله تعالى : وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه ، أي أمر ربك وحتم وهو أمر قاطع حتم • » • (م • م •) •

من تعدد شاغليها الاصليين • وهي تدفع الى الشك والتنافس بفعل ما هي عليه ، وما تخلقه من آمال : من هنا كان الحرص على أن لا يستمر فيها أحد زمنا طويلا ، فاذا حق لمراقبي الاحصاء والاخلاق العامة أن لا يستقيلوا الا بعد سنة ونصف ، فان القضاةالآخرين يتنازلون كلهم ، بعد مضي سنة ، عن مراكزهم لخلفائهم ، أضف الى ذلك أن الاحتياطات تتخذ للحيلولة دون تجديد انتخابهم أو اعادةانتخابهم في موعد قريب : فبينما استطاع بريكليس، بطريقة شرعية جدا ، أن ينتخب قائدا في أثينا طيلة خمسة عشر سنة متواصلة ، فرض في روما ، منذ أواخر القرن الرابع ، فاصل عشر سنوات لاعادة الانتخاب للقنصلية ، الوحيدة بين المناصب التي قد يبدو دوام التربّع فيها مغرياً ، الى أن ارتأى الاخوان غراكوس وساتورنينوس أن منصب المحاماة عن حقوق الشعب قد يكون مغريا أيضا ، ويحول قانون صدر في أواسط القرن الثاني دون قنصلية ثانية ، ولن يجيزها مجددا سوى « سيلاّ »[1] باعادة فرض فاصل السنوات العشر • واذا ما شاب هذا التشريع المتقلب ، عمليا ، بعض السيئات ، فانه يوحي مع ذلك بالروح التي يستلهمها النظام •

« ومن المهم أيضا تبيان المدى الحقيقي لتعدد الشاغلين ، فعلى نقيض المدن اليونانية ، حيث يد[illegible] [illegible]ضاة الاجتماعات ، عادة ، ويتخذون مقرراتهم بالاكثرية ، نرى أن احترام روما للسلطة المستقلة التي ينعم بها كل منهم ، أعظم من أن تنزع عن أعمالهم الطابع الفردي ، ولكن هذا الاستقلال الخدّاع يحد من حريتهم في العمل ولا يسهم قط في زيادتها ، فهنالك حق النقض الذي لا يعود فقط للقاضي الاعلى بالنسبة لقرار من هو أدنى منه ، بل لقضاة متساوين بحيث يكفي تشبث الواحد منهم فقط لابطال ما يقرّ عليه

---

(١) هو القائد الروماني « سولاّ » L. C. Sylla (١٣٦ ــ ٧٨ ق•م) • من أنصار الارستقراطيين ومجلس الشيوخ • حكم روما بصورة دكتاتورية غير شرعية ، خلال أربع سنوات (٨٣ ــ ٧٩) • تنازع على السلطة مع القائد الشعبي « ماريوس » وبطش باعدائه عندما استلم زمام السلطة في روما • (م•م•) •

رأي عدد من زملائه • وليس للقاضي الفردي في الحقيقة سلطة أخرى ممتنعة سوى هذا النقض فحسب[١] •

« فهل السلطة القضائية وحق اصدار البراءات أعظم استقلالا ؟ ولكن القاضي مرغم على احترام القوانين ، واذا ما جعلته في مأمن من العزل ورفع الدعوى عليه ، فان هذه الحصانة تزول حين يصبح مواطنا عاديا : فهو معرّض اذ ذاك ، دون أن يتوجب عليه تأدية الحسابات كما في أثينا ، لان تستهدفه دعاوى خطيرة ذات مفعول رجعي ، لان المدعين الجسورين كثيرون • وعليه أيضا ، أن يحسب للعرف وللرأي العام حسابهما : فبينما يتمتع القاضي « المدني » بحق نظري يتيح له ، بنشر بيانه حين تسلمه العمل[٢]، أن يقلب ، رأساً على عقب ، القوانين والقواعد المرعية في الدعاوى التي سيَبُتّ بها ، فانه لا يحدث شيئاً إلا بحكمة ويقتصر عمليا ، في أكثر الاحيان ، على اعادة بيان سلفه ، ولا يستطيع القاضي بنوع خاص الاستغناء عن العمل برأي مجلس الشيوخ الذي تفوق سلطته المعنوية والعملية سلطة القاضي الى حد بعيد كما سنرى ذلك في سياق البحث •

« وما القول عن حق القسر[٣] ؟ يقابله حق العودة الى الشعب[٤] •

---

(١) كان يحق لكل حاكم أن يعترض على قرارات الحكّام الذين يأتون بعده في المرتبة • كما انه كان يحق لكل حاكم (وكذلك نقيب العوام) ان يبطل أي قرار يتخذه زميله أو زملاؤه بمجرد اعتراضه على ذلك القرار • و « حق الاعتراض » هذا *intercessio* هو غير « حق النقض » *veto* ، الذي كان من صلاحيات « نقباء العوام » فقط • (م•م•) •

(٢) عندما يستلم حاكم ما منصبه ينشر بياناً يذكر فيه « السنّة » التي سيتبعها أثناء حكمه • (م•م•) •

(٣) في عداد الصلاحيات التي كان يمارسها الحاكم بموجب « السلطان » *imperium* الممنوح له ، (حق القسر) *coercitio* ؛ بمعنى أن للحاكم الحق في آن يجبر المواطنين على تنفيذ أمر ما أو منعهم من ذلك • وقد يتسع « حق القسر » الى درجة تسمح للحاكم بسجن أحد المواطنين بصورة اعتبارية ، وعندئذ يحق للمواطن « العودة الى الشعب » •

(٤) (حق العودة الى الشعب) : *provocatio ad populum* من الحقوق التي ترجع الى العهد الملكي ، بمقتضى روايات الاخباريين اللاتينيين ، مع أن المؤكد أنه لم يؤخذ به الا في الفترة الجمهورية • وبمقتضى هذا الحق ، كان يحق للمواطن أن يحتكم الى المجالس المئوية (في حالة الحكم بالاعدام) والى المجالس القبلية (في الحالات الاخرى) • وللمجالس عندئذ أن تؤكد أو تنقض الحكم الصادر بحق المواطن الروماني • هذا من الناحية النظرية ، اذ أن مجلس الشيوخ وبعض الحكام قد انتهكوا مرارا هذا الحق ، لا سيما اذا كان المستأنف من العوام وكان للأمر صلة بالاوضاع السياسية •

ان هذا الحق الاخير لقديم حقا ، ويسبق التقليد تاريخ الاعتراف به بارجاعه الى عهد الملكية ، وهو يوحي المزيد من الاعتزاز الى الرومان الذين يرون فيه « سور » و « حصن » حريتهم الفرديـة ، وللمقارنة بينه وبـين قانون *Habeas corpus*[1] البريطاني ، على هذا الصعيد ، ما يبررها كل التبرير ، فهو يفتح في الواقع ، أمام كل مواطن رومـاني ، امكان العودة الى جمعية الشعب اذا ما حكم عليه القاضي بعقوبة جسديـة : فلا يبقى أمـام القاضي والحالة هذه سوى فرض الغرامة المالية ضمن حدود معينة ...

« بديهي أن الجيوش هي التي حصلت فيها أكثر وأخطر التجاوزات على القوانين التي تحمي « ظهر » وحياة المواطنين من تعسف القضاة ... أجل أن للنظام العسكري موجباته التي لا يستطيع أكثر الناس تساهلا أن ينكرها – ولم يشتهر الكثير من قادة الرومان ، لا سيما العظام والمجيدون بينهم ، بفعل حنو مصطنع غريب عن التقاليد الوطنية – ولكن ما لا شك فيه، اذا ما وضعنا هذه الضرورات جانبا ، ان سلطة القاضي وسلوكه الملكيين هما بلا مراء ، من حيث القانون والواقع ، أكثر بروزا خارج روما منهما داخل روما والاقليم الرومـاني بالذات[2] . فهو وحده في الخـارج لا زميل الى جانبه يقف في وجهه : فحين يجتمع جيشان يرأسـهما قاضيان متساويان ، القنصلان مثلا ، للقيام بعمل مشترك ، يتولى القيادة كل من الرئيسين يوما واحدا بالمناوبة . ثم أن بعده يخفف من الوصايـة التي يسـتطيع مجلس الشيوخ ممارستها حياله . وهو ، أخيرا ، يمثل روما ويتصرف بالقوة المادية التي أمنته عليها ويتعاظم بالقوة المعنوية التي تتجسد في شخصه : فلا يكون

---

(١) اسـم قانون شـهير في انكلتـرة يضمن حريـة المواطنين الانكليز واسـم القانون « Habeas corpus ad subjiciendum » بمعنى « فلتملك جسـدك لعرضـه على المحكمة » . أي لا يجوز اعتقال أي مواطن ما لم يحضر أمام المحكمة وتنظر في الأمر ثم تأمر بسجنه أو باطلاق سراحه .

(٢) لقد رأينا كيف انه كان يحق لنقيب العوام أن يحمي المواطنين الرومانيين من العوام داخل روما ، بينما لا يحق لحامي العوام أن يتدخلوا اذا كان المواطن من العوام خارج روما وتحت أمر أحد الحكام ، كالقناصل مثلا .

رجلا اذا ما تهرب على الدوام من النزعة الى اساءة استعمالهما • وقد اعترف الرومان أنفسهم بأن الحاكم ، أي القاضي ، ملك في اقليـ... سنرى أن ذلك لم يعد بالخير لا على الاقليم ولا على روما »[1] •

II السلطة التشريعية والمجالس الانتخابية :

عنـدما تطرقنا الى المجالس الشعبية والى مختلف أجهزة الحكـم في آثينة في عهدي صولون وقليستينيس[2] ، لاحظنا بأن النزعة الديمقراطية تتجلى في الدستور الآثيني ، في الدور الكبير الذي يلعبه « مجلس الشعب » *Ecclesia* • أما في روما ، فلقد لاحظنا كيف ان القضاة المنتخبين كانوا يصبحون « فوق الشعب » بعـد انتخـابهم وتسلمهم مقاليد الحكم ، وكيف انهم كانوا يلعبون دوراً كبيراً ، بجـانب مجلس الشيوخ ، في ادارة أمور الدولة • وعندما يقول المؤرخ بولوبيوس بأننا « لو نظرنا الى قوة الشعب ، لبـدا الدسـتور الرومـاني ديمقراطياً بـدون ريب » ، فاننـا نقبـل قول المؤرخ اليوناني « بدا » بمعنى ظهر فقط ، إذ ان سلطات القضاة ، ودون أن نأخذ بالاعتبار نفوذ مجلس الشيوخ ، كانت متفوقة على سلطات مختلف الجمعيات الشعبية من مجالس مئوية وقبلية ومجالس الجماعات •

آ ـ مجالس الجماعات *Comitia curiata* :

عندما تطرقنا الى أجهزة الحكم والادارة في العصر الملكي ذكرنا مجلس الجماعـات • ولو توخينا الترجمة الحرفيـة ، لقلنا « مجالس الوحدات » أو « مجالس الجماعات »[3] •

كان النبلاء واتباعهم يؤلفون ـ كما قلنا ـ ثلاثين وحدة curia تنضوي بدورها تحت لواء القبائل الثـلاث الأولى • ومع ان تركيب تلك الجمعيات قد تبدّل في العهد الجمهوري

---

(١) **روما وامبراطوريتها** ، ص ١٣٠ ـ ١٣٣ •

(٢) راجع : الدكتور كامل عياد ، **تاريخ اليونان** ، ص ٢٣٤ ؛ ص ٢٤٩ •

(٣) انظر أعلاه ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ •

الأول ، نتيجة لازدياد عدد المواطنين الرومانيين ولانضمام عناصر جديدة اليها ، فان دور « مجالس الجماعات » قد تضاءل عن ذي قبل ، بعد تكوين المجالس القبلية والمئوية •

وأصبحت مهمتها الجوهرية ، التصويت على « قانون منح السلطان » *lex curiata de imperio* ، ذلك القانون الذي يقلد الحكام « السلطان » بعد أن يكون قد تم انتخابهم من قبل « الجمعيات المئوية » •

ب ـ **المجالس المئوية**[١] *Comitia centuriata* : لقد رأينا سابقاً[٢] بان روايات الاخباريين اللاتينيين قد نسبت الى الملك الاتروسكي « سرويوس توليوس » توزيع مجموع المواطنين الرومانيين على خمس فئات وفقاً لثرواتهم • ولقد اعتمد الرومانيون على ذلك التصنيف لتشكيل « المجالس المئوية »[٣] •

ولقد ذكرنا[٤] بأن « التصنيف المئوي » قد ارتبط منذ البدء بتنظيم الجيش ، إذ ان « الوحدات المئوية » التي أقامها هذا التصنيف قد شكلت « خلايا » عسكرية وسياسية وادارية • و « الجمعيات المئوية » ، في الواقع ، هي الشعب المعبأ • وهي بالتالي ، أيضاً » بسبب الموازاة القائمة بين الثروة وبين الواجب العسكري والمالي ، الشعب الموزع على طبقات يحددها الاحصاء

---

(١) نسبة الى *centuria* ، وهي وحدة مئوية (من centum) مؤلفة نظريا من مئة مواطن روماني •

(٢) انظر أعلاه ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ • وكلمة comitia بمعنى « مجالس ، جمعيات » هي جمع comitium « مجلس ؛ جمعية » •

(3) H. Last. *The Servian Reform. JRS,* 1945, 30-48; E. Cavaignac, *L'évolution de l'organisation centuriate d'après les derniers travaux numismatiques,* Mél. de Visscher I (1949) 173-188; J. Gagé, *Mercure et le centurion, remarques sur l'encadrement centuriate et ses rapports avec les «tribus» dans la Rome du début du Ve siècle,* Cahiers intern. de Sociologie XXXV (1963) 85-112.

(٤) انظر أعلاه ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ •

بعـد التحقيق الـذي سيجريه « مراقبو الاحصاء والاخـلاق العامة » كل خمس سنوات • وعديدة ومتنوعـة هي الدلائـل التي تشير الى الارتباط الوثيق بين « التصنيف المئوي » والتنظيم العسكري للجيش الروماني : فلقـد كان اجتماع « المجالس المئوية » يتمّ في « ساحة Mars » ، خارج أسوار المدينـة ، حيث يحضر المواطنون الاجتماعات متقلـدين أسلحتهم[١] • وكما يقول الكاتب اللاتيني Varro (exercitum الجيش) عندما يشير الى « المجالس المئويـة • وكـان أمر الاجتماعات يُوجّه الى المواطنين بواسطة الأبواق ويرأس الاجتماعات حاكم يتمتّع بـ « السلطـانَ » *imperium* • وكما يضيف الكـاتب «وارّو» : convocare exercitum دعا الفرق الى الاجتماع» و imperare exercitum أمر الجيش أو الفرق »[٢] • أضف الى ذلـك ، ان المواطنين كـانوا يُوَزّعون على « الوحـدات المئوية » بحسب أعمارهم (قابليتهم عـلى القتـال) وبمقتضى ثرواتهم (طاقتهم على تجهيز أنفسهم) • اذ ان الجندي كـان يتجهّز على نفقته الخاصة في الفترة الجمهورية الأولى •

وأهمية القوت العسكرية في دولة كروما ، كانت بدون انقطاع تقريباً في حالـة حرب طوال العصر الجمهوري ، ان وضعاً كهذا يبرز لنا مكانـة « المجالس المئويـة » وصلاحياتها العديدة التي تمـّت الى الامور الحربية بصلة • ولقـد ذكرنا

(١) من المعلوم ، انه لا يجوز للمواطنين الرومانيين أن يعقدوا اجتماعاتهم في المدينة وداخـل أسوارها ؛ متقلدين الأسلحة • وفي الحقيقة ، كـان يحق للقـائد المنتصر ان يستعرض جيشه بأسلحته المختلفة داخل روما في حالة واحدة ، وذلك في « موكب النصر » ، عندما يقوم مجلس الشيوخ على القائد المنتصر • بهذا الجميل • (انظر أعلاه ص ١٢٩) •

(2) *L. L.* VI, 88.

سابقاً[1] بأن حق اعلان حالة الحرب وعقد السلم كان من صلاحيات « مجالس الجماعات » ؛ ولكن هذا الحق انتقل الى « المجالس المئوية » بعد اقامتها •

ولقد كانت تلك المجالس تضم (١٩٣ وحدة مئوية) ، منها (١٨ وحدة مئوية) من الفرسان و (٥ وحدات مئوية) ضمّت اثنتان منها العمال واثنتان الموسيقيين وواحدة الفقراء المعدمين • وكانت هذه الوحدات المئوية موزعة على الفئات الخمس[2] ، التي أوجدها التصنيف المنسوب الى « سرويوس توليوس » ، كالتالي :

آ ـ تضم الفئة الأولى ، ويملك كل من أفرادها مبلغ (١٠٠ الف) AS *«libralis»* ، (١٨ وحدة مئوية) من الفرسان ، وينتمي اليها اعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء فئة الفرسان • وتنقسم مجموعات المشاة الى مجموعتين : الأولى تضم (٤٠ وحدة مئوية) من « الشبان » *iuniores* (عمر أفرادها من ١٨ الى ٤٦ سنة) ، وتضم المجموعة الثانية (٤٠ وحدة مئوية من « العقّال » *seniores* (عمر أفرادها فوق ٤٦ سنة) •

ب ـ وتضم الفئات : الثانية (٧٥ ألف) AS *«libralis»* والثالثة (٥٠ ألف) AS *«libralis»* والرابعة (٢٥ ألف) AS *«libralis»* ؛ تضم هذه الفئات الثلاث (٦٠ وحدة مئوية) بمعدل (٢٠ وحدة مئوية) لكل فئة • وأفراد الوحدات المئوية التابعة للفئات الثانية والثالثة والرابعة كانوا من المشاة المسلحين سلاحاً أخف من سلاح أفراد الفئة الأولى •

---

(١) انظر اعلاه ص ٢٠٤ •

(٢) انظر اعلاه ص ٢٤٦ •

ج ـ وتضم الفئةالخامسة (١٠ آلاف)AS «*libralis*»
(٣٠ وحدة مئوية) وكان أفرادها من المشاة المسلحين سلاحاً خفيفاً •

وكانت كل وحدة مئوية تقدّم (١٠٠ محارب)•وبذلك يكون عدد المحاربين المشاة (١٧ الف) جندي ، يُضاف اليهم (١٨٠٠) فارس[1] •

ان هذا التوزيع ، كما أوضحناه ، كان معمولاً به في روما حتى منتصف القرن الثالث (ق • م) ، عندما تحقق تبدل هام ، كما سنرى فيما بعد ، ما بين (٢٤١ ق • م)وبدء الحرب البونية الثانية •

وكان المواطنون يعبّرون عن رأيهم شفهياً ، مما حدّ والى درجة كبيرة ، من حريتهم الفعلية • وظلّ هذا التقليد معمولاً به ، حتى عام (١٣٩ ق • م) ، عندما أُقِرّ الاقتراع السري ، حيث أخذ المواطنون يدلون بآرائهم ، مدونة على « لوحات *Tabellae* » فردية •

وكان الاقتراع يتمّ على درجتين ؛ ففي المرحلة الأولى ، يصوّت أفراد « كل وحدة مئوية » داخل وحداتهم ، وتشكل اكثرية الأصوات السلبية أو الايجابية داخل كل « وحدة مئوية » رأي هذه الوحدة • وفي المرحلة الثانية،تعطيالوحدات المئوية أصواتها ، بمعدل صوت واحد لكل منها • وحيث أن

---

(١) لدينا (١٧٠ وحدة مئوية) من المشاة موزعة كالتالي : (٨٠ وحدة) الفئة الاولى + (٦٠ وحدة مئوية) لمجموع الفئات الثانية والثالثة والرابعة + (٣٠ وحدة مئوية) للفئة الخامسة وبذلك يكون لدينا (١٧٠ × ١٠٠ = ١٧٫٠٠٠) جندي من المشاة • أما وحدات الفرسان فعددها (١٨ × ١٠٠ = ١٨٠٠) وبذلك يصبح عدد الوحدات المئوية المحاربة (١٧٠ + ١٨ = ١٨٨) • يضاف اليها (٥ وحدات مئوية) من العمالوالموسيقيين والمعدمين• وبذلك نحصل على مجموع الوحدات المئوية وهو (١٩٣ وحدة مئوية) •

عدد الوحدات كان (١٩٣ وحدة مئوية) ، فكان يكفي لسبع وتسعين (٩٧) وحدة ان تصوّت بالرفض أو بالموافقة على مشروع ما ، لرفضه أو لاقراره ، وبما ان التصنيف المنسوب الى الملك « سرويوس تولليوس » قد خصّ الفئة الأولى من المواطنين الاكثر ثراءً ، بـ (٩٨ وحدة مئوية) أي بـ (٩٨ صوتاً) ، فمعنى ذلك ، انه كان يكفي لتلك الوحدات المتموّلة أن تجمع على رأي ما ، لتنال اكثرية الأصوات المطلقةالضرورية لاقرار أمر ما • وكان الاقتراع يجري في « المجالس المئوية » وفاقاً لترتيب الفئات التسلسلي • وتفتتح الاقتراح « وحدة ممتازة »[1] تُنْتَخَب بالقرعة من وحدات الفئة الأولى وتتبعها بعد ذلك مختلف وحدات الفئة الأولى • وبما ان عملية الاقتراع كانت شفهية ، فكثيرا ما كانت تتوقف عملية التصويت مع انتهاء وحدات الفئة الأولى من الادلاء باصواتها ، في حال اجماع مختلف تلك الفئات على أمر ما ؛ وإلا فينتقل الدور الى وحدات الفئة الثانية فالثالثة الخ •• وبوجه العموم ، كانوا يحصلون على الأكثرية المطلقة بأصوات وحدات الفئة الأولى ، وقد يُضاف اليها أحيانا أصوات وحدات الفئة الثانية • ومعنى ذلك ، ان الطبقات التالية ، أي الثالثة والرابعة والخامسة ، تكاد لا تقترع أبداً •

وأمر آخر جدير بالانتباه ، هو عدد المواطنين الذين ينضوون الى مختلف الوحدات المئوية • فمما لاشك فيه ، ان الموسرين كانوا يمثلون الأقلية بالنسبة الى مجموع المواطنين ، ومع ذلك فلقد احتفظ أفراد الفئة الأولى بـ (٩٨ وحدة مئوية) أي بـ (٩٨ صوتاً) • من أصل (١٩٣ وحدة مئوية) •

---

(1) Ch. Meyer, *Praerogativa centuria*. RE Suppl. VIII (1956) 567-598.

ونلخّص هذه اللمحة الخاطفة عن « المجالس المئوية » بالمقارنة بين مفهوم المجالس في روما وبين القاعدة المعتمدة في بلاد اليونان • فلنعد « مرة أخرى الى المدينة اليونانية • أجل عرف المسؤولون فيها كيفَ يحتالون على جمعية الشعب التي لم تمارس في كل زمان وفي كل مكان سلطة فعلية مماثلة للسلطة التي تمتعت بها في اثينا حين بلغ القمة فيها النظام الديمقراطي الراهن • ولكننا نلمس في الأعراف التي سادت الجمعيات في اليونان وروما ، فوارق تمسّ جوهر الأمور : وبفضلها تنجلي حقيقة مفهوم المواطن ومفهوم المدينة •

ان لأحد هذه الفوارق قيمة الرمز ، ولم يفت الرومان ادراك أهميته : ففي اليونان يجلس أعضاء الجمعيات الشعبية على مقاعد حجرية ؛ أما في روما فيقفون في أرض منبسطة ، أمام الرئيس الجالس على منصة هي « المنبر » وبديهي ان مدة الجلسات تتأثر هنا وهناك بهذا التناقض المادي • ولكن هذا التناقض ، بنوع خاص ، يثبت وجود فارق عميق في طريقة فهم العلائق المتبادلة بين مجموع المواطنين والقاضي الذي يترأس اجتماعهم • فان الشعب المجتمع للمناقشة يقوم بواجب ويستخدم حقاً ، في كلا الحالتين • بيد ان هناك خلافا في الذهنية ، فهو يترفه في اليونان ، كنظير على الأقل ، بينما يبدو طبيعياً للرومان في وضع المرؤوس ، وهو يرضى بذلك ••

وهناك فارق آخر ليس بأقل مغزى • ففي داخل الجمعية الشعبية ، في كافة المدن اليونانية ، تحصى الأصوات على أساس الأفراد لا على أساس الكتل • أما في روما فالقاعدة المعتمدة هي دائما على نقيض ذلك ، اذ ان لكل كتلة صوتا واحدا يعبر عن رأي أكثريتها الداخلية • ويعني ذلكَ ان للطريقة المتبعة

في توزيع المواطنين على الكتل تأثيرا حاسما على تشكيل الاكثرية الرسمية في الجمعية • وقد تكون هذه الاكثريةالرسمية مختلفة جدا عن الاكثرية الرسمية الفعلية •• ولنضف الى ذلك، حتى لا نشير إلا الى نتيجة ثانوية بين نتائج كثيرة غيرها ، ان تجنب المواطن لضروب الضغط الخارجي ، حين يقترع في اطار كتلة محدودة بالضرورة ، أضعف منه حين يضم اقتراحه الى كافة اقتراحات أعضاء الجمعية • فقد يؤدي هذا النظام الى أكثر النتائج منافاة للديمقراطية ، وقد أدى اليه فعلا كما سنرى ذلك »[١] •

أما صلاحيات « المجالس المئوية » فكانت عديدة ومتنوعة؛ من انتخابية وتشريعية وقضائية ، كما يبيّن ذلك الكاتب اللاتيني Cicero [٢] • واليها يعود اعلان حالة الحرب وعقد السلم •

كانت المجالس المئوية تنتخب قضاة المناصب العليا ، أولئك الذين يتمتعون بحق « السلطان » *imperium* كالقناصل والقائمين على الشؤون القضائية والمحامين العسكريين « ذوي الصلاحيات القنصلية » • أما بالنسبة الى المناصب الاستثنائية ، فكانت تلك المجالس تنتخب « مراقبي الاحصاء والاخلاق العامة» بينما كان الدكتاتور يتم اختياره عن طريق التعيين وليس عن طريق الانتخاب[٣] •

ومع أنه كان للمجالس المئوية الحق في التصويت على

---

(١) **روما وامبراطوريتها** ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ •

(2) de *Div.*, II, XXXV, 74 : «*vel in iudiciis populi, vel in iure legum, vel in creandis magistratibus.*» cf., de *Leg*, III, III, 10.

(٣) انظر أعلاه ص ٢٧٦ •

بعض القوانين التشريعية التي تقيد كافة المواطنين ، فلم تكن تلك المجالس تملك أي حق في اقتراح أي « مشروع قانوني » كما انه لم يكن من صلاحياتها تعديل أو تنقيح المشاريع القانونية المقترحة عليها •

فحق اقتراح المشاريع القانونية كان من صلاحيات قضاة المناصب العليا الذين يتمتعون بحق « السلطان » • وكانت الأصول المعتمدة ، ان يسجل الحاكم « مشروع القانون » ثم يطلع عليه المواطنين بالصاقه في الاماكن المخصصة لذلك ، ويحدد الحاكم في الوقت ذاته تاريخ التصويت على مشروعه ، ويحق للمواطنين في الفترة الفاصلة بين اعلان مشروع القانون وتاريخ التصويت عليه ، دراسته ومناقشة محتوياته في اجتماعات غير رسمية *contiones* • ويُسْمَح لهم إذ ذاك ، ان يقترحوا على الحاكم الذي قدم « المشروع » إجراء بعض التعديلات عليه • وحينئذٍ يعود الحق الى الحاكم بقبول أو برفض التعديلات المقترحة • وفي اليوم المحدّد للتصويت ، يقرأ الحاكم مختلف مواد المشروع المقترح أمام المواطنين المجتمعين في وحداتهم المختلفة ، ويدعوهم الى إبداء رأيهم ، بالموافقة أو برفض مختلف مواد المشروع ، بدون أي تعديل • أي أن التصويت يكون بنعم أو بلا على « مشروع القانون » برمتّه ، وفي حالة الموافقة على المشروع ، يعلن الحاكم ذلك رسمياً ويصبح للمشروع نفوذ قانون ، ويطلق عندئذٍ على القانون اسم الحاكم الذي اقترحه • وبالنسبة الى المشاريع المقترحة من قبل القنصلين ، فكانت تحمل اسميهما معاً •

أما بالنسبة الى الصلاحيات القضائية ، فلقد ذكرنا[1] بأن

(١) انظر أعلاه ص ٢٩١ •

« حق العودة الى الشعب » *provocatio ad populum* كان من صلاحيات « المجالس المئوية » •

جـ ـ **المجالس القبلية** *Comitia tributa* : لقد رأينا سابقا[1] بأنه اضافة للتصنيف الذي وضع الأساس لتشكيل « المجالس المئوية » ، لقد قلنا بان الاصلاح المنسوب الى « سرويوس توليوس » قد وزّع مختلف المواطنين الرومانيين بموجب مناطق سكناهم ، ومهما كانت ثرواتهم على احدى وعشرين قبيلة سكنية ، منها (٤ قبائل مدنية) ضمت سكان مدينة روما و (١٧ قبيلة ريفية) استوعبت سكان الريف والمزارعين • وقد ارتفع عدد القبائل (عام ٣٨٦ ق • م) الى (٢٥ قبيلة)[2] ، وبلغ عام (٣٣٢ ق • م) (٢٩ قبيلة)[3] • ولقد توقف عدد القبائل عن الارتفاع عام (٢٤١ ق • م) بعد أن بلغ حدّه الاعلى بـ (٣٥ قبيلة) • ولقد ظلّ عدد القبائل المدنية أربع قبائل ، بينما ارتفع عدد القبائل الريفية الى (٣١ قبيلة) •

وكان لهذه القبائل في البداية « واقع اقليمي يخصص به من يقيم فيه أو أقله يمتلك الأراضي فيه • ويشبه النظام على هذه الصورة النظام المعتمد في اكثر من دولة ديمقراطية معاصرة ولكن التطور اللاحق قد أفسده • فان عدد القبائل الريفية الذي ارتفع مدة طويلة بشكل مواز للأراضي الرومانية *Ager romanus* قد توقف عن الارتفاع منذ السنة ٢٤١ : فارتبط المواطنون الجدد منذئذ ، حتى ولو حصلوا على المواطنية بشكل جماهيري في منطقة كاملة ، باحدى القبائل التي خسرت ، بسرعة ، الشيء الكثير من طابعها الاقليمي • ثم أن القبائل

---

(١) انظر اعلاه ص ٢٤٧ •

(2) Liv., VI, V, 8.

(3) *Ibid.*, VIII, XVII, 11.

المدنية،وهي أكثر عدداً وتضم نسبة مرتفعة جداً من الفقراء[١] غدت دون القبائل الريفية شرفاً • ولذلك فقد درج ناظرو الاحصاء[٢] الذين يختارون على هواهم ، في مواعيد الاحصاء ، القبيلة التي يخصصونها بمواطن جديد ، والذين ينعمون حتى بحق نقل مواطن قديم من قبيلة الى أخرى ، كعقوبة معنوية على أن يسجلوا أفراد الطبقات الدنيا ، لا سيما المعتقين منهم ، في القبائل المدنية • وليس لكل من هذه القبائل المدنية المتزايدة عدداً سوى صوت واحد شأن كل من القبائل الريفية التي يحتفظ المواطنون الميسورون فيها بجانب كبير من الأهمية[٣] •

أما من ناحية صلاحيات الجمعيات أو المجالس القبلية ، فلقد كانت وقبل كل شيء آخر،جمعيات لعامة الشعب «يدعوها للالتئام المحامون عن حقوق هذه العامة ويُقْصَى عنها النبلاء ، وكانت بالتالي تقرر « الاستفتاءات plebiscita أو « مراسيم عامة الشعب » ، التي لا تقيّد سوى هذه العامة ، بينما لم تكن « القوانين » التي تقيّد كافة المواطنين لتنبثق إلا عن الجمعيات المئوية • بيد أن هذا التمييز فقد كل أهمية منذ ان أقرت المساواة القانونية بين القانون والاستفتاء[٤] فنتج عن ذلك ان

---

(١) اكثر عدداً من ناحية عدد أفرادها فقط ، اذا ان عددها كوحدات (٤ قبائل مدنية) كان أقل بكثير من عدد القبائل الريفية الذي ارتفع شيئاً فشيئاً الى (٣١ قبيلة ريفية) • (م • م •) •

(٢) ناظرو الاحصاء أو « مراقبو الاحصاء والاخلاق العامة » • (م • م) •

(٣) روما وامبراطوريتها ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ •

(٤) ستبيّن الفرق بين القانون والاستفتاء عندما نثير بعد ذلك بقليل ، مسألة « جمعيات العوام » *Concilia Plebis* .

النبلاء ، الذين انحدر عددهم شيئاً فشيئاً من جهة ثانية ، استطاعوا الدخول دونما صعوبة الى الجمعية القبلية ... فلم تحتفظ الجمعية المئوية بصلاحية حصرية غير النظر في الدعاوى الخطيرة ، واعلان الحرب ، وانتخاب القضاة للمناصب العليا . واحتفظت الجمعية القبلية بأقل من هذه الصلاحيات : انتخاب القضاة للمناصب الدنيا فقط (كنظار الشؤون البلدية ووكلاء الشؤون المالية « الخزّان » م . م .)[1] . غير ان اكثرية الأمور التي قد تطرح على احدى الجمعيتين تعرض عليها أيضا ، كأكثرية مشاريع القوانين بنوع خاص . »[2] .

تلتئم المجالس (المئوية والقبلية) برئاسة القاضي الذي يوجه الدعوات الى اعضائها . ويقرّر هذا القاضي « الحاكم » وحده جدول الاعمال ويوجه سير المناقشات . ولا يمتلك الشعب اية وسيلة لفرض ارادته في تقرير الاجتماع . ولقد رأينا أيضا بأنه لم يكن له أي حق مبادرة أو تحوير في المشروع الذي يعرض عليه ، وذلك بعد انقضاء الفترة الفاصلة بين اعلان مشروع القانون وتاريخ التصويت عليه . واذا كان الموضوع « موضوع انتخابات فلا أحد يستطيع ارغام الرئيس على أن يقدم له جميع أسماء المرشحين ولا اعتبار الا للاصوات التي تنالها أسماء يريدها : ولم يكن ذلك مجرّد امكان نظري ، حتى في عهد متأخر نسبيا . واذا كان الموضوع مشروع قانون ، فكثيرا ما يستخدم الرئيس حقا مماثلا ، محصورا فيه ، يستطيع بموجبه أن يسترده أو يحوّر نصه . ومن حيث أن الجمعيات المئوية هي الجيش ، وتجتمع بالتالي خارج اطار روما ، فلا ينعم بحق توجيه الدعوة

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢) روما وامبراطوريتها ، ص ١٤٢ .

لالتئامها سوى قاض « منح السلطان » يستطلع الطيور قبل الجلسة[1] .
فلا تعوزه من ثم الحجج الدينية لحل الجمعية عندما يطيب له ذلك . لا بل ان الواجب يقضي عليه ، حتى لا يقع في خطأ شكلي ، باللجوء الى الحل في بعض الحالات ، كحالة نوبة الصرع التي يصاب بها أحد الحاضرين ـ والصرع « مرض الجمعيات » بالذات ـ أو حالتي البرق والرعد[2] ، بحيث انهم انتهوا أحيانا ، بغية تجنب عرقلة سير الاعمال ، الى حصر حق « ملاحظة السماء » في بعض الأشخاص فقط أو الى ابطاله كليا . واذا لم

---

(١) عندما تناولنا بالبحث المعتقدات الدينية عند الاتروسكيين ، ذكرنا كتبهم المقدسة ، ومنها الكتاب المنسوب الى الحورية **Vegoe** (انظر أعلاه ص ١٥٧) . وتقضي تعاليم تلك الحورية ، بأن يراقب العرّاف عجائب وظواهر طبيعية مختلفة كالرعد والصواعق والبرق الخ . ومنها طيران الطيور في جهة معينة . ولقد قلنا مرارا بأن الديانة الاتروسكية قد تركت آثارا جلية واضحة في مختلف العبادات والمعتقدات الرومانية . وعندما تطرقنا الى أمكنة العبادة الرومانية ، رأينا بأن كلمة ***templum*** قد دلت في بادىء الامر على بقعة مستطيلة في السماء يحددها العرّاف قبل أن يراقب طيران الطيور ويستطلع ارادة الالهة . ولقد أضفنا بأنهم كانوا يقومون بهذا الطقس قبل المباشرة بأي عمل يمت الى الحياة العامة بصلة ما : كاعلان حالة الحرب أو عقد جلسات المجالس المختلفة أو البدء بانتخابات الحكام ، الخ .. (انظر أعلاه ص ، ٢١٠) . ولقد قلنا أيضا بأنه كان لدى الرومان ، فئة من الكهنة مهمتهم مراقبة الطيور ودراسة الظواهر الطبيعية وكانوا من أصل اتروسكي (انظر أعلاه ص ٢٢٥) .

وحق « استشارة الطالع » قد انتقل الى مختلف القضاة المنتخبين في العصر الجمهوري . وعلى القاضي ، وهو الوسيط الطبيعي بين روما والالهة ، ان « يستشير الطالع » قبل القيام بأي عمل باسم روما ، أي أن عليه أن يحاول بطرق مختلفة ولا سيما بملاحظة طيران الطيور ، معرفة ما اذا كان الآلهة عاطفين على المشروع . وحق « استشارة الطالع » ***auspicium*** كان على نوعين : « حق استشارة الطالع الاكبر » ***Jus auspiciorum maiorum*** و « حق استشارة الطالع الاصغر » ***Jus auspiciorum minorum*** . و « حق استشارة الطالع الأكبر » كان من صلاحيات حكام المناصب العليا : كالدكتاتور ومراقبي الاحصاء والقناصل والقضاة العدليين . ومختلف هؤلاء الحكام ، ما عدا « مراقب الاحصاء والاخلاق العامة » كانوا يتمتعون بحق « السلطان » ، أما « حق استشارة الطالع الاصغر » فكان من نصيب حكام المناصب الدنيا كنظار الشؤون البلدية ووكلاء الشؤون المالية . ويجوز لاولئك الذين يتمتعون بـ « حق استشارة الطالع الاكبر » أن يستطلعوا ارادة الالهة في روما وخارج روما بينما كان لا يجوز للفئة الثانية اجراء هذا الطقس الا في مدينة روما . وامر استشارة الطالع كان الزاميا قبل القيام بالامور التالية : انتخاب الحكام ؛ عقد اجتماعات المجالس ؛ استلام الحاكم المنتخب لمنصبه ؛ سير الجيش ؛ بدء معركة ما .

(٢) أنظر أعلاه ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

تفض الانتخابات الى أي نقاش ، فان مشروع قانون واحد يتطلب عدة جلسات للتشاور والمذاكرة يمتنع الرئيس خلالها ، منذ زمن بعيد ، عن استخدام حقه في اعطاء الكلام لمن يريد ، ولكنه استخدم على الدوام حقه في أن يكون الخطيب الاخير . وتكرّس الجلسة الاخيرة للاقتراع فقط بالاجابة « بنعم » أو « لا » على « سؤال » الرئيس حول مجمل النص ، وحول عدة نصوص متكاملة أحيانا . وتتوقف عمليات الاقتراع منذ بلوغ الاكثرية ... ولا يصبح القرار نهائيا ، أخيرا ، الا اذا رضي الرئيس باعلانه : وهكذا ، فان القضاة ، على الرغم من تعيينهم عن طريق الانتخاب ، يعتبرون رسميا « خلائق الرئيس » ...

« ان هذه العجالة حول الجمعيات الرومانية ، على الرغم من ايجازها ، تفضي بنا الى استنتاجات لا يمكن أن تنقضها أية قاعدة أو أي عرف لم تتعرض لهما . فمن جهة يقلّل تنظيم وسير الجمعيات الشعبية الى حدّ بعيد من التأثير العملي الذي قد يكون في الظروف العادية للطبقات الاجتماعية الدنيا مع انها ، شأنها هنا كما في غير مكان ، أكثر عددا من طبقات الاغنياء . ومن جهة ثانية ، توازي سلطة القضاة سلطة الجمعيات في الدولة ، ان لم تكن متفوقة عليها . ولا ريب في أن هاتين الملاحظتين لا تسمحان قط ، في روما ، بالمساواة ، بين الجمهورية والديمقراطية ، حتى اذا فسرنا هذه الكلمة بمفهومها القديم . »[1] .

وقبل أن ننهي بحثنا عن مختلف المجالس الشعبية الرومانية ، نود أن نلقي نظرة سريعة على احدى مسائل التاريخ الروماني ، مسألة اشتدّ الخلاف حولها في الماضي وما زالت مطروحة على بساط البحث ونعني بذلك « جمعيات العوام » ***Concilia Plebis*** .

---

(١) **روما وامبراطوريتها** ، ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .

لقد رأينا سابقا[١] ، بانه نتيجة ل « اتفاق الجبل المقدس » سلّم الخواص للعوام بعدة أمور ، منها اعترافهم بشرعية المجالس التي كان قد شكلها العوام للدفاع عن مصالحهم الخاصة بطبقتهم • ولقد أضفنا بأن تلك المجالس قد اشتهرت فيما بعد باسم « مجالس القبائل » أو « الجمعيات القبلية » *Comitia tributa* .

وفي الحقيقة ، فان بعض المؤرخين لا يفرّقون بين « المجالس القبلية » و « جمعيات العوام »[٢] • ولا شك في أن هؤلاء ، قد اعتمدوا هذا الرأي ، من جرّاء ما آلت اليه بعض صلاحيات هاتين المؤسستين ، اعتبارا من عام (٢٨٧ ق•م) أي بعد اعلان قانون[٣] *Hortensia* ، ذلك القانون الذي طابق بين الاستفتاء *plebiscitum* والقانون *lex* • فحتى ذلك التاريخ (عام ٢٨٧ ق•م) ، كانت « الاستفتاءات » *plebiscita* تصدر عن « جمعيات العوام » ولا تقيدّ سوى أفراد طبقة العوام ، أي أن الخواص كانوا غير ملزمين بتطبيق بنودها • أما القوانين *leges* (التشريعية والقضائية والانتخابية) فلقد كانت تصدر عن المجالس المئوية والقبلية وكانت ملزمة لمختلف المواطنين ، من خواص وعوام •

ولكن بعد أن حدثت تطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية كبيرة خلال القرنين الخامس والرابع (ق•م) ، تطورات أدت الى أوضاع طبقية جديدة في المجتمع الروماني ، وخاصة بعد أن حصل العوام على حقوق وامتيازات كانت من نصيب الخواص فقط ، بعد هذه التطورات كلها ، جاء التشريع الجديد *Hortensia* ، ففقد التميز التشريعي القديم أهميته ، بعد اقرار المساواة القانونية بين الاستفتاء والقانون •

ولكن مع ذلك ، فلا نعتقد بأنه من السهل علينا قبول رأي أولئك الذين لم يفرقوا بين « المجالس القبلية » و « جمعيات العوام » ، اذ يجب أن

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٤١ •

(2) Cf. J. Gaudemet, *Institutions de L'Antiquité*, Sirey, Paris, 1967, p. 312.

(3) Liv., III, LIII, 4.

لا يغيب عن ذهننا بأنه ، وبعد اقرار التشريع الجديد ، فلقد ظلّت للعوام جمعياتهم الخاصة بهم ، حيث ينتخبون ممثليهم الخاصين بهم ، ومن أشهرهم كان « نقباء العوام • » اضافة الى « ناظري العوام »[١] •

III ـ سلطة المراقبة والاستشارة : ويقوم بهـذا الدور **مجلس الشيوخ** *Senatus* ويمثل « الظاهر الارستقراطي » وهو أقوى عنصر في الحياة السياسية الرومانية في الفترة الجمهورية •

عندما تطرقنا الى هذه المؤسسة في العهد الملكي[٢] ، قلنا بأن مجلس الشيوخ كان يتألف في بادىء الامر من رؤساء الاسر الكبيرة ***Patres*** • وأطلق على هذا المجلس اسـم ***Senatus*** نسبة الى ***Senes*** « الشيوخ » • وتضيف روايات الاخباريين القدماء ، بان الملك الاتروسكي (ترقوينيوس القديم) هو الذي سنّ طريقة تعيين أعضاء المجلس الذين اشتهروا حينئذ باسـم « الآباء المسجلين على اللائحة » *Patres Conscripti* .

ولقد رأينا أيضا دور تلك المؤسسة في انتخـاب الملوك ، وكذلك حقها في تعديل أو الغاء قرارات « مجلس الجماعات » وذلـك بمقتضى « سلطـــة الآبـــاء » ***patrum auctoritas*** والمحافظة على « تقاليد الاجداد » ***mos majorum*** .

ولقد ظلّ عدد أعضاء مجلس الشيوخ حتى مطلع القرن الأول(ق•م•) مقتصرا على (٣٠٠عضو) • ولقد أخذالقناصل في البدء ، عوضا عن الملوك ، يعينون أعضاء المجلس ، قبل أن تُسْنَد هذه المهمة الى « مراقبي الاحصاء والاخلاق العامة »[٣] بمقتضى قانون ***Ovinia*** [٤] •

---

(١) أنظر أعلاه ص ٢٨٨ •

(٢) أنظر أعلاه ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ •

(٣) أنظر أعلاه ص ٢٨٣ •

(٤) يحدد بعض المؤرخين تاريخ صـدور هـذا القانون بعـام (٣١٨ ق•م•) ، بينما يقول البعض الآخر بأن تاريخ التشريع يرجع الى نهاية القرن الثالث (ق•م•) •

وهكـذا ، فمنذ نهايـة القرن الرابع (ق٠م٠) ، أخـذ « مراقبو الاحصاء والاخـلاق العامـة ، يضعون ، كل خمس سنوات ، لائحة باسماء الشيوخ • وكان الشيخ اذا مـا أصبح عضوا في مجلس الشيوخ ، يحافظ على منصبه مدى الحيـاة ، ولكنه كان يحق نظريا ل « مراقبي الاحصاء والاخلاق العامة » في اقصاء من يريدون اقصاءه من أعضاء المجلس ، عندما يجرون الاحصاء العام كل خمس سنوات • ولكنهم كانوا لا يلجأون الى هذا التدبير الصارم الا في الحالات النادرة ، وخاصة لاعتبارات أخلاقية[1] •

ولقد جرت العادة بأن يبدأ « مراقبو الاحصاء والاخلاق العامة » أثناء عملية الاحصاء الخمسية ، بالتسجيل على لائحـة مجلس الشيوخ أسماء « الحكام » القدماء من قناصل وقضـاة عدليين ونظّار الشؤون البلدية • وكانـوا يضـعون في رأس اللائحة أسماء الدكتاتوريين و « مراقبي الاحصـاء والاخلاق العامة القدماء » •

وبموجب قانون *Ovinia* الذي نص أيضـا عـلى تعيين الحكام القدماء أعضاء في مجلس الشيوخ ، تمكن بعض ممثلي طبقة العوام المنتخبين لمختلف مناصب القضاء من التسرب الى داخل مجلس الشيوخ ، ولكن عددهم ظلّ محدودا ، اذ أن الاغلبية الساحقة من الحكام المنتخبين كانوا ، كما رأينا ، من فئة النبلاء •

ولقـد أخذوا يميزون بـين الشـيوخ العوام ، فأطلقوا عليهم اسم *conscripti* أي « المسجلين على اللائحة »[2] بينما

(1) Cf. E. Badian, *Notes on Roman Senators*, Historia XII (1963) 129-143; T. P. Wiseman, *Some Republican Senators*, CQ LVIII (1964) 122-133.
(2) Liv., II, I, 11.

احتفظ الشيوخ النبلاء بلقب *Patres* أي « الآباء »[١] • وبذلك أصبح مجلس الشيوخ في الواقع مجلس « قضاة قدماء » •

يجتمع مجلس الشيوخ بناء على دعوة أحد الحكام أو عدة حكام ، اذا كانوا يقومون بعملهم متضامنين كالقناصل والقضاة العدليين الخ •••

ويعقد مجلس الشيوخ جلساته عادة في قاعة Curia Hostilia ولكن قد يجتمع داخل معبد Concordia أو معبد الاله « جوبيتر » • ولا تُغْلَق أبواب قاعة الاجتماع مع أن الجلسات لم تكن علنية • ويترأس الاجتماعات الحاكم أو الحكام الذين دعوا المجلس الى الاجتماع • ولا يعطي مجلس الشيوخ مبدئيا سوى « المشورات » *Senatusconsulta* . ولكن أصول جلساته وهي على جانب كبير من الاختلاف عن أصول جلسات الجمعيات القبلية والمئوية ، تجعله على صعيد غير تلك الجمعيات وحين « يطلب الرئيس رأي أحد أعضائه ، يتمتع كل من هؤلاء بحرية القول التامة • ويحق للعضو أن يتكلم ساعات كاملة ، أي أن يلجأ الى العراقيل ويقترح التعديلات ويثير قضية لا يتعرض لها الرئيس ويطالب بأن تكرس لها جلسة مقبلة ، الخ • فاذا بدا على المجلس انه سيوافق على هذه المطالبة ، فسيكون دائما هنالك قاض على استعداد للموافقة عليها ، وهو الرئيس أخيرا ، وشأنه في الجمعية[٢] ، الذي يحدد موضوع الاقتراع ، وهو الذي يستطيع ، بعمله هذا ، أن يستخدم تحكمه استخداما عريضا ، فيرفض التعديلات مثلا أو لا يقبل الا بحلين متناقضين ويهمل

(1) Cf., A. Magdelain, *Auspicia ad Patres redeunt,* Mél. Bayet, 1964, 433 et 450-451.

(٢) ونعني هنا الجمعيات القبلية والمئوية (م٠م٠) ٠

كل الحلول الاخرى • ولكن الاقتراع فردي قد ترافقه ، في حالة الشك ، عملية احصاء دقيق بعد جمع الاعضاء في مكانين مختلفين من القاعة • ثم يأتي أخيرا دور وضع صيغة « المشورة » *Senatus - Consultum* ، فاذا كان الرئيس مسيطرا سيطرة كافية ، يتوجب عليه تعيين شيوخ يشتركون في عملية التحرير •••

« ••• فالمشورة تتضمن دائما التعبير المقيد « اذا ارتأى » أو « اذا ارتأوا » الذي يحفظ في الظاهر حرية القاضي أو القضاة في التقرير ، ولا يتفق هذا النص مع الطواعية الدائمة ـ باستثناء حالات نادرة وفاضحة ـ التي يبديها القضاة حيال نصائح يعملون بها كما لو كانت أوامر •

« وحتى ولو أخذنا بعين الاعتبار النفوذ السياسي والادبي الذين يدين به مجلس الشيوخ للتقليد ولانتخابه وللخدمات التي يؤديها للمدينة ، فلسنا ندرك مثل هذا الانقياد اذا لم نفكر بكل ما يرتبط به في حياة الرجل السياسي الروماني • فمن حيث ان الشيوخ ينعمون بالتأثير الاجتماعي الذي يوفره النسب والثروة ، فانهم يستخدمونه استخداما مجديا ابان الانتخابات[1] • وان مجلس الشيوخ بنوع خاص ، اذا ما نظرنا اليه كهيئة ، يجد في صلاحياته المعتادة أكثر من امكان لجعل مهمة القاضي سهلة ومجيدة أحيانا ، ولاقامة العراقيل أيضا في طريقه ، أقله بتشجيع معارضة أحد زملائه أو أحد المحامين عن حقوق الشعب وللحكم عليه بأن يبقى مغمورا • وهكذا تطبق على القاضي دائرة لا يستطيع النجاة منها الا بواسطة صراع سافر : فهو يدفع بمجاملاته ثمن رضى الاكثرية في مجلس الشيوخ• »[2]

---

(١) أي انتخابات مختلف القضاة لمناصبهم (م•م•) •

(٢) **روما وامبراطوريتها** ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ •

أما سلطات مجلس الشيوخ فتشمل في الواقع نطاقات متنوعة جدا • فهو الذي يسهر على القيام بالاحتفالات والطقوس الدينية ويقرر الاعياد ويحدد ميزانيتها ويجيز عبادة الآلهة الجدد و يصدر حكمه عليهم • ويشرف مجلس الشيوخ على السياسة الخارجية ويدير المفاوضات مع اعداء وأصدقاء روما كما يستقبل مندوبي وسفراء الدول الاجنبية ويجيبهم على أسئلتهم ويعيّن السفراء الرومان ويزودهم بالتعليمات : فليس بالتالي من حرب نظامية دون رأيه ، وليس من صلح أيضا اذا لم يوافق على بنود معاهدته • أما اعلان حالة الحرب ، فلم تكن من صلاحياته ، كما ذكرنا سابقا ، وهو الذي يمنح أو يرفض « موكب النصر » للقائد المنتصر • واليه يرفع قادة الاقاليم وحكامها تقاريرهم ويرفع اليه الشاكون من حكام الاقاليم مظالمهم • وهو الذي يحدد ، أثناء الحروب ، العدد اللازم للجيوش والاساطيل والوسائل المالية المقابلة •

وبموجب « سلطة الآباء » *patrum auctoritas* التي أبدلوها اعتبارا من عام (٣٣٩ ق•م) بـ « المشورة » consilium ، كان يحق له تعديل أو الغاء قرارات المجالس المئوية والقبلية •

كان الشيوخ « أوسع المواطنين ثروة وأعظم الملاكين العقاريين ، وانه كان لديهم « زبن »[١] عديدون سيطروا بواسطتهم على الناخبين ، وان مصاهرات متبادلة كثيرة قد جمعت بين عائلاتهم ، وان أبناءهم كانوا يدخلون « مراتب الامجاد » بقوة ويدخلونها وحدهم تقريبا ، وان « نبلاء » مجلس الشيوخ كانوا بمثابة طبقة ومناصب القضاء بمثابة وقف عليهم •»[٢]

---

(١) زبن أي أتباع (م•م•) •

(٢) **روما وامبراطوريتها** ، ص ١٥٠ •

سننتقل في القسم الثاني من الجزء الاول ، وبعد أن أنهينا دراسة مختلف مؤسسات الحكم في الفترة الجمهورية الاولى ، سننتقل الى دراسة التنظيم العسكري الروماني • سنتطرق الى المؤسسة العسكرية الرومانية والى الجيش الروماني ، الذي كان الاداة الفعالة في السيطرة على مختلف أنحاء ايطالية • ثم نذكر حروب الوحدة الايطالية ومختلف الوسائل التي لجأت اليها روما المنتصرة في تنظيم شبه الجزيرة الايطالية ، قبل أن تنتقل عاصمة ايطالية الى مناوشات وحروب طويلة الأمد في سبيل السيطرة على مختلف بلدان حوض البحر الابيض المتوسط •



بعض المراجع المشار اليها باختصار في البحث

CQ : *Classical Quarterly* (Oxford).

IURA : *Iura. Rivista Internazionale di Diritto Romano e Antico* (Catania - Napoli).

JRS : *Journal of Roman Studies* (London).

MH : *Museum Helveticum* (Basel).

NDI : *Novissimo Digesto Italiano* (Torino).

RE : *Real - Encyclopädie der classischen Altertumswissenschaft.* Pauly - Wissowa (Stuttgart).

RIDA : *Revue Internationale des Droits de l'Antiquité,* 3e série (Bruxelles).

وسنأتي على ذكر أهم المصادر والمراجع في نهاية القسم الثاني من الجزء الأول ، ثم نورد فهرس مواد الجزء الأول بقسميه الأول والثاني ٠

فهرس الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
المقدمة (هـ)	٢٩	ضو	ضد
المقدمة (ز)	٢٢	مولعون	مولعين
٤	٩	والعادات	والعادات ،
٥	٤	تيطس ليفيوس	تيطوس ليويوس
٥	٢١	تيطس	تيطوس
٥	٢٢	تيطس	تيطوس
٦	٤	تيطس	تيطوس
٧	٢	للتاريج	للتاريخ
٧	٢	Arche'ologie	Archéologie
٨	٢٠	لحكومية	لحكوميه
١٠	١٠	الخيرة	الأخيرة
١٠	٢٢	تيطس	تيطوس
١١	١٠	يوسيفيوس	يوسفوس
١١	١١	تيطس	تيطوس
١١	١٤	يوسيفيوس	يوسيفوس
١١	١٦	يوسيفيوس	يوسيفوس
١١	١٧	تيطس	تيطوس
١٢	٣	الحرمان	الجرمان
١٢	٦	وحاكماً	وعَيَّن حاكماً
١٢	٢٣	حياتهم	حياتها
١٣	١٦	كيكروبروتوس	كيكرو ، بروتوس
١٥	١٤	السيفريين	السيوريين

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	٨	٢٣٨ ،	٢٣٨ » ،
٢٠	٢٠	تمت	تمت"
٢٠	٢٥	لتيطس ليفيوس	لتيطوس ليويوس
٢١	١٣	الأخير	الأخيرة
٢٢	٨	تليمون	تيلمون
٢٣	٢	Determinisme	Déterminisme
٢٧	٢٦	an Grabe	am Grabe
٢٨	٥	الانتاج ٠	الانتاج ٠ »
٣٣	٥	الموسومة	الموسوعة
٣٣	٢٦	راجع صفحة ٢١	راجع صفحة ٣٠
٣٦	١٩	نقاطعاً	نقاطاً
٣٦	٢٢	حقاً ٠ ما	حقاً ، ما
٣٧	٣	فصل	قسم
٣٨	٧	ايطاليا	ايطالية
٤٠	٤	سيراكوزه	سيراكوسة
٤٠	٧	(بلا العجول)	(بلاد العجول)
٤٠	٨	بروتيوم ، المنطقة	بروتيوم Bruttium
٤١	١	الاســاطيرية في منشأ	الاسطورية عن نشوء ٠
٤١	١١	لخرافي	الخرافي
٤٢	٤	مقدماً	مقدساً
٤٥	٢٥	فينيقي قبل	فينيقي
٤٧	٧	وهبه	وهيبة
٤٧	٢٦	ص ٤١	ص ٤١ ــ ٤٢
٥٠	٢٦	ص ١٢	ص ٧
٥١	١٣	الاسلام	الاعلام

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥١	٢٨	مقاطق	مقاطع
٥٢	٦	أوروبة	أوروبة
٥٢	٢٢	يتجوز	يتجاوز
٥٢	٢٨	أخي	آخرى
٥٤	١٢	كاز	كانت
٥٥	٨	طابعها	طابعاً
٥٧	٩	وعوضاً من من أن	وعوضاً من أن
٥٧	١٠	الأوسجار	الأشجار
٥٧	١١	الماخية	المناخية
٦١	٢٠	لا شك بأن	لا شك في أن
٦٢	٢٣	١٨١٩	١٨٧٨
٦٤	٣	ومبسط	وبسيط
٦٤	١٦	آن	إن
٦٦	١٥	بسيطياً	بسيطاً
٦٦	١٩	*Osci*	ocre
٦٧	١٥	Ocre	ocre
٦٨	٧	خاطيء	خاطيء .
٦٩	٤	أرخيل	أرخبيل
٦٩	١١	ال الكهـــــوف الباليوبيتية	الكهوف الباليوليتية
٧٠	١٧	*Mésolithigue*	*Mésolithique*
٧١	٥	المصورة	المعمورة
٧٢	٥	بالرعم	بالرغم
٧٢	٢٤	*Mésolithigue*	*Néolithique*
٧٢	٢٧	الفردتين	المفردتين

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٣	١	واحد(٢)	واحد(١)
٧٥	٥	الآن • في	الآن في
٧٦	٢١	الجاعات	الجماعات
٧٧	٣	الحضائي	الحضاري
٧٧	٩	فشاهد	فشاهدها
٧٨	١٩	حول	حوّل
٧٩	١٥	نتيجة للحاجه	نتيجة للحاجة •
٨٣	١٨	(وموهنجو ــ دارو في السند	(وموهنجو ــ دارو)في السند
٨٣	٢٨	J. Marshall	(J. Marshall
٨٤	٣	أو	و
٨٤	١٧	انتقوا	انتقلوا
٨٤	٣٣	وجدت	وجد
٨٦	٢٢	انظر أعلاه ص ٥٤	انظر اعلاه ص ٥٥
٨٦	٢٨	(انظـر ص ٥٠ وما يتبع)	(انظر ص ٦٢ وما يتبع)
٨٧	١٥	لومباردية ، •••	(لومباردية ، •••
٩٠	٨	قطعت	قطعته
٩٠	١٨	، وسط ،	، وسيط ،
٩٣	٣	عظيمة	عظمية
٩٣	٢٢	صندون	صندوق
٩٣	٣١	بدان	بلدان
٩٤	٢	Les Baléares	(Les Baléares
٩٤	٢٧	انظر ص ٥٣ •	انظر ص ٥٤ •
٩٦	٢٤	انظر ص ٥٣ •	انظر ص ٥٤ •

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٠	٢٥	Pompeii....Cumae	Cumae....Pompeii
١٠١	٥	اار	آثار
١٠١	٦	مؤلفا	مؤلفات
١٠٢	٣	الايطالي .	الايطالي :
١٠٣	٢٢	٢ ص ٥٥)	٢ ص ٦٨)
١٠٤	٨	*Apulia....Iapygii*	*Iapygii....Apulia*
١٠٥	٢٧	*Venetie*	*Venetia*
١٠٦	٢٢	(V, 34, 36)	(V, XXXIV, 36)
١٠٧	٧	كلتيية	كلتيه
١٠٧	٨	النزوج	النزوح
١٠٧	١٧	بالاتروسكبين	بالاتروسكيين
١٠٨	٢١	تقع شرقي	تقع غربي
١١١	١٤	ويتجزأ	ويتجرأ
١١١	٢٥	Pierré	Pierre
١١٢	٢٠	حجر كبير	حجر كبيرة
١١٣	٢٠	تاكتييوس	تاكيتوس
١١٤	١٩	مقنعة .	مقنعة ،
١١٤	١٩	الأثرية	الأثرية .
١١٤	٢٥	ص ٢	ص ٥
١١٦	٢٤	ص ٨٣	ص ٩٨
١١٧	١٨	. حينما	، حينما
١١٨	٧	Cervteri	Cerveteri
١١٨	٩	شمال	شمالي
١١٨	١٣	حيث وجد	حيث عثر
١١٨	١٩	وزس	زوس

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٩	٢٤	Prosenna	Porsenna
١٢٠	١	تركوينيوس	ترقوينيوس
١٢٠	٢٤	Volaterrae....Pisa	Pisa....Volaterrae
١٢١	١٧	غير	عُشر
١٢١	٢٦	ص ٩٢ •	ص ٩١ •
١٢٢	٢١	مدى	مدن
١٢٣	٢٠	وهنا	حيث
١٢٤	١١	سيراكوزة	سيراكوسة
١٢٤	٢١	تركوينيوس	ترقوينيوس
١٢٥	٧	سيراكوزة	سيراكوسة
١٢٦	٢٥	تركوينيوس	ترقوينيوس
١٢٧	١	Veii	Veii ،
١٣٠	٤	شكل	تشكل
١٣١	٥	الحقول •	الحقول ،
١٣١	١٣	الارقاء(٢) •	الارقاء(١) •
١٣١	٢٥	ص ٦٣	ص ٧٩
١٣٣	٧	تيطس	تيطوس
١٣٣	٢٦	تيطس	تيطوس
١٣٥	١٨	ارتسقراطية	ارستقراطية
١٣٧	٣	الارتسقراطية	الارستقراطية
١٣٩	٢١	تاجروا بمحاستهن	تاجرن بمحاسنهن
١٤١	١٤	كبير	كبيراً
١٤١	١٦	لتي	التي
١٤٢	١٥	تخطيط ومخطط •	تخطيط • ومخطّط
١٤٢	٢٠	اخدودا	اخدوداً

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٢	٢٤	اقـرأ السطر كالتالي : « ··· ومن هنا أُطْلِقَ على باب المدينة اسـم Porta من الفعـل اللاتيني portare ، أي حمل ···	
١٤٣	١٩	وسينتهج	وسينهج
١٤٤	٣	الرواق القسم	الرواق والقسم
١٤٥	٩	هذا	هذه
١٤٥	١٩	انسال	أنسال
١٤٧	٢٧	De	de
١٤٩	١٥	حدث	حدا
١٥٠	١٣	واقفاً	واقفاً ،
١٥٢	٣	وكان	وكأن
١٥٣	١٣ـ٢٤	الجدارية	الجدارية
١٥٩	١٩	المستمعلة	المستعملة
١٦٧	٦	المستطيلة .	المستطيلة ،
١٦٩	٧	Angchises	Anchises
١٦٩	٢٢	بالطراودي	بالطرو ادي
١٦٩	٢٦	1 , 2	I , II
١٧٣	٢٥	1, 33, 6	I, XXXIII 6
١٧٧	١٩	إذا	إن
١٨٢	١٨	أولا	أولاد
١٨٥	٢١	الغربي	الشرقي
١٨٥	٢٣	*Salaria*	و *Salaria*
١٨٥	٢٦	ص ١٧٧ .	ص ١٨١ .
١٨٦	١٠	ولا سيّا	ولا سيّما
١٩١	١١	Jule	Iulus
١٩١	٢٧	ص ٧٣ و ص ١٦٧) .	ص ٧٣) .

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصــواب
١٩٣	٢٠	وبنسلهم ،	وبنسبهم ،
١٩٥	٦	من قضاء	عن قضاء
٢٠٠	١١	حث يمارس	حيث يمارس
٢٠٢	١٧	القديم) . بدأ	القديم) ، بدأ
٢٠٤	٢٦	الديمة	القديمة
٢٠٦	٢٢	Jule	Iulus
٢٠٩	٧	فهمهما	فيهما
٢٠٩	١٧	أجل ليس	« آجل ليس
٢٠٩	٢١	خاس به	خاص به
٢١٠	٣٠	الفرنسوعة	الفرنسيه
٢١٢	١	« ويتروويوس »	« ويتروويوس »
٢١٢	١٠	السايبيني	السابيني
٢١٣	١٤	« كاطو	« كاتو
٢١٥	١٠	يضاً	أيضاً
٢١٥	٢٢	23, 57, 6	XXIII, LVII, 6
٢٢٢	٤	وأعلامهم	وأعلاهم
٢٢٢	١٢	ويستهلك	وان لا يستهلك
٢٢٣	٣	*sublicius*	*Sublicius*
٢٢٧	١	الفصل الثالث	الفصل الثاني
٢٢٧	١٤	*sublicius*	Sublicius
٢٢٩	١٦	ايتالية	ايطالية
٢٣٢	٢٢	لو هبا	فيما لو هبا
٢٣٤	٤	والهرنيكون	والهرنيكيون
٢٣٤	٨	والفولكيين	والولسكيين

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصــواب
٢٣٤	١٥	(Caere	(Caere)
٢٣٨	١٤	في المدينة	بالمدينة
٢٣٨	١٦	اقرأ السطر (١٦) «واحتكروا لأنفسهم الأراضي ...» بعد السطر (٢٠) الذي ينتهي ب «للزراعة وآحتكروا لأنفسهم ... » .	
٢٤٠	١٢	النبلاء	العوام
٢٤٠	٢٢	. أسفرت	، فأسفرت
٢٤١	١	القبلية	الخاصة بهم .
٢٤٦	٨	الى	على
٢٥١	٢٤	droit droit compare	droit comparé
٢٥٥	٢٦	Fr. Weacker	Fr. Wieacker
٢٦٢	٥	الرومانيين	الرومانيون
٢٦٢	١٧	مقلتها	مقلتيها
٢٦٣	١٣	Tarracina	(Tarracina
٢٦٨	١٠	حدى	حدا



محمد محفل

تاريخ الرومان